الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية

كتاب في التصوف يشرح آداب الطريقة وأسرار الحقيقة

للعارف بالله تعالى

أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني

المتوفى ١٢٢٤هـ

المتن، وهو "المباحث الأصلية" للعارف بالله تعالى

الشيخ الفقيه ابن البنا السرقسطي

ضبطه وصححه ووضع حواشيه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي



الفتوحات الإلهية

في شرح المباحث الأصلية

(كتاب في التصوف يشرح آداب الطريقة وأسرار الحقيقة)

للعارف بالله تعالى

أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني

المتوفى ١٢٢٤ هـ

المتن، وهو "المباحث الأصلية" للعارف بالله تعالى

الشيخ الفقيه ابن البنا السرقسطي

ضبطه وصححه ووضع هوامشه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales @al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title	**Al-futūhāt al-ʾIlāhiyyah fī šarḥ al-Mabāḥiṯ al-ʾaṣliyyah**	**الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية**	**الكتاب**
Classification:	Sufism	: تصوّف	**التصنيف**
Author	: Ibn ʿAjībah al-Ḥasani	: ابن عجيبة الحسني	**المؤلف**
Editor	: Dr. ʿĀṣim Ibrāhīm al-Kayyāli	: د.عاصم إبراهيم الكيالي	**المحقق**
Publisher	: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah	: دار الكتب العلميـــة - بيروت	**الناشر**
Pages	: 384	: 384	**عدد الصفحات**
Size	: 17*24	: 17*24	**قياس الصفحات**
Year	: 2010	: 2010	**سنة الطباعة**
Printed in	: Lebanon	: لبنـــان	**بلد الطباعة**
Edition	: 1st	: الأولى	**الطبعة**



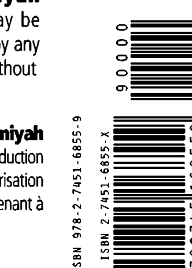
Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون،القبة،مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٠٠٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٠/١١/١٢
فاكس: ٠٠٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٣
ص.ب:٩٤٢٤-١١ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

Exclusive rights by © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah** Beirut-Lebanon No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah** Beyrouth-Liban Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة **لدار الكتب العلمية** بيروت-لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.



ISBN 978-2-7451-6855-9
ISBN 2-7451-6855-X

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

بسم الله الرحمٰن الرحيم القائل في حكيم تنزيله مخبراً عن استعداد الإنسان لكل من الخير والشرّ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البَلَد: 10].

والحمد لله الذي أمرنا بتزكية نفوسنا الأمارة بالسوء والنزاعة للشهوات الغريزية الدنية مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يُوسُف: 53]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشّمس: 9-10].

فالإنسان المسلم المطالب بالترقي من مقام الإسلام إلى مقام الإيمان ثم إلى مقام الإحسان ليصير مسلماً كاملاً ترقى من مقام إيمان التسليم والتقليد إلى إيمان الدليل والبرهان الذي يفيد العلم ثم إلى إيمان الشهود والعيان من عين اليقين إلى حق اليقين إلى حقيقة اليقين.

وصلِّ اللَّهم على سيدنا محمد عبدك ورسولك وحبيبك وخليلك ومصطفاك المبعوث رحمة للعالمين بما جاء لهم به من أحكام تزكية النفس من الرذائل وتحلية القلب بالفضائل وترقي الروح في الملكوت وفناء السر في الجبروت.

وبعد ففي إطار كتب التصوف الإسلامي الشارحة لكيفية ترقي السالك إلى الله تعالى من مقام العبادة إلى مقام القصد ثم إلى مقام الشهود والعيان مروراً بتلونات الأحوال.

كل ذلك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب وبالأدوية الشافية لها من هذه الأمراض لأنه ورث عن النبي ﷺ علوم وأسرار مقامات الدين الإسلامي الكامل الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان؛ الشريعة والطريقة والحقيقة؛ الملك والملكوت والجبروت. وهو الوارث المحمدي المشار إليه بقوله ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء**». وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ

عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: 28].

نقدم للقرّاء الكرام متن كتاب **(المباحث الأصلية)** الذي يتكلم عن آداب وأحكام سالك طريق الصوفية بأسلوب شعري للشيخ الفقيه الصالح الولي الناصح أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف التجيبي المعروف بابن البنا السرقسطي ووضعناه بين هلالين مكتوباً بالحرف الأسود. وشرحه كتاب **(الفتوحات الإلٰهية في شرح المباحث الأصلية)** الذي هو كما قال عنه مؤلفه: ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المُخل، يبين المعنى ويحقق المبنى للعارف بالله تعالى الشيخ أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسيني الأنجري المولود سنة 1160هـ والمتوفى سنة 1224هجرية ومن أهم مؤلفاته: «**البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**» و«**شرح الحكم العطائية**» وهما مطبوعان في الدار الأول بتحقيق الأستاذ عمر أحمد الراوي والثاني بتحقيقنا إضافة إلى هذا الكتاب الذي بين أيدينا.

هذا ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين ومن أنوار أسرار ما تعبدنا الله به على لسان نبيه ﷺ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزَاب: 21]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النّجم: 3-4]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النِّسَاء: 69]، لننال السعادة الحقيقية المتمثلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القِيَامَة: 22-23].

وكتبه الشيخ الدكتور

عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: 90]

يقول العبد الفقير إلى مولاه الغني به عما سواه أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني[1] لطف الله به وحباه:

الحمد لله بجميع المحامد الأصلية: القديمة والفرعية، فهو المحمود، وهو الحامد، لاختصاصه بنهاية الأحدية، الغني الكريم. الماجد القديم، الأزلي بلا بداية ولا أولية، الفرد الصمد، الواحد الباقي بلا نهاية ولا آخرية.

نحمده تعالى ونشكره على ما خوله وأولاه من أياديه الأبدية.

ونستعينه سبحانه ونستنصره على سلوك طريق حضرته القدسية.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، المنزه عن الشريك والغيرية، المقدس عن الحلول والاتحاد وثبوت السوية.

ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً رسوله ومصطفاه، المختص بالنزاهة الأصلية، من غير معاناة تخلية ولا تحلية، ﷺ، وعلى آله وأصحابه وعترته وأحزابه، المنزهين عن الأخلاق الدنية، الموصوفين بمحاسن الأخلاق السَّنية.

أما بعد كل شيء وقبله: فأعظم الوسائل إلى الله سلوك طريق الأدب والتربية، وأقرب ما يوصل العبد إلى مولاه صحبة العارفين ذوي الهمم العالية والتربية النبوية، والتأدب بين يدي المشايخ: أهل النزاهة والتصفية، على اختلاف مقاماتهم وأحوالهم من: عبّاد، وزهاد، وفقراء، وصوفية، والبحث عن سيرهم وأحوالهم،

(1) شارح المتن وهو الشيخ أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري (1160 ـ 1224 هـ = 1747 ـ 1809م) مفسر صوفي مشارك من أهل المغرب له كتب كثيرة منها (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد) و(أزهار البستان) وغير ذلك.
(الأعلام 1/ 245).

والتأدب بآدابهم المرضية، والتحقق بأخلاقهم وشيمهم الزكية، وأجلُّ من بحث عن سننهم الدارسة ومآثرهم السنية، الفقيه الصوفي ابن البنا السرقسطي في «مباحثه الأصلية»، فلله دره، لقد حرَّر فيه المعنى، وبَيَّن فيه المبنى، فبلغ فيه غاية القصد والمُنى، بلفظ مختصر بديع، ونظم سلس رائق رفيع، بَيَّن فيه أصول الطريق، وأظهر فيه معالم التحقيق، فأردت بعون الله أن أضع عليه شرحاً متوسطاً، ليس بالطويل المُمِل ولا بالقصير المُخِل، يبين المعنى، ويحقق المبنى، حملني عليه أمر شيخنا العارف الواصل المُحِّق الكامل سيدي محمد بن أحمد البوزيدي الحسيني، فأجبت رغبته، وأسعفت طلبته، عسى أن ينتفع به الخاص والعام، فيكون معراجاً وسلماً لارتقاء درجة المعرفة على التمام، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وحسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وسميته «**الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية**» نسأل الله تعالى أن يفتح على من كتبه أو طالعه أو حصله أو سمعه أو اعتقده أو اتعظ بما فيه، فتحاً مبيناً، ظاهراً وباطناً، بمنه وكرمه وبجاه سيد الخلق سيدنا ومولانا محمد نبيِّه وحبه آمين.

وهذا أوان الشروع في المقصود، مستمداً من بحر الكرم والجود، صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، واللواء المعقود، سيدنا ومولانا محمد المرسل إلى كل موجود، منبع العلوم والأنوار، ومفتاح خزائن المواهب والأسرار.

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فما فتح على العارفين من المواهب والأسرار، إلا رشحات من رشحات النبي المختار؛ إذ منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الأبرار.

وبعد هذا، فصاحب الكتاب هو: الشيخ الفقيه الصالح الولي الناصح أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف التجيبي، المعروف بابن البنا «السرقسطي» بضم القاف: نسبة إلى سرقسط، بلدة بتخوم الجزيرة، كان أصل نسبه منها، ثم تقرر بفاس، وبها توفي، قال الشيخ زروق رحمه الله: لم أقف على تاريخ وفاته، غير أن الظن الغالب أنه قريب العهد، قال: ولم يكن مشهوراً بالعلم، مع ما له فيه من القدم الراسخ الذي دل عليه كتابه، فعد من عجائب مدينة فاس، إذ كان من عامتها وألَّف، كابن أبي زرعة صاحب التاريخ.

كذا ذكر لي بعض عدول بلدنا عن صاحب له عدل ا هـ.

قلت: وكم من عارف كبير بقي تحت أستار الخمول، حتى لقي الله تعالى، بل كلما عظم قدر العارف عند الله، خفي أمره على الناس، لأن الكنوز لا تكون إلا مدفونة، فإن ظهرت نهبت وتشتت أمرها وذهب سرها، وابن البنا هذا غير صاحب الحساب، فإنه ابن البنا الصوفي، توفي بمراكش سنة إحدى وعشرين من القرن الثامن، كما ذكره صاحب «الجذوة».

[البسملة]

ثم ابتدأ صاحب الكتاب كتابه ببسم الله تبركاً وامتثالاً، فقال:

(بسم الإله في الأمور أبدأ إذ هو غاية لها ومبدأ)

قلت: ما زالت أكابر الكتاب والمصنفين يبتدئون في أول كتبهم ببسم الله، اقتداءً بالكتاب العزيز، فإن الصحابة أجمعت على افتتاح المصحف ببسم الله الرحمٰن الرحيم، على اختلافٍ بينهم في كونها آية أو غير آية، فذهب بعض الصحابة إلى أنها آية، وبه أخذ الشافعي رضي الله عنه ومن تبعه، حتى أفتى ببطلان صلاة من تركها، وذهب آخرون إلى أنها غير آية، وبه أخذ مالك ومن تبعه، واحتج الشافعي بأن الصحابة من شدة تحفظهم وتحرِّيهم لا يُدخلون في المصحف إلا ما هو منه، واحتج مالك بقول كثيرٍ من الصحابة ممن صلى مع النبي ﷺ، قال: فكان يفتتح الصلاة بالحمد لله رب العالمين، ولم يقل بسم الله الرحمٰن الرحيم، والخلاف مذكور في كتب الفقه.

وكان الإمام المازري يقرؤها سراً، خروجاً من الخلاف، وفي الحديث: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمٰن الرحيم فهو أقطع**»[1] وفي رواية «فهو أبتر» وفي رواية «فهو أجذم» وحاصلها أنه مقطوع البركة ممحوق من كل خير، غير كاملٍ حساً أو معنىً، وفي رواية «بذكر الله» فيعم البسملة وغيرها، وبها جرى العمل، وفي حديث آخر عنه ﷺ قال: «من أراد أن يحيى سعيداً ويموت شهيداً فليقل عند ابتداء كل شيء بسم الله»، وقوله: «في الأمور» يتعلق بقوله أبدأ بمعنى أشرع و«أل» عوض من المضاف، أي أشرع في أموري كلها مستعيناً بالله إذا قلنا الاسم عين المسمى أو مقحم، أو أشرع في الأمور التي أحاولها متبركاً باسم الله،

---

(1) أخرجه ابن ماجة (نكاح 19) وأبو داود (أدب 18).

ولا شك أن من استعان بالله كان معاناً في جميع أموره، ومن لم يستعن به كان مخذولاً في كل أموره. ولله در القائل(*):

إذا لم يُعِنْكَ الله فيما تُريده فليس لمخلوق إليه سبيلُ
وإن هو لم يُرشِدك في كلّ مسلك ضَلَلْتَ ولو أن السِّماكَ دليلُ

ومن تبرك باسم الله كانت البركة مصحوبة معه، فلا يلحقه نقص ولا خلل، وقوله: «**إذ هو غاية لها ومبدأ**» تعليل لافتتاحه باسم الله، أي إنما أبتدىء في أموري بالله لأنه مظهرها أولاً، ومبطنها ثانياً، فظهورها منه، وانتهاؤها إليه، ومبدؤها منه وغايتها إليه، وإنما قدم الغاية مع تأخرها في الفعل، للوزن، ولما اختلفت روايات الحديث المتقدم، فبعضها «**لا يبدأ فيه ببسم الله**» وفي بعضها «**لا يبدأ فيه بالحمد لله**»، وفي بعضها زيادة، «**ولا بالصلاة على النبي ﷺ**»[1]

[الحمدلة]

جمع الشيخ بينها فبدأ بالرواية الثانية فقال:

(الحمد لله ولي الحمد هدى إلى الحق ونهج الرشد)

الحمد في اللغة هو: الوصف بالجميل على قصد التعظيم والتبجيل، سواء تعلق بالفضائل، وهي الأوصاف اللازمة، أو بالفواضل، وهي الأوصاف المتعدية والأفعال السنية، ولا بد أن يكون الباعث عليه أمراً اختيارياً، وإلا كان مدحاً، فالحمد يكون على الأوصاف الاختيارية أو ما في معناها، كالعلم والكرم والشجاعة، سواء كان بالاختيار أو غيره، والمدح يكون على الأوصاف اللازمة، كحسن الخد ورشاقة القد، سواء كان باللازمة أو غيرها، **والحاصل** أن السبب الحامل على الحمد لا يكون إلا اختيارياً، والسبب الحامل على المدح لا يكون إلا لازماً.

وأما الحمد في العرف؛ فهو: فعل يشعر بتعظيم المنعم، كان باللسان أو بالأركان، أو بالجنان، فمورد الحمد في اللغة خاص، وهو اللسان، لأن الثناء لا

(*) القائل هو أبو فراس الحمداني: الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي، شاعر أمير ابن عم سيف الدولة. ولد سنة 320هـ وتوفي سنة 357هـ [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي أبو ظبي].

(1) أخرجه ابن ماجة (نكاح 19) وأحمد بن حنبل (2، 359).

يكون إلا باللسان، ومتعلقه عام، وهو النعمة وغيرها، ومورد الحمد في العرف عام، وهو اللسان وغيره، ومتعلقه خاص، وهو صدور النعمة من المحمود.

وأما الشكر في اللغة فهو: فعل ينبىء بتعظيم المنعم، فهو مرادف للحمد العرفي لغة.

وأما الشكر في العرف، فهو: صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من: السمع، والبصر، وغيرها إلى ما خلق لأجله، فهو أخص من الجميع.

والكلام على الحمد والشكر يطول، فلنقتصر على ما ذكرنا، إذ ليس للفقير حاجة إلا في معرفة الشكر، وأحسن ما قيل فيه قول إمام الطائفة «أن لا يعصى الله بنعمه» وإذا لم يعص بنعمه فقد صرفها في طاعته، وقوله: «**وليّ الحمد**» أي متوليه وفاعله، فهو الذي تولى حمد نفسه بنفسه، إذ هو الغني بذاته عن أن يحتاج إلى من يحمده، بل هو الحامد والمحمود، إذ لا فاعل سواه، وقيل: «**وليّه**» مستحقه، وقوله: «هدى إلى الحق» أي هدى خلقه إلى معرفة الحق من الباطل؛ قال تعالى:

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: 32].

فكما تولى حمد نفسه بنفسه، تولى هداية عباده إلى معرفته.

أو تقول: كما حمد نفسه بنفسه، عرّف نفسه بنفسه، ولذلك حذف مفعول «هدى» ليدل على العموم، فيصدق بالشريعة والحقيقة، أي هدى خلقه إلى الحق على صدقه بالشريعة، أو هدى مظاهره وأنواره إلى الحق على صدقه بالحقيقة، وهذا كقول الششتري:

أنتم دللتم عليكم منكم ولكم ديمومة عبّرت عن غامض الأزل

والنهج والمنهاج، هو: الطريق الموصل إلى الحق، **والرشد** هو: مصادفة الحق والصواب، لأن الرشد بالضم، والرشد بالفتح هو الصواب، والصواب هو مصادفة عين الحق، وكأنه قال: هدى خلقه إلى معرفته وإلى الطريق الموصلة إليه، فقوم هداهم إلى معرفته من غير سلوك طريق، وهم المجاذيب، سواء رجعوا للسلوك أم لا، وهم الذين أشار إليهم بقوله: «**هدى إلى الحق**» أي هداهم إلى معرفة الحق، وقوم هداهم إلى طريق معرفته، ثم عرفهم به، وهم أهل السلوك أولاً، ثم الجذب ثانياً، وهم المشار إليهم بقوله: «**ونهج الرشد**» أي هداهم إلى طريق الصواب، ثم فتح في وجوههم الباب، فبلغوا منية الألباب، والله أعلم بالحق والصواب.

[الصلاة على النبي ﷺ]

ثم أشار إلى الرواية الثالثة في الحديث، وهي: الأمر بالصلاة على النبي ﷺ في الابتداء، فقال:

(ثـــم صـــلاة الله والـــســـلام عـلـى الـنـبـي مـا انـجـلا الـظـلام)

قلت: الصلاة من الله على حبيبه، هي: محبته وعطفه عليه، وتقريبه واجتباؤه إليه، والسلام هو طيب تحيةٍ وإكرام، وتمام إحسانٍ وإنعام.

والناس في الصلاة على رسول الله ﷺ على ثلاثة أقسام: **قسم يصلون على صورته البشرية**، وهم أهل الدليل والبرهان، فهم يشخصونها في قلوبهم في حال الصلاة عليه، فإذا أكثروا من الصلاة بالحضور ثبتت الصورة الكريمة في قلوبهم، فيرونه في المنام كثيراً، وربما تتشكل روحه الكريمة على صورة جسده الطيب، فيرونه يقظة.

وقسم يصلون على روحه النورانية، وهم أهل الشهود من السائرين، فهم يصلون على نوره الفائض من الجبروت، فيشاهدونه في غالب أوقاتهم على قدر حضورهم وشهودهم.

وقسم يصلون على نوره الأصلي، الذي هو نور الأنوار، وهم أهل الرسوخ والتمكين من أهل الشهود والعيان، وهؤلاء لا يغيب عنهم النبي ﷺ طرفة عين، ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: «لو غاب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما أعددت نفسي من المسلمين» إشارة إلى رسوخه وتمكنه في الحضرة، ورجوعه إلى البقاء بشهود الواسطة، وهؤلاء أفكارهم تجول في الملكوت، وأرواحهم متصلة بالجبروت، فقد اجتمع فيهم ما افترق في غيرهم، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**كل الصيد في جوف الفرا**»[1] و«الفرا» هو حمار الوحش، وهو أسمن الصيد، فمن ظفر به فكأنما ظفر بالصيد كله، وكما قال الشاعر[*]:

وليسَ على الله بمُستنكر أن يجمعَ العالَمَ في واحد

---

(1) أخرجه الفتني في (تذكرة الموضوعات 168) والعجلوني في (كشف الخفاء 2/ 177).

(*) القائل هو أبو نواس: الحسن بن هانيء بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء، شاعر العراق في عصره. ولد سنة 146هـ وتوفي سنة 198هـ [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي أبو ظبي].

وقوله: «ما انجلا الظلام» «ما» ظرفية، أي مدة انجلاء الظلام حساً ومعنىً، وانجلاؤه إما بظهور النور الحسي على الظلمة الحسية، وهذا مستمر إلى يوم القيامة، وإما بظهور نور الهداية على ظلمة الغواية، أو نور اليقظة على ظلمة الغفلة، أو نور شموس العرفان على ظلمة الأكوان، أو نور الترقي في المواهب والأسرار على ما قبله من المقامات والأنوار، وهذا الأخير لا ينقطع أبداً، وكلام الناظم محتمل، والله تعالى أعلم.

[الفقير والصوفي]

ثم شرع في المقصود فقال:

(يا سائلاً عن سنن الفقير   سألت ما عز عن التحرير)

قلت: السنن بالضم جمع سنة، وهي الطريقة، والسنن بالفتح مفرد، بمعنى الطريق، ويصحان هنا، والفقير في الاصطلاح هو: المتوجه إلى الحق على بساط الصدق.

وقال سهل رضي الله عنه: الفقير الذي لا يَمْلُكُ ولا يُمْلَكُ ولا يرى غير الوقت الذي هو فيه، وقال السهروردي: الفقر أساس التصوف، وبه قوامه، وقال غيره: الفقر صفة مهجورة تنفر منه الطباع وتفر منه النفوس، وهو من الأسباب التي تجلس العبد بين يدي الله على بساط الصفا.

واختلف: هل الفقير أبلغ من الصوفي، لأن الفقير من لم تبق فيه بقية، بخلاف الصوفي، **أو الصوفي أبلغ**، لأن الصوفي من صفت أحواله ولم يبق فيه كدر أصلاً، بخلاف الفقير.

والتحقيق أن الفقير هو: المتوجه إلى الله بأنوار التوجه، والصوفي له أنوار المواجهة، فالصوفي أبلغ من الفقير، لأن الصوفي واصل، والفقير راحل، الصوفي صفت له الزُول، والفقير بين الطلوع والنزول، الصوفي لا يرى في الدارين غير الله، ولا يشهد مع الحق سواه، قد سُخِّرَ له كل شيء، ولم يُسَخَّر هو لشيء، يأخذ النصيب من كل شيء، ولم يأخذ منه النصيب شيئاً، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه من الأوصاف الكاملة، بخلاف الفقير، فهو في طريق المجاهدة، فنهاية الفقير بداية الصوفي، والله تعالى أعلم.

وقيل: هما شيء واحد، وهو ظاهر المصنف في مواضع من هذا الكتاب،

وسنن الفقير هي: طرقه التي يسلكها، وآدابه التي يتأدب بها، وعلى نسخة فتح السين يكون المعنى: يا سائلاً عن طريق الفقير التي يسلكها حتى يصل إلى ربه، ونسخة الضم أحسن، ويكون أشار بالسنن إلى شروط الفقير وآدابه، لأنها من طرقه التي يسلكها ويمر عليها.

أما شروطه فثمانية: قصد صحيح، وصدق صريح، وآداب مرضية، وأحوال زكية، وحفظ الحرمة، وحسن الخدمة، ورفع الهمة، ونفوذ العزيمة.

وآدابه خمسة: خلع العذار، والذل والانكسار، والبذل والإيثار، وصحبه العارفين الأبرار، وبذل المجهود في الطاعة والأذكار.

أما القصد الصحيح فهو: أن يكون مراده بالدخول في صحبة الشيخ: تحقيق العبودية، والقيام بوظائف الربوبية دون كرامات ولا تحصيل مقامات، ولا إدراك درجات، ولا طلب حظوظ نفسانية.

وأما الصدق فالمراد به هنا التصديق بسر الخصوصية عند من يصحبه، وهو أساس الطريق، فمن لا صدق له لا سير له، ولو بقي في حوز الشيخ ألف عام، فالصدق هو: معرفة السر، فكل واحد يعرف من سر الشيخ على قدر صدقه فيه، وهو أيضاً الثمن الذي ينفق به الفقير على روحه وقلبه وسره، فمن لا صدق له في الشيخ لا ينفق من سره شيئاً، وإليه أشار الشيخ الشرقي رضي الله عنه بقوله:

(من لا صدق ما عنده باش ينفق   من لا حقق ما جاب أمارا يا بابا)

وأما الآداب فهي مفتاح الباب، فمن لا آداب له لا دخول له، ومن أساء الآداب مع الأحباب طرد إلى الباب، ثم إلى سياسة الدواب.

وقد كان بعض الأولياء يأمر من يريد الدخول معه بصحبة أهل المخزن حتى يتأدب، وسيأتي الكلام على الآداب في محله إن شاء الله، فمن لم يتأدب مع الشيوخ والإخوان لا تزيده صحبتهم إلا الحرمان.

وأما الأحوال الزكية فهي أن تكون موافقة للشريعة، بحيث لا يؤذي أحداً من الناس، فالفقير الذي ليست له أحوال، لا يبلغ مقامات الرجال أو السير إلى حضرة القدوس إلا بمخالفة النفوس، ولولا ميادين النفوس (أي محاربتها) ما تحقق سير السائرين، فالمراد بالأحوال ههنا هي خرق عوائد النفس؛ وتخريب ظاهرها بتعاطي ما يسقط جاهها وعزها من الأمور المباحة، وهذه هي الأحوال المرضية الصافية،

وأما الأحوال التي تخالف الشريعة، وهي الأحوال الظلمانية، فلا يتنور صاحبها، بل لا تزيده إلا ظلمة، فكما لا يصح دفن الزرع في الأرض الرديئة، كذلك لا يجوز الخمول بحالة غير مرضية، فالأحوال الصافية هي التي لا ضرر فيها لأحد، ولا تخالف أمر الشريعة.

وأما قصة لص الحمام، فهي حال غالبة عليه، لا يقاس عليها.

وأما حفظ الحرمة فتصدق بحرمة الشيخ حاضراً، أو غائباً، حياً أو ميتاً، فلا يجلس في موضع يذكر فيه بسوء أو ينتقص منه، ويصدق بحرمة الإخوان، فيتحمل أذاهم، ويصبر على جفاهم، ويعظم كبيرهم، ويرحم صغيرهم، فمن كسره الإخوان لا يجبره الشيخ، ومن كسره الشيخ قد يجبره الإخوان، ويصدق بحرمة جميع المسلمين، وخصوصاً العلماء والصالحين، فلحومهم سموم.

وقد قالوا: أركان التصوف مجموعة في أربعة أشياء، وهي: كف الأذى، وحمل الجفا، وشهود الصفا، ورمي الدنيا بالقفا.

وأما حسن الخدمة، فتصدق أيضاً بخدمة الشيخ، وخدمة الإخوان، وفي الحديث: «**سيد القوم خادمهم**»[1] وتصدق بخدمة الحق، وهي المقصود الأعظم.

وأما رفع الهمة فهو: أن لا يكون قصده طلب الدنيا والآخرة، بل يكون قصده معرفة مولاه، كما تقدم في القصد الصحيح، وربما يغني عنه.

وأما نفوذ العزيمة فمعناه: أن تكون عزيمته دوام السير إلى تحقيق الوصول إلى معرفة مولاه، لا قصد التبرك والحرمة، وإذا عزم على شيء أنفذه.

وأما خلع العذار، فهو خلع الأوصاف المذمومة وإبدالها بالأوصاف المحمودة، وقيل: هو خلع لباس العز والاشتهار، وإبداله بلباس الذل والانكسار.

وقيل: هو خلع الرجل من نعل الكونين، فيرجع إلى رفع الهمة.

والعذار في اللغة هو: ما يزين به وجه الفرس، ففي الحديث عنه ﷺ: «الفقر

(1) أخرجه السيوطي في (الحاوي للفتاوي 2/ 101) والتبريزي في (مشكاة المصابيح 3925) والمتقي الهندي في (كنز العمال 17516، 17518، 17519، 24834، 24835) والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد 10/ 187) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة 95) والعجلوني في (كشف الخفاء 1/ 561، 562).

أزين بالعبد من العذار الجيد على خد الفرس»[1] ذكره التجيبي.

وأما الذل والانكسار فهو الخضوع لله، ولا يتحقق إلا بالخضوع لعباد الله، فلا يتحقق ذل الفقير حتى يظهر بين أبناء جنسه.

والحاصل: أنه لا بد من الذل: قلباً وقالباً، كما قال ابن الفارض:

تذلّل لمنْ تهوَى فليسَ الهوَى سهلُ إذا رضيَ المحبوبُ صحَ لكَ الوصل

وقال آخر:

وما رمتُ الدخولَ عليه حتى حللتُ محلةَ العبدِ الذليل
وأغضيتُ الجفونَ على قذَاها وصُنت النّفس عن قالٍ وقيل

وأما البذل والإيثار فمرجعه إلى سخاوة النفس، وهو شرط في الفقير، فقد قالوا: «من أقبح القبيح، صوفي شحيح» وعلامة خروج الدنيا من القلب: بذلها عند الوجد، والصبر عنها عند الفقد.

والزهد عند المحققين: إذا وجدوا آثروا، وإذا فقدوا شكروا.

وأما صحبة العارفين فهي من الأمور المؤكدة، وذكرها مع الشروط أليق، «**فالمرء على دين خليله**»[2]، وفي الحكم: لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله. وليست طريق السلوك بطريق العزلة، بل هي طريق الصحبة والاجتماع والاستماع والاتباع، «فالجمع رحمة والفرقة عذاب» وفي الحديث: «**يد الله مع الجماعة**»[3].

أي الدالين على الله ـ أو ما يقرب إلى الله.

وأما بذل المجهود في تعمير الأوقات في الطاعات والأذكار، فهذا هو المقصود من الطريق، والأهم عند أهل التحقيق، فكل ساعة تأتي على الفقير لا يذكر الله فيها كانت عليه حسرة في الدنيا والآخرة، فأوقات الفقير دائرة بين ذكر، أو مذاكرة، أو فكرة، أو نظرة.

---

(1) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 8/ 218، 10/ 276) والعجلوني في (كشف الخفاء 2/ 131).

(2) أخرجه الترمذي (زهد 45).

(3) أخرجه الترمذي (فتن 7) والنسائي (تحريم 6).

أو تقول: الفقير ليس له فكرة ولا هدرة إلا في الحضرة، أو ما يوصل للحضرة، وما سوى هذا بطالة وفترة، وبالله التوفيق. وقوله: «سألت ما عز»، أي غلب وامتنع تحريره، أي فتحه واستخراج المقصود منه، وإنما امتنع تحريره لما دخله من التخليط الذي ألحقه به أهل التوسم في هذه الأزمنة، مع خفاء مراده ومداركه، لأن هذا العلم ليس هو لقلقة اللسان، وإنما هو أذواق ووجدان؛ فمن سأل تحريره بعبارة اللسان فقد سأل عن شيء عزيز الإتيان، ممنوع البيان، وسيأتي الكلام عليه عند قوله: (**إياك أن تطمع أن تحوزه من دفتر أو شعر أو أرجوزة**).

[موت علم التصوف بموت أهله]

ثم بين وجه عزته، فقال:

(إن الذي سألت عنه مات — وصار بعد أعظُماً رفات
فطمست أعلامه تحقيقاً — فلم تجد بعد لها طريقاً)

يعني أن الطريق الذي سأل عنه السائل مات بموت أهله، واندرس خبره، وصار كأنه شخص مات ورمم، وصار عظاماً رفاتاً، وفي الحديث:

«إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»(1)

ولا فرق بين العلم الظاهر والباطن في كونه يذهب بذهاب أهله.

وقوله: «فطمست أعلامه» أي ما يدل عليه ويوصل إلى تحصيله، فأعلام الشيء ما دل على وجوده، ومنه سمي الكون عالماً، لدلالته على صانعه، فكأن علم التصوف قد طمست طرقه الموصلة إلى تحقيقه، فلم تبق له طريق توصل إليه، وهذا معنى قوله: «فلم تجد بعد» أي بعد طمس أعلامه «لها» أي لتلك الأعلام والآثار التي توصل إليه «طريقاً» لتسلكها حتى تبلغك إلى تحقيق ما سألت عنه.

ومضمن كلامه: أن الصوفية المحققين السالكين على منهاج المتقدمين قد قلوا جداً، حتى كأن علومهم ماتت وبليت، وصارت رميماً، وطرقهم قد طمست،

---

(1) أخرجه البخاري (علم 34) ومسلم (علم 13) والترمذي (علم 5) وابن ماجة (مقدمة 8) والدارمي (مقدمة 26) وأحمد بن حنبل (2، 162، 190).

وأذواقهم قد اندرست، ولم يبق على منهاجهم إلا القليل، ومثل ما قاله الناظم قاله من قبله، ففي كل عصر يقول أهله: قد ذهب التصوف، وذهب أهله، لما يرون ما انكب عليه الجاهلون وما استجلبه المدعون.

قال الجنيد رضي الله عنه: علمنا هذا الذي نتكلم فيه قد طوي بساطه منذ عشرين سنة، وإنما نتكلم في حواشيه.

وكان أيضاً يقول: قد كنت أجالس قوماً سنين يتحاورون في علوم لا أفهمها ولا أدري ما هي، وما بليت بالإنكار قط، كنت أتقبلها وأحبها من غير أن أعرفها.

وكان أيضاً يقول: كنا نتجارى مع إخواننا قديماً في علوم كثيرة ما نعرفها في وقتنا هذا، ولا سألني عنها أحد، وهذا باب كأنه أغلق وردم ا هـ.

وقال في «قوت القلوب»: قال بعض علمائنا: أنا أعرف للمتقدمين سبعين علماً كانوا يتحاورونها ويتعارفونها في هذا العلم، لم يبق منها اليوم علم واحد، قال: وأعرف في زماننا هذا علوماً كثيرة من: الأباطيل، والغرور، والدعاوىٰ، قد ظهرت وسميت علوماً، ثم قال: وكان إمامنا سهل يقول: بعد سنة ثلاثمائة لا يحل أن يتكلم بعلمنا هذا. يعني لقلة أهله، لأنه يحدث قوم يستمعون الخلف ويتزينون بالكلام، تكون مواجيدهم، لباسهم، ومعبودهم بطونهم، وحليتهم كلامهم.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري[1] رضي الله عنه في صدر رسالته: «اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم، ولم يبق في زماننا من هذه الطائفة إلا أثرهم»، وفي معناه قيل:

لا والذي حجتْ قريشُ بيتَه	مستقبلينَ الركنَ من بطحائِها
ما أبصرتْ عيني خيامَ قبيلة	إلا بكت أحبتي بفنائها
أما الخيامُ فإنها كخيامِهم	وترى نساءَ الحي غيرَ نسائها

قال ابن العربي الحاتمي رضي الله عنه: «قال هذا في زمانه حيث أدرك من تزيا بزي القوم وخالفهم في باطنه، وأما اليوم فلا خيام ولا نساء»، ثم قال الأستاذ رحمه الله: «حصلت الفترة في الطريقة؟ لا، بل قد اندرست الطريقة بالحقيقة،

---

(1) هو عبد الكريم القشيري كُني (بأبي القاسم) لُقب بالنيسابوري القشيري ولد في شهر ربيع الأول 376 هـ/ 986م ببلدة استوا، توفي في نيسابور 16 ربيع الآخرة 465 هـ/ 1703م) ومن مؤلفاته (أحكام الشرع، آداب الصوفية، التوحيد النبوي) وغير ذلك الرسالة القشيرية5ـ 15.

مضت الشيوخ الذين كان لهم اهتداء، وظل الشباب الذين لا لهم بسمتهم وسيرتهم اقتداء، زال الورع وطوى بساطه، وقوي الطمع واشتد رباطه، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة. فعدوا قلة المبالاة أوثق ذريعة، رفضوا التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام، وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادة، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميادين الغفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات، وقلة المبالاة»، إلى آخر كلامه.

وكذلك قال أبو مدين في رائيته رضي الله عنه:

واعلمْ بأنَّ طريقَ القومِ دارسةٌ وحالُ مَنْ يدَّعيها اليومَ كيفَ ترَى!؟

وكذلك قال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنه: من تونس إلى وادنون، لا تجد من يتكلم في هذا العلم: إلا رجلاً أو رجلين، كناية عن قلة وجود المحققين، ولا يدل هذا على انقطاعهم، ففي كل زمان رجال يرحم الله بهم عباده، فالعدد المعلوم لا ينقطع حتى ينقطع الدين.

قال في «لطائف المنن»: «سئل بعض العارفين عن أولياء العدد: أينقصون في زمن؟ فقال: لو نقص منهم واحد ما أرست السماء قطرها، ولا أبرزت الأرض نباتها.

وفساد الوقت: لا يكون بذهاب أعدادهم؛ ولا بنقص أمدادهم، ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله وقوع اختفائهم مع وجود بقائهم، فإذا كان أهل الزمان معرضين عن الله عز وجل، مؤثرين لما سوى الله، لا تنجع «أي لا تنجح» فيهم الموعظة، ولا تميلهم إلى الله التذكرة، لم يكونوا أهلاً لظهور أولياء الله فيهم.

ولذلك قالوا: أولياء الله عرائس، ولا يرى العرائس المجرمون، ثم قال: وقد قال ﷺ:

«إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه: فعليك بخويصة نفسك»[1]

فسمعوا وصية رسول الله ﷺ، فآثروا الخفاء، بل آثره الله لهم، مع أنه لا بد أن يكون منهم في الوقت أئمة ظاهرون قائمون بالحجة، سالكون المحجة؛ لقول

(1) أخرجه أبو داود (ملاحم 17) والترمذي في (تفسير سورة، 5، 118) وابن ماجة، (الفتن 21).

رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من ناوأهم إلى قيام الساعة**»[1]

وقد قال عليّ كرّم الله وجهه في مخاطبته لكميل بن زياد: «اللهم لا تخل الأرض من قائم لك بحجتك، أولئك الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، قلوبهم معلقة بالمحل الأعلى؛ أولئك خلفاء الله في عباده وبلاده. آه. آه. واشوقاه إلى رؤيتهم» اهـ.

وروى الإمام الرباني محمد بن علي الترمذي[2]، يرفعه إلى ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ:

«**أمتي كالمطر لا يدري أوله خير أم آخره**»[3]

وروى أيضاً يرفعه إلى أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير أمتي أولها وآخرها، وفي وسطها الكدر**»[4]

قلت: وقد ظهرت هذه الطائفة «أعني الصوفية المحققين، في زماننا هذا وانتشرت معي والحمد لله انتشاراً كثيراً منذ قدم شيخ شيخنا مع شيخه إلى «بني زروال» ففاض بحرهما، ثم انتشر في البلاد، فلا تجد مدينة ولا قبيلة إلا وفيها عارفون وأولياء محققون، إلا قليلاً ممن بعد منهم، فقد جددا الطريقة بعد دروسها وأشرقت على يديهما شموس الحقيقة بعد خمودها، وكثر اللهج بذكر الله، وانقلب كل العباد إلى الله، فجزاهما الله عن المسلمين خيراً، فقد صدق الله بهذه الطائفة قول رسول الله ﷺ: «**خير أمتي أولها وآخرها**».

وفي حديث آخر: «**مثل أمتي مثل حديقة قد قام عليها صاحبها، فاجتاب رواكيها وهيأ مسالكها، وحلق سعفها، فأطعمته عاماً فوجاً، ثم عاماً فوجاً؛ فلعل آخرها طعماً يكون أجودها قنواناً؛ وأطولها شمراخاً، والذي بعثني بالحق ليجدن**

---

(1) أخرجه البخاري (اعتصام 10) ومسلم (إيمان 247) (إمارة 170، 173، 174) وأبو داود (فتن 1) والترمذي (27، 51) وابن ماجة (مقدمة 1) (فتن 9) وأحمد بن حنبل (5، 34، 269، 278، 279).

(2) هو محمد بن علي الترمذي (أبو عبد الله) من كبار الشيوخ له تصانيف في علوم القوم صحب أبا تراب النخشبي وأحمد بن خضروية وأحمد بن الجلاء وغيرهم (الرسالة القشيرية 400).

(3) أخرجه الترمذي (أدب 81).

(4) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال 32455).

ابن مريم من أمتي، خلفاً من حوارييه».

قلت: قال شيخ شيوخنا المجذوب: على مائنا تقوم الساعة، وذكر سيدي علي: في كتابه أن رجلاً سأل سيدي العربي بن عبد الله[1] فقال له: يا سيدي طريقكم هذه لا نعرفها؛ فأي طريق هي؟! فقال له: يا ولدي طريقنا هذه هي التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه: الزهد في الدنيا، والانقطاع إلى الله، وعليها تقوم الساعة انتهى.

فتحقق أنها هي التي يجد عيسى بن مريم منها خلفاً من حوارييه، والله أعلم.

[ما بقي من طريق القوم (الصوفية) بعد اندراسها]

ثم بين الشيخ ما بقي من طريق القوم بعد اندراسها فقال:

(إلا رسوماً ربما لم تعف   وذاك ما نتبعه ونقف
وهبك أن تظفر بالأوطان   ما السر والمعنى سوى القطان)

قلت: الرسوم والحدود هي أمارات وعلامات تدل على حقائق الأشياء ومعانيها، وعفا المكان: اندرس وتعطل، وعفا الشيء: ذهب، وقد يطلق على الزيادة والكثرة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ [الأعراف: 95] ومعنى «نقف»: نتبع و«هب» هنا بمعنى: اجعل وقدر، فهي للتعبير، والأوطان: محل السكنى، و«القطان» بضم القاف جمع قاطن، بمعنى ساكن، والمعنى: إن علم التصوف ومعانيه وأذواقه قد ذهب بذهاب أهله، واندرس وخفي، وما بقي إلا رسوم وعلامات في كتبهم تدل على سيرهم وأخلاقهم، فربما لم تعف ولم تذهب، وهذه الرسوم التي لم تعف هي ما كانوا عليه من المجاهدة والمكابدة والمشاهدة، وما اتصفوا به من محاسن الأخلاق ومكارم الشيم، وما شاهدوه من الكرامات والخوارق، وما نطقوا به من جواهر الحكم، وما استخرجته أفكارهم من يواقيت العلوم ومخازن الفهوم، فهذه الأمور قد دونت في الكتب، فلما ماتوا بقيت في أيدي الناس، فهي التي يتبعها الناس ويسلكون على طريقها، وليس السر في

---

(1) هو العربي بن عبد الله بن محمد بن التهامي أبو حامد اليملحي الوزاني (1252 ـ 1339هـ 1836 ـ 1921م) ولد وتوفي بالرباط له كتب منها (بلوغ المنى والآجال فيمن لقيت من المشايخ وأهل الفضل والكمال) وغيرها.
(الأعلام 4/ 224)، (معجم الشيوخ 2/ 117).

مشاهدة سيرهم ومحاسنهم، ولا في سماع كلامهم وعلومهم، وإنما السر ما كان في بواطنهم، وما اشتملت عليه قلوبهم وأسرارهم، فلا يؤخذ إلا منهم في حال حياتهم، فلو كان التصوف يؤخذ من الكتب لاختص به أرباب الأموال والعلماء أهل الظاهر، ولكن التصوف إنما هو أذواق، لا يؤخذ إلا من أهل الأذواق، «وهبك» أي صير نفسك وقدرها أنها ظفرت بالأوطان؛ وهي محاسنهم ومآثرهم التي كانوا عليها وسكنوا فيها، ثم رحلوا عنها وتركوها: ما السر والمعنى إلا في صحبتهم والأخذ عنهم واقتباس النور الذي كان في باطنهم، وقد ذهب ذلك بذهابهم، إلا من أسعده الله بلقاء من أخذ ذلك منهم في حياتهم، وهذا قد ظفر بالأوطان والسكان. ولا تخلو الأرض من هذا النوع كما تقدم بخلاف من طمع أن يأخذ ذلك من كتبهم؛ فإنه ظفر بالأوطان وفاته صحبة السكان. وما زالت العامة تقول: «السر في السكان» أي دون المسكن؛ وقال الشاعر(1):

أمرُّ على الدِّيارِ ديارِ ليلَى   أقبلُ ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما حُبُّ الديارِ شَغَفْنَ قَلبي   ولكِن حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيارا

وقال آخر:

فما المنازلُ لولا أنْ تحلَّ بها!؟   وما الديارُ؟ وما الأطلالُ والخيمُ؟!
لولاك ما شاقني ربعٌ ولا طللٌ   ولا سعتْ بي إلى نحوِ الحمَى قدمُ

وقال آخر: وإنما يتنافس بالأوطان من لا عشق عنده في السكان، أو لم يظفر بصحبة القطان.

فلا يتأنس بكتب القوم ويقنع بذلك إلا من لم يذق شيئاً من أذواقهم، ولا نهض للالتحاق بهم، والله تعالى أعلم.

[استصعاب سنن الصوفي]

ثم ذكر استصعاب ما سئل عنه من سنن الفقير لغرابتها في زمنه، فقال:

(وهذه مسألة معتاصة   لم يجد الحبر لها خلاصه

---

(1) الشاعر هو مجنون ليلى: قيس بن الملوح بن مزاحم العامري، شاعر غزل من المتيمين لم يكن مجنوناً وإنما لقب بذلك لهيامه في حب ليلى بنت سعد التي نشأ معها إلى أن كبرت وحجبها أبوها فهام على وجهه ينشد الأشعار ويأنس بالوحوش. توفي سنة 68هـ [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي أبو ظبي].

لأنـهـا مـسـألـة غـريـبـة حـقـيـقـة الـجـواب عـنـهـا ريـبـه
وقـلّ مـا تـلـقـى لـهـا مـسـاعـداً بـل مـنـكـراً أو نـاقـداً أو جـاحـدا)

قلت: الاعتياص من العصيان. واعتاص الشيء: إذا عصى ولم ينقد، والحبر بكسر الحاء وفتحها هو: العالم الُحرير، وخلاصة الشيء تخليصه وتحريره، والريبة والريب هو: الشك، يعني أن هذه المسألة وهي طريق الصوفية الذوقية مسألة معتاصة. أي عويصة التحرير يصعب تخليصها على العالم الُحرير، لأنه إن عبر عنها بعبارة اللسان فاته الذوق والوجدان، وإن أشار إليها بالتلويح لا يفهمها أهل التصريح، فصعب أمرها على كل حال، إلا على من أسعده الله بصحبة الرجال أهل الهمة والتربية والحال، فيعبرون عنها بالمقال، ثم ينهضون إليها بالذوق والحال. وأما من لم يصحب الرجال، فلا يطمع أن ينالها بالمقال؛ لأنها مسألة غريبة وأهلها غرباء، فلا يأوي الغريب إلا إلى الغريب ولا يفهم حال الغريب إلا مثله. وإذا كانت مسألة غريبة فتحقق الجواب عنها ريبة، أي فيه شك وريبة لمن عبر عنها من غير ذوق ولا وجدان، وأيضاً حقيقتها بعيدة عن مدارك العقول القياسية والنقول العلمية.

ولله در ابن الفارض حيث يقول:

ولا تـكُ مـمَّـن طـيّـشَـتْـهُ طـروسُـهُ بـحيثُ استقلَّتْ عقلَهُ واستقرَّت
فـثـمَّ وراءَ الـنَّـقـلِ عـلـمٌ يـدُقُ عـن مـداركِ غـايـاتِ الـعـقـولِ الـسـلـيـمـة
تـلـقـيـتُـه مـنّـي وعـنّـي أخـذتُـهُ ونفسي كانتْ مِنْ عطائي مُمِدَّتي

وفي الحديث عنه ﷺ: «**إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا نطقوا به، لا ينكره إلا أهل الغرة بالله**»[1] قال بعضهم هي أسرار الله يبديها إلى أمناء أوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة، وهي من الأسرار التي لم يطلع عليها إلا الخواص. فإذا سمعها العوام أنكروها. ومن جهل شيئاً عاداه، ومن يكن ذا فم مريض يجد مرارة الماء الزلال.

ويرحم الله البوصيري حيث يقول:

قَدْ تنكرُ العينُ ضوءَ الشمسِ منْ رمدٍ ويـنـكـرُ الـفـمُ طعـمَ الـمـاءِ مـنْ سقـمِ

---

(1) أخرجه العراقي في (المغني عن حمل الأسفار 1/ 21) والمنذري في (الترغيب والترهيب 1/ 103) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 1/ 166، 2/ 66) والمتقي الهندي في (كنز العمال 28942) وابن كثير في (التفسير 6/ 357) والسيوطي في (اللآلىء المصنوعة 1/ 115).

وقال مشايخ الطريقة: المنكر كالعنين: ينكر شهوة الجماع، والمزكوم: ينكر رائحة المسك الأذفر، والمحموم: ينكر حلاوة السكر.

وفي مثلهم قال الشاعر:

وكم عائبٍ ليلى ولم يرَ وجهَهَا فقالَ لهُ الحرمانُ: حسبُكَ ما فاتا

وأيضاً هذه المسألة إذا نظرت إليها من حيث العلم والتحقيق احتاجت إلى وجوب البحث والتدقيق، وإذا نظرت إليها من حيث الحال، وجدتها مبنية على التسليم والتصديق، فإن أخذت بالأول ظهر لك من وجوه الإنكار ما لا خفاء فيه، مع ابتنائه على أصل لا تعرفه، وإن نظرت إلى الآخر ظهر لك من موجبات التسليم ما يقتضي لك عدم الكلام بالكلية، فلا وجه لاستخلاص الخلاصة إلا بمعرفة مبدأ الأمور ومنتهاها، وقد ذكر منه جملة فيما يأتي.

وأما كونها مسألة غريبة فإنها غير مألوفة للنفوس ولا متداولة بين الناس، ولا معروفة الحقيقة في الجملة، فلذلك اعتقدها المعتقد من غير معرفة أصل، وأقبل المنتسب إليها على أي وجه كان، وانتقدها المنتقد وشانها ولم يعرف ما انتقد وشان، فادعاها من ليس من أهلها. وأدخل عليها ما ليس من شأنها: كل ذلك بسبب الجهل بها والحرص على الانتساب إليها، وعظمت في النفوس لما تقرر من جلالتها، والله تعالى أعلم. (قاله الشيخ زروق رضي الله عنه).

وإنما كان الجواب عنها ريبة لأن المقام قد يعبر عنه المستشرف عليه والواصل إليه، ولا يفرق بينهما إلا ذو بصيرة، فهذه المسألة قد يعبر عنها من وصل إليها وذاقها، وقد يعبر عنها من استشرف عليها بالعلم، فلا يخلو الجواب من ريبة، هل صدر من صاحب ذوق وصاحب حال؟ لكن كلام العارف لا يخفىٰ على أهل الفن أبداً، ولا تخلو الأرض من قائم لله بحجته.

فما قاله الناظم ليس على عمومه، فقد يتحقق الجواب عنها من العارفين، ولا ريبة فيه، ولا شبهة، والله تعالى أعلم.

ولما كان «**من كتم العلم مذموماً وبلجام من النار ملجوماً**»[1] خاف الشيخ أن ينخرط في سلك من كتم علماً، فأجاب السائل بما هو في ذوقه حاصل، فمن شاء

(1) أخرجه ابن ماجة (مقدمة 24) وأحمد بن حنبل (2، 296، 499، 508).

فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولذلك قال:

[(انحصار علم التصوف في خمسة فصول)]

(وإذ تهديت إلى الصواب ولم يكن بد من الجواب
فهو على الجملة والتفصيل منحصر في خمسة فصول)

قلت: تهديت إلى كذا واهتديت إليه واحد، ومعناه: سلكت الطريق إلى الوصول إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيَ﴾ [يونس: 35]، على قراءة ورش، «والصواب»: الحق البين. والبد: الفرار والهروب، ويقال: لا بد أن تفعل: أي لا فرار لك ولا هروب من الفعل، أو لا محالة منه (قاله في القاموس) بمعناه، و«الجملة»: ما كان مجموعاً، و«التفصيل»: ما كان مفرقاً، و«الفصول»: جمع فصل. وهو القطعة من الكلام، وهو في كلام الناظم بدل من خمسة بالتنوين، لا مضاف، لإخلاله بالوزن.

يقول رحمه الله: وأنت أيها السائل حين اهتديت إلى الصواب بتوجهك إلى طلب الوصول إلى رب الأرباب فسألت عن تبيين الطريق والوصول إلى عين التحقيق، لزمني أن أجيبك، ولم يكن لي بد ولا مهرب من الجواب، لأن الله تعالى أخذ على العلماء أن لا يكتموا العلم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا﴾ [البقرة: 159] ـ الآية، وقال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: 187] ولقوله عليه الصلاة والسلام:

«**من سئل عن علم نافع فكتمه ألجمه الله بلجام من النار**»[1]، وهذا لمن كتمه مع توفر الشروط، وهو استحقاق ذلك وأهليته، فإن لم تتوفر الشروط فلا يجب إظهاره، لاسيما علم السر، وقد اختلف المشايخ: هل لا يبذل علمهم إلا لأهله، وهو مذهب أبي الحسن النوري، أو يبذل لأهله ولغير أهله، والعلم أحمى جانباً من أن يصل إلى غير أهله، وهذا مذهب إمام الطائفة أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه، إذ قيل له: كم تنادي على الله بين يدي العامة؟ فقال له: لكنني أنادي على العامة بين يدي الله تعالى انتهى.

(1) أخرجه أبو داود (علم 9) والترمذي (علم 3) وابن ماجة (مقدمة 24) وأحمد بن حنبل (2، 263، 305، 344، 353، 495).

قلت: وفي كلامه رضي الله عنه إلغاز وتستر، ومعناه: لكنني أنادي على عامة من حضرني من مظاهر الحق بين يدي الله.

قلت: وممن سلك مذهب الجنيد: شيخ أشياخنا سيدي علي العمراني[1] رضي الله عنه، حتى كان يسمى في زمانه: المبذر. ولذلك تجد أهل فاس ـ كثيراً منهم ـ يخوض في علم الحقيقة من غير عمل ولا ذوق، وأخذ الجمهور بمذهب أبي الحسن النوري، فكانوا لا يتكلمون في الحقيقة وعلم السر إلا مع أهله، في موضع خالٍ، وربما سدوا الأبواب: غيرة منهم على سر الربوبية أن يبتذل وينادىٰ عليه بلسان الاشتهار، وفي الحكم «عبارتهم إما لفيضان وجد، أو لقصد هداية مريد، فالأول معذور لغلبة وجده، والثاني مأمور لهدايته من هو أهله». والله تعالى أعلم.

[انحصار الكتاب في خمسة فصول]

ثم ذكر برنامج الكتاب، وأنه محصور في خمسة فصول، فبينها بقوله:

(أولها في أصله والثاني ... في فضله على مدى الأزمان
وثالث الفصول في أحكامه ... وحين يستوي على أقدامه
والرابع الرد على من رده ... وليس يدري شأنه وقصده
وخامس يعلم كيف صيرا ... حتى غدا بين الأنام منكرا)

قلت: أصل الشيء: قاعدته وأساسه التي يبنى عليها، ومدى الشيء: غايته ونهايته. يقول رحمه الله: قد ذكرت في هذا الكتاب من مبادىء علم التصوف أربعة أمور، وهي موضوعه، وواضعه، وفضيلته، وفائدته.

أما الموضوع والواضع فيؤخذان من ذكر أصله.

وأما فضيلته وثمرته فتؤخذ من ذكر فضله، فإن فضيلة الشيء لا تكمل إلا بحصول ثمرته، وبقي من المبادىء ستة مجموعها عشرة، وهي جارية في كل فن من فنون العلم، فالحذاق من أهل العلم يقدمون ذكرها قبل الشروع في ذلك الفن، وقد نظمها بعضهم، فقال:

الحدُّ والموضوعُ ثمَّ الواضعُ ... والاسمُ الاستمدادُ حكمُ الشارع

---

(1) هو علي بن محمد بن علي بن أحمد أبو الحسن العمراني الخوارزمي (000 ـ نحو 560 هـ = . . . ـ نحو 1165م) من علماء المعتزلة من بيت كبير في سرخس من مؤلفاته (تفسير القرآن) (اشتقاق الأسماء) و(المواضع والبلدان). (الأعلام 4/ 330)، (اللباب 2/ 151).

تصورُ المسائلِ الفضيله ونسبةٌ، فائدةٌ جليله
حقٌ على طالبِ علم أن يحيطَ بفهم ذي العشرة، ميزها ينيط
يعلمها قبلَ الشروعِ في الطلَب لكي يكونَ مبصراً بما طلب

وقد ذكرتها بتمامها في أول شرحنا على الحكم فلينظره من أرادها، والمراد بالأحكام ما يلزم المريد من الآداب في معاملته وتصرفاته، وقد حصرها في تسعة على ما يأتي إن شاء الله.

وقوله: «وحين يستوي على أقدامه» معناه: أنه ذكر في ذلك الفصل أحكام التصوف، وآدابه من أوله إلى نهايته؛ فإذا عرف ذلك فقد علم التصوف، «ونهض على أقدامه» كناية عن معرفته.

وقوله: «وخامس إلى آخره» يعني أنه ذكر في الفصل الخامس: كيف تغير التصوف حتى صار منكراً بين الناس بعد أن كان معروفاً مشهوراً.

وباقي الكلام واضح، والله تعالى أعلم.

[تسمية الكتاب]

ثم ذكر تسمية الكتاب، لأنها من مقدماته، ومن الأمور المهمة، فقال:

(وبعد ما فصلته فصولاً وعاد بتّ حبلها موصولاً
سميتها المباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية)

قلت: «والبت» بالمثناة: القطع وفي الحديث «المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»(1) أي المنقطع، وهو هنا استعارة لتفرق المسائل قبل جمعها في هذا الكتاب، ويؤخذ منه أن تسمية الكتاب مؤخرة عن كمال التأليف، أو يكون جمعها في ذهنه وعزم على تأليفها، «والمباحث» جمع مبحث، وهو: ما يبحث عنه أو فيه، فهو اسم مكان، لأن كاتبه جعله محلاً للبحث والتفتيش عن أحوال الصوفية وسيرهم.

يقول رحمه الله؛ وبعد ما فصلت هذا الكتاب فصولاً خمسة، وصار حبل تلك الفصول بعد قطعه موصولاً، بحيث نظمت جواهره في سلك عقده، فصارت جواهر فصوله، ويواقيت تراجمه موصولة في سلك واحد، سميته حينئذٍ «المباحث

(1) أخرجه أحمد بن حنبل (3، 199).

الأصلية» لأنها تبحث عن أصول الطريقة وتحقق مبناها، وهذه الطريقة هي: طريقة الصوفية، وهي: الموضوعة لكيفية تهذيب القلوب وتصفيتها من الرذائل وتحليتها بالفضائل، لتتهيأ بذلك لمعرفة الحق تعالى المعرفة الحقيقية، التي هي معرفة العيان بطريق الذوق والوجدان.

واختلف في اشتقاق التصوف على أقوال كثيرة أحسنها: أنه من الصفا، لأن مداره على التصفية، وإليه أشار بعضهم بقوله:

تخالفَ الناسُ في الصوفي واختلفوا وكلُّهم قال قولاً غيرَ معروف
ولستُ أمنحُ هذا الاسمَ غيرَ فتًى صافي فصوفي حتى سمِّي الصوفي

قال أبو حمزة البغدادي: علامة الصوفي الصادق أن يفتقر بعد الغنىٰ، ويذل بعد العز، ويخفىٰ بعد الشهرة، وعلامة الصوفي الكذاب: أن يستغني بعد الفقر، ويعز بعد الذل، ويشتهر بعد الخفاء.

وقال بعضهم: لا بد للصوفي أن يتحقق بمعاني حروفه، فالصاد صفاؤه، والواو وفاؤه، والفاء فناؤه، والياء يقينه، وكذلك الفقير يتحقق بمعاني حروفه، فالفاء فناؤه، والقاف قربه، والياء يقينه، والراء رحمته ورأفته، وبالله التوفيق.

ثم دعا لمن قرأ كتابه أو طالعه، أو شرحه، أو اعتقد كماله، فقال:

(فحي يا رب امرءاً حياها وزكه يوماً متى زكاها)

قلت: «التحية» في الأصل دعاء بطول الحياة، كانت العرب إذا لقوا كبيراً قالوا: أطال الله حياتك وأبقاك الله، أو أطال عمرك؛ ثم انتقل إلى السلام، وهو تحية أهل الإسلام، وهو أيضاً تحية أهل الجنة، والتزكية: التطهير، أو التنمية والترفيع.

يقول رحمه الله: «اللهم حي» أي سلم امرءاً حَيّا كتابنا بالقبول والتعظيم والترفيع، وطهَّره من دنس الذنوب ودرن العيوب وغبش الحس وغين الأغيار وظلمة الأكوان، بتجدد ذلك التطهير متى ما زكى كتابنا بقوله أو العمل بما فيه أو الثناء عليه، أو البحث عن معانيه.

وقد كان الشيخ التباع يربي أصحابه بهذا الكتاب.

وكان الغزواني يربي أصحابه بالشريشية، يعني «الرائية».

ولكن المباحث أفيد لأهل القلوب «والله تعالى أعلم».

ثم شرع في المقصود فقال رحمه الله

الفصل الأول في أُصله [علم التصوف]

قلت: ذكر أصله من جهتين: من جهة الذوق والوجدان، ومن جهة دليل الشرع والبرهان، حتى لا يجد المنكر له مقالاً، ولا الطاعن فيه مساغاً، وقدم الأول فقال:

[البحث عن الحقيقة]

(واعلم بأن هذه الطريقة بحث عن التحقيق للحقيقه)

قلت: «البحث» هو: التفتيش، يقال: بحث عن كذا: فحص عنه، وبحث في الأرض أخرج ترابها، والتحقيق: إدراك الشيء من أصله، والحقيقة: ذات الشيء وأصله، وحقيقة الإنسان: ماهيته ومادته.

وأما في اصطلاح الصوفية فهي: كشف رداء الصون عن مظهر الكون، فيفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل، وهي عندهم نتيجة التصفية التي هي الطريقة؛ والطريقة: نتيجة الشريعة، فالشريعة هي: إصلاح الجوارح الظاهرة، وهي تدفع إلى الطريقة التي هي إصلاح السرائر الباطنة، وهي أيضاً تدفع إلى الحقيقة التي هي كشف الحجاب ومشاهدة الأحباب من داخل الحجاب، فالشريعة أن تعبده، والطريقة أن تقصده، والحقيقة أن تشهده.

يقول رضي الله عنه: واعلم بأن هذه الطريقة التي سألت عنها: وهي: طريقة الصوفية هي بحث وتفتيش عن تحقيق الحقيقة وإدراكها: ذوقاً وحالاً، واللام في «الحقيقة» لام التعدية، كقوله هذا تحقيق لهذا، أي تحقيقه في الحقيقة، وها أنا أقدم لك مقدمة يسهل بها فهم ما يذكره الناظم في هذا الأصل، فنقول وبالله التوفيق، ومن الله الإمداد والتسديد:

اعلم أن الحق جل جلاله واحد في ملكه، لا شريك معه ولا ضد له ولا ند له، كان ولا شيء معه، وهو الآن على ما كان عليه، كان في أزل أزليته لطيفاً خفياً، حكيماً قديراً لطيفاً لا يدرك، خفياً لا يعرف، قائماً بذاته، متصفاً بمعاني أسمائه وصفاته، فأراد سبحانه أن يعرف بذاته، وأن يظهر أثر أسمائه وصفاته،

فأظهر قبضة من نوره اللطيف، فتكثفت بقدرته ليتهيأ بها التعريف، ثم تنوعت على عدد أسمائه وصفاته، فلما ظهرت تلك القبضة النورية تجلى فيها باسمه الباطن، فبطنت في ظهورها، وكمنت في مظاهرها، فالأشياء كلها مظاهر للحق، لكن لا بد للحسناء من نقاب، وللشمس من سحاب، فنسجت تلك الخمرة اللطيفة الأزلية بقدرتها رداءً، واكتست بحكمتها إزاراً، فقالت: «**العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما قصمته**»[1] ثم اختلفت تلك الحكمة في نسجها وغزلها، فمنها ما رق غزله ولطف نسجه، فكان فيه النور قريباً من الظهور، ومنها ما غلظ غزله وكثف نسجه، فجفى النور لأجل غلظ الستور، ثم إن الذي رق غزله ولطف نسجه منه ما هو نور محض، وهم الملائكة، ومنه ما هو نور وظلمة، وغلب عليه النور، وهم بنو آدم. ومنه ما هو نور وظلمة وغلب عليه ظهور الظلمة، وهي الجمادات وما لا يعقل من الحيوانات، ونعني بالنور المعنى، وبالظلمة، الحس، فالكون كله باطنه نور وظاهره ظلمة، باطنه قدرة وظاهره حكمة، باطنه لطيف، وظاهره كثيف، وإليه أشار صاحب العينية[2] بقوله:

وما الكون في التمثال إلا كثلجة ... وأنت لها الماء الذي هو نابع

ثم إن الحق سبحانه خص مظهر هذا الآدمي بخصائص لم تكن لغيره.

منها: أن جعل روحه اللطيفة النورانية في قالب كثيف، ليتأتى له منه غاية التصريف.

ومنها: أن جعل ذلك القالب في أحسن تقويم، وأبدع فيه من بدائع حكمته وعجائب صنعته ما يليق بقدرة السميع العليم.

ومنها: أنه جعله حاكماً على المظاهر كلها، مالكاً لها بأسرها، خليفة عن الله فيها، ثم فتح له من فنون العلوم ومخازن الفهوم ما لم يفتحه على غيره مما هو معلوم، وقال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] وقال في تلك الخليفة ـ وعلم آدم الأسماء كلها ـ.

---

(1) أخرجه أبو داود (لباس 25) ومسلم (بر 136) وابن ماجة (زهد 16) وأحمد بن حنبل (2، 248، 376، 414، 427، 442، 6، 19).

(2) هو الشيخ العارف بالله تعالى المحقق عبد الكريم الجيلي مؤلف «الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر».

ومنها: أن أعطاه سبحانه وتعالى سبعاً من الصفات تشبه صفات المعاني الأزلية، إلا أنها ضعفت بإحاطة القهرية، وهي: القدرة، والإرادة؛ والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، فحصل له بهذا أنموذج وشبه بالصمدانية الربانية.

[حقيقة الإنسان]

ومنها: أنه سبحانه جعله نسخة الوجود، يحاكي بصورته كل موجود، فإن عرف الحق كان الوجود نسخة منه، وإلى بعض هذه المعاني أشار بقوله:

(وهذه حقيقة الإنسان حيث لها أنموذج رباني)

قلت: حقيقة الإنسان هي روحانية، وهي لطيفة نورانية لاهوتية جبروتية، ثم احتجبت ببشرية كثيفة ناسوتية، فسبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية، وظهر بإظهار الربوبية في مظاهر العبودية.

والأنموذج، قال في القاموس: والنموذج بالفتح: الشبه، وبالهمز: لحن، وفي نسخ الناظم كلها بالهمز، فانظره مع ما قال في القاموس، وفي بعض النسخ «إذ كان في المندرج الرباني» وسيأتي معناه، فالنموذج هو الشبه، وهذا الشبه الذي حازه الإنسان دون غيره هو اتصافه بشبه أوصاف الحق سبحانه، حيث جعل الله فيه: قدرة، وإرادة، وعلماً، وحياة، وسمعاً، وبصراً، وكلاماً، وجعله نسخة من الوجود بأسره، وخليفة عن الله في حكمه: يتصرف في الأشياء باختياره في ظاهر أمره، ولذلك ورد في الحديث:

«إن الله خلق آدم على صورته»[1]

وفي رواية على «صورة الرحمٰن» ومعناه خلق آدم وأعطاه من الصفات ما يشبه صفات الرحمٰن، وهي صفات المعاني والمعنوية، وخصه أيضاً فجعله خزانة لسائر أسمائه، ففي الآدمي تسعة وتسعون اسماً، كلها كامنة في سره، ثم يظهر على ظاهره ما سبق له في علم الغيب، فالبعض يظهر عليه اسمه الكريم، والبعض اسمه الرحيم والبعض اسمه الحليم والبعض اسمه المنتقم، والبعض اسمه: المتكبر، والبعض

---

(1) أخرجه أحمد بن حنبل (2، 244، 251، 315، 323، 434، 463، 519) والبخاري (استئذان 1) ومسلم (بر 115) (جنة 28).

اسمه: القهار، والبعض اسمه: القابض، والبعض اسمه: الباسط، وقد يتعاقب عليه أسماء كثيرة في وقت واحد، وإذا فني عن حسه وغاب عن نفسه ظهرت عليه أنوار الألوهية، فينطق بالأنانية غلبة ووجداً، وبهذا قتل الحلاج.

وقد ورد الترغيب في التخلق بأخلاق الرحمٰن، قال ﷺ: «**تخلقوا بأخلاق الرحمٰن**»[1]

ورغب في الصيام لما فيه من شبه الصمدانية، وقد رغب أيضاً في التقرب إليه سبحانه حتى يكون سمعه وبصره ويده ورجله، ومعناه تغيبه عن صفة الحدوث بشهود أنوار القدم وفي ذلك يتحقق له هذا الأنموذج الصمداني.

وفي الحكم: «وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به، وإلا فجل ربنا أن يتصل بشيء أو يتصل به شيء» وسيأتي الكلام إن شاء الله على هذا المعنى عند قول الشيخ:

(متى ارتقيت عن قبيل الحس ... أدركت في نفسك معنى النفس
يا من على القشر غدا يحوم ... حتى عن اللب متى تصوم؟)

إلى آخر الأبيات، وعلى النسخة الثانية «فالمندرج الرباني» هو: السر المكنون الذي برزت منه الروح، ونفخت في هذا الجسم، وهي الخمرة الصافية، أي هذه حقيقة الإنسان حين كان في جملة السر الرباني المندرج في الخمرة الأزلية، وفي بعض أدعية الشاذلي: «وادرج أسمائي تحت أسمائك، وصفاتي تحت صفاتك، وأفعالي تحت أفعالك»: درج السلامة وإسقاط الملامة، والله تعالى أعلم.

[الأسرار لا تؤخذ من الكتب]

ثم بين أن حقيقة الإنسان وسره سر من أسرار الله، لا يجوز أن يوضع في الكتب على وجه التصريح، وإنما يذكر على وجه الإشارة والتلويح، وعلمنا كله إشارة، فقال:

(ووضعه في الكتب لا يجوز ... بل هو كنز في النهى مكنوز
إياك أن تطمع أن تحوزه ... من دفتر أو شعر أو أرجوزه)

---

(1) أورده إسماعيل حقي البروسوي في تفسير عرائس البيان، سورة آل عمران، آية: 79.

قلت: النهى جمع نهية، وهو اسم للعقل، والدفتر: اسم للكتاب، وقال في القاموس: الدفتر، وقد تكسر الدال: جماعة الصحف المضمومة، والجمع. دفاتر، والشعر: كلام موزون، والأرجوزة بمعنى القصيدة. وهي ذات أبيات.

يقول رضي الله عنه وضع هذا السر وهو النموذج الرباني الذي اختص به الإنسان في الكتب لا يجوز إذا كان ذلك على وجه التصريح، وإنما منع وضعه في الكتب لأمرين: **أحدهما** أن العبارة لا تقوم به، لأن علم الإشارة مهما صار عبارة خفي، وقد يؤدي التعبير عنه لتكفير القائل وتبديعه وتفسيقه، وربما أدى لتلفه، كما قال بعضهم:

فمنْ فهمَ الإشارةَ فليصنْهَا وإلّا سوفَ يقتلُ بالسّنان
كحلاجِ المحبةِ إذ تبدَّت لهُ شمسُ الحقيقةِ بالتداني

وقال زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنه:

يا ربَّ جوهرِ علمٍ لو أبوحُ بهِ لقيلَ لي أنتَ مِمَّن يَعبدُ الوثنا
ولاستحلَّ رجالٌ مسلمونَ دمي يرونَ أقبحَ ما يأتونَهُ حسناً

وقال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه:

وفي السِّر أسرارٌ دقاقٌ لطيفة تراقُ دمانا جهرةً لو بها بُحنا

الأمر الثاني: أن وضع ذلك في الكتب يؤدي لابتذاله وإظهاره، مع عدم استيفاء المراد منه، فيكون قطعاً للمريد عن التحقق به، وموجباً لوجود الحيرة فيه، ولا يفهمه في الحقيقة إلا من اطلع عليه وعرف معناه، كحال الطرب في السماع، لا يتأثر به إلا من عنده ذوق وخمرة.

ثم ذكر أن هذا السر كنز مدفون في صدف مكنون، لا يمسه إلا المطهرون. بقوله: «بل هو كنز مكنوز»، أي مدفون «في النهى»: أي العقول الكاملة والقلوب الصافية، ومن كمالها وحريتها كتمها للأسرار، كما قال بعضهم: «قلوب الأحرار قبور الأسرار» وقال آخر:

لا يكتمُ السِّرَ إلا مَنْ بهِ ثقةٌ فالسِّرُ عندَ خيارِ الناسِ مكتومُ

وقال شيخ شيوخنا المجذوب رضي الله عنه:

ادفنُ سرَّك ودكوا في الأرضِ سبعينَ قاما
وخلِّ الخلايق يشكوا إلى يومِ القياما

ثم حذرك من أن تطمع أن تحوز هذا السر من كتب القوم، أو من أشعارهم أو من قصائدهم، لأنه أذواق، لا يؤخذ من الأوراق، وإنما يؤخذ من صحبة أهل الأذواق، بل لا تزيده مطالعة الأوراق إلا تفتيراً وتعطيلاً.

علم الأذواق لا يؤخذ من الأوراق، قالوا: وحقائق المعارف منطبعة في الأرواح من يوم الميثاق، فلذلك قامت بها الحجة فيما لا يزال، فوصول العبد إلى ما عنده منها بواسطة أمداد التجلي، لا لأمر زائد على ذلك.

قال بعض المشايخ: إياك وطلب الدليل من خارج، فتفتقر إلى المعارج، واطلب الحق من ذاتك لذاتك، تجد الحق أقرب إليك من ذاتك.

وقال في الحكم: «نور مستودع في القلوب، مدده النور الوارد من خزائن الغيوب».

وقال في موضع آخر: أشهدك من قبل أن أستشهدك، فنطقت بإلهيته الظواهر، وتحققت بأحديته القلوب والسرائر، وما هو إلا كما قال الحق سبحانه في شأن الإخلاص «**هو سر من أسراري أودعته قلب من أحببت من عبادي، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده**»[(1)] وكذلك سر الربوبية الذي أودعه الله في الإنسان، لا يعلم حقيقته على الكمال إلا هو سبحانه، وإذا كان كذلك فالتعليم والتعلم لا يفيده، وإنما يفيده التعرض لنفحات الحق بشواهد الصدق: قولاً وعملاً وحالاً، «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم» وكان علمه من ربه لقلبه، وهو أتم العلوم وأجلها، فافهم واطلب الشيء منك إليك (مني عليّ دارت كؤوسي).

قال بعضهم: علمنا لا يؤخذ بالقياس، ولا بالفهم وقوة الذكاء والاقتباس، بل هو نكتة من الحق، يكشف عن القلب قناعه، ونور منه ينبسط في عوالم الحقيقة شعاعه، حتى يصير الغيب في معد العيان، ولا يفتقر المشكل لشيء من البيان، بل لو كشف الغطاء ما ازداد صاحبه يقيناً، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام «لم يفضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في صدره»[(2)] ومع هذا فالشيء الموقور في صدره معلوم الأصل، الذي هو التحقيق في اليقين، والإيمان إلى حد المواجهة والعيان، قاله الشيخ زروق رضي الله عنه.

---

(1) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 10/ 44).

(2) رواه الكلاباذي في بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار [2/ 363].

[معرفة الإنسان وصف السر]

ثم بين قدر ما يعرفه الإنسان من السر بالوصف، فقال:

(وإنما تعرف منه وصفاً لست تراه وهو ليس يخفىٰ)

قلت: لما نفى معرفة النموذج الرباني الذي خص به الإنسان من الكتب، ذكر هنا مقدار ما تعرفه بالنعت من الكتب، فقال: وإنما تعرف من ذلك النموذج، وهو سر الربوبية المندرج في الخمرة الأزلية؛ وصفاً ظاهراً، يقال باللسان ولا يرى بالعيان، لأنه إنما يدرك بالبصيرة، فإن كنت من أهل البصيرة أدركته بالذوق والوجدان، وإن لم تكن من أهل البصيرة، فحط رأسك لأهل البصيرة حتى تذوق ما ذاقوا أو تموت، فالمعرفة التي تكتسبها من الدفاتر أو الأشعار أو الأراجيز لذلك الوصف لست تراها بعينك، فإذا قال لك الشاعر مثلاً:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

أو ما في الكون غيركم.

لا تعرف ذلك ولا تدركه بعقلك؛ مع كونه ظاهراً لا يخفىٰ، لكن لا يدركه إلا أهل الأذواق، أهل البصائر النافذة، لا أهل العقول المقيدة بالخيالات الوهمية، فإن هذا أمر خارج عن مدارك العقول، ولا يحيط بكنهه العلم المنقول.

قوله: «لست تراه وهو ليس يخفىٰ»؛ أي لست تراه ببصرك الحسي، لما كساه من رداء العزة وحجاب الحكمة، وهو: ليس يخفىٰ على أهل البصيرة النافذة، فلست تراه لأنه باطن؛ وهو ليس يخفىٰ لأنه ظاهر. فاسمه الباطن يقتضي أن لا تدركه الأبصار؛ واسمه الظاهر يقتضي انطواء ما سواه من الأغيار، وانفراده بالوجود وظهور الأنوار، وفي ذلك قال بعض العارفين:

لقدْ ظهرتَ فلا تخفَى على أحدٍ إلا على أكمهٍ لا يبصرُ القمرا
لكن بطنتَ بما أظهرتَ محتجباً وكيفَ يعرفُ منْ بالعزةِ استترا

وفي الحكم: «أظهر كل شيء بأنه الباطن، وطوى وجود كل شيء بأنه الظاهر» فاسمه الباطن يقتضي ظهور الأشياء ليكون باطناً بالنسبة إلى ظهورها.

واسمه الظاهر: يقتضي بطون الأشياء وانطواءها؛ إذ لا ظاهر سواه لما يقتضيه الحصر الذي في الآية الكريمة. وهذا من عجائب الربوبية التي بهرت العقول، وحيرت الأذهان، بحيث صار ظاهراً في حال بطونه، باطناً في حال ظهوره، ظاهراً

باعتبار قدرته باطناً باعتبار حكمته. والله تعالى أعلم.

[شرح بعض أوصاف الأسرار]

ثم ذكر المصنف أنه شرح لك من ذلك الوصف البعض بقدر ما يفهمه عقلك، فقال:

(وها أنا أشرح منه البعض بقدر ما تفهمه فلترض)

أي تنبه لما أقول لك بعد. فأنا أشرح لك بعض ذلك السر بقدر ما تفهمه ويدركه عقلك فلتقنع بذلك ولترض به، إذ لا يمكن شرح الكل، لأنه من السر المكنون الذي لا يحيط به إلاّ علام الغيوب، وأيضاً إذا عبرت لك عن كنه السر تعرضت للهلاك، وقد قال تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: 29].

ثم ذكر ذلك البعض الذي وعد به، فقال:

(فهذه الحقيقة النفسية موصولة بالحضرة القدسية
وإنما يعوقها الموضوع ومن هنا يبتدأ الطلوع)

قلت: المراد بالحقيقة النفسية هو: الروح اللطيفة السارية في الأشباح الكثيفة القائمة بها، والحضرة القدسية هي العظمة الأزلية القديمة اللطيفة الخفية المعبر عنها بعالم الجبروت، وهي التي فسرها ابن الفارض في خمريته حيث قال رضي الله عنه وأرضاه:

يقولون لي صفها فأنتَ بوصفهَا خبيرٌ أجلْ عندي بأوصافِها علمُ
صفاءٌ ولا ماءٌ ولطفٌ ولا هوى ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جسمُ
تقدَّم كلَّ الكائنات حديثُها قديماً ولا شكلٌ هناكَ ولا رسمُ
وقامتْ بها الأشياءُ ثَمَّ لحكمةٍ بها احتجبت عنْ كلِّ مِنْ لا لهُ فهمُ

فالأشياء التي قامت بالخمرة الأزلية هي: الموضوعات التي تكثفت وظهرت، فقد وضعها الله أواني حاملة للمعاني؛ ومنها أشباح بني آدم، فإنها موضوعات للسر الرباني، الذي هو الروح، والروح متصلة بتلك الخمرة الأزلية، وإنما يعوقها ويمنعها من اللحوق بأصلها، هذا الموضوع الذي وضعه الله لها وأسكنها فيه، فهو كثيف، وهي لطيفة، فمن غلبت كثافته على لطافته؛ أو تقول: بشريته على روحانيته، بقي دائماً مسجوناً بمحيطاته، محصوراً في هيكل ذاته، ومن

غلبت لطافته على كثافته، أو تقول: روحانيته على بشريته اتصلت روحه بالحضرة القدسية، ورجعت إلى أصلها، فلم يحجبها عن أصلها أرض ولا سماء، ولا عرش ولا كرسي حتى قال بعضهم: «العرش والكرسي مندقان في ترسي» وقال آخر: «لو أن العرش في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحس به». وفي الحكم العطائية: «الكائن في الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب، مسجون بمحيطاته، محصور في هيكل ذاته» مفهومه إذا فتحت له ميادين الغيوب لم يحصره هيكل ولا كون، بل يترقى إلى فضاء الشهود، وتتصل روحه بالملك المعبود، اتصالاً يعرفه أهل الأذواق، وينكره أهل الأوراق؛ وقد ضرب عز الدين بن عبد السلام مثلاً ربما يزيل ذلك الإشكال؛ ويوضح لك المثال إن لم تذق ما ذاقت الرجال.

قال في «حل رموزه وفتح كنوزه» فاعلم أن القلب غيب؛ والرب غيب، فاطلع الغيب على الغيب؛ فكان اطلاعه نزولاً لا حلولاً؛ واعلم أن لطيفة ذلك: أن القلب خلق كامل الوصف؛ فله وجهان: ظاهر وباطن؛ فظاهره ترابي أرضي؛ مظلم طبيعي جثماني، وباطنه سماوي علوي، نوراني روحاني، فكثافة ظاهره لمباشرة القوىٰ الطبيعية البشرية، ولطافة باطنه لمواجهة الملكوتيات العلمية الربانية الروحانية، فعلى قدر مواجهته لها ومقابلته إياها انعكست عليه أشعة أنوارها، وتجلت لأسراره بأسرارها «فشاهدها بالأنوار التي فاضت عليه؛ وأدركها بالأسرار التي أبدتها إليه»، وهذا معنى العكس والمقابلة؛ فهو يشهد جمالية محبوبه في مرآة قلبه من غير حصر ولا تحيز، ولا حلول، ولا انفصال ولا اتصال؛ فهو في المثال كمرآة لها وجهان: ظاهرها كثيف مظلم، وباطنها لطيف مضيء، فلو قابلها من الكائنات ما قابلها من صغير أو كبير أرته ممثلاً فيها مع صغر جرمها وكبر المرئي فيها، ولو كان جملاً أو جبلاً أرته بكل أجزائه فيها من غير حلول فيها، ولا اتصال بها، ولا تحيز في شيء منها، فكذلك الحق سبحانه وتعالى: إذا تجلى على قلب عبده المؤمن يشاهده بعين قلبه، ويجتليه ببصر بصيرته من غير حلول ولا تحيز، ولا اتصال ولا انفصال.

وأوضح من هذا المثال ما أشرحه في هذه الأبيات:

ولـمَّـا تـجـلَـى مَـنْ أحـبّ تـكـرمـاً ... وأشـهـدنـي ذاكَ الـجـنـابِ الـمُـعـظَّـمـا
تـعـرَّف لـي حـتـى تـيـقـنـتُ أنـنـي ... أراه بـعـيـنـي جـهـرةً لا تـوهـمـا
وفـي كـلِّ حـالٍ أجـتـلـيـهِ ولـم يـزلْ ... على طورِ قلبي حيثُ كنتُ مكلَّما
ومـا هـوَ فـي وصـلـي بـمـتـصـلٍ ولا ... بـمـنـفـصـلٍ عـنـي وحـاشـاه مـنـهُـمـا

وما قدر مثلي أن يحيطَ بمثلِهِ وأينَ الثرى من طلعةِ البدرِ إنما
أشاهده في صفو سري فاجتلى كمالاً تعالى عزه أن يقسما
كمَا أنَّ بدرَ التِّم يظهرُ وجهَهُ بصفو غديرٍ وهو في أفقِ السما

واعلم أن هذه الخصوصية إنما هي لابن آدم دون الملك، وإنما كان كذلك لما ذكرنا أن الآدمي مخلوق من العالمين: اللطيف والكثيف، فينزل القلب فيه بمنزلة المرآة في لطفها وكثافتها، فلذلك انطبع فيها ما يقابلها من المرئيات، ولا كذلك الملك، فإنه مخلوق من لطيف فقط، وهو كله نور يشف ظاهره وباطنه، فهو كالزجاجة الشفافة، نورها خارق، فلا يتمثل فيها ما يقابلها لعدم التكثيف الذي يعكس ما يقابلها إليها، فهذا سر العكس والمقابلة، انتهى كلامه رضي الله عنه.

ومن هنا يبتدأ الطلوع، **وحاصله**: أن الآدمي كالمرآة التي من خلفها الطلاء وهو الدهن الذي يجعل فيه، والملائكة كالمرآة التي لا طلاء خلفها، لكن الملائكة فيهم الخواص والعوام وفيهم العارفون وغيرهم، والله تعالى أعلم.

وقوله: «ومن هنا يبتدأ الطلوع»: الإشارة تعود إلى الموضوع الذي جعله الله محلاً للروح ومستقراً لها في هذا العالم السفلي، أي ومن هذا المحل السفلي الذي تقررت فيه الروح يبتدأ طلوعها وعروجها إلى محلها الأصلي، الذي هو عالم الملكوت أو الجبروت، وطلوعها بقدر تخليها عن هذا الموطن وغيبتها عنه، فبقدر ما تغيب عن موضوعها تفارقه، وتعرج عنه إلى أصلها، وبقدر ما تتعلق به وترتهن معه تستقر فيه وتسجن في هيكله.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: «أيها الشائق إلى سبيل نجاته، التائق إلى حضرة حياته، أقلل النظر إلى ظاهرك إن أردت فتح باطنك لأسرار ملكوت ربك».

وفي بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى: «عبدي إنما منحتك صفاتي لتعرفني بها، فإن ادعيتها سلبتك الولاية، ولم أسلبك صفاتي، يا عبدي أنت صفتي، فارجع إلي أرجع إليك، يا عبدي فيك للعلوم باب مفتاحه أنا، وفيك للجهل باب مفتاحه أنت، فاقصد أي البابين شئت، يا عبدي قربي منك بقدر بعدك عن نفسك، وبعدي عنك بقدر قربك من نفسك، فقد عرفتك الطريق، فاترك نفسك تصل إلي في خطوة واحدة، يا عبدي كل ما جمعك علي فهو مني، وكل ما فرقك عني فهو منك، فجاهد نفسك تصل إلي، وإني لغني عن العالمين» **ثم قال**: «يا

عبدي إن منحتني نفسك رددتها إليك راضية مرضية، وإن تركتها عندك فهو أعظم بلية فهي أعدى الأعادي إليك، فجاهدها تعد بالفوائد إليك».

وكان شيخنا رضي الله عنه يقول: إن شئتم أن أقسم لكم: أنه لا يدخل عالم الملكوت من في قلبه علاقة.

وقال الششتري رضي الله عنه: ليس يدرك وصالي كل من فيه بقيا.

وقد أوضح الناظم هذا، يعني فيما يأتي حيث قال:

(لم يتصل بالعالم الروحاني من عمره على الفضول عاني
ليس يرى من المعاني دان من قلبه في عالم الأبدان)

والبيت الآخر: تفسير لما ذكره هنا بقوله: «ومن هنا يبتدأ الطلوع» ويأتي زيادة بيان وتوضيح عند شرحها إن شاء الله، والله تعالى أعلم.

[اتصال الروح بالحضرة]

ثم بين كيف كان اتصال الروح بالحضرة فقال:

(فلم تزل كل نفوس الأحيا علاّمة درّاكة للأشيا
وإنما تعوقها الأبدان والأنفس النزغ والشيطان
فكل من أذاقهم جهاده أظهر للقاعد خرق العاده)

النزغ هو: النخس والتحريك، نزغه الشيطان: أي نخسه وحركه، والأنفس النزغ هي: التي تحرك صاحبها للمعاصي والشهوات. والنفس، والعقل، والقلب، والروح، والسر: شيء واحد عند محققي الصوفية، وما ثم إلا اللطيفة الربانية حين اشتبكت بهذا البدن وسجنت في هذا الهيكل: اختلفت تسميتها باعتبار تطورها وترقيها، فما دامت مظلمة بالشهوات والمعاصي سميت نفساً، فإذا انزجرت وانعقلت عن المعاصي سميت عقلاً، فإذا سكنت إلى الطاعة لكنها تتقلب في التدبير والاختيار والاهتمام بأمر البدن سميت قلباً، فإذا اطمأنت بالله وسكنت إليه، وفتحت بصيرتها بشهود نور أصلها سميت روحاً، فإذا تصفت من الحس وصارت معنىً محضاً سميت سراً، وهذا كان أصلها سراً من أسرار الله، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85] أي سر من أسراره، فكانت في الأصل علامة لما كان وما يكون، دراكة دقائق الأشياء على ما هي عليه، ولما أدخلها الحق في هذا الهيكل الكثيف إظهاراً لحكمته، وإعلاماً بعظمة قدرته، وإشعاراً بقهريته انحجبت

عن أصلها وغاب عنها ذلك العلم والإدراك ونسيت معاهدها ومعالمها اشتغالاً بتدبير هذا الهيكل الطيني، فهو يميل بها إلى أصله، ويخلد بها إلى أرض الشهوات التي نشأ بالحكمة منها، وهي تتعشق إلى أصلها وتحن إلى وكرها، فإذا طارت ورفرفت إلى وكرها وجدت قفص البدن محيطاً بها، فربما شطحت ورقصت من وراء أردية العز والكبرياء.

وفي ذلك يقول الشيخ أبو مدين رضي الله عنه:

يحركنَا ذكرُ الأحاديثِ عنكمُ ... ولولا هواكمْ في الحشَا ما تحركنَا
فقلْ للذي ينهَى عن الوجدِ أهلَه ... إذا لم تذقْ معنَا شرابَ الهوى دعنَا
إذا اهتزت الأرواحُ شوقاً إلى اللقا ... نعم ترقصُ الأشباحُ يا جاهلَ المعنى
أمَا تنظرُ الطيرَ المقفصَ يا فتى ... إذا ذكر الأوطانَ حنَّ إلى المغنى
يفرجُ بالتغريدِ ما بفؤادِه ... فيطرب أربابَ العقولِ إذا غنى
ويرقصُ في الأقفاصِ شوقاً إلى اللقا ... فتضطربُ الأعضا في الحسِ والمعنى
كذلكَ أرواحُ المحبينَ يا فتى ... تهزِّزُها الأشواقُ للعالمِ الأسنى
أنلزمهَا بالصبرِ وهي مشوقةٌ ... وهل يستطيع الصبرَ مَنْ شاهدَ المعنى[1]

إلى آخر كلامه.

ثم اعلم أن تطورات الروح من: النفس، والعقل، والقلب، والروح، والسر: كل طور له حد ينتهي إليه في العلم والإدراك، أما النفس فحد علمها وإدراكها زينة

---

(1) وتتمة الأبيات:

أنلزمُها بالصبرِ وهي مشوقةٌ ... وهل يستطيع الصبر من شاهد المعنى
إذا لم تذُق ما ذاقتِ الناسُ في الهوى ... فباللّهِ يا خالي الحشا لا تعنّفنا
وسلّم لنا فيما ادعينا لأننا ... إذا غلبت أشواقُنا رُبَّما صحنا
وتهتزُّ عند الاستماعِ قلوبُنا ... إذا لم نجد كتم المواجيد صرّحنا
وفي السرِّ أسرارٌ دقاقٌ لطيفة ... تراقُ دمانا جهرةً إن بها بحنا
فيا حاديَ العشّاقِ قم وٱحدُ قائماً ... وزمزم لنا باسم الحبيب وروحنا
وصن سرَّنا في سكرنا عن حودنا ... وإن أنكرَت عيناك شيئاً فسامحنا
فإنّا إذا طبنا وطابت عقولُنا ... وخامَرنا خمرُ الغرام تهتَّكنا
فلا تلم السكران في حالِ سُكرِه ... فقد رفع التكليف في سُكرِنا عنّا

[الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

ظاهر الكون اغتراراً بمتعة ظاهره، وغفلة عن عبرة باطنة، واشتغالاً بحظوظها وهواها، وأما العقل فحد علمه وإدراكه افتقار الصنعة إلى صانعها، فهو يقرر الصنعة ويردها إلى صانعها، معقولاً عن غير ذلك، وأما القلب في علمه وإدراكه التوجه إلى خالقه بترك الأغيار وطلب الأنوار فقد انطلق من العقال وشد في طلب مولاه الرِّحال.

وأما الروح؛ فحد علمها وإدراكها مواجهة أنوار الملكوت، طالبة أسرار الجبروت، قد استراحت من تعب السير، لكنها لم تتمكن من السر، وأما السر فحد إدراكه أسرار الجبروت، قد نفذت البصيرة من الوقوف مع أنوار الملكوت، وهذا منتهى السير، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿42﴾﴾ [النجم: 42].

وفي هذا المقام قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه:

ولو عاينتْ عيناكَ يومَ تَزلزلتْ أرضُ النفوسِ ودكّت الأجبالُ

لرأيتَ شمسَ الحقِّ يسطعُ نورهُا يومَ التزلزلِ والرجالُ رجالُ

قال: «والأرض»: أرض النفوس، «والجبال» جبال العقل ا هـ.

أي لو غبت عن نفسك ولم تقف مع عقلك لرأيت أنوار ربك.

قوله: وإنما تعوقها الأبدان أي تمنعها من الرجوع إلى أصلها فتكون علامة دراكة للأشياء كما كانت في أصلها، الأبدان التي هي كالأقفاص لها حصراً، وكالقمص والأردية لها ستراً، وإنما منعها البدن من الرجوع إلى أصلها، لأنه ظلماني طيني صلصالي، لا يميل بطبعه إلا لأصله من الشهوات الجسمانية، مأكلاً ومشرباً وملبساً، وكلما تعمق في ذلك تكثفت بشريته، وقويت دائرة حسه، فعظم حجاب الروح، وتوغلت في هذا القفص، وكذلك النفس النزاعة المحركة إلى الحظوظ الذميمة، كحب العلو والجاه والمدح والثناء، وحب الدنيا والنساء وغير ذلك مما يستتبع هذا من: الكبر، والحسد، والبغض، والغضب، والقلق، والحقد، وخوف الفقر، وهم الرزق، وحب الأغنياء: طمعاً وحرصاً، واحتقار الفقراء، وغير ذلك من عيوبها، فهي التي حجبت الروح ومنعتها من العروج إلى وطنها، ولدواء هذه الأمراض وضع علم التصوف، وكذلك الشيطان بوسوسته ونزغه وتزيينه، لأنه حسود فيزين لها الكفر، ثم المعاصي، ثم التثبط عن الطاعات ثم إدخال الرياء فيها، ثم العجب، إذا تخلصت من هذه العوائق رجعت إلى أصلها من علم الحقائق، وإلى ذلك أشار بقوله:

[العوائق وخرق العادة]

(فكل من أذاقهم جهاده أظهر للقاعد خرق العادة)

فجهاد البدن بقطع مواده، من: تقليل الطعام، والشراب، واللباس، والمنام، فلا يأكل ولا يشرب، إلا ليتقوى على طاعة الله؛ ولا يلبس إلا ما يحفظ به البدن، لأنه معرفة سر الله، ولا ينام إلا ما يرد به العقل والنشاط لطاعة الله، وكذلك لا ينقل قدميه إلا حيث يرجو ثواب الله ولا يجلس إلا حيث يأمن غالباً من معصية الله، ولا يصحب إلا من يستعين به على طاعة الله، ولا يتبع إلا من يتحقق وصلته بالله، فيكون في كل حال عاملاً لله، بالله، وجهاد النفس بقطع مألوفاتها، ويخرق عوائدها بتحميلها ما تكره، وإبعادها مما تحب، وأعظمها ثلاث: حب الجاه، وحب الدنيا، وحب النساء، وجهاد الشيطان بالاشتغال بالله والغيبة عنه، فعداوة العدو حقاً هي اشتغالك بمحبة الحبيب حقاً قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: 6] - يعني، وأنا لكم حبيب فاتخذوني حبيباً أكفكم عداوة عدوكم.

وبقي من العوائق: الناس، فإنهم أكبر العوائق وأقبح القواطع لمن وقف معهم واشتغل بمقابلتهم، وأما من غاب عن حسهم وغرق فيهم، فقد صاروا له عوناً على الترقي إلى معرفة خالقهم، وإلى هذا المعنى أشار شيخ شيوخنا المجذوب رضي الله عنه بقوله:

الخلقُ نوّار وأنا رعيتْ فيهم هُمُ الحجبُ الأكبرُ والمدخلُ فيهم

وقال في الحكم: إنما أجرى الأذى عليهم كي لا تكون ساكناً إليهم، أراد أن يزعجك عن كل شيء، حتى لا تكون ساكناً إلى شيء، وقال في شأن الشيطان والنفس «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده، إنما جعله لك عدواً ليحوشك به إليه، وحرك عليك النفس ليديم إقبالك عليه».

فتحصل أن هذه العوائق الأربعة، إنما هي عوائق لمن وقف معها وحجب بها، وأما من لم يقف معها، فإنما هي في حقه معونات وموصلات، حركتهم إلى الله، ودفعتهم إلى حضرته وبها ثبتت خصوصيتهم وتحقق سيرهم، لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين، فسبحان من جمع بين الضدين، شيء واحد حبيب من وجه عدو من وجه، وفي الحقيقة ما ثم إلا الحبيب أوقف على بابه حراساً ليظهر الصادق في محبته من الكاذب فيها، والله عليم حكيم.

وقوله: «أظهر للقاعد خرق العادة» يعني أن من نهض إلى مجاهدة هذه الثلاث أو الأربع قد يكرمه الله بظهور الكرامات وخرق العادات، إما حسية أو معنوية، فيظهر عليه بحسب كل مقام خارق يليق به على قدر حاله، فمن مجاهدة البدن تظهر الكرامات الحسية، إما من جهة العبادة الحسية كحلاوة الطاعات ولذيذ المناجاة لقوله ﷺ: «من غض بصره لله رزقه عبادة يجد لذتها» وإما من جهة خرق العادة الحسية كالمشي على الماء، والطيران في الهواء، وطي الأرض، وتسخير السباع، وجلب الطعام والماء من الغيب، وغير ذلك.

ومن مجاهدة النفس: تظهر الكرامات المعنوية، من: فهم العلوم، واتساع الفهوم، وتحقيق اليقين، وشهود رب العالمين، وتسخير النفوس، وقهرها، وظهور الجلالة والمهَابة إلى الخلق، لحديث: «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[1]

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**من خاف من الله خوف الله منه كل شيء**»[2] الحديث، ونحو ذلك.

ومن مجاهدة النفس والشيطان تظهر الكرامات الحقيقية بالكفاية، والهداية، والحفظ من الضلال والغواية، لقوله تعالى:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: 65] وقوله:

﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 99].

[خرق العادة كامن في النفس]

ثم بين أهل هذه الخوارق، فقال:

(وهي من النفوس في كمون   كما يكون الحَبّ في الغصون)

قلت: الكمون هو: الخفاء والتستر، والضمير في «وهي» يعود على ما تضمنه قوله: «خرق العادة» من العلوم والإدراكات والخوارق والكرامات، يعني: أن العلوم والإدراكات والاقتدار على خرق العادات، هي كامنة خفية في النفوس، أي

---

(1) أخرجه البخاري (جنائز 32) (أيمان 9) (مرض 9) (توحيد 25) ومسلم (جنائز 9، 11) وأبو داود (جنائز 24) (أدب 58) والنسائي (جنائز 22) وابن ماجة (جنائز 53) وأحمد بن حنبل (5، 204، 206، 207).

(2) قال العجلوني: رواه أبو الشيخ في الثواب والديلمي والقضاعي عن واثلة (كشف الخفاء، حديث رقم (2479) [2/ 326].

الأرواح، لأن الأرواح أصلها قبضة من نور الجبروت، فهي: عالمة، قادرة، مريدة، سميعة، بصيرة، متكلمة، فحيث سجنت في هذه الهياكل الكثيفة كمن فيها ذلك السر وخفى، ولم يظهر منه إلا نموذج ضعيف، فسمع العبد وبصره وكلامه وعلمه وقدرته وإرادته وحياته: بقية من تلك الصفات ظهرت على العبد واستتر أصلها في النفوس، كاستتار الحب والثمار في الغصون، حين تكون خالية من الثمار، فإذا نزل المطر وأرعد الرعد أخرجت أوراقها وأزهارها وثمارها.

وإلى هذا أشار بقوله:

(حتى إذا أرعدت الرعود وانسكب الغيث ولان العود
وجال في أغصانها الرياح فعندها يرتقب اللقاح)

قلت: السكب هو: الصب، يقال: انسكبت الدموع والمطر: انصب، والإلقاح هو حمل الأشجار بالثمار، وألقحت النخل ثمارها إذا حملت به، واللقاح بالفتح كسحاب ما يعلق على النخل من طلع الذكر، والمناسب في البيت أن يكون الإلقاح بالهمز مصدراً وهو الحمل بالثمر، وما ذكره هنا كله استعارة، فالمراد بالرعود مجاهدة الجوارح الظاهرة في خدمة الشريعة، ككثرة الذكر، والصلاة، والصيام، والسهر، والجوع، وغير ذلك من مجاهدة الحس، وأوكدها: الذكر والصمت، والعزلة.

ولقد سمعت شيخ شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه يقول: بقيت أربع سنين فانياً في الاسم لا أفتر عنه، لا ليلاً ولا نهاراً، حتى كان البدن كله يهتز به وحده، فإذا قبضت على إحدى رجلي اهتزت الأخرى، فهكذا ينبغي ذكر الله، والفناء فيه، والمراد بانسكاب الغيث: نزول الأحوال والواردات على القلوب من شوق مقلق أو خوف مزعج، ووصول أثرهما إلى الباطن من: الشفقة، والرحمة، والحلم، والصبر، والزهد، والورع، والتوكل، والرضى والتسليم، والمحبة، والطمأنينة، والمراقبة والكرم، والسخاء، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة التي تلين الطباع وتحسن الأخلاق، وهو المراد بقوله «ولان العود» فكما أن العود يلين بسريان الماء فيه، كذلك القلب يلين بسريان الحال الناشىء عن العلم.

والمراد بجولان الرياح: النفحات التي تهب على القلوب من حضرة علام الغيوب، بصحبة العارفين، والحك معهم، وفي حكمة لقمان عليه السلام كان يقول لولده: «يا ولدي جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله ينبت الحكمة في

القلوب بصحبتهم كما تنبت الحبة في الأرض الطيبة» والمراد بالعلماء: العلماء بالله، فإن صحبتهم تلقح العلوم والمعارف والأسرار في القلوب كما تلقح الرياح الثمار في الأشجار، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: 22]، قيل تلقح الأشجار وقيل تلقح الأمطار في السحاب، ثم تصبه حيث أراد الكريم الوهاب، وهذا معنى قوله: «هنالك ينتظر الإلقاح» أي إلقاح العلوم والمعارف في القلوب، ولأجل هذا المعنى قال بعض العارفين: والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح.

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: المراد بالرعود المواعظ المذكرات، ونزول غيث الواردات، الملينة لأفنان شجرة القلب، وجولان رياح الأحوال المتوجهة منها في نواحي القلب، حتى يسري ذلك للجوارح فتتأثر به، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: 23].

وما شرحت به أنسب لطريق التربية، والله تعالى أعلم.

وقد ضرب في القوت مثلاً لهذا السر الكامن في النفوس بالزبد الكامن في اللبن، فإذا ضرب بالمخض خرج زبده، ثم إذا ذوب صار سمناً صافياً.

[معرفة الشهود والعيان]

ثم بين الناظم ما يكون بعد الإلقاح من بدايته إلى نهايته فقال:

(فعندما أزهرت الأغصان ... واعتدل الربيع والزمان
يكون إذ ذاك أوان العقد ... وانتظم الأغصان نظم عقد
حتى إذا أينع للعيان ... وأمنت جوائح الزمان
باكرها زارعها والغارس ... يقطفها، والغير منها آيس)

قلت: العقد الأول بفتح العين، وهو عقد الثمار من الأزهار، والعقد الثاني بكسر العين وهو: سلك الجوهر المنظوم.

يقول رضي الله عنه: فإذا جالت رياح الهداية، وهب نسيم الولاية، وجال في أغصان الأبدان، ثم سرى إلى سويداء الجنان، ألقحت فيه أزهار الحكم، وفنوناً من نوار العلوم، وفتقت أكمام الفهوم مختلفة الألوان ـ صنوان وغير صنوان، يسقى بماء واحد، فعندما أزهرت أغصان الجوارح الظاهرة بالأعمال

والعوالم الباطنية بالأحوال، واعتدل ربيع الشريعة بإظهار زهر جماله في رياض الملكوت، مع زمان هيجان بحر الحقيقة في حياض الجبروت ـ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ـ فعند ذلك يكمل عقد معرفة الشهود والعيان، وتنتظم استقامة الجوارح في مقام الإسلام والإيمان، نزولاً إلى بستان سماء الحقوق أو أرض الحظوظ بعد الإذن والتمكين، وبالعناية لذلك العارف ملحوظ، فحينئذٍ يتحقق بكمال العبودية، ويقوم بوظائف الربوبية، لا يحجبه فرقه عن جمعه، ولا جمعه عن فرقه، قد اعتدل فيه الميزان: يعطىٰ كل ذي حق حقه، ويوفىٰ كل ذي قسط قسطه، فإذا ظهرت عليه آثار العناية، ولاحت له أسرار الولاية تعجبت الناس من أحواله، وما خصه الله به من عظيم نواله، فمن معتقد وناقد، ومن مسلم وحاسد، يريد أن يشاركه في مقامه بدعوى اللسان، ومن ادعى بما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان.

كما أبان ذلك كله الناظم حيث قال:

[ظهور ظلال أنوار العارفين]

(فأي من مر بها مساء وأبصر الظلال والأفياء
ونزه الأبصار والعيونا حيث رأى الأنهار والعيونا
واشتم منها الروح والريحانا وظل في بهجتها حيرانا
فقال نحن إذاً سواء فعندها يجمعنا المساء)

قلت: **المساء** هو آخر النهار: من الزوال إلى الغروب، **والفيء**: الظل إذا أخذ في الزيادة فهو باعتبار ما قبله من عطف الخاص على العام، **والروح** قال في القاموس: الروح بالفتح الراحة والرحمة، ونسيم الريح انتهى، والمناسب هنا هو الأخير، وقال في تفسير الريحان: نبت طيب الرائحة، أو كل نبت كذلك، أو أطرافه أو ورقه، والولد، والرزق انتهى. والمناسب هو: النبت، على حذف مضاف، أي واشتم من تلك الأغصان نسيماً طيباً، ورائحة تلك الرياحين.

يقول رحمه الله ورضي عنه: فأي شخص من البطالين مر في بساتين العارفين ورياض الواصلين في وقت زوالهم واعتدالهم وعند زيادة ظلال أنوارهم وعلومهم، فأبصر ظلال أنوارهم قد ظهرت على وجوههم من أثر خشوعهم أو بهجة سرورهم، كما قال:

[معرفة الله تعالى]

(إن عرفان ذي الجلال لعز ... وضياء وبهجة وسرور
وعلى العارفين أيضاً بهاء ... وعليهم من المحبة نور
فهنيئاً لمن عرفك إلهي ... هو والله دهره مسرور)

ونزه أبصاره في أنهار علومهم الزاخرة، وفي عيون حكمهم الفاخرة، واشتم منها نسيم القرب والوصال، حين قرب من جنة الجمال، وريحان الكمال، فبقي سائر نهاره في بهجة زهرتها ونضرتها حيران، فاستغرب ما أتحفهم به مولاهم المنان، بعد ما كانوا مثله في النقصان، وغاية الجهالة والخذلان، فلما علم بأحوالهم وتحقق بعظيم نوالهم، ترامى بالدعوى على مقامهم، فقال ها نحن معكم سواء، فنشترك معكم في تلك البساتين عند المساء، فما دام نهار البسط والجمال استووا جميعاً بلسان المقال، فإذا جن ليل القبض والجلال، ظهرت الجبناء من الأبطال، وتميزت الشمائت من الرجال:

سوف ترى إذا انجلى الغبار ... أفرس تحتك أم حمار؟

وفي الأمثال بلسان الحال: إن شجرة القرع تصاعدت مع النخلة، وقالت: إني شجرة مثلك، فقالت النخلة: ستعلم الشجرة منا عند هبوب رياح الخريف.

وكذلك المدعون للخصوصية بالتشبه بأهل الطريق إذا اختبرهم الحق تعالى وعبرهم بمحك التحقيق، فأرسل عليهم قاصفاً من رياح الفتن، وضربهم بزلازل المحن، إما في المال أو في البدن، نكصوا على أعقابهم مدبرين، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كاذبين، خسروا الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

قال في التنوير: وإنما يفتضح المدعون بزوال الأحوال وعزولهم عن مراتب الإنزال، هنالك يبدو العوار وتنتهك الأستار، فكم من مدعٍ الغنىٰ بالله وإنما غناه بطاعته، أو بنوره أو بفتحه، وكم من مدعٍ العز بالله، وإنما عزه بنسبته وصولته على الخلق، معتمداً على ما ثبت عندهم من معرفته، فكن عبد الله لا عبد العلة، فكما كان لك رباً ولا علة، فكن عبد الله ولا علة، لتكون كما كان لك.

ثم تمم حال المدعين وما آل إليه أمرهم حين ظهر عوارهم وانكسفت أنوارهم، واشتدت عليهم ظلمة أغيارهم، فقال:

[مدعي المعرفة]

(حتى إذا هجمه الظلام واحتوشته الوحش والهوام
ولم يجد للفوز من أسباب أقام حيران أمام الباب
فقيل من بالباب قال طارق فقيل كلا لا ولكن سارق)

قلت: هجم عليه هجوماً: دخل بغتة، قاله في القاموس؛ وضمنه الناظم معنى جن: أي جنه وغطاه، ولذلك عداه بنفسه، واحتوش القوم الصيد: نفروه، ومعناه هنا خوفته وأفزعته والوحش حيوان البر، والهوام، بشد الميم: حشرات الأرض، والطارق: الآتي بالليل، وكلا: حرف زجر وردع.

يقول رضي الله عنه: إن ذلك المدعي الذي ترامىٰ على مراتب الرجال، بمجرد التشدق والمقال وادعى الوصول إلى مقام الراحة والجمال، قبل أن يتأدب بصدمات الجلال لما هجم عليه ليل القبض والجلال، وغربت عنه شمس نهار البسط والجمال افتضح، وتبين أنه دجال فأفزعته وحوش الشكوك والخواطر، وأحاطت به هوام جرائمه الصغائر والكبائر، فهي تلدغه وتلسعه كلسع العقارب والزنابير، فلما لم يجد منها مسلكاً ولا مهرباً التجأ إلى باب الأكابر، فأقام خلف الباب حيران، يريد أن يضموه معهم إلى حصون ما شيدوه خلف بساتين العرفان، من غير أن يحط رأسه إلى تقبيل أقدام الرجال، ولا أن يسمح بنفسه في عز ولا جاه ولا مال، فنادوه بأفصح لسان الحال: أيها الطارق لباب الرجال، ماذا تريد وأنت على هذا الحال؟ فقال: هذا طارق يريد الدخول إلى حضرة المحبة والوصول، فقالوا له: كلا، ليس حالك حال الطارق، ولكنك متطفل سارق فإذا انكسر وذل نفسه نال مطلبه وحصل أنسه وإن بقي على ما هو عليه كان عاقبته الحرمان.

أو يقول: حتى إذا هجم (على) هذا المدعي المتكبر ظلام الجهل والغفلة واحتوشته وحوش المساوي والعيوب، وأحاطت به هوام المعاصي والذنوب، ولم يجد للفوز والخلاص منهما سبباً أقام خلف باب العارفين، يستمطر الرحمة والعفو من رب العالمين، في حال الدهش والحيرة؛ ينتظر من سعة كرمهم لحظة أو نظرة، مع ما هو عليه من زي أهل الغفلة والفترة، فقالوا له: من هذا الذي وقف بالباب يريد الدخول مع الأحباب من غير أن يعفر خده بالتراب؟ فقال: طارق يريد الوصول، فقالوا: لا سبيل للسارق إلى الدخول.

وإنما سمي المدعي: سارقاً لأنه يسرق كلام القوم وينسبه لنفسه. أو يدعيه حالاً ومقاماً وليس له في ذلك إلا التطفل عليهم دون ذوق ولا وجدان، فإذا أراد الله به خيراً ألقى في قلبه الصدق والتصديق وذل وانكسر لأهل التحقيق. فوقف ببابهم منكسراً، وإلى ما عندهم من المعارف والأنوار مفتقراً، لأنهم باب الله الأعظم.

[دفع ثمن المعرفة]

كما نبه على ذلك الناظم رحمه الله حيث قال:

(فقال مهلاً صاحب الجنات لحائر قد ضل في الفلاة
فقيل هلا كنت ذا بستان؟ فقال كنت قاعداً ووان
فقال يا قوم ألا تشرون؟ قالوا جهلت ثمن المثمون)

قلت: المهل، هو التأخر والتأني، وهو مصدر حذف عامله؛ أي أمهلني مهلاً، وضل تلف، والفلاة هو: الموضع القفر الخالي من العمارة، والواني هو: المتأخر والمتمهل.

يقول رضي الله عنه: إن ذلك المدعي المتطفل لما عرف الحق وأهله، وتحقق عيبه وجهله، أقر بكمال أهل الكمال، وعرف مقالات الرجال، فحين طرق الباب؛ وطرد من ذلك الجناب تهمة له، أنه لم يلق السلاح، ولم ينزع عن فعاله القباح. قال لهم، مهلاً عليّ يا أصحاب الجنات، هنيئاً لكم بما أسلفتم في الأيام الخاليات. ألا ترقوا لحائر قد ضل في الفلاة واستوحشته هوام الذنوب والسيئات. ولسعته حيات الحظوظ والشهوات. ولدغته عقارب الشكوك والخطوات؛ فقالوا: أين كنت وقت ريح السموم وبرد الليالي؟ حين غرست الرجال أشجار المعارف فجنت ثمار المعاني؟ قال: كنت عند كانون الكسل وغار البطالة قاعداً ووانى.

فقالوا له: لا تظن أن بساتين المعارف رخيصة. كل معشوق غالٍ. ما جنيت ثمار المعارف إلا ببرد الليالي.

فقال: يا قوم أنتم أهل الكرم والجود. ألا تبيعوا لي شيئاً من ثماركم المنضود، وتأووني إلى سعة ظلكم الممدود؟

قالوا له: جهلت ثمن ثمارنا المحمود. فلا تناله ولو بذلت فيه نفس المجهود. فليس ينال بالدراهم والفلوس، وإنما ينال ببذل الأرواح والنفوس.

[بذل الأرواح والنفوس]

كما نبه عليه الناظم بقوله:

(فهذه فواكه المعارف لم تشر بالتالد أو بالطارف
ما نالها ذو العين والفلوس وإنما تباع بالنفوس)

قلت: التالد هو المال الذي نتج عندك وطال في ملكك، قال في القاموس: التالد كصاحب والتلد بالفتح والضم والتحريك والتلاد والإتلاد والتلد: ما ولد عندك من مالك. والطارف: الحادث من المال: أي الذي تجدد ملكه، ضد التالد، يقول رضي الله عنه: فواكه المعارف، وأذواق الواجدين. وأنوار الراحلين والواصلين لا تنال ولا تشترى بالأموال القديمة ولا الحادثة ولا بالكسب والاكتساب. وإنما هي فضل من الكريم الوهاب يخص بها من شاء بأسباب وبغير أسباب، وفاعل السبب هو فاعل المُسَبَّب. من تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك، فثبوت الخصوصية إنما هو منح إلٰهية ومواهب اختصاصية ما نالها صاحب الدراهم والفلوس، إنما تنال ببذل المهج والنفوس. يغيب أولاً عن فلسه وجنسه ثم يفنىٰ عن وجوده ونفسه، ثم يفنىٰ عن فنائه ويبقى ببقائه، وما ثم في ذلك كله إلا فضل ربه وعظيم عطائه، وأنشدوا:

قد كنت أحسب أن وصلك يشترى بنفائس الأموال والأرباح
وظننت جهلاً أن حبك هين تفنى عليه كرائم الأرواح
حتى رأيتك تجتبي وتخص من تختاره بلطائف الإمناح
فعلمت أنك لا تنال بحيلة فلويت رأسي تحت طي جناحي
وجعلت في عش الغرام إقامتي فيه غدوي دائماً ورواحي

ومعنى بيع النفوس، هو أن لا يبقى لها حظ ولا لحظ، إذ المؤمن يشغله الثناء على الله، عن أن يكون لنفسه شاكراً، ويشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكراً، وذلك لا يكون مع وجود النقيض، مع التأخر والتشمير، وكمال البقاء في عين الفناء المطلق، وقد تضمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111] الآية، إذ المبيع لا يبقى لبائعه حق فيه ولا حظ، ولا تدبير مع مشتريه، ولا نسبة له في وجوده مع مالكه، وإنما جاء سياق الآية بذلك إظهاراً للرحمة، وتبييناً للكرامة وتتميماً للنعمة، إذ لا رحمة

ولا نعمة أعظم من إكرام السيد عبده بإظهار النسبة له في وجوده بوجوده، مع عزله عن وجوده وموجوده بطريق الرحمة والكرامة، لا بطريق القهر والقوة، والله تعالى أعلم. (قاله الشيخ زروق رضي الله عنه).

ولما كانت جنة الزخارف مشتملة على بساتين وأنهار، وعيون وقصور وحور، شبهت الصوفية بما جنته المعارف، فجعلوا فيها بساتين الأسرار والأنوار التي هي محل نزهة الأرواح، وجعلوا فيها أنهار العلوم وعيون الحكم، وقصور الحضرة، وحور سكنى المعرفة وبحائر تفكه البسط والجمال، واجتناء فواكه الأحوال، وطرق مقامات الإنزال.

فقد ذكر الناظم ما يتعلق بالبساتين والأنهار والعيون، وتكلم على ما بقي من القصور والبحار، فقال:

[الجد والاجتهاد لتحصيل المعرفة]

(وقيل: ليست هذه المقاصر مأوى لكل قاعد وقاصر
وقيل ليست هذه البحائر لحائر ضل فظل حائر)

قلت: المقاصر: جمع مقصورة، والمقصورة هي الدار الواسعة المحيطة، قاله في القاموس، والبحائر جمع بحيرة وهي المقتات.

يقول رضي الله عنه: ليس للسكنى في قصور الحضرة والإقامة في دار المعرفة حاصل لكل قاعد بطال، ولا لكل مقصر كسلان، وليس التفكه من بحائر البسط والجمال لمن كان في حيرة وضلال وأقام في تلفه راضياً بذلك الحال، إنما نالها أهل الجد والاجتهاد، وبصحبة الأفراد السالكين على منهاج الحق والسداد، وفي ذلك قيل:

الأنس بالله لا يحويه بطال ولا يحوزه في الحال مختال
والآنسون رجال كلهم نجب وكلهم صفوة الله عمال

ولا يمكن السكنى في قصور المعارف، والتفكه من بحائر الأذواق، إلا بإفراد الوجهة للواحد الخلاق، فيجعل الهموم هماً واحداً، والقصد قصداً واحداً، والمحبة محبة واحدة، والقلب مفرداً لله، فبذلك ينال القرب من الله، ويسكن في حضرة الله. وفي الحديث: «**من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله هم دنياه**»[1]

(1) أخرجه ابن ماجة (مقدمة 23) (زهد 2).

قلت: وجعل جنة المعارف مأواه، وفي حضرة القدس متقلبه ومثواه.

قيل للجنيد رضي الله عنه: كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله تعالى، قال: بتوبة تزيل الإصرار، وخوف يزيل التسويف، ورجاء يبعث على مسالك العمل، وإهانة النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل.

قيل له: بم يصل العبد إلى هذا؟ قال: بقلب مفرّد، فيه توحيد مجرد.

قال الشيخ زروق: وهذا الأمر لا سبيل إليه سوى الضراعة لمن بيده القلوب وعنده مفاتح الأمور.

ثم نبه على أن ما قدم من العبارة ليس المقصود منها ظاهرها، وإنما هو إشارة، كما قال بعضهم: علمنا كله إشارة، فقال:

(فافهم فتحت هذه العبارة إشارة وأيما إشارة)

قلت: فليس المقصود من ذكر الرعود، والغيث وزهر الأغصان. واعتدال الزمان، ولا من ذكر الظلال والأفياء، والأنهار، والعيون، والروح، والريحان، والطارق، والسارق، والبستان، ما يفهم من ظاهر العبارة، وإنما ذلك إلغاز وإشارة، فتحت كل عبارة إشارة دقيقة ومعانٍ رقيقة، وقد تقدم التنبيه على ذلك كله في محله، وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[أدلة التصوف الشرعية]

ثم ذكر أصل التصوف من جهة دليل الشرع، فقال:

(ولنرجع الآن لباقي الفصل إذ في تمامه ثبوت الأصل)

قلت: الفصل معقود لثبوت أصل التصوف، فذكر أصله من جهة الذوق والوجدان، وبقي ثبوته من طريق الشرع، وبه تمام ثبوت أصله على الكمال، فأشار إليه بقوله:

(فقادة الصوفي أهل الصفة في زمن الرسول فاعلم وصفه
وهم ضياف الله والإسلام وجلساء سيد الأنام)

قلت: القادة، والقدوة، ما اقتديت به، واتبعت طريقته.

يقول رضي الله عنه: فمتبوع الصوفية، وقدوتهم في طريق التجريد وترك الأسباب والانقطاع إلى رب الأرباب، هم أهل الصفة (موضع بناه عليه الصلاة والسلام في طرف مسجده لفقراء أصحابه) كانوا يجتمعون فيه: إذا كثروا بلغوا

أربعمائة. وإذا قلوا كانوا ثمانين أو سبعين، وبه سموا الصوفية (على قول) وكانوا يعرفون بضياف الله، وبضياف الإسلام، آثروا التجريد للعبادة؛ ومجالسة سيد المرسلين، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: 52] كما يأتي، فأقرهم عليه الصلاة والسلام على التجريد وترك الأسباب، حيث علم منهم عدم التشوف للأسباب، والرضى بما قسم الله لهم، وبما يواجههم به سبحانه من سعة أو ضيق، ومن تشوف منهم أمره بالأسباب، مثل حكم بن حزام[1] رضي الله عنه، فإنه سأله فأعطاه ثم سأله فأعطاه ثم سأله فأعطاه، ثم قال له يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، ثم قال له: «**لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه**»[2] الحديث، فدله عليه الصلاة والسلام على التسبب لما تشوفت نفسه للأسباب، بدلاً عن المسألة، إذ هي آخر كسب المؤمن، بخلاف غيره، إذ لم يتشوف، ولذلك قال الخواص رضي الله عنه: ما دامت الأسباب في النفس قائمة، فالتسبب أولى، والأكل بكسب أحل له، لأن القعود عن المكاسب لا يصلح لمن لم يستغن عن التكليف.

[وصفُ حال أهل الصفة تجريدُ الظاهر]

ثم وصف حالهم ليقتدى بهم، فقال:

(كانوا على التجريد عاملين وعن سوى الرحمٰن معرضين)

قلت: التجريد هو: التعرية عن الشيء، يقال: فلان جرد ثوبه: أزاله، وجردت الجلد: أزلت شعره، هذا باعتبار اللغة.

وأما عند الصوفية فهو على ثلاثة أقسام: تجريد الظاهر فقط، أو الباطن فقط، أو هما معاً. فتجريد الظاهر هو: ترك الأسباب الدنياوية وخرق العوائد النفسانية

(1) هو حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزي أبو خالد صحابي قرشي (. . . ـ 54 هـ = 000 ـ 674م) ولد بمكة في (الكعبة) كان صديق النبي (ص) وكان عالماً بالنسب له في كتب الحديث 40 حديثاً.
(الأعلام 2/ 269)، (تهذيب التهذيب 2/ 447)، (الإصابة 2/ 349).

(2) أخرجه البخاري (زكاة 50، 53) (بيوع 15) (مساقاة 13) والنسائي (زكاة 85) وابن ماجة (زكاة، 25) والموطأ (صدقة 10) وأحمد بن حنبل (1، 164، 167، 2، 248، 257، 300، 395، 418، 495).

الجسمانية. والتجريد الباطني هو: ترك العلائق النفسانية والعوائق الوهمية. وتجريدهما معاً هو: ترك العلائق الباطنية والعوائد الجسمانية.

أو تقول: تجريد الظاهر هو: ترك كل ما يشغل الجوارح عن طاعة الله، وتجريد الباطن هو: ترك كل ما يشغل القلب عن الحضور مع الله، وتجريدهما هو: إفراد القالب والقلب لله، والتجريد الكامل في الظاهر هو: ترك الأسباب، وتعرية البدن من معتاد الثياب، وفي الباطن هو تجريد القلب من كل وصف ذميم، وتحليته بكل وصف كريم، فأشار الناظم إلى الأول وهو: تجريد الظاهر بقوله: «كانوا» أي أهل الصفة «على التجريد» الظاهر «عاملين» ورفعوا همتهم إلى رب العالمين، فقنعوا بما تيسر من القوت، وما يستر العورة من الثياب، منها ما يبلغ الركبة، ومنها دون ذلك، كانوا يقولون للنساء في الصلاة: لا ترفعن رؤوسكن حتى يستوي الرجال قعوداً، خشية أن يرين عورة أهل الصفة من قصر الثياب، ومنهم من لبس إهاب كبش: أي جلده، وهو مصعب بن عمير[1]، فلما رآه عليه الصلاة والسلام: بكى وقال: «**انظروا إلى هذا الذي نور الله قلبه فقد رأيته بمكة بين أبويه يختال في حلة قد اشتريت له أو اشتراها بمائتي درهم فما زال به حب الله ورسوله حتى صيره إلى ما ترون**» رواه البيهقي كما في المنذري، ورواه في كتاب «الزهد» عن الترمذي أيضاً، فهذه كانت أحوال أهل الصفة، خيار هذه الأمة، وهذه كانت سمة نبينا ﷺ.

فقد دخل سيدنا عمر رضي الله عنه عليه ﷺ فرأى الشريط قد أثر في جنبه ﷺ، فبكى عمر رضي الله عنه لما رأى ـ كما في البخاري ـ ومات عليه الصلاة والسلام ودرعه مرهونة عند يهودي واليوم صار هذا بدعة عند الناس، وصار التأنق في اللباس وتكبير العمائم وجمع المال سنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ويرحم الله القائل:

يا حسبي الله ما للناس أكثرهم قد أنكروا الزهد والتجريد والورعا
سموا طريق أولي التوفيق صعلكة وسنة لقبوا الأهواء والبدعا

و«سنة» مفعول مقدم للقَّبُوا.

(1) هو مصعب بن عمر بن هاشم بن عبد مناف القرشي من بني عبد الدار (000 ـ 3 هـ = 000 ـ 625م) صحابي شجاع أسلم على يده أسيد بن حضير وسعد بن معاذ وشهد بدراً، وحمل اللواء يوم أحد واستشهد.
(الأعلام 7/ 248) (طبقات ابن سعد 3/ 82) (وصفة الصفوة 1/ 152).

وقول الناظم «وعن سوى الرحمٰن معرضين» أي وكانوا عن سوى الرحمٰن معرضين، لا يلتفتون إليه، ولا يتعلقون به، اكتفاءً بالله واستغناءً بعلمه رضي الله عنهم ونفعنا بهم.

[تجريد الباطن]

ثم أشار إلى الثاني وهو التجريد الباطني، فقال:

(تخلقوا بخلق النبي يدعون بالغداة والعشي)

قلت: تخلق بكذا: تطبع به، والخلق بضمتين: السجية والطبع.

يقول رضي الله عنه: إن أهل الصفة رضي الله عنهم، تخلقوا بخلق النبي ﷺ، يعني قاربوا من خلقه عليه الصلاة والسلام، وإلا فلا يمكن التخلق بخلقه عليه الصلاة والسلام على الوفاء والتمام، كيف والله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: 4] فقد حاز عليه الصلاة والسلام مراتب الكمال على الوفاء والتمام، حتى قالت عائشة رضي الله عنها «**كان خلقه القرآن**»[1] واحتشمت أن تقول: «كان خلق الرحمٰن» أدباً مع الحضرة، ووقوفاً مع الحكمة، فذكرت ما يليق بآداب العبودية، واحتشمت من أخلاق الربوبية، فقد أعطي عليه الصلاة والسلام الغاية من: الزهد، والورع، والخوف، والرجاء، والصبر، والتوكل، والتسليم، والمحبة، والرحمة، والشفقة، والحلم، والكرم، والشجاعة، وكمال العقل، وتمام المعرفة، إلى ما لا يحصى؛ وكان أهل الصفة أشبه الناس به في هذه الأخلاق.

وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام: 52] أشار به إلى قوله تعالى في حقهم لرسوله ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: 28] وسبب نزول الآية أن الكفار قالوا، لا نرضى أن نجالسك مع هؤلاء، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم مجلساً يخصهم به، ثم يجالس الفقراء بعد ذلك، فنزلت الآية.

قال بعضهم: هو أمر إرشاد وتزكية، ونهي تنبيه وترقية، ليكون محجة لقوم؛ وحجة على قوم، وهذا كنهي البار عن العقوق، وأمره بالبر، ليكون أثبت وأوفى

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط برقم (72) [1/ 30] وأحمد في المسند برقم (24645) [6/ 91] ورواه غيرهما.

وأتم في الحجة، وإظهاراً لتشريف قدر هذه الجماعة، وما هم عليه من محامد الخلال، وإلا فهو عليه الصلاة والسلام، لا يعمل إلا ذلك قبل الأمر وبعده، ثم ما وصفهم به مولاهم من الدعاء بالغداة والعشي غير معلل بعلة سوى إرادة وجهه الكريم، أي معرفة ذاته المقدسة. لا يعرجون على ثواب ولا جزاء ولا قصور، ولا حور، وبهذا كله تحققت الصوفية رضي الله عنهم، كما فهموا ذلك من أخلاق نبيهم ﷺ، وما كان يدل عليه، وإلى ذلك أشار بقوله:

[الفرق والجمع]

(قد فهموا مقتضيات الشرع فصيروا الفرق لعين الجمع)

قلت: مقتضى الشيء، مطلوبه، واقتضى دينه: طلبه والشرع، والشرعة، بالكسر: ما شرعه الله لعباده من الأحكام. والفرق عند الصوفية، هو: شهود حق بلا خلق، وجمع الجمع هو: شهود خلق بحق.

الفرق شريعة، والجمع حقيقة، الفرق شهود الحكمة، والجمع شهود القدرة، وجمع الجمع: شهود حكمة وقدرة.

يقول رضي الله عنه في وصف أهل الصفة: إنهم تركوا الدنيا لأهلها، وانقطعوا إلى الله بالكلية، وقد فهموا ذلك من مطلوبات الشرع ومقتضياته، إذ قد سمعوا كلام ربهم وأحاديث نبيهم ﷺ في ذم الدنيا والاشتغال بها، ومدح التفرغ للعبادة والاجتهاد فيها، وما أعد الله فيها للزاهدين والقانتين، فتركوا الأسباب التي هي شريعة الضعفاء، وتمسكوا بالتجريد الذي هو شريعة الأقوياء. وحقيقة الأصفياء، فصيروا الفرق الذي هو الاشتغال بالأسباب لعين الجمع، الذي هو الاشتغال بمسبب الأسباب. فالنظر للأسباب فرق. والنظر لمسبب الأسباب جمع. وهذا كقول الشيخ أبي العباس رضي الله عنه: للناس أسباب وسببنا الإيمان والتقوى. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ [الأعراف: 96] فمقتضى الشرع للعبد أن يكون جامعاً بين حقيقة وشريعة، أعني شريعة الخواص التي هي لب الشريعة. لا شريعة العوام التي هي القشر، وإذا كان جامعاً، فيكون في ظاهره ممتثلاً لأمره، وفي باطنه مستسلماً لقهره يدعوه لكونه لا يرى الأمر إلا منه وله، ويقوم بواجبات وقته لكونه مطلوباً بوظائف حكمته، عاملاً بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: 5] فإياك نعبد فرق ـ وإياك نستعين ـ جمع، وشهود الجمع في عين الفرق،

هو جمع الجمع، وهو الصراط المستقيم الذي طلب الهداية إليه. وبالله التوفيق، فهو الهادي إلى سواء الطريق.

[الغنى بالله تعالى]

ولما ذكر أن أهل الصفة صيروا الفرق عين الجمع، ذكر ما يترتب عليه من الخروج عن كل شيء، والغنىٰ بالله في كل شيء. فقال:

(قد خرجوا لله عما اكتسبوا فكل صوفي إليهم ينسب)

قلت: لا شك أن أهل الصفة رضي الله عنهم كانت لهم أموال وعبيد وإماء وديار وعقار وأهل وعيال، فلما هاجروا إلى الله ورسوله، خرجوا عن ذلك كله، وتركوه لله. فانتقلوا إلى المدينة ليس معهم شيء، فبنى لهم عليه الصلاة والسلام صفة في طرف المسجد فنزلوا فيها: يصلون بالليل ويصومون بالنهار، ويجاهدون مع رسول الله ﷺ في أول الجيش، فقتل أكثرهم في الجهاد، ومن بقي منهم بعد رسول الله ﷺ جاءته الدنيا.

فمنهم من لم يقبلها ولم يأخذ منها شيئاً، كأبي ذر، وأبي الدرداء، وأبي عبيدة، ومعاذ وغيرهم ممن لا يحصى.

ومنهم من أخذها بالله، ودفعها لله، فكان فيها كالأمين ينظر العزل من مولاه، يقوم فيها بواجب الحقوق دون تقصير، ولا تعريج على مخلوق. وكذلك كانت الصوفية المحققون لا يملكون مع سيدهم شيئاً ولا يملكهم شيء.

وقد سأل بعض الفقهاء أبا بكر الشبلي رحمه الله اختباراً له في العلم. فقال: يا أبا بكر: كم في خمس من الإبل، فقال: أما الواجب فشاة، وأما عندنا فكلها لله، قال: وما دليلك قال: أبو بكر حين خرج عن ماله كله لله ورسوله، فمن خرج عن ماله كله فإمامه أبو بكر ومن خرج عن بعض وترك بعضاً فإمامه عمر رضي الله عنه، ومن أعطى لله ومنع لله، كان إمامه عثمان رضي الله عنه، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علي رضي الله عنه، وكل علم لا يدل على ترك الدنيا، فليس بعلم ا هـ.

وقوله: «فكل صوفي إليهم ينسب» يعني أن كل من اتصف بأوصافهم من الخروج عما كسب لله، أو أخذه بالله وأعطاه لله فهو منسوب إليهم، فيقال له صوفي، إما نسبة إلى الصفة على غير قياس، وإما لأنه صفت أحواله كما تقدم في الاشتقاق.

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: كل من اتصف بأوصافهم فهو منسوب إليهم، سواء كان غنياً أو فقيراً، لأن الله عز وجل لم يمدحهم بالعدم، وإنما مدحهم

بكونهم يدعونه بالغدو والعشي يريدون وجهه، فمن اتصف بهذا كان على طريقتهم: غنياً كان أو فقيراً، ودليل ذلك أنه كان منهم بعد ذلك: الأمير، والفقير، والمتسبب، والمتجرد، ولم ينقل ذلك وصفهم عما كانوا موصوفين به، ولا نقصهم عما هم فيه من العمل بالحق والحقيقة، بل شكروا على الدنيا حين وجدت، كما صبروا عنها حين فقدت، فكانوا لمولاهم في الحالتين، ومن كان بهذه الصفة فهو تابع لهم، فاعرف ذلك.

وإذا كان أمر التصوف حال أهل الصفة. فهو أمر ثابت عن الشارع بتقريره، ولم يبق البحث إلا في التسمية، وهو أمر اصطلاحي لا مدخل للإنكار فيه، إذ هي من عوارض الألفاظ، والله تعالى أعلم ا هـ.

دوقوله: «إن هو» يشير إلى أن القياس أن يقال فيه: الصفي «بالشد»، لكن كثيراً ما يأتي النسب على غير قياس، وهذا منه.

[تأصيل علم التصوف]

ثم بين أن طريق التصوف ليس محدثاً، بل هو مقرر من الشارع، فقال:

(إذن فشأن القوم ليس محدثاً بل كان أحوى فوجدناه غثا)

قلت: الأحوى: النبات الضارب للسواد من شدة الخضرة، قاله في القاموس، والغثاء هو: النبات اليابس الهشيم.

يقول رضي الله عنه: إذا تقرر ما تقدم من حال أهل الصفة، وما كانوا عليه من التجريد وقد أقرهم النبي ﷺ على ما كانوا عليه، فليس شأن الصوفية محدثاً، بل هو أمر شرعي، إذ لا يقرر عليه الصلاة والسلام إلا ما هو مباح أو مطلوب، وكيف يكون محدثاً ومدار الشريعة عليه، إذ هو لبها وصفاؤها، إذ مقصود التصوف تصفية البواطن حتى يكون العبد على حالة يرضاها الله ورسوله ظاهراً وباطناً، وإذا كان أمره هكذا، فكل علم يتوقف عليه إما من باب الشرط أو الكمال، إذ مداره على صدق التوجه إلى الله تعالى من حيث يرضى بما يرضي، فكل علم لا يصحبه صدق التوجه إلى الله، فليس بشيء إذ الإخلاص شرط في الجميع، وأيضاً مقام التصوف هو مقام الإحسان الذي فسره رسول الله ﷺ بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1] وذلك لا يصح بدون ما تقع به العبودية والتعبد من عقائد

(1) أخرجه البخاري (إيمان 37) (تفسير سورة 31، 2) ومسلم (إيمان 1، 5، 7) والنسائي (إيمان 5، 6).

الإيمان وأعمال الإسلام، فهما ظاهره وهو باطنهما، فلا قيام لهما إلا به، ولا صحة له بدونهما، فهو كالروح، وهما كالجسد، فالروح لا تقوم بغير جسد، والجسد لا يقوم بغير روح، ولذلك قال مالك رضي الله عنه: من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه وتصوف فقد تحقق، فالفقه من غير تصوف جسد بلا روح، والميت لا عبرة به، والتصوف من غير فقه ما يلزم الإنسان في نفسه لا يصح، إذ لا يدخل للحقيقة إلا من باب الشريعة، وإلا فهي زندقة، فالمتكلم في أحكام الإسلام يسمى فقيهاً، والمتكلم في أحكام الإيمان يسمى أصولياً، والمتكلم في أحكام الإحسان يسمى صوفياً، ويسمى علمه تصوفاً، فغاية التصوف ومداره: تفسير مقام الإحسان، لأنه دال بأوله على خشية الله، وبأوسطه على معاملته، وبآخره على معرفته.

أو تقول: مداره على مراقبة بعد مشاهدة، أو مشاهدة بعد مراقبة، وهو مقام الإحسان.

وأما إنكار بعض الناس هذا اللفظ، بأنه لم يسمع في صدر الصحابة والتابعين، فهو مردود، إذ كثير من الاصطلاحات أحدثت بعد زمان الصحابة، واستعملت ولم ينكر، كالنحو، واللغة، والمنطق.

وأيضاً قد ذكر التجيبي: أنه سمع في صدر السلف، فقد قال الحسن البصري رضي الله عنه: لقيت صوفياً في الطواف، فأعطيته شيئاً ولم يقبله، والحسن من كبار التابعين، أدرك كثيراً من الصحابة، فهو حجة على استعمال هذا الاسم في زمانه، والله تعالى أعلم.

وقوله: «بل كان أحوى فوجدناه غثا» يعني أن التصوف كان في الصدر الأول غضاً طرياً جديداً، لقربه من نور النبي ﷺ، فكان أقل شيء منه ينهض صاحبه، ثم طال أمره وقل وجوده، فوجدناه غثاً: يابساً متهشماً، لكنه يصلح للرعي، كالأول، مع أفضلية الأول، يعني أن حقائقه لم تتغير، وإن تغيرت أعيانه، فالعمل به لم ينقطع، لكنه صار غريباً وأهله غرباء، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**طوبىٰ للغرباء**»[1] وإذا تقرر أن حقائقه لم تتغير وجب العمل به كما أبان ذلك بقوله:

(1) أخرجه مسلم (إيمان 232) والترمذي (إيمان 13) وابن ماجة (فتن 15) والدارمي (رقاق 42) [في الترجمة] وأحمد بن حنبل (1، 184، 398، 2، 177، 222، 389، 4، 73).

[وجوب العمل بالتصوف المقيد بالكتاب والسنة]

(فاسلك طريق القوم تلق يمنه إذ الكتاب قيده والسنة)

قلت: «اليمن» هو البركة والخير، يشير إلى أن طريق القوم ميمونة مباركة، فكل من سلكها بالصدق والمحبة، والجد والاجتهاد: وجد بركتها ويمنها، وبركتها هي ثمرتها، وثمرتها: ما ينتج منها من مكارم الأخلاق ومعرفة الخلَّاق، وقيل: ثمرتها سخاوة النفوس وسلامة الصدور، وحسن الخلق.

وقوله: «إذ الكتاب قيده والسنه» أشار به إلى قول الجنيد رضي الله عنه: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء، ويأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد من اتبعه.

وقال سهل بن عبد الله[1]: بنيت أصولنا على ستة أشياء: كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق.

وقال أبو عثمان الحيري رضي الله عنه: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً: نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة ا هـ.

وقال أبو القاسم النصر أباذي رضي الله عنه: أصل التصوف: ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلائق، والمداومة على الأوراد، وترك الرخص والتأويلات.

قلت: حرر أبو إسحاق الشاطبي هذه المسألة ـ حسبما نقله في «العدة» ـ فرأينا نقله بطوله، لما فيه من الفوائد، فقال رضي الله عنه:

كل ما عمل به المتصوفة المعتبرون في هذا الشأن، يعني كالجنيد وأمثاله لا يخلو: إما أن يكون مما ثبت له أصل في الشريعة، فهم خلفاؤه، كما أن من الصحابة والتابعين خلفاء بذلك، وإن لم يكن له أصل في الشريعة فلا عمل عليه، لأن السنة حجة على جميع الأمة، وليس عمل أحد حجة على السنة، لأن السنة معصومة من الخطأ، وصاحبها معصوم، وسائر الأمة لم تثبت لهم عصمة أصلاً، إلا

---

(1) هو سهل بن عبد الله التستري (أبو محمد) (200 ـ 283 هـ/ 815 ـ 896م) أحد أئمة القوم. كان صاحب كرامات حفظ القرآن الكريم وهو ابن ست أو سبع سنين (الرسالة القشيرية 400).

مع اجتماعهم خاصة، وإذا اجتمعوا: تضمن إجماعهم دليلاً شرعياً، فالصوفية كغيرهم ممن لم تثبت لهم العصمة، ويجوز عليم: الخطأ، والنسيان، والمعصية، كبيرها، وصغيرها، والبدعة: محرمها ومكروهها، وكذلك قال العلماء: كل كلام منه مقبول ومردود، إلا ما كان من النبي عليه الصلاة والسلام.

قال: وقد قرر القشيري رحمه الله ذلك أحسن تقرير، قال: «هل يكون الولي معصوماً؟ قال: أما وجوباً كما يكون في الأنبياء فلا، وأما أن يكون محفوظاً حتى لا يصر على الذنوب وإن حصلت منه هفوات أو زلات أو آفات فلا يمتنع ذلك في وصفهم».

قال: وقد قيل للجنيد: العارف يزني، فأطرق رأسه ملياً، ثم رفع رأسه، وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38].

قال: فهذا كلام المصنف، فكما يجوز على غيرهم المعاصي والابتداع وغيره، كذلك يجوز عليهم البدع، فالواجب علينا أن نقف مع الاقتداء بمن يمتنع عليه الخطأ، ونقف عن الاقتداء بمن يجوز عليه إذا ظهر في الاقتداء به إشكال، بل يعرض ما جاء عن الأمة على الكتاب والسنة فما قبلاه قبلناه، وما لم يقبلاه تركناه، وما علينا إذا قام لنا الدليل على اتباع أقوال الصوفية وأعمالهم إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة، وبذلك وصى شيوخهم، وأن ما جاء به صاحب الوجد والذوق من العلوم والأحوال والفهوم يعرض على الكتاب والسنة، فإن قبلاه، وإلا لم يصح.

ثم قال: إذا نظرت في رسومهم التي حدوها، وأعمالهم التي امتازوا بها عن غيرهم بحسب تحسين الظن والتماس أحسن المخارج، ولم تعرف له مخرجاً، فالواجب التوقف عن الاقتداء والعمل، وإن كانوا من جنس من يقتدى بهم، لا رداً له ولا اعتراضاً عليه، بل لأنا لم نفهم وجه رجوعه إلى القواعد الشرعية كما فهمنا غيره.

ثم قال ـ بعد كلام ـ فوجب بحسب الجريان على رأيهم في السلوك أن لا نعمل بما رسموه وبما فيه معارضة لأدلة الشرع، ونكون في ذلك متبعين لآثارهم، ومهتدين بأنوارهم، خلافاً لمن يعرض عن الأدلة ويصمم على تقليدهم فيما لا يصح تقليدهم فيه على مذهبهم، فالأدلة الشرعية، والأنظار الفقهية: ورسوم الصوفية تذمه وترده، وتحمد من تحرى واحتاط، وتوقف عن الاشتباه، واستبرأ لدينه وعرضه» انتهى كلامه.

هذا آخر فصل أصله عقلاً ونقلاً.

[موضوع التصوف وواضعه وحده واستمداده واسمه وثمرته]

وموضوع هذا العلم: الذات العلية، لأنه يبحث عنها باعتبار معرفتها: ذاتاً وصفاتٍ وأسماءً: تعلقاً وتخلقاً وتحققاً.

وواضعه: الرسول ﷺ وحياً وإلهاماً.

وحده: صدق التوجه إلى الله تعالى من حيث يرضى، بما يرضى.

واستمداده: من الكتاب والسنة، وإلهامات الصالحين، وفتوحات العارفين.

واسمه: التصوف، وتقدم اشتقاقه واستعماله.

وثمرته: تصفية البواطن بالتخلية والتحلية لتتهيأ لواردات الأنوار الإلهية والفتوحات الربانية.

وقد وقع في بعض نسخ الناظم هنا زيادة أبيات تضمنت هذه المعاني، لكن لم توجد في جل النسخ، وليس عليها رونق ولا طلاوة مثل ما للناظم. ولا أظنها إلا زيادة من بعض الكتاب. والله تعالى أعلم.

وأما فضيلته فأشار إليها في هذا الفصل بقوله:

الفصل الثاني في فضله [علم التصوف]

اعلم أن شرف الشيء وفضيلته، إما أن تثبت بالعقل أو بالنقل أو بظهور ثمرته في الخارج، وقد اجتمعت هذه الأمور في علم التصوف على الكمال:

أما ثبوت شرفه بالعقل، فلا شك أن الشيء يشرف بشرف موضوعه وواضعه، وقد تقدم: أن موضوع هذا العلم، الذات العلية، وهي أشرف وأفضل على الإطلاق، وواضعه الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو أفضل الخلق بالإجماع، وأيضاً العقل السليم: يستحسن الكمالات، ولا شك أن التصوف ما وضع إلا لتحقق الكمالات: علماً؛ وعملاً، وحالاً، فهو موضوع لتكميل العقائد وتطهير النفوس وتحسين الأخلاق.

وأما ثبوت شرفه بالنقل، فلا شك أن الكتاب والسنة وإجماع الأمة وردت بمدح جزئياته ومسائله، كالتوبة، والتقوى، والاستقامة، والصدق، والإخلاص، والطمأنينة، والزهد، والورع، والتوكل، والرضى، والتسليم، والمحبة، والمراقبة، والمشاهدة، وغير ذلك من مسائله.

وقال الجنيد رضي الله عنه: لو نعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه ما تبلغ إليه المطي، وفي رواية «ولو حبواً».

وقال الشيخ الصقلي رضي الله عنه في كتابه المسمى «بأنوار القلوب في العلم الموهوب»: كل من صدق بهذا العلم فهو من الخاصة، وكل من فهمه، فهو من خاصة الخاصة، وكل من عبر عنه وتكلم فيه فهو النجم الذي لا يدرك والبحر الذي لا يرتقىٰ اهـ.

وما من علم إلا وقد يستغنى عنه في وقت ما، إلا علم التصوف، فلا يستغني عنه أحد في وقت من الأوقات.

وأما شرفه باعتبار ظهور ثمراته، فهو الذي تكلم عليه الناظم في هذا الفصل، وحصره في ستة أمور:

الأول: ما ظهر على أهله من شدة الاقتداء وقوة الاتباع.

الثاني: ما ظهر عليهم من وفاق مذهبهم، وحسم الخلاف والنزاع بينهم.

الثالث: ما ظهر عليهم من الكرامات الحسية والمعنوية.

الرابع: ما ظهر عليهم من تطهير جوارحهم من الذنوب، ونفوسهم من العيوب في الغالب.

الخامس: ما ظهر عليهم من تحقيق عقائد الإيمان، وترقيهم فيها إلى مقام الإحسان، مع صحة اليقين والثقة برب العالمين.

السادس: ما كوشفوا به من العالم الروحاني، وما ترقوا إليه من عالم الملكوت، وحضرة الجبروت، وهذا مضمن هذا الفصل، فأشار إلى الأول بقوله:

[ترجيح علم التصوف على ما سواه من العلوم]

(حجة من يرجح الصوفية على سواهم حجة قوية)

قلت: وإنما كانت حجة من يرجح الصوفية على غيرهم حجة قوية، لأنهم أحرزوا الكمالات: عقداً وعملاً، وحالاً، أما اعتقادهم فترقوا فيه إلى الشهود والعيان، وأما عملهم فهم يأخذون بالأحسن والأحوط، فهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وأما حالهم فهي: ربانية ذوقية، فهم على بينة من ربهم.

ثم ذكر ترجيحهم وشرفهم باعتبار ما ظهر عليهم من ثمرات علمهم، وهي ستة ـ كما تقدم ـ فأشار إلى الأول، وهي شدة الاقتداء والمتابعة فقال:

[الاقتداء والمتابعة]

(هم أتبع الناس لخير الناس من سائر الأنام والأناس)

قلت: الأنام، والأناس: شيء واحد، وهم الناس؛ سموا الأنام، لغلبة النوم لهم؛ وسموا الناس، لأنس بعضهم ببعض.

يقول رضي الله عنه: «هم أي الصوفية أتبع الناس» وأكثرهم اقتداء بسيد الناس ﷺ فدل ذلك على أنهم أحب الخلق إلى الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31] وقال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه؛ وماله، وولده،**

والناس أجمعين»[1]، وعلامة المحبة الاتباع.

وقال بعضهم: التصوف ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع؛ وعمل مع اتباع.

[الصوفية أشد اتباعاً للنبي ﷺ]

ثم ذكر وجه كونهم أشد الناس اتباعاً، فقال:

(تبعه العالم في الأقوال والعابد الناسك في الأفعال
وفيهما الصوفي في السياق لكنه قد زاد بالأخلاق)

قلت: الناس ثلاثة: عالم، وعابد، وعارف صوفي، وكلهم قد أخذوا حظاً من الوراثة النبوية، فالعالم ورث أقواله عليه الصلاة والسلام تعلماً وتعليماً، بشرط إخلاصه، وإلا خرج من الوراثة بالكلية، إذ الأعمال بلا إخلاص، أشباح بلا أرواح؛ ومن ورث من أبيه جارية ميتة، فليس بوارث، والعابد ورث أفعاله عليه الصلاة والسلام، من: صيام وقيام، ومجاهدة ظاهرة، فقد قام عليه الصلاة والسلام حتى تورمت قدماه، وكان يصوم كثيراً، ويفطر كذلك، والصوفي العارف ورث الجميع، فأخذ في بدايته ما يحتاج إليه من العلم، وقد يتبحر فيه، ثم ينتقل إلى العمل على أكمل حال، ثم زاد عليهما بوراثة الأخلاق التي كان عليها باطنه ﷺ من: زهد، وورع، وخوف، ورجاء، وصبر، وحلم، وكرم، وشجاعة؛ وقناعة، وتواضع، وتوكل، ومحبة، ومعرفة، وغير ذلك مما يطول ذكره، ولذلك قال سهل رضي الله عنه: الصوفي: من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله دون البشر، واستوى عنده المال والمدر.

وقد خص الله رسول الله ﷺ بخصائص لم يشاركه أحد فيها، فكان له القوة في الجهتين، فمن نظر في عبادته وجده لا يطاق، ومن نظر في أخلاقه الباطنة وجده لا يدرك، ومن نظر في معرفته وجده لا يلحق ولا يقرب أحد حول حماه، فكان عليه الصلاة والسلام على مقام: لا يدرك، ولا يلحق، ولا يعرف.

وانظر قول الشيخ القطب ابن مشيش رضي الله عنه: «وفيه ارتقت الحقائق وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق» ولن ينال أحد من العلماء والعباد والصوفية من علمه عليه الصلاة والسلام

---

(1) أخرجه البخاري (إيمان 8، إيمان 3) ومسلم (إيمان 69، 70) والنسائي (إيمان 19) وابن ماجة (مقدمة 9) وأحمد بن حنبل (3، 177، 207، 275، 278، 4، 336).

أو عمله أو خلقه إلا رشفة أو رشة، ولله در البوصيري في بردة المديح، حيث يقول:

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم
وواقفون لديه عند حدهم من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

[اتفاق مذهب التصوف واتحاد غايته]

ثم ذكر الأمر الثاني، وهو: اتفاق مذهبهم، واتحاد غاية طريقهم.

(ثم بشيئين تقوم الحجه وأنهم قطعاً على المحجه
مذاهب الناس على اختلاف ومذهب القوم على ائتلاف
وما أتوا فيه بخرق العاده إذ لم تكن لمن سواهم عاده)

قلت: الحجة هي الدليل والبرهان، والمحجة هي الطريق المستقيم، والائتلاف هو الاتفاق.

يقول رضي الله عنه: ثم تقوم الحجة الدالة على أنهم على المحجة والطريق المستقيم بشيئين: **أحدهما** أن مذاهب الناس على اختلاف كثير، فقد كانت مذاهب الفقهاء في الفروع اثني عشر مذهباً، ثم تقررت في أربعة.

كانت مذاهب القراء خمسة وعشرين رواية، ثم تقررت في عشرة، وكانت مذاهب النحاة على مذهبين، بصري، وكوفي، بخلاف مذهب الصوفية، فهي متفقة في المقصد والعمل وإن اختلفت المسالك، فهي راجعة إلى صدق التوجه إلى الله تعالى من حيث يرضى بما يرضى وعبارة كل واحد على قدر ما نال منه، إذ كل عبارة فيه إنما هي مخبرة عن صدق توجه صاحبها؛ وكل من له نصيب من صدق التوجه: له نصيب من التصوف، إذا كان توجهه يرضاه الحق، ومن حيث يرضاه، وإلا فهو زنديق، واسم التصوف عليه لا حقيقة له، فلذلك قيل «من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق» وإنما تزندق الأول لرفضه الحكمة والأحكام، وتفسق الثاني لخلوه من صدق التوجه فيما هو فيه، وتحقق الثالث لقيامه بكلٍ في محله، فمرجع كلام الصوفية في كل باب لأحوالهم، وإلا فلا تنافي بين أقوالهم لمن تأملها، وذلك خلاف مذهب غيرهم، والوجه فيه أن الحق واحد وطريقه واحدة، وإن اختلفت مسالكها، فالنهاية واحدة، والذوق واحد، وفي معنى ذلك قال قائلهم:

الطرق شتى وطريق الحق مفردة والسالكون طريق الحق أفراد

لا يعرفون ولا تسلك مقاصدهم فهم على مهل يمشون قصاد
والناس في غفلة عما يراد بهم فجلهم عن طريق الحق حياد

فإن قلت: قد ورد مدح الاختلاف وذم الائتلاف فقد ورد في بعض الآثار «**اختلاف أمتي رحمة**»[1] وقال بعضهم: ما دامت الصوفية بخير ما تنافروا، فإذا اتفقوا فلا خير فيهم.

قلت: أما مدح الاختلاف فهو محمول على الاختلاف في الفروع، كاختلاف الأئمة في المذاهب، فإن في ذلك توسعة على الأمة، إذ كل من تمسك بمذهب فهو ناج، ما لم يتبع الرخص، وكذلك اختلاف الروايات في القراءة، فهي توسعة أيضاً على القارئ، بخلاف الاختلاف في الأصول، فهو مذموم، كاختلاف القدرية والجبرية والحشوية وغير ذلك من الاختلاف في التوحيد، ومذهب الصوفية هو الاتفاق في الأصول والفروع.

أما الأصول فنهايتهم الشهود والعيان، وهم متفقون فيه، لأنه أمر ذوقي لا يختلف.

وأما الفروع فهم يأخذون بالأحوط، والأكابر منهم يخرجون عن التقليد، ويتمسكون بالكتاب والسنة في نفسه، وإن كان جلهم قلدوا في الفروع، فكان الجنيد على مذهب أبي ثور، والشبلي: مالكياً، والجيلاني: حنبلياً، إلى غير ذلك.

وأما قول من قال: «ما دامت الصوفية بخير ما اختلفوا» فمراده اختلاف تنبيه وإرشاد فكل واحد يرشد صاحبه وينبهه إذا رأى فيه نقصاً وعيباً، فإذا اتفقوا وسكتوا على عيوبهم فلا خير فيهم، وقد يحمل ذلك على حال مذاكراتهم في العلوم، فقد قالوا فيهم: «ألسنتهم حادة، وقلوبهم سالمة» ولا شك أن حال المذاكرة لا ينبغي فيها التسليم في كل شيء، إذ لا تخرج العلوم إلا بالحك والبحث والتفتيش.

قال بعضهم، نحن في حال المذاكرة بحال من قال: «حك لي، نربل لك» لا بحال من قال: «سفج لي، نعسل لك» هكذا سمعتها من شيخ شيخنا مولاي العربي

---

(1) أخرجه العراقي في (المغني عن حمل الأسفار 1/ 28) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 1/ 204، 205) والفتني في (تذكرة الموضوعات 90) والمتقي الهندي في (كنز العمال 28686).

رضي الله عنه، وكان يقول لي: لا تسلم لنا في حال المذاكرة، وكان أيضاً يقول: المستحي، والمتكبر، والخواف، لا يأخذ من طريقتنا شيئاً، والله تعالى أعلم.

[خرق العادة]

وأما الأمر الثالث الذي تقوم به الحجة فهو خرق العادة التي ظهرت على أيديهم، وتسمى: الكرامة، وقد تقدم تنويعها إلى حسية ومعنوية، وأن المعتبر هي الكرامة المعنوية، وهي الاستقامة، وأما الكرامة الحسية فإن صحبتها الاستقامة فهي كرامة شاهدة على صدق صاحبها مع الله، وإن لم تصحبها استقامة، فهي: استدراج ومكر.

قال بعضهم: خرقي العادة كرامة للمبتدع، والمبتدع هو المغروق في الدنيا وأشغالها إلى عنقه، ولو كثرت صلاته وصيامه.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على السنة والمتابعة وترك الدعاوي والمخادعة، فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو مفترٍ كذاب، أو ذو خطأ في العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على الرضى، ثم جعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع المرضى.

وكرامة الأولياء قد بلغت مبلغ التواتر، فلا تحتاج إلى دليل، والله تعالى أعلم.

[تطهير الجوارح والقلوب]

ثم أشار إلى الأمر الرابع، وهو تطهير جوارحهم من الذنوب، وقلوبهم من العيوب فقال:

(قد رفضوا الآثام والعيوب وطهروا الأبدان والقلوب)

قلت: لا شك أن الصوفية رضي الله عنهم قد رفضوا الذنوب، أي نبذوها وراء ظهورهم ورفضوا العيوب، أي: طهروا قلوبهم منها، وسبب تطهيرهم من الذنوب والعيوب تطهيرهم من أصلها ورأسها.

أما أصلها، فالخلطة مع الغافلين الجاهلين، فمن خالط العوام وظن أنه ينجو من الآثام فقد رام المحال، كمن خلط الحطب مع النار؛ وظن أنه ينجو من الاحتراق.

وأما رأسهما فحب الدنيا الساكن في القلوب.

ففي الحديث: «**حب الدنيا رأس كل خطيئة**»[1] رواه البيهقي في الشعب من مراسيل الحسن.

وقيل هو: من كلام مالك بن دينار[2]

وقيل: من كلام سيدنا عيسى عليه السلام.

وقيل: من كلام علي كرم الله وجهه.

وعده بعضهم في الموضوعات، ورده ابن حجر، فالله تعالى أعلم.

وعلى كل حال فهو كلام صحيح في المعنى مجرب مذوق فمن طهر قلبه من حب الدنيا ورياستها ومالها واعتزل عن الحسد فالغالب سلامة قلبه من العيوب، وطهارة جوارحه من الذنوب، وما تشعبت عيوب القلوب إلا منها، إذ عليها يقع الحسد والبغض والغل والخصام والفجور، وبها يقع الكبر، وحب الرياسة، والنفاق، والتصنع للخلق، وبها أيضاً يقع: البخل، والشح، والجبن، وغير ذلك من العيوب، وكذلك الذنوب، كالكذب والأيمان الفاجرة، وسوء الخلق وغير ذلك. ويرحم الله الإمام الشافعي رضي الله عنه حيث قال:

وَمَن يذق الدنيا فإني طعمتها ... وسيق إليَّ عذبها وعذابها

فلَم أرَهَا إلا غروراً وباطلاً ... كما لاحَ في ظهرِ الفلاةِ سَرابُها

وما هيَ إلا جيفةٌ مستحيلةٌ ... عليها كلابٌ هَمَّهُنَّ اجتذابُها

فإنْ تجنبتَهَا عشْتَ سلماً لأهلِها ... وإن تجتذبْها ناهَشَتْكَ كلابُها

---

(1) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 3/ 131، 7/ 354، 8/ 81، 295، 494) والمتقي الهندي في (كنز العمال 6114) والتبريزي في (مشكاة المصابيح 5213) والسيوطي في (الدر المنثور 6/ 341) والسيوطي في (الحاوي للفتاوي 2/ 48) والمنذري في (الترغيب والترهيب 3/ 257) والبخاري في (التاريخ الكبير 3/ 472) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 3/ 197، 401) والفتني في (تذكرة الموضوعات 173) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة 70) وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة 179) والعجلوني في (كشف الخفاء 1/ 412، 413).

(2) هو مالك بن دينار البصري أبو يحيى (000 ـ 131 هـ = 000 ـ 748م) من رواة الحديث كان ورعاً. توفي بالبصرة.
(الأعلام 5/ 260) (وفيات الأعيان 1/ 440).

فطوبي لنفسٍ أُوطنت قعرَ بيتها مغلقةَ الأبوابِ مرخًى حجابُها

وقوله: «وطهروا الأبدان والقلوب» تفسير لما قبله على طريق اللفظ، والمعنى وطهروا الأبدان من الآثام والذنوب، وطهروا القلوب من المساوىء، والعيوب، فلما حصل لهم هذا التطهير المجيد لاح لهم قمر التوحيد، فأسلموا الأمر إلى مولاهم ورجعوا إلى من قد تولاهم عملاً بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: 22]. فلما تحققوا بذلك وقفوا في رياض الإحسان، وأشرقت عليهم شموس العرفان، وأضاءت لهم أنوار المواجهة والعيان.

هذه المنازل الثلاث هي التي ينزلها المريد ويرتحل عنها.

منزل الإسلام، وهو محل تطهير الجوارح الظاهرة من الذنوب وتحليتها بطاعة علام الغيوب.

ومنزل الإيمان، وهو محل تطهير القلوب من المساوىء والعيوب، وتحليتها بمقامات اليقين، لتتهيأ لحمل معرفة رب العالمين.

ومنزل الإحسان، وهو محل الشهود والعيان.

قال بعض العارفين رضي الله عنه: من بلغ إلى حقيقة الإسلام لم يقدر أن يفتر عن العمل، ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان لم يقدر أن يلتفت إلى العمل، ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله تعالى.

[بلوغ حقيقة الإيمان والإحسان]

وإلى هذه المراتب أشار بقوله:

(وبلغوا حقيقة الإيمان وانتهجوا مناهج الإحسان)

قلت: وهذا هو الأمر الخامس الذي ظهر به شرف أهل التصوف وفضيلتهم، وأنهم بلغوا إلى حقيقة الإيمان وصريحه، بتحقيق دعائمه وأركانه، التي من جملتها الإيمان بالقدر: خيره وشره، حلوه ومره، فقد استوى عندهم وقت الخير ووقت الشر، ووقت الحلو مع وقت المر، قد استوى عندهم الذل والعز؛ والذم والمدح، والمنع والعطاء؛ والقبض والبسط وغير ذلك من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار، وذلك لأجل ما حصل لهم من مقام الرضى والتسليم، وكمال المعرفة وخلوص اليقين.

وقوله: «وانتهجوا مناهج الإحسان» أي سلكوا طريق الإحسان الموصلة إلى الشهود والعيان، ولذلك افتقروا إلى دليل يكون عارفاً بالمنازل والمناهل، قد سلك الطريق وعرفها حتى يوصلهم إلى مطلوبهم، ويقول لهم ها أنتم وربكم، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله.

[الترقي من الملك إلى الملكوت]

ثم أشار إلى الأمر السادس، وهو ترقيهم من عالم الملك إلى عالم الملكوت، أو تقول من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، فقال:

(وعلموا مراتب الوجود كالأم والوالد والمولود
واستشعروا شيئاً سوى الأبدان يدعونه بالعالم الروحاني)

قلت: مراتب الوجود هي: العوالم الثلاثة: الملك، والملكوت، والجبروت، وذلك أن الوجود له ثلاثة اعتبارات.

وجود أصلي أزلي، وهو الذي لم يدخل عالم التكوين، ويسمى عالم الأمر، وعالم الغيب، وهو المسمى بعالم الجبروت.

ووجود فرعي، وهو النور المتدفق من بحر الجبروت وهو كل ما دخل عالم التكوين: لطيفاً كان أو كثيفاً، ويسمى عالم الشهادة وعالم الخلق، وهو المسمى: بعالم الملكوت لمن غرق فيه وجمعه بأصله.

ووجود وهمي، وهو محل ظهور التصرفات الإلهية، ومقتضى الأسماء الجلالية والجمالية ويسمى عالم الحكمة؛ وهو عالم الملك.

وقال بعضهم: العوالم أربعة: عالم الشهادة، وعالم الغيب، وعالم الملكوت، وعالم الجبروت.

فالأول كالكثائف المحسوسة، **والثاني** كاللطائف الغيبية، كالجن والملائكة والأرواح، وهذا كله داخل في عالم الملك، **والثالث** وهو عالم الملكوت، هو جمع لهذه الأشياء، وضمها إلى أصلها، وتحقيق الشهود فيها، **والرابع** الذي هو الجبروت، هو العظمة الأصلية اللطيفة الأزلية قبل ظهورها، وفي هذه المراتب يقع الترقي للسائرين، فيترقون من عالم الملك الذي هو وهمي ظلماني حسي، إلى عالم الملكوت الذي هو نوراني ملكوتي، ثم يترقون إلى عالم الجبروت الذي هو أصلي أزلي، فإذا ضموا الأصول إلى الفروع صار الجميع جبروتاً، وهذا هو العالم

الروحاني الذي أشار إليه بقوله: «واستشعروا شيئاً سوى الأبدان».

وقوله: «كالأم» الخ يعني أنهم عرفوا مراتب الوجود الثلاث، وفرقوا بين: الملك والملكوت، والجبروت، تفريقاً ضرورياً كما يفرق الرجل بين ولده، وأمه، وأبيه، ويحتمل أن يكون التشبيه من حيث الإيجاد والظهور، فإن عالم الجبروت سبب في ظهور عالم الملكوت «فهو أشبه شيء بالولد» وعالم الملكوت هو محل استقرار الصفات، كالقدرة والإرادة، والعلم، والحياة، التي هي سبب في إظهار آثارها لعالم الملك، فهو أشبه بالأم في تربية الولد قبل الظهور وبعده، وعالم الملك هو محل ظهور التصرفات الإلهية وآثار القدرة الأزلية، فهو أشبه شيء بالولد لظهوره بينهما، وربما يلوح حديث: «**الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله**»[1] رواه أبو يعلى، والبزار، عن أنس ولفظه «**الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أحبهم وأنفعهم لعياله**» والله تعالى أعلم بالصواب.

وقوله: «واستشعروا شيئاً سوى الأبدان» الخ.

اعلم أن عالم الأشباح هو عالم الملك، وعالم الأرواح هو عالم الملكوت، ومحلهما واحد، إذ ليس لنا إلا وجود واحد، لكن النظرة تختلف باختلاف الترقي في المعرفة، فما دام العبد مسجوناً بمحيطات حسه، محصوراً في هيكل نفسه، فهو مقيم في عالم الأشباح، محصور في عالم الملك، لم تفتح له ميادين الغيوب، لم يفرق بين روحانية وبشرية، ولا بين حسه ومعناه فإذا فتح الله بصيرته وغاب عن حسه ونفسه، وفلسه وجنسه، رأى نور الملكوت قد فاض من بحر الجبروت، فحجب شهود ذلك النور عن ظلمة الحس، وعن رؤية الكون، بشهود المكون، فالكون أصله كله نور، وإنما حجبه ظهور الحكمة فيه، فمن رأى الكون ولم يشهد النور فيه أو قبله أو معه، فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بحسب الآثار، فإذا ضم النور إلى أصله صار الجميع نوراً واحداً، وهو نور الجبروت، أو سر اللاهوت، فقد علمت أن الملك، والملكوت، والجبروت، محلها واحد، وكذلك عالم الأشباح وعالم الأرواح، محلهما واحد، فأهل الحجاب لا يرون إلا عالم الأشباح، وأهل العرفان، وهم أهل مقام الإحسان لا يرون إلا عالم الأرواح، مع أن المحل واحد لكن لما رق حجابهم، وتلطفت بشريتهم، استشعروا شيئاً زائداً على عالم الأشباح، وهو عالم الأرواح، ويسمى عالم المعاني، والعالم

(1) أخرجه ابن كثير في (البداية والنهاية 10/ 275) وابن أبي الدنيا في (قضاء الحوائج 24).

الروحاني، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله عند قوله:

(لم يتصل بالعالم الروحاني من عمره على الفضول عاني)

وعند قوله:

(مهما تعديت عن الأجسام أبصرت نور الحق ذا ابتسام)

والله تعالى أعلم.

[المعارف الصوفية خارجة عن مدارك العقول]

ثم أشار إلى أن هذه المعاني لا تدرك بالعقول، وإنما هي أذواق يلغز إليها بإشارات المنقول، فقال:

(ثم أمام العالم المعقول معارف تلغز في المنقول)

قلت: اعلم أن النفس، والعقل، والروح، والسر، كل واحد منها له حد ينتهي إليه في العلم والإدراك، على ما يأتي بيانه إن شاء الله عند قوله:

(يا جاهلاً أقصى الكمال وقفا على عقول وهمها لا يخفى)

فشهود أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، وهي علوم المعارف، أمر خارج عن مدارك العقول، فهو أمام العالم المعقول، أي وراءه وقدامه: لا مطمع له في إدراكه، وقد تقدم قول ابن الفارض.

فثم وراء النقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة

وقال أبو العباس رضي الله عنه:

فلو عاينت عيناك يوم تزلزلت أرض النفوس ودكت الأجبال

لرأيت شمس الحق يسطع نورها يوم التزلزل والرجال رجال

قال: والأرض: أرض النفوس، والجبال: جبال العقل.

وقال بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: 143] أي تجلى لجبل العقل جعله دكاً أي مضمحلاً ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[الأعراف: 143] أي زال وجوده بوجود خالقه، والمتجلي فيه.

والحاصل: أن شموس العرفان لا تدرك بعقل ولا حدس ولا برهان، وإنما تدرك ببيع النفوس وبذل الأرواح، وبالخروج عما تعهده النفوس وتحيط به العقول، فإذا صح منك هذا الخروج، أدركت أنوار الملكوت متصلة ببحر الجبروت وصرت لا يحجبك عن الله أرض ولا سماء، ولا عرش ولا كرسي، ولا أفلاك ولا أملاك،

وصرت أنت قطب الوجود تدوره بيدك كيف شئت، خليفة الله في أرضه، ونقطة دائرة كونه، والله ذو الفضل العظيم وإلى هذه المعارف أشار بقوله:

(ثم أمام العالم المعقول معارف تلغز في المنقول)

وأشار بقوله: «تلغز» الخ إلى أن هذه المعاني ليست صريحة في كلام الله، وإنما هي من باب الإشارة واللغز، وكذلك قيل في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزلزلة: 1] أي أرض النفوس ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة: 2] أي ما فيها من العلوم والحكم والأسرار ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الزلزلة: 3] متعجباً من حال تلك النفس ﴿مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [الزلزلة: 3 ـ 4] تظهر أسرارها ومواهبها، وهذه كلها إشارات وألغاز، وكذلك قوله ﷺ في تفسير الإحسان «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن**»[1] وقف بعضهم هنا وجعل «تراه» جواباً أي فإن تحقق زوالك، ولم تكن شيئاً تراه، وهذه الأمور كلها إلغازات وإشارات لا يسلمها أهل الظاهر، وإنما يذوقها أهل الباطن، ويلغزون بينهم بها، وقد قالوا: علمنا كله إشارة، فإذا صار عبارة خفي، ثم إن هذه الأمور إنما هي كشوفات تشرق على الأرواح والأسرار، تكون لوائح ثم لوامع، ثم يتصل الشروق، ويدوم النور، حتى يقع الرسوخ والتمكين؛ وإلى ذلك أشار بقوله:

[مقام التمكين واليقين ومراتب الكشف]

(وعلموا أن لهم تمكيناً يرقى بهم مرقى المكاشفينا)

قلت: قد علموا أن دوام السير قطعاً يؤدي إلى الوصول، وحال التلوين لا بد يوصل إلى التمكين، فإذا ترقوا إلى مقام التمكين فقد وصلوا إلى مقام لو كشف الغطاء ما ازدادوا يقيناً بل قد انكشف الغطاء، لكن مراتب الكشف لا نهاية لها، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].

ولما علموا بمقام التمكن، علموا أن لهم موانع تمنعهم من الوصول إليه، كما أشار إلى ذلك بقوله:

(ثم رأوا أن دون ذلك مانع كدفتر نيط عليه طابع
فالقوم حين علموا بذاكا وميزوا القطاع والأشراكا

---

(1) أخرجه البخاري (إيمان 37) ومسلم (إيمان 1، 5 ـ 7) وأبو داود (سنة 16) والترمذي (إيمان 4) والنسائي (إيمان 5، 6) وابن ماجة (مقدمة 9) وأحمد بن حنبل (2، 107، 132).

سلوا من العزم لهم قواضب فأنبت كل قاطع وحاجب
فاحتزموا للطعن والنزال وابتدروا ميادين القتال)

قلت: الدفتر: الكتاب، وأراد به هنا الحرز والتميمة، ونيط: أي ألف، وغشى الطابع بفتح الباء كالقالب والكاغد والخاتم، والعالم والنابل والطابق، وألفاظ أخر تبلغ خمسة وعشرين كلمة، كلها بفتح عين الكلمة، نظمها ابن مالك، والأشراك جمع شرك وهي الشبكة، والقواضب، جمع قاضب، وهو السيف الصارم، والنزال هو: شدة الحرب، وذلك أن العرب إذا اشتد بينهم الحرب نزلوا عن خيولهم ليقاتلوا بالسيوف، والميادين مجال الخيل استعير هنا لمجاهدة النفوس ومحاربتها.

يقول رضي الله عنه: إن القوم لما شعروا بالحقيقة كامنة في نفوسهم، وكوشفوا بها، علموا أنهم إن تمكنوا من الوصول إليها والرسوخ فيها حصل لهم كشف الغطاء، وارتفعت الحجب عن قلوبهم، فكانوا على بينة من ربهم، ثم رأوا أن مقام التمكين دونه موانع وقواطع، تمنعهم من الوصول إلى ذلك المقام، وهذه الموانع هي التي غطت القلوب وغلفتها وحجبت الأرواح عن الكشف عن أصلها، فصار القلب والروح كحرز مكتوب: لف عليه غشاء وطبع عليه طابع، فلا يظهر ما في باطنه حتى يخرق ذلك الطابع والغشاء الذي غشى عليه، وهذا الطابع الذي جعله الله بحكمته وعدله حاجباً للقلوب عن أسرار الغيوب، هو عالم الطبيعة، وهي شهوات النفوس وعوائدها التي امتزجت معها، وعجنت بطينتها في أصل النشأة وهي التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل عمران: 14]، الآية فاشتغلت الروح بتدبير هذا البدن لجهلها، فصرفت همتها لمأكله ومشربه وملبسه ومسكنه ومنكحه، وما يتبع ذلك من الشواغل والشواغب، فعيقت عن أصلها، ومنعت من شهود أنوار ربها، إلا من أسعده الله بولايته، وسبقت له سابقة عنايته، فلما علم القوم بهذه القواطع التي قطعتهم عن الوصول إلى ربهم، وميزوا هذه القطاع والشباكات التي حبستهم في قيودها، وهي علائق الدنيا وعوائقها، سلوا من هممهم العالية سيوفاً، وعزموا على قطع تلك العلائق، ورفضوا تلك الشهوات، فلما علقوا هممهم بالله، وانقطعوا بكليتهم إليه انقطعت تلك العلائق، وارتفعت تلك الحجب، فاحتزموا وشمروا للطعن في تلك العلائق، ونزلوا لمحاربة النفوس وردها إلى حضرة الملك القدوس، حتى ألقت السلاح،

وأذعنت لطاعة الكريم الفتاح:

قال بعضهم: انتهى سير الطالبين إلى الظفر بنفوسهم، فإن ظفروا بها وصلوا، وهذه مسايرة كلام الناظم، وفيه تقديم وتأخير، فإن قطع العلائق ورفع الحجب مؤخران عن محاربة النفوس، فقول الناظم «فأنبت كل قاطع وحاجب» مرتب على ما بعده من الطعن والنزال، وابتدار ميادين القتال، والأمر قريب.

ولو قال لكل قاطع وحاجب بلام التعليل كان أحسن، والله تعالى أعلم.

[قواطع السير والسلوك]

ثم بين بعض تلك القواطع، فقال:

(وعلموا أن ليس شيء قاطع كبدن كاسٍ وبطن شابع)

قلت: يعني أنهم تحققوا أن أعظم القواطع هو الاشتغال بهم الظهر والبطن، فمن أراد الله تعالى أن يتركه محجوباً بنفسه يشغل قلبه بتزيين الملابس وتحسين المأكل، وهذا هو الذي حجب جل الناس، فمن قنع من اللباس بما يستر العورة من خسين اللباس، وقنع من الطعام بما يسد الجوع من مطلق الطعام، كان قلبه مجموعاً مع الله، إن توجه بهمته إلى الله، ومن كان همه ما يدخل بطنه، كان قيمته ما يخرج منها، وفي الحديث.

«من ترك ثوب جمال وهو قادر عليه ألبسه الله حلة الكرامة يوم القيامة»(1)

وقال أيضاً ﷺ:

«إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مسالكه بالجوع»(2)

والمقصود من ذلك كله صرف الشواغل التي تحجب عن الله، سواء كانت من قبل اللباس أو الطعام أو غيرهما، ولذلك عم الناظم في البيت الذي بعد هذا، حيث قال:

---

(1) أخرجه أبو داود (أدب 3) والترمذي (ثواب القرآن 18) وابن ماجة (جنائز 56) والدارمي (فضائل القرآن 1).

(2) أخرجه البخاري (أحكام 21) (بدء الخلق 11) (اعتكاف 11، 12) وأبو داود (صوم 78) (سنة 17) (أدب 81) وابن ماجة (صيام 65) والدارمي (رقاق 66) وأحمد بن حنبل (3، 156، 285، 309، 6، 337).

[الحجب وجهاد النفس]

(ونظروا الحجاب في البواطن فوجدوه في النفوس كامن
فعملوا على جهاد النفس حتى أزالوا ما بها من لبس)

قلت: هذا الحجاب الذي هو كامن في النفوس، هو حب الهوى، ومرجعه إلى حب السوى.

فمنه: ما يكون متعلقاً بالظواهر، كحب المال وتزيين الملابس والمآكل والمراكب والمناكح.

ومنه: ما يكون متعلقاً بالبواطن، كحب الخصوصية، وطلب الكرامة، وحب المدح والثناء وحب الرياسة والظهور، وما ينشأ عن ذلك من الحسد، والكبر، والغل، والغش، والغضب، والقلق، والحرص، والطمع، وغير ذلك من العيوب الباطنية، فكل من جاهد نفسه في التخلية من هذه المساوىء، والتحلية بأضدادها، من: التواضع، والخمول، وسلامة الصدر، وسخاوة النفس والحلم، والتأني، والصبر والرضى، والتسليم، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة زال عن نفسه حجاب النفس والتخليط، واكتسى لباس الصفا والوفا، فكان من المقربين الذين يشربون من عين التسنيم المختوم، ويمزج لغيره من أهل اللبس والتخليط، فمن صفا صفى له ومن خلط كدر عليه، فمن شرب اليوم كأس محبة المولى صافياً من الهوى: شرب عين التسنيم صافياً، ومن مزج اليوم بمحبة الهوى، شرب مع العوام من السلسبيل، ولا حظوة له عند الملك الجليل.

قال أبو طالب المكي رضي الله عنه: وأضر ما ابتلي به العبد في دينه، وأشد ما يحجبه ضعف يقينه، لما وعد بالغيب أو توعد عليه.

قال: وقوة اليقين أصل كل عمل صالح.

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى مجاهدة النفوس وتصفيتها بقوله عليه الصلاة والسلام: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم، والمهاجر من هاجر ما نهى الله عنه، والمجاهد من جاهد نفسه وهواه**»[1] وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما**

(1) أخرجه البخاري (إيمان 5) (رقاق 26) ومسلم (إيمان 64، 65) وأبو داود (جهاد 2) =

الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[1] وفي معناه قيل:

(ليس الشجاع الذي يحمي فريسته يوم الزحام ونار الحرب تشتعل
لكن من غض طرفاً أو ثنى قدماً عن المحارم ذاك الفارس البطل)

وفي الخبر «**جئتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**» يعني جهاد النفس.

قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه، في شأن النفس: هي التي لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها، وفي الحكم:

«لو كنت لا تصل إليه إلا بعد محو مساويك وترك دعاويك، لا تصل إليه أبداً، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه، ونعتك بنعته، فوصلك بما منه إليك لا بما منك إليه».

[أنواع المجاهدة]

ثم أشار لاختلاف الفرق في المجاهدة، فقال:

(والقوم في هذا على فرقين وحكمهم فيه على ضربين
ففرقة طريقهم مبنيه على العقائد وحسن النية
قالوا فالنفس كالمرآة ينطبع الماضي بها والآت
وإنما يعوقها أشياء ترك المحاذاة أو الصداء
قالوا وإن العين قد تغور وإنما يخرجها الحفير)

قلت أشار إلى أن الناس في الوصول إلى الله تعالى على فرقتين: **الفرقة الأولى: نظروا إلى أصل الروح وما كانت عليه من الصفاء والجلاء، كالمرآة الصقيلة، ينطبع فيها كل ما يقابلها من الماضي والآتي.**

لكن لما اتصلت بهذا البدن انطبع فيها: صور الأكوان، وغبش الحس، فحجبت عن أصلها بأمرين:

أحدهما: ترك المحاذاة (أي القرب والاتصال بالحضرة) باشتغالها بالغفلة.

= والترمذي (قيامة 52) (إيمان 12) والنسائي (إيمان 8، 9، 11) والدارمي (رقاق 4، 8) وأحمد بن حنبل (2، 160، 163، 187، 191، 192، 195، 205، 206، 209، 212، 215، 224، 379).

(1) أخرجه البخاري (أدب 102) ومسلم (بر 106 - 108) والموطأ (حسن الخلق 12) (وأحمد بن حنبل 1، 382، 2، 236، 268، 517).

يعني: أن الروح لما تركت القرب إلى الله، ولم تصرف وجهتها بالكلية إليه تدنست وحجبت عن أصلها.

فلو اشتغلت بذكر الله على الدوام، وفنيت عن غيره على التمام، لانصقلت مرآتها، وتجلت فيها حقائق الأشياء: ماضية وآتية.

وفي الحديث: «**إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد، وإن الإيمان ليخلق (أي يبلى) كما يخلق الثوب الجديد**»[1]

وفي حديث آخر «**لكل شيء مصقلة، ومصقلة القلوب ذكر الله**»[2]

وهذا الذكر الذي يصقل القلوب، لا بد أن يكون ذكراً واحداً، بقلب واحد، وهم واحد، وإلا فلا يجدي شيئاً.

الأمر الثاني الذي يعوق الروح عن أصلها: الصدأ الذي ينطبع فيها، وهي صور الأكوان التي تنطبع في القلب حين يتعلق بها: اعتقاداً، أو استناداً، أو اهتماماً.

وفي الحكم: «كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله، وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته».

وقال بعض الحكماء: لا تطمع أن تصفو وبك عيب، ولا تطمع أن تنجو وعليك ذنب. وقالوا أيضاً: إن السر الذي منا كان في النفوس، هو كماء العيون، إذا غفل عن تخميلها وتجريتها: غار، وتغطى بالتراب، فلا يخرجه إلا الحفير عليه بالفؤوس، كذلك سر الحقيقة كان ظاهراً في الأرواح حين كانت طاهرة من دنس الحس، أرأيت يوم الميثاق: كلها عرفت الحق وأقرت به، فلما اتصلت بهذا القالب الحسي الكثيف، وتراكمت عليها ظلمة الغفلات والشهوات والعوائد وألفت هذا العالم الحسي، وركنت إليه: حجبت عن ذلك السر، فلا يخرجه إلا الحفير عليه بفؤوس المجاهدة والرياضة، وانجماع القلب بالله، والمؤانسة به، ذكراً أو فكرة أو

---

(1) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال 3924) (وصاحب ميزان الإعتدال 9085) وابن حجر في (لسان الميزان 6/ 576) وابن الجوزي في (العلل المتناهية 2/ 347) وابن عدي في (الكامل في الضعفاء 1/ 258).

(2) أخرجه التبريزي في (مشكاة المصابيح 2286).

نظرة، وإلا غار السر وغاب وذهب كالسراب.

قيل للجنيد: كيف الطريق إلى الحقيقة؟ قال: بتوبة تزيل الإصرار، وخوف يقطع التسويف، ورجاء يبعث على مسالك العمل، وإهانة للنفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل، فقيل له: بماذا يصل إلى هذا؟ فقال: بقلب مفرد، فيه توحيد مجرد.

[كيفية علاج النفس لردها إلى الفطرة]

ثم بين كيفية العلاج في ردها إلى أصلها فقال:

(وأجمعوا أن علاج الأصل أقرب للبريء معاً والنيل
فما إليه أبداً نشير هو علاج النفس والتطهير)

قلت: العلاج: محاولة إبراء الداء بالدواء لتذهب العلة، ولا ينجح في الغالب إلا بعد معرفة العلة وسببها، والمراد بالأصل: هو علاج الروح، والنيل هو: التحصيل.

يقول رضي الله عنه: أجمع الصوفية أن علاج الروح ونيل شفائها من مرضها: أقرب من علاج البدن وشفائه إذا تمكن منه الداء.

قلت: وهو كذلك بلا شك، فقد رأيت كثيراً من المرضى: أعني مرض البشرية، يدفع أموالاً عريضة، ويحتمي أزمنة طويلة، ولا تنقطع علته، ولقد رأيت كثيراً ممن كان مريض الروح بالمعاصي والذنوب والشكوك، والخواطر، حين ألقاه الله إلى الطبيب شفاه الله في أقرب مدة وأقل حمية.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: وأصل كل داء جسماني إنما هو فساد المزاج إلى أن يصير فعله وانفعاله على غير المجرى الطبيعي، وأصل كل داء قلبي: إنما هو فساد القصد الذي عنوانه: الرضى عن النفس، حتى يصير فعلها وانفعالها على غير المجرى الشرعي والتحقيقي، بل على وفق الهوى والأوهام الباطلة التي شأنها: ضعف اليقين، ورقة الديانة، وتفصيل ذلك يطول، وسيأتي منه إن شاء الله تعالى في باب التربية.

وقوله: «فما إليه أبداً نشير» هو: تصريح بعلاج الأصل المتقدم، يعني: أن هذا العلاج الذي نشير إليه هو علاج النفس من: غفلاتها، وشكوكها، وخواطرها، واهتمامها بالرزق، وأمر الخلق، وتدبيرها، واختيارها، وإنكارها، وجهلها، وسوء

أدبها، فإذا برئت من هذه الأمراض، وتطهرت من هذه الأخلاق صلحت للحضرة، ومتعت بالنظرة في سرور ونضرة.

[طريقة الإشراق واستمرار السلوك حتى نهاية الزمان]

ثم ذكر استمرار هذه الطريقة إلى انقراض الدنيا فقال:

(وهذه طريقة الإشراق كانت وتبقى ما الوجود باقي)

قلت: ذكر أن هذه الطريقة التي ذكرها في هذه الأبيات تسمى: طريق الإشراق، وتسمى أيضاً طريق الجلاء والتصفية، لأنها مبنية على تصفية القلوب والسرائر، بتخليتها من الرذائل، وتحليتها بالفضائل، فإذا تخلت من الأغيار والأكدار، أشرقت عليها شموس المعارف والأسرار، فرغ قلبك من الأغيار، تملأه بالمعارف والأسرار، ثم ذكر أن هذه الطريقة لا تنقطع ما دام الوجود باقياً، لقوله عليه الصلاة والسلام:

«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون»[1]

والتحقيق أن هذه الطائفة هي مؤلفة من العارفين بالله، والعلماء العاملين الناصحين. والمجاهدين في سبيل رب العالمين، فلا تخلو الأرض من قائم بحجة الله ظاهرة وباطنة.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه في «قوله كانت وتبقى» يعني أنها لا ترتفع أبداً، لكنها تارة تجري باصطلاح الخلوات والتربيات ونحوها، وتارة بحفظ الأصول فقط، وتارة بحفظ الحرمة، وتارة بعلو الهمة وقوة الحزم والعزم، وتارة بمجرد التلقي والإلقاء، وهذه الأمور لا تزول أبد الآبدين، غير أن الاصطلاح قد انقرض في هذه الأزمنة، وارتفع إنتاجه حسبما دلت عليه العلامات، ويشهد به الاستقراء.

قال بعض مشايخنا رضي الله عنه: ارتفعت التربية بالاصطلاح في سنة (824هـ) أربع وعشرين وثمانمائة ولم تبق إلا الإفادة بالهمة والحال فعليكم

---

(1) أخرجه البخاري (اعتصام 10) ومسلم (إيمان 247) (إمارة 170، 173، 174) وأبو داود (فتن 1) والترمذي (فتن 27، 51) وابن ماجة (مقدمة 1) (فتن 9) وأحمد بن حنبل (5، 34، 269، 278، 279).

بالكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان، يعني الجادة مع التزام الصدق، والله ولي التوفيق.

قلت: وبعض مشايخه الذي ذكر هو: الحضرمي.

وفيما قاله نظر من وجهين:

أحدهما: أن الاستقراء الذي ذكره متعذر في جميع أقطار الأرض، وشيوخ التربية الغالب عليهم الخفاء، لأنهم كنوز لا يظفر بهم إلا من أسعده الله.

والثاني: أن دائرة الأولياء لا تنقطع أبداً، من: أقطاب، وأبدال، وأوتاد، حسبما ذكره غير واحد، وبلوغه إلى مقام القطبانية لا يكون من غير تربية أبداً.

فإن **قلت**: يكفي فيه الهمة والحال، قلنا: لا نسلم ذلك، لأن تربية الهمة والحال دون اصطلاح المقال، لا يترقى صاحبها من مقام إلى مقام، ولا من حال إلى حال، فلا يخرج من السلوك إلى الفناء، ولا من الفناء إلى البقاء، إلا بتربية المقال، وهي الاصطلاح، وإن أراد بالاصطلاح: الخلوة، وترتيب الأوراد، فلا نسلم أيضاً أنه انقطع، إذ من بلغ إلى درجة التربية يربي كيف شاء، فمن تصلح به الخلوة رباه بها؛ ومن تصلح به الخلطة رباه بها، فشيخ التربية لا ينقطع أبداً عن تربية الهمة والحال والمقال والاصطلاح، وإذا كان الحضرمي تكلم على ما ظهر له في زمانه، فلا يلزم عمومه فيما بعده. قال الله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8].

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: 106] قال: ما نذهب بولي نأت بخير منه أو مثله، وكلامه عام في كل زمان وعصر، وقال عليه الصلاة والسلام: «**أمتي كالمطر لا يدري أوله خير أم آخره**»(1) وقال: «**خير أمتي أولها وآخرها وفيما بينهما الكدر**»(2) وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه الكرام: «**إذا لقيتم إخواني فأقرءوهم مني السلام؟ قيل من إخوانك يا رسول الله؟ نحن إخوانك، فقال: أنتم أنصاري وأصحابي، إخواني قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني، للعامل منهم أجر سبعين، قالوا: يا رسول الله أجر سبعين منا أو منهم؟**

---

(1) أخرجه الترمذي (أدب 81) وأحمد بن حنبل (3، 130، 143، 4، 329).

(2) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال 32455).

قال: بل أجر سبعين منكم، قيل: لماذا يا رسول الله؟ قال: إنكم وجدتم على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعواناً»[1]

والحاصل أن نور النبوة في الزيادة لا في النقصان، وقد وجد بعد الخضري، وفي زمانه رجال اتفق الناس على تربيتهم، كالغزواني، والتليدي، والهبطي، والمجذوب، والشرقي وسيدي يوسف الفاسي، وسيدي عبد الرحمٰن الفاسي[2]، وسيدي محمد بن عبد الله، وغيرهم ممن لا يحصى، فإنكار كمال هؤلاء وتربيتهم: مكابرة وخذلان والعياذ بالله من الطعن في أولياء الله.

وقد أدركنا ـ والحمد لله ـ في زماننا هذا رجالاً قد توفر فيهم شروط التربية على الكمال ذوو همة وحال ومقال: عارفين، راسخين كاملين، تخرج على أيديهم خلق كثير، وانتفع بهم جم غفير، ولكن من كان خفاشاً لا يستطيع أن يبصر شعاع النور؛ ويرحم الله البوصيري حيث قال:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمدٍ ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

وقال آخر:

وكم عائب ليلى ولم ير وجهها ... فقال له الحرمان حسبك ما فات

[طريقة البرهان]

ثم ذكر الطريق الثانية فقال:

(وفرقة قالت بأن العلما ... من خارج بالاكتساب اسماً
وشرطوا العلوم في اصطلاحه ... إذ لا غنى للباب عن مفتاحه
فليس للطامع فيه مطمع ... ما لم تكن فيه علوم أربع
وهي علوم الذات والصفات ... والفقه والحديث والحالات
وهذه طريقة البرهان ... وهي لكل حازم يقظان)

قلت: حاصل هذه الطريقة أنها شرطت إصلاح الظاهر أولاً وعلاجه، وعلاجه

(1) لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) هو عبد الرحمٰن بن عبد القادر بن علي أبو زيد الفاسي (1040 ـ 1096 هـ = 1631 ـ 1685م) فقيه باحث من أهل فاس له شعر كثير وصنف نيفاً وسبعين كتاباً منها (مفتاح الشفاء) و(أزهار البساتين) و(الأقنوم في مبادىء العلوم) وغيرها.
(الأعلام 3/ 310) (اليواقيت الثمينة 195) و(الدرر الفاخرة 13) و(الاستقصا 4/ 51).

قبل علاج الباطن، **فقلت**: إن اكتساب العلم من خارج أسمى، أي أرفع وأعظم، لأنه دواء وشفاء للعلل الظاهرة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «العلم إمام والعمل تابعه» وأول الحديث قال رسول الله ﷺ: «تعلموا العلم، فإن تعلمه خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث فيه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة وأئمة، تقص آثارهم، ويقتدى بأفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتهم تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء» ا هـ ذكر المنذري.

فشرطت هذه الفرقة الثانية تحصيل العلم الظاهر لأنه مفتاح العلم الباطن، لأن الشريعة باب والحقيقة بيت، ولا مدخل للبيت إلا من بابه، قال تعالى: ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾ [البقرة: 189]، فعلم الشريعة مفتاح لعلم الحقيقة، ومن أتى الباب بلا مفتاح لا يطمع في دخوله فلا يطمع أحد في علم الحقيقة والاطلاع على السر إلا بعد تحصيل أربعة علوم:

علم الذات العالية، ويكفيه أن يعتقد فيها أنها موجودة قديمة، باقية، منزهة عن النقائص، متصفة بصفات الكمالات.

وعلم الصفات، ويكفيه أن يعتقد أن الذات العالية متصفة بالقدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام.

وإن زاد براهينها من الكتاب والسنة، فهو كمال، وإن أسعده الله بلقاء شيخ كامل رقاه إلى علم الأذواق، وصار توحيده في معد الشهود والعيان.

العلم الثالث: علم الفقه، ويكفيه ما يتقن به طاعته، وصلاته، وصيامه، وإن كان له مال تعلم ما يجب عليه فيه، ولا يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه.

العلم الرابع: علم الأحوال، والمقامات، والمنازلات، ومخادع النفوس،

ومكايدها، وما يجري مجرى ذلك من آداب ومعاملات، وهذا الذي يختص به أهل هذا الفن.

وللناس فيه طريقان:

طريق رؤية الحق من أول قدم، والعمل على ذلك بالانحياش إليه، وهو طريق الشاذلية ومن نحا نحوهم.

وطريق رؤية النفس واطلاع الحق عليها والعمل على ذلك، وهي طريق الغزالي ومن جرى مجراه، وكل منهما مستنده لحديث: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» فتمسكت الشاذلية بصدر الحديث والغزالية بآخره.

وقوله: «فهذه طريقة البرهان» يعني أن هذه الطريقة تسمى طريقة البرهان، لأنه طريقة الترقية، لأنها أولاً تستدل بالأثر على المؤثر، ثم ترتقي إلى معرفة العيان، بخلاف الطريقة الأولى، إنما اشتغلت بتصفية الروح، فإذا تصفت وتطهرت زال عنها الحجاب.

قلت: وطريق الشاذلية الحقيقية من تأملها وجدها جمعت بين الطريقين: طريق الإشراق وطريق البرهان، لأن أشياخها الكمل يدلون أولاً على إتقان الشريعة، والفناء في العمل بها، ثم على إتقان علم الطريقة، ثم على الحقيقة.

قلت: وأنا «عبد الله» كنت إذا لقنت أحداً الورد: علمته ما يلزمه من إتقان طهارته الصغرى والكبرى، وعلمته التيمم وإتقان الصلاة وإذا كان أمياً علمته ما يلزمه من عقائد التوحيد إجمالاً، فأصحابنا كلهم والحمد لله على بصيرة في دينهم، مع ما زادهم الله تعالى من التنوير والأذواق، وهي طريق الإرشاد، فأصغرهم يناظر نجباء طلبة العلم الظاهر، حسبما استقريناه من أحوالهم، وما اطلعنا عليه من أسرارهم، والحمد لله رب العالمين.

قوله: «وهي لكل حازم يقظان» يعني أن هذه الطريقة التي جمعت بين العلم الظاهر والباطن، لكل حازم مشمر في تحصيل دينه «يقظان» أي منتبه من غفلاته، قد أتى البيت من بابه، وحصل الأمر بشروطه وأسبابه، فليس لأحد فيه مطعن، ولا لإخلاله فيه مدخل، لكن لا يدرك هذه الطريقة على الكمال إلا فحول الرجال، وبالله التوفيق.

[وصف الصوفي]

ثم وصف الصوفي وحاله وشأنه فقال:

(ونسبوا الصوفي للكمال   وضربوا معناه في المثال
فهو كالهواء في العلو   ثم كمثل الأرض في الدنو
ثم كمثل النار في الضياء   ثم كمثل الماء في الإرواء
فهو إذاً للكائنات حاصر   إذ صار في معناه كالعناصر)

قلت: لا شك أن الصوفي المحقق قد حاز مرتبة الكمال على التمام، فما من مرتبة إلا حاز أكملها وأشرفها:

فأخذ من مقام الإسلام: كمال التقوى والاستقامة على التمام.

وأخذ من مقام الإيمان: تمام الطمأنينة وكمال الإيقان.

وأخذ من مقام الإحسان: أعلى المراتب، وهي الشهود والعيان.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان.

وأخذ أهل الظاهر من الأعمال ـ أعمال الجوارح الظاهرة.

وأخذ الصوفي أعمال القلوب الباطنة، والذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، كما قاله الشيخ ابن عباد وغيره.

وفي الحديث: «**تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة**»(1)

وعبادة القلوب هي: الفكرة والنظرة، والرضى بما يبرز من عنصر القدرة، فعبادة العارفين كلها مضعفة إما بسبعين أو بألف أو بأكثر، ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: أوقاتنا كلها ليلة القدر: يعني كلها خير من ألف شهر من عبادة العامة، وفي ذلك قال الشاعر:

كل وقت من حبيبي   قدره كألف حجة

أي سنة.

---

(1) أخرجه القرطبي في (التفسير 4/ 314) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 1/ 161) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 3/ 409) وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة 162) والعجلوني في (كشف الخفاء 1/ 370) والشوكاني في (الفوائد المجموعة 251) والفتني في (تذكرة الموضوعات 188).

وفي الحكم (ما قل عمل برز من قلب زاهد، ولا كثر عمل برز من قلب راغب).

وقال عبد الله بن مسعود[1] رضي الله عنه: ركعتان من عالم زاهد، خير وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبداً سرمداً.

وهذه المراتب موجودة في الصوفي الكامل على التمام.

وقد ضربوا له المثال بالعناصر الأربعة التي قامت بها الموجودات الحسية باعتبار العادة، وهي: الهواء، والثرىٰ (أي التراب) والماء، والنار، وتسمى الطبائع الأربعة، وقد نظمها ابن سينا الحكيم، فقال:

وقول بقراط بها صحيح نار وماء وثرىٰ وريح

وأراد بالريح الهواء.

فالصوفي قد اجتمعت فيه العناصر الأربعة، فهو كالهواء في رفع الهمة وعلو القدر، وأيضاً الهواء حار رطب، فهو معتدل محيط بالأبدان، به يقع كمالها ونقصها، والصوفي: معتدل في حركاته من غير إفراط ولا تفريط، بل متوسط في كل شيء، وخير الأمور أوسطها، وبحسب هذا جميع الوجود، يأنس به ويرجع إليه، ويقع له منه الفعل والانفعال بإذن الله سبحانه، مع ارتفاعه عن أبناء جنسه في عين مجالسته لهم، كما ارتفع الهواء عن التراب والماء مع مخالطته لهما، وهو أيضاً كالأرض في الدنو والتواضع، والسهولة، يناله البر والفاجر، والصغير والكبير، كما أن الأرض يطأها البر والفاجر، والصغير والكبير.

وقال بعض أشياخنا: نحن كالرقاق «أي الطرق» يمر علينا البر والفاجر، والطائع والعاصي ولا نفرق بينهم، وأيضاً طبع الأرض بارد يابس، فبرودتها يقع لها الملابسة، إذ لو كانت حارة والهواء حاراً لاحترق ما عليها، وبسبب يبوستها يقع لها المماسة، والصوفي كذلك، لبرودة حركاته وليونتها يلابسه الخلق وينتفعون به، ولوقوفه مع الحق وصلابته فيه صح له الصدق، فيكون له قلب مثل الأرض يطرح

---

(1) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي أبو عبد الرحمٰن (000ـ 32 هـ = 000ـ 653م) صحابي أول من جهر بقراءة القرآن بمكة وكان خادم رسول الله الأمين. (له 848 حديثاً).
(الأعلام 4/ 137) (الإصابة ت 4955) و(البدء والتاريخ 5/ 97).

عليه كل قبيح، ولا يخرج منه إلا كل مليح، وكلما زيد في زبلها زيد في خيرها.

وكذلك الصوفي كلما زدت في البحث معه زادك فائدة وحكمة.

وقد قال سيدنا عيسى عليه السلام لأصحابه: أين تنبت الحبة؟ قالوا: في الأرض قال؟ فكذلك الحكمة، لا تنبت إلا في قلب كالأرض، وقال سهل رضي الله عنه: طريقتنا هذه لا تصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل، وهو أيضاً كالنار في إحراق الأوصاف الخبيثة الذميمة، وفي اقتباس الأنوار واشتعال مصابيح القلوب، وأيضاً طبع النار حار يابس، مضيء محرق، كذلك الصوفي لا تفارقه الحرارة الباطنية، وهي قوته وسخانته الناشئة عن شهود حريته الباطنية، ويحرق كل ما والاه من أوصاف نفسه، ويرى ما وراءه من المعارف وحقائق الوجود، وهو أيضاً كالماء في الإرواء وإزالة عطش الجهل، وحرارة التعب الناشئة عن وجود الحجاب، وأيضاً طبع الماء بارد رطب، والصوفي كذلك، فمن برودته لا ينتصر لنفسه، ومن رطوبته لا يتكبر على غيره، مع إروائه من احتاج إليه، وهذه العناصر الأربع هي التي اجتمع منها وجود العالم باعتبار الحكمة؛ وهي أركانه فالصوفي كلية العالم بمعانيه ومبانيه، ولذلك قال فيه بعضهم: «الصوفي من لا يعرف في الدارين أحداً غير الله، ولا يشهد مع الله سواه، قد سخر له كل شيء، ولم يسخر هو لشيء، وسلط على كل شيء، ولم يسلط عليه شيء، فأخذ النصيب من كل شيء ولم يأخذ النصيب منه شيئاً، يصفو به كدر كل شيء، ولا يكدر صفوه شيء، قد شغله واحد عن كل شيء، وكفاه واحد من كل شيء».

[تتمة الحديث عن فضل التصوف]

ثم كمل ما بقي من فضله إجمالاً فقال:

(وفضله أشهر من أن يجهلا وقد ذكرنا منه نزراً مجملاً
وفي بيان أصله دليل يعلم منه الشأن والتفضيل)

قلت: أشار رحمه الله إلى أن فضل التصوف مشهور، وشهرته أعظم من أن يجهله أحد وقد ذكر من فضله نزراً: أي شيئاً قليلاً مجملاً غير مفصل، إذ تفصيله يؤدي إلى التطويل الممل، وفي بيان أصله الذي ذكره في الفصل الأول دليل على تعظيم شأنه وتفضيله على سائر العلوم.

قلت: ولم نسمع أحداً قط طعن في علم التصوف أو عابه أو نقصه، بل

القلوب كلها مجبولة على حبه ومدحه، وإنما وقع الإنكار على أهله والمنتسبين إليه: إما غيرة عليه أن يدخل فيه من ليس منه، وهذا معذور وإما حسداً لأهله، وهذا هالك مثبور، والأول على خطر، فإن المنكر على المنتسبين كمن يدخل يده في الغيران فيدخل يده في الغار، الأول والثاني، فيقول: لا شيء ثم يدخل يده في غار آخر فيصادف حية تلسعه، فيهلك من ساعته، وإذا فاتته بركة الاعتقاد، فأقل أحواله ترك الانتقاد، ولذلك قال الشاذلي: تسليم طريقتنا ولاية، واعتقادها عناية.

وقالوا أيضاً: التسليم ولاية، والاعتقاد عناية، والانتقاد جناية.

وقد يكون الإنكار من عدم الفهم وقلة الإدراك، ويرحم الله القائل:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً   وآفته من الفهم السقيم

وسيأتي بقية الكلام في الفصل الرابع إن شاء الله، في الرد على من أنكره.

ثم ذكر الناظم هنا أحكامه فقال:

الفصل الثالث في أحكامه، وهي تسعة

قلت: المراد بأحكامه: ما يحكم به على المريد، وما يلزمه من الآداب، وما يكون عليه أمره من أعمال وأحوال، وحصرها في تسعة.

الأول: في حكم الشيخ وما يترتب عليه.

الثاني: في حكم الاجتماع.

الثالث: في حكم اللباس.

الرابع: في حكم الأكل.

الخامس: في آداب الاجتماع.

السادس: في حكم السماع.

السابع: في حكم السفر وآدابه.

الثامن: في حكم السؤال وأسبابه.

التاسع: في حكم التربية وتدريج المريد إلى أوان ترشيده.

واعلم أن مذهب الصوفية: الأخذ بالأحسن في كل شيء، عملاً بقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: 17، 18].

وأحسن المذاهب في الاعتقاد مذهب السلف، من اعتقاد التنزيه، ونفي التشبيه، وتفويض المتشابه، والوقوف مع ما ورد كما ورد، ما لم يحتج إلى تقييد، فيقيد بما ينفي شبهته، من غير زائد، وبهذا تمكست الصوفية في بدايتهم.

وقد يطلعهم الله تعالى على أسرار من مكنون علمه، فتتسع لهم دائرة العلوم وتنحل عنهم قيود المتشابه، فيطلعون على أسرار تنكشف بها غوامض المتشابه، ولذلك قال ابن السبكي رحمه الله: المتشابه ما استأثر الله بعلمه، وقد يطلع عليه بعض أصفيائه، وهم الراسخون في العلم يقولون أولاً: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: 7]، ثم يطلعهم الله على أسرار غيبه ومكنون علمه، ولهذا توسعوا في العبارة حتى أنكرت عليهم، فوجب التحفظ، فلا يتكلم بهذا العلم إلا مع أهله،

شفقة على الضعفاء، وحماية من سوء الظن بأهله، ولما في بعضه من سقوط الحرمة، فوجب تجنبه أبداً وإن فهم على الصواب، مع حسن الظن بقائله، لأن أصل المذهب حسن الظن حتى يأتي المناقض، وحرمة للشريعة واجبة الحفظ في الأقوال كوجوبها في المعاني والأفعال.

وأحسن المذاهب في الأحكام مذهب الفقهاء المرجوع إليهم، كالأئمة الأربعة، فالتقييد بمذهب واحد أجمع للحقيقة، وأقرب للتبصر وأدعى للتحقيق وأسهل تناولاً، وعلى هذا درج سلفنا وأشياخنا، فكان الجنيد: ثوريا والشبلي: مالكياً، والمحاسبي شافعياً، والحريري: حنفياً، والجيلاني. حنبلياً، والشاذلي وشيخه: مالكيين، لكن لا ينبغي لمن تجرع في العلم من الصوفية أن يرضى بربقة التقليد، ويتجمد على قول إمامه من غير أن يعرف أصله، بل ينبغي له أن يأخذ الأحكام من أصولها، ويعلم مأخذها وعللها.

وقد قال بعضهم: قف حيث وقفوا، ثم سر.

وقال آخر: من أخذ علمه عن خصوص كان نوره وفتحه منهم، ومن أخذه عن نصوص الكتاب والسنة كان نوره وفتحه منهما، وعلى قدرهما.

وقال في القواعد: **التقليد** أخذ القول من غير استناد لعلامة في القائل، ولا وجه في المقول، وهو مذموم مطلقاً لاستهزاء صاحبه بدينه.

والاقتداء: الاستناد في أخذ القول لديانة صاحبه وعلمه، وهذه رتبة أهل المذهب مع أئمتها، وإطلاق التقليد عليها مجاز.

والتبصر: أخذ القول بدليله الخاص من غير استبداد بالنظر والإعمال للقول، أي ولا اختراع لقول من نفسك، وهي رتبة مشايخ المذهب وأجاويد طلبة العلم.

والاجتهاد: اقتراح الأحكام من أدلتها دون مبالاة بقائل، ثم إن لم يعتبر أصل المتقدم فمطلق، وإلا فمقيد.

وأحسن المذاهب في فضائل الأعمال: مذهب المحدثين، إذ لا يأخذون إلا بما صح أو قارب الصحيح، فلا يأخذون بموضوع ولا بما قوي ضعفه، وقد حذروا من تتبع الفضائل وتتبع الرغائب، كصلاة الأيام والليالي، وغير ذلك.

قلت: وحسب المريد الصادق من النوافل ما يحفظ فرضه من الخلل، فإن قوي جمع قلبه حتى أمن من الخواطر، كفته الصلوات الخمس، مع عمارة وقته بذكر مفرد، أو فكرة أو نظرة، أو مذاكرة، أو ما يلزمه من ضروريته، فهذه عبارة العارفين

والصديقين من المريدين، مع الزهد التام، والتفرغ التام، والله تعالى أعلم.

[الحكم الأول

من أحكام التصوف، حكم الشيخ والمشيخة ومعنى الشيخ]

ثم ذكر ما بدأ به من التسعة الأحكام فقال:

الأول: في حكم الشيخ والمشيخة، ومعنى الشيخ.

قلت: جعل هذه الثلاثة في حكم واحد لقرب بعضها من بعض.

فالأول: في حكم الشيخ: يعني هل هو شرط صحة، أو شرط كمال.

والثاني: في حكم المشيخة، أي حكمة الشيخوخة، وما يراد بها.

والثالث: في معنى الشيخ، يعني المعنى الذي يكون بها شيخاً، ويصح الاقتداء به، وهو أن يكون جامعاً بين حقيقة وشريعة، بين جذب وسلوك، ماهراً بعلل النفوس ومخادعها، والله تعالى أعلم.

[حكم الشيخ]

ثم شرع في شرح الأمر الأول، وهو: حكم الشيخ فقال:

(وإنما القوم مسافرون   لحضرة الحق وظاعنون
فافتقروا فيه إلى دليل   ذي بصر بالسير والمقيل
قد سلك الطريق ثم عاد   ليخبر القوم بما استفاد)

قلت: السفر إلى الله مجاز، عبارة عن قطع العلائق، وعن الخروج عن الشهوات، والعوائد، ليتصل بالأنوار والحقائق، وهي المعبر عنها بحضرة الحق.

وإن شئت **قلت**: السفر هنا عبارة عن الانتقال عن المقامات، والإنزال في أخرى، كالانتقال من مقام الإسلام إلى الإيمان، ثم من مقام الإيمان إلى الإحسان.

أو عبارة عن الانتقال من شهود عالم الملك إلى عالم الملكوت، ومن الملكوت إلى الجبروت، أو من عالم الحس إلى عالم المعنى، أو من شهود الكون إلى شهود المكوِّن، أو من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، أو من السلوك إلى الجذب، ثم من الجذب إلى السلوك، أو من توحيد الأفعال إلى توحيد الصفات، ثم إلى توحيد الذات، ولا يتحقق السفر ولا يظهر السير إلا بمحاربة النفوس ومخالفتها في عوائدها وقبيح مألوفاتها وشهواتها، فلولا ميادين النفوس ما تحقق

سير السائرين، إذ لا سير ولا سلوك إلا فيها، ولا جذب ولا أخذ إلا عنها، ولذلك قال بعض المحققين، لا يصح أن يقال في الأنبياء عليهم الصلاة: سالكون، ولا مجذوبون، لأن الجذب لا يكون إلا عن نفس، والسلوك لا يكون إلا في قطع عقباتها، وهم عليهم الصلاة والسلام مطهرون من آثار النفوس بأول قدم، فهم مقيمون في بساط الحضرة قديماً وحديثاً، وقوله: «لحضرة الحق» يعني دائرة ولايته، وهي عكوف القلب في شهود الرب، بحيث يفني من لم يكن، ويبقي من لم يزل.

أو تقول: الحضرة عبارة عن كشف رداء الصون عن أصل نور الكون، فتلوح أنوار القدم على صفحات العدم؛ فيتلاشى الحادث ويبقى القديم، و«الظاعن هو المرتحل وهو المسافر».

وقد ضرب الساحلي مثلاً للسفر المعنوي، الذي يوصل إلى الحضرة، وحاصله باختصار: أن مثل الحضرة كملك كبير ظهر بالمشرق مثلاً، وأرسل رسلاً يعرفون به ويشوقون الناس إلى حضرته، بذكر محاسنه ومكارمه، فمن الناس من أعرض عن طاعته وهم الكفار مثلاً، ومن الناس من أذعن وأطاع وعجز عن السير إليه: إما لثقله أو لضعف محبته، وهم عوام المسلمين الذين يؤمنون بالغيب، ومن الناس من تشوق إلى السير إليه وبذل مهجته وروحه في الوصول إليه، فقالت له الرسل أو من ناب عنهم: ها نحن نسير بك ونعرفك الطريق، ثم إن الملك بنى دياراً في الطريق ينزلونها، وجعل فيها: مياهاً، ورياضاً، وأزهاراً، وكل منزل ما بعده أعظم منه، فإذا سارت الرسل أو نوابهم بالناس، ونزلوا في بعض تلك المنازل، أراد بعضهم أن يسكن فيها ويقيم ثَمَّ، فيقول له الرسول: المطلوب أمامك، فما زالوا يرحلون بهم من مرحل إلى مرحل، ومن مقام إلى مقام، حتى يشرفوا بهم على الملك، فإذا شاهدوا الملك على نعت الرضى والتكريم، كان ذلك مقامهم ومسكنهم، انتهى.

ذكرته بالمعنى لطول العهد به.

وقال ابن عطاء الله في الحكم في هذا المعنى: فالعاقل من كان بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى، قد أشرق نوره وظهرت تباشيره، فصدف عن هذه الدار مغضياً، وأعرض عنها مولياً، فلم يتخذها وطناً، ولا جعلها مسكناً، بل أنهض الهمة عنها إلى الله، وصار به مستعيناً في القدوم عليه، فما زالت مطية عزمه لا يقر

قرارها دائماً بتسيارها، إلى أن أناخت بحضرة القدس وبساط الأنس، في محل الفاتحة والمواجهة، والمجالسة والمحادثة، والمشاهدة والمطالعة، فصارت الحضرة معشش قلوبهم، إليها يأوون، وفيها يسكنون الخ.

وقوله: «فافتقروا فيه إلى دليل» يعني أن من تشوف إلى الحضرة لا بد له من دليل يدله عليها، ويسلك به طريقها.

قال في «شرح الشريشية»: اعلم أن سلوك الطريق، وخصوصاً لمريد الكشف والتحقيق، لا يكون من غير التزام الطاعة والانقياد لشيخ محقق مرشد، لأن الطريق عويص، وأدنى زوال يقع عن المحجة يؤدي إلى مواضع في غاية البعد عن المقصود.

قال الشيخ أبو الحسن الششتري رضي الله عنه: ولا بد أن يتحكم لمن يأمره وينهاه، ويبصره فإن الطريق عويص: قليل خطاره، كثير قطاعه، وقد يظن السالك أنه على جادته وهو قد ولى ظهره لموضع توجهه منه، فإنه إذا خرج منه أنملة فقد خرج وانقطع، وانصرف سيره على أشعة تلك الأنملة، فإنه طريق دقيق، ونفس متصرفة في البدن، وهي الراحلة عنه، وعادة مألوفة، وشيطان هذا الطريق ففيه بمقاماته ونوازله.

قال أبو عمرو الزجاجي رضي الله عنه: لو أن رجلاً كشف له عن الغيب، ولا يكون له أستاذ لا يجيء منه شيء.

وقال إبراهيم بن شيبان رضي الله عنه: لو أن رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة، من شيخ، أو إمام، أو مؤدب ناصح، ومن لم يأخذ أدبه عن آمر له يريه عيوب أعماله ورعونات نفسه، لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات.

وقال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه: من لم يأخذ أدبه من المتأدبين: أفسد من يتبعه.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: كل من لا يكون له في هذا الطريق شيخ لا يفرح به، ولو كان وافر العقل منقاد النفس، واقتصر على ما يلقي إليه شيخ التعليم فقط، لا يكمل كمال من تقيد بالشيخ المربي، لأن النفس أبداً كثيفة الحجاب، عظيمة الأشراك، فلا بد من بقاء شيء من الرعونات فيها، ولا يزول عنها ذلك بالكلية إلا بالانقياد للغير، والدخول تحت الحكم والقهر، حسبما

ذكر الشيخ أبو عبد الله بن عباد رضي الله عنه.

وكذلك لو كان سبقت له من الله عليه، وأخذه الحق إليه، وجذبه إلى حضرته، لا يؤهل للمشيخة، ولو بلغ ما بلغ.

وقال في لطائف المنن: من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الأتباع، ويكشف له عن قلبه القناع، فهو في هذا الشأن لقيط: لا أب له، دعي: لا نسب له، فإن يكن له نور، فالغالب غلبة الحال عليه، والغالب عليه وقوفه مع ما يرد من الله إليه، لم ترضه سياسة التأديب والتهذيب، ولم يقده زمام التربية والتدريب.

وقال الشيخ أبو عثمان الفرغاني رحمه الله: المجذوب: المتدارك الراجع من عالم الحق إلى عالم الخلق، لا يكمل ولا يصلح للاقتداء، إذا لم يكن له مرشد يهديه إلى دقائق المقامات، وإن كان على بينة من ربه وبصيرة في سلوكه، فإن في المقامات الإسلامية الإيمانية دقائق لا تدرك إلا من حيث الخلقية، والاطلاع عليها متوقف على اطلاع من اطلع عليها بنظر خليقته، فلا يكتفي بالبينة الحقيقية التي للمجذوب، فكان محتاجاً إلى المرشد.

وكلام الشيوخ في الحض على اتخاذ الشيخ الرباني، والتحذير من ضده كثير.

وروي عن أبي يزيد أنه قال: من لم يكن له استاذ فإمامه الشيطان.

وقال الشيخ أبو علي الدقاق: الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس، فإنها تورق ولا تثمر.

قال القشيري: وهو كما قال، ويجوز أن تثمر كالأشجار التي في الأودية والجبال، ولكن لا يكون لفاكهتها طعم، فاكهة البساتين والغرس إذا نقل من موضع لآخر، يكون أحسن وأكثر ثمرة، لدخول التصرف فيه، **ثم قال**: وسمعت كثيراً من المشايخ يقول: من لم ير مفلحاً لا يفلح.

وقد وقعت مشاجرة ومناظرة في آخر المائة الثامنة بين فقراء الأندلس، حتى تضاربوا بالنعال، وذلك: هل يكتفي بمشاهدة الرسوم، ومطالعة الكتب في طريق الصوفية، أهل التوحيد الذوقي والمعرفة الحقيقية الوجدانية، أم لا بد من الشيخ!؟ فكتبوا للبلاد، فأجاب فيها كل أحد على قدر نظره: كالشيخ أبي عبد الله بن عباد رضي الله عنه، وكالشيخ أبي عبد الله بن خلدون رحمه الله، وأفرد لهذه المسألة تأليفاً، وقد ذكر حاصل ذلك الشيخ زروق في «عدته» فقال بعد كلام: وقد تشاجر

فقراء الأندلس من المتأخرين في الاكتفاء بالكتب عن المشايخ، فكتبوا للبلاد، فكل أجاب على حسب فتحه.

وجملة الأجوبة دائرة على ثلاثة:

أولها: النظر للمشايخ، فشيخ التعليم تكفي عنه الكتب للبيب حاذق، يعرف موارد العلم. وشيخ التربية تكفي عنه الصحبة لدين عاقل ناصح.

قال شارح «بداية السلوك»: وقل أن يوجد لغلبة الهوى.

وشيخ الترقية، يكفي عنه اللقاء والتبرك، وأخذ كل ذلك من وجه واحد، يعني أن أخذ ذلك عن الشيخ في الأوجه الثلاثة أتم للنجح وأبلغ للمراد.

الثاني: النظر لحال الطالب، فالبليد لا بد من شيخ يربيه، واللبيب تكفي الكتب في ترقيه، لكنه لا يسلم من رعونة نفسه، وإن وصل لابتلاء العبد برؤية نفسه.

الثالث: النظر للمجاهدات، فمجاهدة التقوى لا تحتاج إلى شيخ لبيانها وعمومها، والاستقامة تحتاج للشيخ في بيان الأصلح منها، وقد يكتفي عنه اللبيب بالكتب، ومجاهدة الكشف، والترقية لا بد فيها من شيخ يرجع إليه في فتوحها، كرجوعه عليه الصلاة والسلام في عرضه على ورقة بن نوفل(1) لعلمه بأخبار النبوة، ومبادىء ظهورها حين فاجأه الحق، وهذه الطريقة قريبة من الأولى والسنة معها، والله تعالى أعلم. انتهى.

قلت: وهذا الجواب الأخير أقرب للصواب، والله تعالى أعلم.

وقوله: «ذو بصر بالسير والمقيل» أشار به إلى شروط الشيخ، وأنه لا بد أن يكون بصيراً بأحوال السير، فيسير كل واحد على قدر طاقته وجهده، فليس القوي كالضعيف، وليس الراكب كالراجل، وليس سير الصديق كالصادق، وليس الصادق كالمتردد، وليس المتردد كالمنكر، فيحمل الصديق من المجاهدة والخراب والأذكار ما لا يحمل الصادق، ويحمل الصادق من ذلك ما لا يحمل المتردد، ويحتال على المنكر بالسياسة حتى يربى له الصدق، وهكذا يسير مع كل واحد من القاصدين.

---

(1) هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى من قريش (000 - نحو 12 ق هـ = 000 - نحو 611م) حكيم جاهلي وهو ابن عم خديجة أم المؤمنين كان شيخاً كبيراً أعمى.
(الأعلام 8/ 114) (الإصابة ت 9133) (خزانة البغدادي 2/ 38 - 41) وغيرها.

قال بعض المحققين: المريد على قسمين: مريد حقيقي، ومجازي.

فالمريد الحقيقي، هو من كملت فيه أهلية الإرادة، فصمم عزمه من أول مرة على الالتزام بصحبة الشيخ، والتحكيم في نفسه، وعمل على معانقة الأهوال، وتحمل الأثقال، ومفارقة الأشكال، ومعالجة الأخلاق، وممارسة المشاق، وتحمل المصاعب وركوب المتاعب.

والمريد المجازي، هو: الذي ليس قصده إلا الدخول مع القوم، والتزيي بزيهم والانتظام في سلك عقدهم، والتكثير لسوادهم، وهذا لا يلزم بشروط الصحبة، وإنما يؤمر بلزوم حدود الشرع ومخالطة الطائفة حتى تشمله بركتهم، وينظر إلى أحوالهم وسيرهم، فيسلك مسلكهم، ويؤهل لما أهلوا له.

وقوله: «قد سلك الطريق، ثم عاد» أشار به إلى أن الشيخ لا بد أن يكون سلك طريق السلوك، ثم خاض بحار الجذب، ثم رجع إلى السلوك، فلا يصلح للتربية سالك محض، ولا مجذوب محض، وإنما يصلح من تقدمه سلوك ثم تداركه الجذب، أو تقدمه جذب، ثم رجع للسلوك، والأول أكمل. وقيل: الثاني أكمل، وكلاهما يصلحان للتربية دون ما قبلهما.

أما **السالك المحض**، وهو الظاهري، فلأنه لا يخلو من بقية فيه من هذا العالم: أعني عالم الأشباح «**والمكاتب عبد ما بقي عليه درهم**»[1] والعبد المملوك لا يمكنه التصرف في نفسه فكيف يتصرف في غيره.

وأما **المجذوب** قبل أن يرجع إلى البقاء، أعني قبل أن يرجع من عالم الحق الذي هو عالم القدرة، وارتفاع الوسائط وخرق حجاب الأسباب إلى عالم الخلق، الذي هو عالم الحكمة، وتحقيق الوسائط والأسباب، وإلى الاشتغال بالسلوك والتحقق بالمقامات، فهو أيضاً غير مؤهل للمشيخة والاقتداء به، لاشتغاله بحاله عن حال غيره، وعدم تحققه بالمقامات، إلا أنه يربي من هو دونه إلى بلوغ مقامه، وقد يتمكنان معاً: إن كان الأول مقتدياً بشيخ يسيره، والله تعالى أعلم.

وقوله: «ليخبر القوم بما استفاد، المراد بالقوم: المريدون» يخبرهم بما استفاده من علوم الأذواق وأنوار الشهود، ولذلك قالوا: لا بد للشيخ أن يكون له

---

(1) أخرجه أبو داود (عتاق 1) والترمذي (بيوع 35) والموطأ (مكاتب 1، 2).

علم صحيح، وذوق صريح، وهمة عالية وحالة مرضية، وسيأتي الكلام على بقية شروطه إن شاء الله.

[تتميم في أحوال الشيخ]

ثم تمم أحوال الشيخ ومعارفه فقال:

(وجاب منها الوهد والآكاما وراض منها الرمل والرغاما)

قلت: أصل «جاب» في اللغة بمعنى: نقب وقطع. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر: 11] أي نقبوها واتخذوا فيها بيوتاً، وأطلقه الناظم هنا على الدخول والسلوك، و«الوهد» المكان المنخفض «والآكام»: المكان المرتفع، جمع أكمة، وهو التل، والتل هو جبل صغير، «وراض» المكان: اختبره وعرف ما فيه، والرمل بالراء: معلوم، والمراد هنا: الرقيق الذي يمنع من سرعة السير، «والرغام»: التراب، والمراد هنا الصلب اليابس.

يقول رضي الله عنه: إن شيخ التربية يكون قد سلك من طريق القوم ما كان منها منخفضاً، كالخمول، والذل، والعزلة، والفاقة، وذاق حلاوة ذلك، ومرارته، وعرف منافعه ودسائسه، فَيُسَيِّر غيره فيها كما سار هو، وعرف أيضاً ما كان منها مرتفعاً كالظهور والعز، والخلطة، والغنى، فيكون قد سلك ذلك وعرف ضرره ونفعه، وذاق حلاوته ومرارته، فيسير فيه كما سار هو، لكن الناس مختلفون، فكم من واحد تأنس بالخمول والعزلة، فتركن نفسه لذلك ويشق عليه ظهوره وخلطته، فالواجب على الشيخ إخراجه من ذلك، فيأمره بالخلطة والظهور، إذ لا تموت النفس إلا بما يثقل عليها، وكم من واحد كان مبتلىً بالظهور، والعز، والغنى، والخلطة، فالواجب إخراجه من ذلك كله الأمر بضده.

قال في شرح «الرائية الشريشية»: وإذا أردت الخروج من العلائق، فأولها: الخروج من المال، فإن ذلك الذي يميل به عن الحق، فلم يوجد مريد دخل في هذا الأمر ومعه علاقة من الدنيا، إلا جرته تلك العلاقة عن قريب إلى ما منه خرج، فإذا خرج من المال، فالواجب عليه الخروج من الجاه، فإن ملاحظة الجاه مقطعة عظيمة، وما لم يستوِ عند المريد قبول الخلق وردهم، لا يجيء منه شيء، بل أضر الأشياء له ملاحظة الناس له بعين التعظيم والتبرك به لإفلاس الناس من هذا الحديث، وهو بعد لم يصحح عقده بينه وبين الله تعالى، فخروجه من الجاه واجب

عليه، لأن ذلك سم قاتل له، فإذا خرج به من ماله وجاهه، فيجب أن يصحح عقده بينه وبين الله تعالى، لا يخالف شيخه في كل ما يشير به عليه، فإن الخلاف للمريد في ابتداء أمره عظيم الضرر، لأن ابتداء حاله دليل على جميع عمره انتهى.

قوله: «وراض منها الرمل والرغاما» يعني: أن الشيخ يكون قد اختبر الطريق: صعبها وسهلها فينظر في حال المريدين، فمن كان قوياً حمله على الصعبة، ليطوي عنه مسافة البعد، ومن كان ضعيفاً حمله على السهلة، لئلا ينغره فيرجع من حيث جاء، فالرمل الرقيق يصعب السير فيه، بخلاف الرغام الصلب، فإنه يسهل فيه السير، فكنى به الناظم عن مشاق النفس، وما يخف عليها، ولا شك أن الطريق إذا كانت قريبة مختصرة لا تجدها إلا صعبة معقبة، وإذا كانت طويلة مسلوكة: لا تجدها إلا طويلة بعيدة، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(وجال فيها رائحاً وغادياً وسار كل فدفد وواديا)

قلت: الفدفد: المكان الغليظ، ذو حصباء، قاله ابن الأنباري، وقال أبو زيد: الفدفد: الموضع الذي فيه غلظ وارتفاع، والوادي معلوم، وجمعه، أودية، وهو مواضع المياه.

يقول رضي الله عنه: يشترط في الشيخ أن يكون ماهراً بالطريق، قد جال فيها مراراً، قد راح فيها آخر النهار وغدا فيها أول النهار، وكنى بها عن علم البدايات والنهايات، فيكون عالماً بها، يربى به المريد في بدايته وفي نهايته، فلكل واحد حكم يخصه، فعمل البدايات عمل الجوارح، وعمل النهايات عمل القلوب، ويكون أيضاً قد سلك مسالك الجمال والجلال، فالجمال محل العلو والظهور، كالفدفد، والجلال محل الانخفاض والحنو، كالأودية، وفيه إشارة إلى أن شرب المريد من منهل الجلال أكثر من شربه من محل الجمال، لأن الأودية الغالب فيها وجود الماء، بخلاف الفدفد، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(وعلم المخوف والمأمونا وعرف الأنهار والعيونا)

قلت: يعني أن الشيخ يكون عالماً بالمكان المخوف والمأمون، والمكان الجدب الذي لا ماء فيه، والمكان الذي فيه الماء، فيكون علاماً بالأمور التي

يخاف على المريد فيها فيأمره بالبعد عنها كالركون إلى العز والتعظيم، أو إلى الدنيا والميل إلى شيء منها ومن أسبابها ومخالطة أهلها وسماع حديثها، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يقول: «لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم» وكصحبة علماء الفروع المتجمدين على ظاهر الشريعة، لأنهم يزعمون أن السنة محصورة فيما علموا منها، وكمخالطة القراء المداهنين، والمتفقرة الجاهلين، فهؤلاء كلهم قطاع، يخاف على المريد في صحبتهم.

والموضع المأمون هو: الزهد في الدنيا والبعد منها، ومن أهلها.

وفي الحديث: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس**»[1]

وفي حديث آخر «**الزاهد يربح بدنه وقلبه في الدنيا والآخرة**»[2]

وقيل لأبي الحسن: ما لي أرى الناس يعظمونك، وليس لك كبير عمل، قال بسنة واحدة افترضها الله على عباده، تمسكت بها.

قيل: وما هي؟ قال. الإعراض عنكم وعن دنياكم.

ومن المواضع المأمونة: صحبة الصوفية من المريدين والعارفين، والميل إلى الفاقة، والقناعة من الدنيا، والعزلة، والصمت، والموضع الذي لا ماء فيه، وهو محل الجدب، وهو الموطن الذي تكثر فيه الشهوات والعوائد، ويجد فيه المريد راحته وجماله، ويظهر فيه عزه وجاهه، فهذا الموطن إن طال فيه إقامته قحط قلبه، ومنع من مدد الزيادة.

قال في الحكم: «إن أردت بسط المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك» ربما تجد من المزيد في الفاقة ما لا تجده في الصوم والصلاة، ولذلك كانت الفاقة أعياد المريدين، لأنها سلم ومعراج الرسوخ والتمكين في مقامات اليقين.

وقد قال بعضهم: «بقدر الامتحان يكون الامتكان، واختبار الباقي يقطع

---

(1) أخرجه ابن ماجة (زهد 1).

(2) أخرجه المنذري في (الترغيب والترهيب 4/ 157) والمتقي الهندي في (كنز العمال 6060، 6061، 6062) والهيثمي في (مجمع الزوائد 10/ 286) والشهاب في (المسند 278) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 9/ 334) والعجلوني في (كشف الخفاء 1/ 451، 532).

التباقي، وكل محنة تزيد مكنة» والموضع الذي فيه المياه من عيون وأنهار هو ما قلته آنفاً من مواطن الشدة كالفاقة وكل ما ينغص على النفس ويؤلمها، فالأنهار، هي: علوم الطريقة، والعيون هي: أسرار الحقيقة.

أو تقول: الأنهار، هي: العلوم، والعيون هي: الأذواق، فلا بد للشيخ أن يكون عارفاً بالعلوم التي يحتاج إليها، ويذوق أسرار الأحوال والمقامات، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(قد قطع البيداء والمفاوز   وارتاد كل حابس وحاجز)

قلت: «البيداء» هي الصحراء، «والمفاوز» جمع مفازة، وهي: المسافة البعيدة، وارتاد، أي اختبر البلد، وعرف ما يصلح وما لا يصلح.

فالرائد هو: الذي يتقدم أمام القوم ليختبر لهم البلد الذي يصلح للنزول، والحابس هو الذي يحبسك عن بلوغ المراد، والحاجز هو الذي يحجز بينك وبين مرادك.

يقول رضي الله عنه: إن الشيخ لا بد أن يكون قطع مهامة النفوس، وجال في ميدان محاربتها في قطع شهواتها وعوائدها، وما تجنح إليه من رعونتها ومألوفاتها، وقطع أيضاً مفاوز البعد الذي بينها وبين خالقها الناشىء عن وهمها وجهلها، وذلك بقطع ركونها إلى الكرامات وخوارق العادات، أو طلب الخصوصية أو غير ذلك من الحروف القاطعة عن مقام الإخلاص، واللحوق بخواص الخواص، ويكون أيضاً اختبر وعرف كل ما يحبس عن السير من الوقوف مع المقامات والقناعة بظهور الكرامات.

وفي الحكم: «ما أرادت همة عارف أن تقف مع ما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة: الذي تطلب أمامك، ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا ونادته حقائقها: إنما نحن فتنة فلا تكفر» وعرف أيضاً ما يحجز ويمنع من الوصول إلى صريح العرفان، على وفق المشاهدة والعيان، وهو أمران. إما الملل من المجاهدة والسير والركون إلى الراحة والكسل، وإما الاستغناء عن الشيخ والخروج عنه قبل الترشيد، فإن ذلك يحجز بينه وبين التحقيق، ويخرجه عن سواء الطريق، ويرجع إلى مقام العموم، نسأل الله السلامة من السلب بعد العطاء. آمين.

ثم قال:

(وحل في منازل المناهل وكل شرب كان فيه ناهل)

المناهل: جمع منهل، وهو: الموضع الذي ينزله الركب، بشرط أن يكون فيه الماء والأخاذ[1]، والناهل هو الشارب.

يقول رضي الله عنه: يشترط في الشيخ أن يكون حل في منازل السائرين، وهي مقامات اليقين، بحيث سلكها وعرفها: ذوقاً وحالاً ومقاماً، كتصحيح التوبة بشروطها وأركانها، وتحقيق الورع والزهد، والخوف والرجاء، والتوكل والصبر، والرضى والتسليم، والمحبة والمراقبة، والمشاهدة، وحصل له الفرق بين الروحانية والبشرية، والسلوك والجذب والفناء والبقاء، وأحكم أحكام التخلية والتحلية و«كل شرب» من مشارب القوم، وأذواقها كان فيه ناهلاً وشارباً، فإذا حصل هذه المراتب، وذاق هذه الأذواق: استحق أن يكون شيخاً مربياً.

كما أشار إليه بقوله:

(فعند ما قام بهذا الخطب قالوا جميعاً أنت شيخ الركب)

قلت: «الخطب» هو الشأن، يعني فعند ما قام بهذا الخطب الجسيم، وتحقق فيه هذا السر العظيم، استحق التقديم للتربية والترقية، وقالوا له: أنت شيخ الركب، حيث سلكت المنازل وعرفت المناهل، وحققت الطريق، ووصلت إلى معالم التحقيق وعلمت المخوف والمأمون والمجذوب منها، وما اشتمل على أنهار وعيون، فقد شهدت لك الأرواح بالتقديم، والأسرار بالتعظيم، وقد أشار الشريشي إلى شروط الشيخ، فقال:

وللشيخ آيات إذا لم تكن له فما هو إلا في ليالي الهوى يسري

إذا لم يكن علم لديه بظاهرٍ ولا باطنٍ فاضرب به لجج البحر

فالعلم الظاهر هو: علم الشريعة، والعلم الباطن هو: علم الطريقة والحقيقة، فإذا لم يحصل شيئاً من هذين العلمين، ثم ادعى مرتبة الشيخوخة، فأخرجه من سفينة دائرة الشيخوخة وألقه في لجج بحر النفاق.

قال صاحب العوارف: ومن شرائط أهل الولاية أن يكون عالماً بالأوامر

---

(1) الإخذ والإخذة: ما حفرته كهيئة الحوض والجمع أُخذ وإخاذ. والإخاذ: الغُدُر (لسان العرب).

الشرعية، عاملاً بها، واقفاً على آداب الطريقة، وسالكاً فيها، وكاملاً في عرفان الحقيقة وواصلاً إليها، ومخلصاً لجميع ذلك، حتى يتم له السلوك ويشرف بعالم الوصال، فالله الله أيها الطالب، الحذر من صحبة الأشرار، فإنهم قطاع الطريق واعتصموا بحبل القرآن والأحاديث النبوية.

وقال أبو الحسن الششتري رضي الله عنه: لا يقتدى في طريقنا هذه بظاهر ولا بباطن، وإنما يقتدى بمن جمع بينهما مع الزهد الظاهر والإيثار والورع والعلم بالمنازلات والأحوال والمقامات والخواطر.

وقال الجنيد رضي الله عنه: «من لا يكتب الحديث، ويحفظ القرآن لا يقتدى به في هذا الأمر» فيجب على المريد ألا يقتدي إلا بالعالم المتجرد عن الدنيا العامل بما يعلم، **ثم قال**: ولا يتخيل لطالب هذا الأمر أنه يبلغه بذكائه أو ينظر في كتب الصوفية أو الحكماء ويعمل ويجتهد ويصلي. لا والله ما الأمر هين.

واعلم أن ما شرطه الشيخ الشريشي في شيخ التربية من العلم الظاهر والباطن صحيح.

أما العلم الظاهر، فالمطلوب منه تحصيل ما يحتاج إليه في نفسه فقط، ويحتاج إليه المريد في حال سيره، وهو القدر الذي لا بد منه من أحكام: الطهارة، والصلاة، ونحو ذلك، إذ كثير من العلوم الظاهرة لا مدخل لها في السير والسلوك إلى ملك الملوك، كالدماء، والحدود، والطلاق، والعتاق، وإلا لزم الحط من رتبة كثير من فحول الطريق وأعلام الوجود، والتحقيق، فقد كان كثير منهم متضلعين بعلوم الشريعة، وكثير منهم ليس عنده إلا ما يخصه من الذي لا بد منه.

قلت إذا عرفت هذا عرفت بطلان قول من قال: إن شيخ التربية لا بد أن يكون جامعاً للعلوم كلها، بحيث لو انقطعت العلوم كلها لأحياها، كيف وقد وجد كثير ممن اتفق الناس على تربيته وهو أمي.

قال في العوارف: لما قال أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه. صحبت أبا علي المسندي (بالسين)، فكنت ألقنه ما يقيم به فرضه، وهو يعلمني التوحيد والحقائق صرفاً.

ومن المعلوم أن الشيخ ابن عباد رضي الله عنه لم يفتح له إلا على يد رجل أمي، وكذلك الغزالي.

ومن المعلوم أن الغزواني لم تكن له يد في العلم الظاهر، فكان إذا جاءته فتيا في علوم القوم أرسل بها لتلميذه الهبطي.

وكذلك شيخ شيوخنا سيدنا عبد الرحمٰن المجذوب، لم يكن له معرفة بالعلم الظاهر، وكثير من الأولياء الأكابر كانوا أميين، وفي أسرار الولاية راسخين.

وأما العلم الباطن فالمطلوب فيه التبحر التام، إذ المقصود بالذات في الشيخ المصطلح عليه عند القوم هو هذا العلم، لأن المريد إنما يطلب الشيخ يسلكه ويعلمه علم الطريقة والحقيقة، فيكون عنده علم تام بالله، وصفاته، وأسمائه، ومتعلقاتها، وأحكامها، وتفاصيلها، وفوائدها وحكمها، وأسرارها، وعلم تام بآفات الطريق ومكايد النفس والشيطان، وطرق المواجيد، وتحقيق المقامات، قد حصل له ذلك على سبيل الذوق والوجدان، بحيث إذا استخبر عن آفات الطريق وعلاماته، وعن حقيقة المقصد يخبر بحقيقة الأمر على ما هو عليه وحصلت له مع ذلك قوة وتمكن من رفع الموانع، وقطع العلائق الظاهرة والباطنة، وبصيرة نافذة ينظر بها في قابلية المريدين والمسترشدين، واستعداداتهم يحمل كل أحد على شاكلة قابليته، ويعين له طريقاً قريباً يفضي منها إلى ربه، قاله الفاسي.

وقال الساحلي: من الشروط التي لا بد منها في الشيخ أن يكون عنده من الكتاب والسنة ما يقيم به ما لا بد منه في الرسوم الشرعية، وما يبني عليه وظائف سلوكه، وإذا أضاف إلى ما يفتح الله به عليه من الحكمة في باطنه، فإنه يكون له في ذلك نور يمشي به في الناس، ويهديه إلى فهم خطابات الكتاب والسنة، إلى آخر كلامه.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: كل شيخ لم تصل إليك الفوائد منه من وراء حجاب، فليس بشيخ.

قلت: ولعله يشير إلى أن الشيخ الكامل يمد تلميذه ولو كان بعيداً عنه في الحس.

وقال أيضاً: والله إني لأوصل الرجل إلى الله من نفس واحد.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: والله ما بيني وبين الرجل إلا أن أنظر إليه وقد أغنيته.

قلت: وقد لقينا والحمد لله في زماننا هذا من يغني بالنظر، صحبناهم

وعرفناهم على قدم الشاذلي، والمرسي رضي الله عن جميعهم، وخرطنا في سلكهم آمين.

ثم إذا توفرت فيه شروط الشيخوخة لزم اتباعه في طريق الخصوص، وإلى ذلك أشار بقوله:

(وأحدقوا من حوله يمشون وكلهم إليه يوزعون)

قلت: أحدق القوم بالشيء: داروا به، ويوزعون، أي يضمون ويحشرون يقول رضي الله عنه: لما تحقق الناس بوجود شرط الشيخوخة في هذا الولي، واطلعوا على وجود السر عنده أحدقوا به وداروا من خلفه، يقتدون به ويهتدون بهديه، ويمشون على سننه، وكلهم يضمون إليه ويقربون من حضرته، لعل نفحات تهب من ناحيته فإن لله رجالاً من نظروا إليه سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وهم العارفون بالله.

وقال في العوارف: إن نظر العلماء الراسخين والرجال البالغين ترياق نافع، ينظر أحدهم إلى الرجل الصادق فيستنشق بنفوذ بصيرته، حسن استعداد الصادق واستئهاله مواهب الله تعالى الخاصة، فيقع في قلبه محبة الصادق المريد، وينظر إليه نظرة محبة عن بصيرة، وهم من جنود الله تعالى، فيكسبون بنظرهم أحوالاً سنية، ويهبون آثاراً مرضية، وماذا ينكر المنكر من قدرة الله سبحانه وتعالى، وكما جعل في بعض الأفاعي من الخاصية إذا نظر إلى الإنسان يهلكه بنظره، هو قادر بأن يجعل في بعض خواص عباده أنه إذا نظر إلى طالب صادق يكسبه حالاً وحياة. اهـ.

وقال في لطائف المنن: إنما يكون الاقتداء بولي دلك الله عليه، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه، فطوى عنك شهود بشريته في وجود خصوصيته، فألقيت إليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد، يعرفك برعونات نفسك وكمائنها ودفائنها، ويدلك على الجمع على الله والفرار مما سوى الله، ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله: يوقفك على إساءة نفسك، ويعرفك بإحسان الله إليك، فيفيدك معرفة إساءة نفسك: الهرب منها، وعدم الركون إليها، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه والقيام بالشكر إليه، والدوام على ممر الساعات بين يديه.

وقال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه.

الشيخ: من شهدت له ذاتك بالتقديم، وسرك بالتعظيم.

الشيخ: من هذبك بأخلاقه وأدبك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه.

الشيخ: من جمعك في حضوره وحفظك في مغيبه.

وقال أيضاً «في لطائف المنن»: ليس شيخك من أخذت عنه.

وليس شيخك من واجهتك عبارته إنما شيخك الذي سرت فيك إشارته.

وليس شيخك من دعاك إلى الباب، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب.

وليس شيخك من واجهك مقاله، إنما شيخك من نهض بك حاله.

شيخك هو: الذي أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى.

شيخك هو: الذي ما زال يجلو مرآة قلبك، حتى تجلت فيه أنوار ربك، نهض بك إلى الله، فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، ولا زال محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه، فزج بك في نور الحضرة، وقال: ها أنت وربك.

هنالك محل الولاية من الله، ومواطن الأمداد من الله، وبساط التلقي من الله.

[كيفية تسيير الشيخ المربي للمريدين]

ثم ذكر كيفية تسييره للمريدين. فقال:

(فرتب القوم على مراتب ما بين ماشٍ راجلٍ وراكب)

قلت: ينبغي للشيخ أن يكون ماهراً بالمسير، عارفاً بأحوال السائرين، فيرتب القوم على مراتب، فمن كان ضعيفاً في السير خالياً من الحال الحاملة له: جعله في وسط الركب يمشي خلف من سبقه، ويسيره من خلفه، ومن كان قوياً في سيره محمولاً على نجيب حاله، قدّمه مع المتقدمين، ليسير خلفه المتوسطون والمتأخرون.

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: الماشي عبارة عن صاحب الأعمال والحركات الجسمانية، والراكب: إشارة إلى المحمول بحال أو عمل أو ذكر أو فكر، توجه له على بساط معرفة، وإنما يفعل بهم ذلك، لأن قوة النفس معينة لصاحبها على مراده، والله تعالى ينفع العبد بنيته على قدر همته، فلذلك تجد السالك واحداً، والفتح مختلفاً ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: 4] هذا في شأن الأشجار النابتة، فكيف بالحقائق العرفانية، وما صحب أحد قط ولياً إلا نال منه ما تقضي همته فإن وافقت نيته همته حصل الانتظام، وإلا وقع الاختلاف.

قلت: يعني أن نية المريد: إن وافقت همة شيخه، وقع الانتظام في سلك الشيخ ولحق به؛ وإن كانت نية المريد مخالفة لهمة الشيخ بأن تكون نية المريد التبرك فقط، أو دخل في حرف من الحروف، وهمة الشيخ فيه الوصول، فإنه يقع الاختلاف، ولا ينال منه إلا ما نوى، إلا إن سبقت له من الله سابقة، فلا بد أن تنهضه همة الشيخ إلى ما سبق له، والله تعالى أعلم.

ثم إن دوام السير يوجب الملل، فلا بد لاستعمال ما يوجب الراحة، ليحصل النشاط، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**رَوِّحوا القلوب: ساعة بساعة**»[1] وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان، فابتغوا إليها طرائف الحكمة»[2]

وإلى ذلك أشار الناظم بقوله:

(وحيث كلت نجب الأبدان قال أحدها يا حادي الأظعان
فمن هنا يلقب القوّالا حادٍ لأجل حدوه الرجالا)

قلت: الكلل هو العيا، وعبد كل: أي ثقيل، وكلت الأبدان: عييت، والنجب جمع نجيب، وهي الناقة الجيدة، وحدا يحدو حدواً بمعنى: غنى بالإبل ليسيرها، فهو حادٍ، أي مغنٍّ، والأظعان: جمع ظعينة، وهي الناقة المرحلة، وتطلق على المرأة الراكبة عليها مجازاً، والتلقيب هو: إحداث اسم يشعر بالمدح أو الذم، وقد نهى الله تعالى عن اللقب المشعر بالذم، فقال: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ [الحجرات: 11] وأطلقه الناظم هنا على مجرد التسمية، أي: وسموا القوال الذي يغني حادياً لأجل حدوه بالرجال السائرين، وحقه أن يقول حادياً لأنه منصوب، لكنه جرى على لغة من يقدر الإعراب كله في المنقوص.

يقول رضي الله عنه: وحيث دام السير، وحصل الملل، وكلت الأبدان في الخدمة، أو القلوب في الفكرة، أو الأرواح في النظرة، أو الأسرار في العكوف في الحضرة، وخيف عليها حصول الفترة، قال الشيخ، أو نائبه، لمن يحسن الغناء: احد بهذه القلوب أيها الحادي، وذكرها معاهدها الأصلية، ومواطنها القدسية، فيغني بما يليق بكل واحد في محله، ولهذا المعنى اتخذوا قوّالاً في حلقة الذكر،

---

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب عن أنس برقم (672) [1/ 393].
(2) أورده السخاوي في فتح المغيث، عن ابن مسعود، آداب الشيخ المحدث [2/ 350].

لأنه يهيج وينشط، ويحسن أيضاً بعد تمام الذكر خشية أن يكون حصل شيء من الملل، فيروح بذلك.

[سياسة الشيوخ في تربية النفوس]

والحاصل أن من سياسة الشيوخ إعانة النفوس بما يقتضيه حالها على ما هو المراد منها، ثم إن الطباع مختلفة وأحوال السالكين مفترقة، **فمنهم** من تنتعش قواه بالمعارف والعلوم، فيذكر له منها ما يقوي حاله بوجه يشوق ولا يشوش.

ومنهم من ينتعش حاله بالتذكير والوعظ، فيكون تذكيره عوناً له على سلوكه، ورفعاً لهمته.

ومنهم من تنْتعش قواه بالمذاكرة في العلوم واستخراج دقائق الفهوم، فيكون ذلك منهضاً له في حاله، فيؤتى كل أحد بما ينعشه، وإليه تشير الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125] فأهل الصدق يكفي فيهم الدعاء إلى الله بالحكمة، وهي الهمة القوية.

وأهل الاعتقاد والتسليم يكفي فيهم الدعاء بالموعظة الحسنة.

وأهل الانتقاد يجادلهم بالتي هي أحسن، فإن سبقت لهم سابقة نفعهم التذكير، وإلا فإنما أنت نذير.

ومن الناس أيضاً من ينتفع بالحكايات وذكر الكرامات.

ومنهم من يتأثر بالشعر والسماع.

ومنهم من يتأثر بنغم الأوتار وآلات الطرب.

ومنهم من يتأثر بسماع الزمارة والكبر، **ومنهم** من يتأثر بسماع الطنبور والبندير وغير ذلك من آلات اللهو.

وفي ذلك يقول الشاذلي رضي الله عنه فيما نسب له:

ومنا من يهيم على سماعٍ ... ببنديرٍ وعودٍ ونقرِ طارِ
ومنا من يهيم على علومٍ ... وقرآنٍ وذكرٍ وافتكارِ

قال بعض الحكماء: من سار إلى الله بطبعه كان وصوله أقرب إليه من طبعه، ومن سار إلى الله بالبعد من طبعه كان وصوله على قدر بعده من طبعه، وذلك يقتضي له الاستهلاك قبل الوصول، فلا يتنعم برؤية الحق إلا في آخر نفس من وجوده، إن وجد، وإلا فهو بعيد في دعواه، ومحجوب برؤية نفسه.

قلت: وطريق الشاذلية ممن سار إلى الله بطبعه، فكان وصولها أقرب إليهم من طبعهم، لأنهم بنوا أصولهم وطريقهم على رؤية الحق والفناء فيه بأول قدم، حسبما استقرى من أحوالهم، فهم يتنعمون برؤية الحق في أول قدم، ولذلك قال القطب ابن مشيش رضي الله عنه: «من دلك على الدنيا فقد غشك، ومن دلك على العمل فقد أتعبك، ومن دلك على الله فقد نصحك»، فالدلالة على الله هي الفناء فيه والانحياش، والغيبة عما سواه، وعلى هذا بنت الشاذلية طريقهم، حققنا الله بمعرفتهم. آمين.

[سفر المريد]

ثم بين حقيقة هذا السفر فقال:

(والسفر المذكور بالقلوب والشيخ في منزلة الطبيب)

قلت: السفر هنا هو سفر القلوب إلى حضرة علام الغيوب، وهو من أربعة مواطن إلى أربعة مواطن:

يسافر أولاً من موطن الذنوب والغفلة إلى موطن التوبة واليقظة.

ويسافر ثانياً من موطن الحرص على الدنيا والانكباب عليها إلى موطن الزهد فيها والغيبة عنها.

ويسافر ثالثاً من موطن مساوىء النفوس وعيوب القلوب إلى موطن التخلية منها والتحلية بأضدادها.

كما قال في الحكم: اخرج من أوصاف بشريتك من كل وصف مناقض لعبوديتك، لتكون لنداء الحق مجيباً، ومن حضرته قريباً.

ويسافر رابعاً من عالم الملك إلى شهود عالم الملكوت، ثم إلى شهود الجبروت، أو من عالم الحس إلى عالم المعنى، أو من عالم الأشباح إلى شهود عالم الأرواح، أو من شهود الكون إلى شهود المكوّن.

وهذا السفر إنما هو معنوي، كناية عن مجاهدة النفوس ومحاربتها في ردها عن عوائدها ومألوفاتها، وفي تخليتها من الرذائل، وتحليتها بالفضائل.

وفي الحكم: لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين، لا مسافة بينك وبينه، حتى تطويها رحلتك، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك.

وقال أيضاً: كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته؟ أم كيف يرحل

إلى الله وهو مكبل بشهواته، إلى آخره.

وكما أن الشيخ بمنزلة شيخ الركب في معرفة الطريق، هو أيضاً بمثابة الطبيب للذوات، فهو طبيب القلوب بما علم وعرف من أحوالها، وعالج من أمراضها، ربما شاهد وذاق من أنوارها وأسرارها.

وقد أشار الفضيل رضي الله عنه إلى هذا حيث قال: العالم طبيب الدين، والدنيا داء الدين، فإذا كان الطبيب يجر الداء إلى نفسه فمتى يبرىء غيره، وأنشدوا:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى ... طبيب يداوي الناس وهو عليل

وقال آخر:

يا أيها الرجلُ المعلّم غيرَه ... هلّا لنفسك كانَ ذَا التعليمُ
تَصِفُ الدواءَ لِذي السّقام وذي الضنَا ... ومِن الضنى وجواه أنت سقيمُ
وأراكَ تلقحُ بالرشادِ عقُولَنا ... نصحاً وأنت من الرشاد عديمُ
ابدأ بنفسِكَ فانهَها عن غَيِّها ... فإذا انتهتْ عنه فأنتَ حكيمُ
فهناكَ يُقْبلُ إن وعظتَ ويُقتدى ... بالقول منك وينفع التعليمُ
لا تنه عن خُلقٍ وتأتي مثلَه ... عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

[علم الشيخ المربي بالأدوية الشافية]

ولما كان علم الطب مركباً من علم وعمل، هو صنعة العقاقير، وأشار الناظم إلى بعض ذلك بقوله:

(يعلم منها الغث والسمينا ... ويدرك الصلب معاً واللينا)

قلت: الغث اللحم الهزال، وهو ضد السمين، والصلب هو الشديد اليبوسة، وهو ضد اللين.

يقول رضي الله عنه: إذا كان الشيخ بمنزلة الطبيب، فلا بد أن يكون له اطلاع على القلوب، واستشراف على النفوس يعلم ما كان منها غثاً ضعيفاً من العلم والعمل والحال، خالياً من اليقين، خراباً من النور، فيعامله معاملة الجائع الهزال، فيعطيه من الأذكار ما يقويه على حاله، ومن الأعمال ما يغنيه عن أشكاله، ويمد باطنه من مدد الهمة ما يسد به فقره ويجبر به كسره.

ويعلم أيضاً ما كان منها سميناً بعلم أو عمل حال، أو بنور يقين أو معرفة أو

غير ذلك، فيعامله بالترقية والتربية اللائقة به، وإذا كان سمنه مفرطاً رده إلى الوسط، فخير الأمور أوسطها.

وقد رد رسول الله ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص[1] عن صيام الدهر وقيام الليل: لكن غلبت عليه القوة فتمسك بذلك، ثم ندم.

ويكون أيضاً حال هذا الشيخ الطبيب يدرك القلب الصلب، وهو القاسي من كثرة الذنوب والغفلة، فيحمله على التوبة، ويوقظه من الغفلة، ويأمره بما يلين قلبه، كالصيام وصحبة الفقراء وقيام آخر الليل، وغير ذلك مما يزيل علته وقساوته.

ويدرك القلب اللين بالخشوع والخضوع، فيأمره بالترقي إلى مقام الإحسان، ويطوي عنه مسافة أعمال الجوارح، من أعمال أهل الإسلام والإيمان، وهكذا يعامل كل قلب بما يناسبه.

قال في العوارف: ينبغي للشيخ أن يتفرس في المريد ويعامله على حسب صلاحيته واستعداده، **ثم قال**: ينبغي للشيخ أن يعتبر حال المريد، ويتفرس فيه بنور الإيمان وقوة العلم والمعرفة، فمن المريدين من يصلح للتعبد المحض، وأعمال القوالب وطريق الأبرار، ومن المريدين من يكون مستعداً صالحاً للقرب وسلوك طريق المقربين المرادين بمعاملة القلوب والمعاملات السنية، ولكل من الأبرار والمقربين نهايات وبدايات، فيكون الشيخ صاحب الإشراف على البواطن، يعرف كل شخص وما يصلح له، ومن العجب أن الصحراوي يعرف الأرضين والغرس، ويعلم كل غرس وأرضه، وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعته ومضارها، حتى المرأة تعرف قطنها وما يأتي منه من الغزل: دقته وغلظه، ولا يعلم الشيخ حال المريد وما يصلح له.

وكان رسول الله ﷺ يكلم الناس على قدر عقولهم، ويأمر كل شخص بما يصلح.

فمنهم من أمره بالإنفاق.

---

(1) هو عبد الله بن عمرو بن العاص (7 ق هـ - 65 هـ = 616 - 684م) من قريش صحابي من النساك من مكة، شهد اليرموك وصفين وعُمي في آخر حياته وله 700 حديث.
(الأعلام 4/ 111) طبقات ابن سعد القسم الثاني من (الجزء الرابع 8 - 13) (الترجمة 4838) وغير ذلك.

ومنهم من أمره بالإمساك.

ومنهم من أمره بالكسب.

ومنهم من أقره على ترك الكسب، كأصحاب الصفة، فكان رسول الله ﷺ يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل أحد.

فأما في رتبة الدعوة فكان يعمم الدعوة، لأنه مبعوث لإثبات الحجة وإيضاح المحجة، يدعو على الإطلاق ولا يخصص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره.

[علم الشيخ بأحوال القلوب]

ثم تمم أوصاف الشيخ الطبيب: وهو العلم والعمل؛ فقال:

(ويعلم البسيط والمركبا وما بدا منها عليه واختبا
والطبع والمزاج والتركيبا والكون والتحليل والترطيبا)

قلت: البسيط هو المفرد الذي لم يتركب من جواهر، والمركب ضده، وبدا الشيء ظهر، واختبا (بالباء): بمعنى استتر، ومنه الخبء في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النمل: 25] أي المستتر والمخفي فيها، والطبع ما جبل عليه الإنسان من خوف أو شجاعة أو بخل أو كرم، أو غير ذلك.

والمزاج: ما ركب منه بدنه كالحرارة، والبرودة؛ واليبوسة، والرطوبة، وغير ذلك.

والتركيب: إضافة الشيء إلى غيره كتركيب العقاقير والأدوية.

والكون: ما كان عليه الجسم من صحة أو مرض.

والتحليل: هو تذويب ما تجمد، كتحليل ما انعقد في جوف الإنسان من العلل بدواء ونحوه.

والترطيب: تليين ما صلب ويبس.

يقول رضي الله عنه: لا بد للشيخ أن يكون ماهراً بأحوال القلوب، عارفاً بعللها، عالماً بعلاجها، يعلم ما كان منها بسيطاً: أي مفرداً من حب الأشياء، ليس فيه إلا قصد واحد، وهم واحد، ومحبة واحدة، وهو الذي أشار إليه الجنيد رضي الله عنه حين قالوا له: كيف يصل العبد إلى التحقيق؟ فقال: بقلب مفرّد، فيه توحيد

مجرد، بعد تحصيل أمور ذكرها قبل، فهذا القلب سهل العلاج قريب الصحة، لأن المرض إذا كان مفرداً قرب علاجه، وهذا القلب حين سلم من تشغيب الهموم، ولم يبق له إلا هم واحد، لم يبق فيه إلا مرض واحد، وهو حجاب الوهم، فعلاجه في ترقيته ورفع حجابه، بخلاف القلب الذي تشعبت فيه الهموم، فهو أصعب في العلاج لتركيب أمراضه وتراكم علاجه، وهو المراد بالمركب.

وقد قال بعضهم: القلب كالمعدة، والمعدة بيت الداء، فإذا كثرت عليها الأخلاط مرضت وفسدت؛ وعلاجها الحمية من الأخلاط، وكذلك القلب إذا كثرت عليه الهموم والخواطر، فسدت فكرته، وانطمست مرآة بصيرته، وإذا قلت منه الهموم والخواطر، سلمت فكرته، وانصقلت مرآته.

وفي الحديث عنه ﷺ: «**من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله هم دنياه، ومن تشعبت به الهموم لم يبال به الله في أي أودية الدنيا هلك**»[1]

وعلاج هذا بالعزلة والصمت، وإخراج الدنيا من يده، إلا قدر ضرورته.

ويحتمل أن يريد بالبسيط والمركب: نفس العيوب التي هي مرض القلب، فيعلم القلب الذي مرضه بسيط، وهو الذي فيه مرض واحد، والقلب الذي مرضه مركب، وهو الذي كثرت علله وأمراضه، فيعالج كل واحد على قدر علله وأمراضه، ويدل على هذا الاحتمال قوله: «وما بدا منها عليه واختبا» فإن المراد به المرض الظاهر، كمعاصي الجوارح الظاهرة، والمرض الخفي كمعاصي القلوب الباطنة، وهي أصعب في العلاج كالرياء، والعجب، والكبر، وحب الجاه، والرياسة، والمدح، وغير ذلك من الأمراض.

وفي الحكم: حظ النفس في المعصية ظاهر جلي، وحظها في الطاعة باطن خفي، ومداواة ما يخفى صعب علاجه.

وقال أيضاً: تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال.

وقال أيضاً: لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق؛ فمداواة الأمراض الظاهرة التزام التوبة والتقوى والاستقامة؛ فإن صعبت عليه فيلزم صحبة الشيخ ومداومة الجلوس بين يديه، أو تكرار المجيء إليه، فإن نظر الشيخ

(1) أخرجه ابن ماجة (مقدمة 23) (زهد 2).

ترياق، فإن صحبه ولم يشف من مرضه فليعلم أن صدقه ضعيف، أو شيخه ضعيف، فإن الشيخ إذا كان له نور يمشي به في الناس جامعاً بين جذب وسلوك، لا يمكن أن يصحبه العليل بالصدق ولم يشف من ساعته.

وقد قالوا: سيدي ابن سيدي هو: الذي يحل عني قيودي.

وقال شيخ شيوخنا سيدي العربي بن عبد الله: طريقتنا كالسكين الماضية، يأتينا الرجل مكبلاً بشهواته فنقطع يده من ساعة، فكل من صحب شيخاً بالصدق ولم ينفك عنه كبل المعاصي، فلينظر شيخاً آخر، والله تعالى أعلم.

والفرق بين الاحتمالين: أن الأول جعل البسيط والمركب من صفة القلب، والثاني جعله من صفة المرض، وهو أليق بما بعده، ويعلم أيضاً هذا الشيخ الطبيب: طبع المريد، وما جبل عليه من قبض أو بسط، أو شح أو كرم، أو سخاء أو خوف، أو شجاعة، أو غير ذلك من الطبائع، فيعالجه بما يصلح لطبيعته، فإن كان منقبضاً أمره بشيء من البسط، وإن كان بخيلاً أمره بالبذل والإيثار، وهكذا يقابل الأشياء بأضدادها، ويعلم أيضاً مزاج المريد، هل هو بارد الهمة، قليل الطلب أو هو حار متعطش، السخانة غالبة عليه، أو هو معتدل، فإن رآه بارداً أمره بصحبة الفقراء والحك معهم، أو دوام صحبته، وإن رآه حاراً متعطشاً أمره بالقصد والتوسط في الخدمة، لقوله عليه الصلاة والسلام:

«أكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا»[1]، وقال أيضاً ﷺ: **«لا يكن أحدكم كالمنبت «أي المنقطع» لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»**[2]

وإن رآه معتدلاً سيره كذلك، ويعلم أيضاً كيفية تركيب العقاقير والأغذية، فمن رآه يليق به ذكر واحد: لقنه له بسيطاً، ومن رآه يليق به ذكران أو ثلاثة، لقنه كذلك، ومن رآه يصلح للفكرة، أمره بها، ومن رآه يصلح للفكرة والنظرة ركبها له، وكذلك الذكر مع الفكرة يركبهما لمن يقدر عليهما، وهكذا، ويعلم أيضاً كون

---

(1) أخرجه البخاري (إيمان 32) (تهجد 18) (صوم 52) (لباس 43) ومسلم (مسافرين 215، 221) (صيام 177) وأبو داود (تطوع 27) والنسائي (قبلة 13) (قيام الليل 17) (إيمان 29) وابن ماجة (زهد 28) والموطأ (صلاة الليل 4) وأحمد بن حنبل (6، 40، 51، 61، 84، 122، 189، 199، 212، 231، 232، 241، 244، 250، 268).

(2) أخرجه البيهقي (القصد في العبادة (4520) [3/ 18]). ونصه: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى».

القلب: هل هو سليم أو سقيم، وهل هو أهل للخدمة أو للمحبة، فإن القلب الذي لا يطيق أنوار المعرفة لا يصلح لصاحبه إلا اشتغاله بالخدمة، ويعلم أيضاً تحليل العلل الجامدة، وتذويبها، كمن تمكنت فيه الرياسة والجاه، فلا يحللها إلا الخراب الكبير والذل الكبير، وكل ما يسقط من أعين الناس، وكذلك من تمكن فيه حب الدنيا وجمعها، لا يحلله إلا الزهد الكبير، وكذلك من تمكن فيه الشح والبخل، لا يحلله إلا العطاء، والبذل، وهكذا.

ويعلم أيضاً ترطيب العلل اليابسة كقسوة، وغفلة، وجمود العين، وقبض النفس، فيأمره بما يعالج كل داء على حدته، فالقسوة تذهب بالذكر والتلاوة والتدبر والصيام والتضرع آخر الليل، وقس على هذا، والغفلة تذهب بملازمة الذكر، ومراقبة الوقت، وجمود العين تنفع فيه المواعظ والزواجر، وقبض النفس تنفع فيه مذاكرة ما يقوي الرجاء ويوجب الفرح، وهكذا.

وهذا الذي قلته ليس هو عين الدواء وحده، إنما نبهنا على الأصل المهم، وليقس ما لم يقل.

[إحكام الشيخ لعلم تشريح أحوال ومقامات القلوب]

ثم كمل أحوال الشيخ الماهر، فقال:

(قد أحكم التشريح والمفاصل وصار علم الطب فيه حاصل)

قلت: علم التشريح هو: علم الطب، وسمي علم التشريح لأنه يشرح بواطن الحيوانات ويعلم دواخلها وأسباب عللها وصحتها، وفسادها، ويعرف طبائعها وأمزجتها، فهو يشرح ذلك شرحاً بالتجربة والاطلاع، حتى إن أطبة العجم يشقون على جوف الميت وينظرون علته، التي أعضلتهم فيعالجونها بالأمور المحللة، حتى تنحل، ليعرفوا كيفية علاجها في غيره.

وعلم المفاصل هو: ما يتعلق بعلاج الجوارح الظاهرة، كالوجع الذي يكون في مفاصل اليدين، والرجلين وسائر الجوارح.

وقد قيل: إن في الإنسان ثلاثمائة وستة وستين مفصلاً، على عدد أيام السنة، كل مفصل قائم بحكمة الله وقدرته، نصفها متحرك ونصفها ساكن، فإذا سكن المتحرك أو تحرك الساكن ضربه الوجع، فيحتاج إلى علاج، فيكون الطبيب عالماً بما يعالجه.

وعلم الطب هو: العلم بالطبيعات السبعة، والضروريات الستة، والأمور الخارجة عنها وهي ثلاثة، والعلم بخواص العشب وتركيب الأغذية والعقاقير.

يقول رضي الله عنه: يشترط في الشيخ أن يكون قد أحكم علم تشريح القلوب والمرجع على أسباب فسادها وصلاحها وصحتها وسقمها، عارفاً بعلاج أمراضها وعللها؛ علم ذلك ببصيرة نافذة ومكاشفة غيبية قد عالج نفسه وطهرها، وطهر قلبه من صدإ الحس وصفا مرآته من صور الأكوان، فإذا كان فعل ذلك، فإن قلبه يصير كالزجاجة الصافية، فينطبع فيه بواطن المريدين، فيعالجهم بما يتجلى فيه من أمورهم، بإذن الله.

يقع الشفاء بمجرد المواجهة والمقابلة، وهذا الذي شهدناه من أشياخنا، ولذلك قال بعضهم: إن تربية الشاذلية إنما هي بالهمة والحال، يعني أن الغالب فيها نهوض الهمة والحال أكثر من نهوض الاصطلاح والمقال، وإلا فالجميع موجود والحمد لله.

هذا معنى كلامه، والله تعالى أعلم.

ويشترط فيه أيضاً أن يكون أحكم علم المفاصل، ويعني به ما يتعلق بإصلاح الجوارح الظاهرة، فيكون جامعاً بين علم الشريعة وعلم الحقيقة، وقد تقدم أنه إنما يحتاج منها لما يلزمه في خاصة نفسه، أو ما يتوقف السير عليه من إتقان ما كلف به الإنسان (راجع ما تقدم).

ويشترط فيه أيضاً أن يكون علم الطب (أي طب القلوب) صار حالاً فيه راسخاً في معرفته؛ قد شفا الله على يديه خلقاً كثيراً، وجماً غفيراً.

وأما من لم يعرف بالتداوي والشفاء، ففيه غرر، وفي صحبته خطر.

قال الإمام أبو حامد رضي الله عنه: وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة، حتى إن الطبيب لا يعالج العليل ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها، هل هي ضعيفة أو قوية، فإذا عرف التفت إلى أحوال البدن، وأحوال الزمن، وصناعة المريض، وسنه وسائر أحواله، فيعالج بحسبها، فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين، ينبغي ألا يهجم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وطريق مخصوص، ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم.

وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد، لقتل أكثرهم، فكذلك الشيخ، لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة؛ لقتل أكثرهم، وأمات قلوبهم.

قلت: فينبغي للشيخ أن يتفرس ببصيرته في حال المريدين، فمن رآه يصلح للتجريد لقوة يقينه أو خفة مؤونته، جرده ومن رآه لا يصلح له تركه في الأسباب، ومن كان أهلاً للخرقة ألبسه إياها، ومن كان غير أهل لها: تركه في لباسه؟ ومن كان أهلاً للعزلة أمره بها، ومن كان قد استأنس بها أمره بالخلطة لقوة حاله، ومن كان ذا جاه ورياسة أمره بالخراب والسؤال ونحوه، ومن كان خاملاً أمره بما يليق به، وهكذا، والله تعالى أعلم.

[معرفة الشيخ بتركيب أدوية القلوب والأرواح]

ثم تمم أحوال الشيخ فقال:

(وكان عشاباً وصيدلاني قدحاً وكحّالاً ومارستاني)

قلت: العشاب هو الذي يعرف أعيان العشب ومنافعها وخواصها، وهو من شأن الأطبة، والصيدلاني هو: الذي يعرف أنواع العطرية التي تتركب منها العقاقير: منسوب إلى صيدلة وهو: العطر، قاله في «القاموس».

والقدح وهو: إخراج الماء الفاسد من العين، ويقال للفاعل: قداح، والكحال هو الذي يعرف أدوية العين ويعالجها بأنواع الكحل، والمارستاني هو: الذي جمع أنواع الطب فيعالج أنواع المرض في أشخاص مختلفة، والمارستان: دار كبيرة معدة للمرضى؛ والقائم عليها يسمى المارستاني، ولا يكون إلا ماهراً بالطب، عالماً بأنواعه، وقد أخبرني من أثق به أن الروم عندهم مارستان كبير، وعليه طبيب ماهر، يداوي كل من يأتيه، ولهذا المارستان عندهم أحباس عظيمة، يقوم بها على المرضى، والمراد هنا هو طب القلوب.

يقول رضي الله عنه: يشترط في طبيب القلوب ما يشترط في طبيب الأبدان، فيشترط فيه أن يكون عارفاً بتركيب أدوية القلوب وأشربتها، وأغذية الأرواح وأسقيتها، عالماً بمنافع الأذكار وأذواقها، ونتائج الأفكار ومعارفها، فالأذكار كالأغذية للقلوب، والعلوم كالأشربة لها، والمذاكرة كالأغذية للأرواح، والفكرة والنظرة كالأشربة لها، وصحبة العارفين والجلوس بين أيديهم فيه مدد كبير للقلوب

والأرواح والأسرار، هو غذاؤهم وشرابهم، وفيه دواؤهم وشقاؤهم، كل على قدر صدقه ومحبته، وعلى قدر مقامه ومرتبته ـ ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: 60] قال [الشيخ الأكبر] محيي الدين بن عربي رضي الله عنه: ومتى لم يكن الطبيب يميز أعيان الأعشاب والعقاقير، عارفاً بتركيب الأدوية فإنه مهلك للمريض فإن العلم من غير العين لا يفيد، فلا بد من عين اليقين، ألا ترى لو كان للعشّاب غرض في إهلاك المريض، فإذا وصف الطبيب الدواء من جهة كونه عالماً به، وهو لا يعرف شخص الدواء، وقلد العشاب في ذلك فأعطاه العشاب ما فيه هلاك العليل، وهو يقول: هذا مطلوبك ليسقيه الطبيب للمريض فيهلك، فإنه لا يداوي إلا بما يعرف شخصه وعينه، فكذلك الشيخ إذا لم يكن صاحب ذوق، وأخذ الطريق من الكتب لا من أفواه الرجال، وقصد يربي المريدين طالباً للرياسة، فإنه يهلك من تبعه، لأنه لا يعرف مورد الطالب ولا مصدره، فلا بد أن يكون عند الشيخ دين الأنبياء، وتدبير الأطباء، وسياسة الملوك، وحينئذٍ يقال له: أستاذ، وقوله: «قدحاً» على حذف مضاف، أي ذا قدح أو يكون مصدراً بمعنى اسم الفاعل، حالاً، أي قادحاً، كقولك جاء زيد ركضاً أي راكضاً، والمراد أن الشيخ لا بد أن يكون عارفاً بأدوية مرض البصيرة، فإن كانت فاسدة بشك، أو كفر، أو نفاق قدح عليها وأخرج ما فيها من فساد الإيمان وأبدلها بالطمأنينة وصريح الإيقان، وهذا الدواء يكون لأهل النور الكبير، والعناية الكبيرة، الذين يغنون بالنظرة، وإن كانت صحيحة الناظر؛ إلا أنها مسدودة بمرض الحس والوهم، أو مطموسة بالحرص والجزع والهلع، وعلامة ذلك اجتهاد صاحبها فيما ضمن له، وتقصيره فيما طلب منه، عالجها له بكحل توحيد الأفعال، حتى يتيقن أن الذي انفرد بالخلق والتصوير، هو الذي انفرد بالحكم والتدبير، وأن الذي غرس الشجرة هو ساقيها، والقائم عليها فيذهب عنه الهم والجزع، والخوف، والهلع، والحرص، والطمع، ويصير قلبه واثقاً بمولاه، غنياً به عما سواه وإذا فتحت البصيرة وظهر لها شعاع النور حتى أبصرت قرب الحق منها إلا أنها لضعفها لا تستطيع مقاومة شهود النور، كحلها بكحل توحيد الصفات، فإذا فتحت عينها وقويت على شهود النور المحيط بها، لكنها لم يقو نورها حتى تتصل بالنور المحيط بها، كحلها بكحل توحيد الذات، فيصل نورها بنور الجبروت، فلا تشهد إلا النور، فحينئذٍ يكمل شفاؤها وينجح دواؤها، وهذا شرح

قول ابن عطاء الله شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجوده؛ لا عدمك ولا وجودك، «**وكان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان**»(1)

وقوله: ومارستاني: أراد أن الشيخ لا بد أن يكون جامعاً لعلوم المعاملة، عارفاً بأدوية الأمراض على اختلاف أنواعها وأصنافها قد قدمه أهل وقته، وشهد له بذلك أهل فنه؛ وهذا قد لا يشترط لغلبة الخفاء على أهل هذا الفن، والله تعالى أعلم.

[ذكر ما بقي من أحوال الشيخ]

ثم ذكر ما بقي من أحوال الشيخ فقال:

(أمهر في الأعراض والأخلاط من أسقلا جالينوس أو بقراط)

قلت: التمهر في الشيء هو: التوسع في علمه، والماهر هو: الواسع العلم، وفي الحديث «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة**»(2) أي الواسع في حفظه أو علمه، والأعراض جمع عرض، وهو ما يعرض للبدن من: أسقام، وأوجاع، وحرارة، وبرودة، ومما يدل على وجود المرض، هذا في علم الطب، وهو عند المتكلمين أعم من هذا، والأخلاط ما اجتمع في المعدة من العلل المتضادة الناشئة عن اختلاط الأغذية المختلفة، «وأسقلا جالينوس» (بفتح الهمزة وسكون السين وفتح القاف ولام مفتوحة ممدودة وجيم مفتوحة ممدودة ولام مفتوحة وياء ساكنة ثم نون مضمومة ممدودة ثم سين ساكنة) اسم حكيم من اليونان، وكذلك بقراط (بضم الباء وسكون القاف) فيلسوف حكيم، وكانا ماهرين بعلم الطب، و«أمهر» اسم تفضيل معطوف على خبر كان منصوباً، وأو بمعنى الواو.

يقول رضي الله عنه: يكون هذا الشيخ أمهر في علم القلوب من هذين الطبيبين الحكيمين، وأراد بالأعراض كل ما يعرض للمريد في حال سلوكه من القواطع والشواغل، كميله للرياسة والجاه، وتقدمه للمراتب قبل كماله، وكميله للدنيا واشتغاله بالأسباب قبل ترشيده، وكمال بقائه؛ وغير ذلك مما يقطع عن السير.

---

(1) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 2/ 105) وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة 263) والعجلوني في (كشف الخفاء 2/ 189).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه (فضيلة حافظ القرآن (798) [1/ 549]) وابن حبان في الصحيح (ذكر تفضل الله جل وعلا على الماهر بالقرآن. . (767 [3/ 44]) ورواه غيرهما.

وأراد بالأخلاط: الخواطر الرديئة والمقاصد الدنيئة، فيكون الشيخ عارفاً بالخواطر النفسانية والشيطانية، والملكية، والربانية، ويكون أيضاً عارفاً بالمقاصد السنية والدنية، والهمم العالية والسفلية، فيعالجه من الأخلاط بجمع قلبه على الله، والغيبة عما سواه، وبالفناء التام وتفرغ القلب على الدوام، ويعالجه من المقاصد الدنية كحب الحظوظ وطلب الحروف، بالدلالة على تحقيق العبودية، والقيام بوظائف الربوبية الذي هو مطلب العارفين، والله تعالى أعلم.

[استشفاء المريدين بالشيخ المربي]

وإذا تكاملت في الشيخ هذه الخصال: صح أن يقصده الرجال لشفاء ما فيهم من العلل، كما أبان ذلك بقوله:

(فعند ما صح له التحصيل يممه السقيم والعليل
فكان يبريهم من الأمراض والساخط القلب يعود راض)

قلت: يريد فعندما صح له تحصيل هذه الخصال على التمام والكمال، قصده السقيم، وهو الذي خف مرضه، والعليل وهو الذي: تناهت علته، وقيل هما سواء، فيكون من عطف التفسير، فكان يبريهم من أمراض القلوب، وأعظمها هم الرزق وخوف الخلق، ثم التدبير والاختيار، ثم الغضب والقنط عند نزول الأقدار، فيعالجه بهمته ونور بصيرته، ويلاحظه بنظرته حتى يمتلىء قلبه بنور اليقين، فيستغني بالله عن كل ما سواه، وتشرق عليه أنوار التوحيد، فيستريح من كد التدبير والاختيار، فحينئذٍ يذوق حلاوة الإيمان، فيرضى عن الله في كل حال وأوان.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً**»(1)

قال في التنوير: فمن رضي بالله رباً استسلم له، ومن رضي بمحمد ﷺ رسولاً اتبعه، ومن رضي بالإسلام ديناً عمل به.

قلت: ولا شك أن القلب إذا كان عليلاً لا يذوق حلاوة الإيمان، ولا يجد الطاعة ولا للمناجاة لذة، ففم السقيم لا يجد للطعام ولا للشراب لذة، فإذا صح

(1) أخرجه مسلم في (صحيحه الإيمان ب 11 رقم 56) والترمذي في (سننه 2623) وأحمد بن حنبل في (المسند 1/ 208) والبغوي في (شرح السنة 1/ 52) والمتقي الهندي في (كنز العمال 9) والتبريزي في (مشكاة المصابيح 9) والقرطبي في (التفسير 6/ 317) والبيهقي في (الأسماء والصفات 73).

القلب ذاق حلاوة الإيمان، ومن أركانه الإيمان بالقدر: خيره وشره، حلوه ومره، فيستحلي ما يبرز من عصر القدرة كيفما كان، إذ كل ذلك من عند الحبيب، ولله در القائل حيث قال:

إذا كانتِ الأقدارُ مِنْ مالك المُلكِ ... فَسيّان عِندي ما يَسرُّ وما يُبكي
رضيت بما يقضي الإله فأمرهُ ... يقابلُ بالإقبالِ عندَ ذوي النُّسكِ
وإنْ صلَّى الإنسانُ نارَ مشقةٍ ... فما الذهبُ الإبريزُ إلا أخو المِسكِ
أخو الصبرِ لا يخشَى أموراً وإنّما ... يهنَأ في الحالين مِن غيرِ ما شكِ

قوله: «والساخط القلب يعود راض» هذا علامة الشفاء، فما دام العبد ينقبض عند الجلال والشدة، وينبسط عند الجمال والرخاء ففيه بقية من مرض القلب، فإذا استوت عنده الأحوال، فذلك علامة الصحة على الكمال، ويتصل بمقامات الرجال.

سئل ذو النون المصري(1) رضي الله عنه عن وصف الأبدال، فقال: «سألت عن دياجي الظلام، لأكشف لك عنها، هم قوم ذكروا الله بقلوبهم تعظيماً لربهم، لمعرفتهم بجلاله، فهم حجج الله تعالى على خلقه، ألبسهم الله تعالى النور الساطع من محبته، ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته، وأقامهم مقام الأبطال بإرادته. وأفرغ عليهم من مخافته، وطهر أبدانهم بمراقبته، وطيبهم بطيب أهل معاملته، وكساهم حللاً من شبح مودته، ووضع على رؤوسهم تيجان مبرته، ثم أودع القلوب من ذخائر الغيوب، فهي متعلقة بمواصلته، فهممهم إليه ثائرة، وأعينهم إليه بالغيب ناظرة، قد أقامهم على باب النظر من رؤيته، وأجلسهم على كراسي أطباء أهل معرفته، ثم قال لهم: إن أتاكم عليل من فقدي فداووه، أو مريض من فراقي فعالجوه، أو خائف مني فانصروه، أو آمن مني فحذروه، أو راغب في مواصلتي فمنوه، أو راحل نحوي فزودوه، أو جبان في متاجرتي فشجعوه، أو آيس من فضلي فرجوه، أو راجٍ لإحساني فبشروه، أو حسن الظن بي فباسطوه، أو محب لي فواصلوه، أو معظم لقدري فعظموه، أو مسيء بعد إحساني فعاتبوه، أو مسترشد فأرشدوه» انتهى كلامه رضي الله عنه.

---

(1) هو أبو الفيض ذو النون ثوبان بن إبراهيم المصري (توفي 245 هـ/ 859م) كان رجلاً نحيفاً تعلوه حمرة وليس بأبيض اللحية. (الرسالة القشيرية 433).

[علم التصوف هو طب النفوس والقلوب والأرواح]

ثم نبه على المقصود بهذا العلم، فقال:

(وليس هذا طب جالينوس وإنما يختص بالنفوس)

قلت: نبه رحمه الله على أن هذا الطب الذي ذكر ليس هو طب الأبدان الذي كان يعرفه جالينوس الحكيم، وإنما هو طب النفوس لتصلح لحضرة القدوس، وطب القلوب لتصح من الأمراض والعيوب، وتتهيأ لدخول حضرة علام الغيوب، فتنخرط في سلك ﴿مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 89]، ويكون ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿55﴾﴾ [القمر: 55]، في جوار الكريم، متعنا الله بالسكنى في حضرته في الدنيا والآخرة.

ثم ذكر قلة هذا الطب في زمانه، فقال:

(فهكذا الشيوخ قدماً كانوا يا حسرتي إذ سلفوا وبانوا)

قلت: الإشارة تعود على ما ذكر في الفصل في أحكام الشيوخ، من معرفتهم بالطرق ومسالكها: سهلها ووعرها، ومعرفتهم بطب القلوب وأنواع الأدوية والعقاقير، وعلمهم بعلل النفوس وأمراضها، ثم تأسف وتحسر على ذهابهم، أي فراقهم دار الدنيا، وسكناهم دار البقاء، ولكن لا تخلو الأرض من قائم لله بحجته، كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه.

وقد وردت أخبار في مدح مقام الشيوخ والتنويه بقدرهم عند الله.

قال في «العوارف»: ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم: إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده، ويحببون عباد الله إلى الله، ويمشون في الأرض بالنصيحة»(1)

وهذا الذي ذكر رسول الله ﷺ هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله، لأن الشيخ يحبب الله إلى عباده حقيقة، ويحبب عباد الله إلى الله، ورتبة المشيخة والدعوة من أعلى الرتب في طريق الصوفية ونيابة النبوة في الدعاء إلى الله.

---

(1) رواه عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان في التوبيخ والتنبيه، (ذكر ما يلزم المرء المسلم لأخيه. . . (15) [1/ 22]).

فأما وجه كون الشيخ يحبب عباد الله إلى الله لأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله ﷺ، ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 31].

ووجه كونه يحبب الله تعالى إلى عباده، لأنه يسلك بالمريد طريق التزكية، وإذا تزكت النفس، انجلت مرآة القلب، وانعكس فيها نور العظمة الإلهية، ولاح فيها جمال التوحيد، وذلك ميراث التزكية، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: 9]، وفلاحها بالظفر بمعرفة الله، وأيضاً مرآة القلب إذا انجلت لاحت فيها الدنيا بقبحها، وحقيقتها وماهيتها، ولاحت الآخرة بنفاستها بكنهها وغايتها، فينكشف للبصيرة حقيقة الدارين، وحاصل المنزلين، فيحب العبد الباقي ويزهد في الفاني، فتظهر فائدة التزكية وجدوى المشيخة والتربية، فالشيخ من جنود الله تعالى، يرشد به المريدين، ويهدي به الطالبين.

ثم قال: فعلى المشايخ وقار الله، وبهم يتأدب المريد ظاهراً وباطناً، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90]، فالمشايخ لما اهتدوا أهلوا للاقتداء بهم، وجعلوا أئمة المتقين.

قال رسول الله ﷺ حاكياً عن ربه عز وجل: «**إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي، جعلت همته ولذته في ذكري، فإذا جعلت همته ولذته في ذكري، عشقني وعشقته، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه، لا يسهو إذا سهى الناس، أولئك كلامهم كلام الأنبياء، أولئك الأبطال حقاً، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذاباً ذكرتهم فصرفته بهم عنهم**»(*) انتهى.

ثم أشار إلى الحكم الثاني من أحكام التصوف فقال:

[(الحكم الثاني في حكم الاجتماع)].

أعلم أن الاجتماع عند القوم هو أعظم الأركان وأهمها، حتى قال بعضهم: التصوف مبني على ثلاث أركان: الاجتماع، والاستماع، والاتباع، فكل من انفرد عن الإخوان واشتغل بنفسه لا يجيء منه شيء، والمؤمنون كالشياه، فإذا انفردت شاة عن الغنم، كانت من سهم الذئاب، وقد رغب الله في الاجتماع، قال تعالى:

(*) أورده المتقي الهندي في كنز العمال برقم (1872) [1/ 221] وعزاه إلى أبي نعيم في الحلية.

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: 2]، وقال ﷺ: «**يد الله مع الجماعة**»(**)

وعن معاوية رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على حلقة من أصحابه فقال: «**ما أجلسكم؟** قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام وَمَنَّ به علينا، قال: **والله ما أجلسكم إلا ذلك؟** قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: **أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه جاءني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة**»[1]

وقال رسول الله ﷺ: «**ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله عز وجل، لا يريدون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم منادٍ من السماء: أن قوموا مغفوراً لكم، قد بدلت سيآتكم حسنات**»[2]

وقال أيضاً ﷺ: «**يا أيها الناس: إن لله سرايا من الملائكة تجول وتقف على مجالس الذكر في الأرض، فارتعوا في رياض الجنة، قالوا: وأين رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر، فاغدوا وروحوا في ذكر الله، وذكِّروا أنفسكم: من كان يريد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه**»[3]

(**) رواه ابن حبان في الصحيح، في إثبات معونة الله جل وعلا . . ، حديث رقم (4577) [10/ 437] والترمذي في سننه، باب ما جاء في لزوم الجماعة حديث رقم (2166) [4/ 466] ورواه غيرهما.

(1) أخرجه النسائي (آداب القضاة 37) (حج 194) ومسلم (حج 436) وابن ماجة (مساجد 19) (مناسك 56) وأحمد بن حنبل (2، 186، 187، 208، 224، 305، 4، 92).

(2) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند 3/ 142) والهيثمي في (مجمع الزوائد 10/ 76) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 5/ 8) والسيوطي في (الحاوي الفتاوي 2/ 25) وصاحب (الإتحافات السنية 270) والمتقي الهندي في (كنز العمال 1889) والسيوطي في (الدر المنثور 1/ 151) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 1/ 297) وأبو نعيم في (حلية الأولياء 3/ 108).

(3) أخرجه الحاكم في (المستدرك 1/ 494) والمنذري في (الترغيب والترهيب 2/ 405) وابن حجر في (فتح الباري 11/ 212) والمتقي الهندي في (كنز العمال 1887) وابن القيسراني في (تذكرة الموضوعات 170) وابن حبان في (المجروحين 2/ 81) وصاحب (ميزان الإعتدال 6155).

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**وذكّروا أنفسكم**» أي ليذكر بعضكم بعضاً، فالمذاكرة هي أعظم الذكر، لأن فيها علماً وذكراً لله، ومجالس الذكر تصدق بمجلس العلم، والذكر والمذاكرة، وما زال الأشياخ رضي الله عنهم يوصون أصحابهم بالاجتماع، ويحضون عليه.

وكان شيخنا رضي الله عنه يقول: إذا رأيتم أحداً انقطع عنكم فتداركوه قبل أن يموت، وموته برودته ورجوعه عن الطريق.

وكان للشاذلي رضي الله عنه تلميذ يحضر مجلسه، ثم انقطع عنه، فلقيه ذات يوم، فقال: ما لك انقطعت عنا؟ فقال له: قد استغنيت بك عنك، فقال له رضي الله عنه: لو استغنى أحد بأحد، لاستغنى الصديق عن مجلس رسول الله ﷺ ولم يفارقه حتى مات، فانقطاع الفقير عن الاجتماع، أو عن الشيخ من أعظم القواطع، والله تعالى أعلم.

وذكر الشيخ في هذا الفصل:

[(سبب الاجتماع، وآدابه، ووقته، وأهله، وثمرته)]

فأشار إلى الأول بقوله:

(فكان إذ ذاك اجتماع القوم ... له بعلم عمل عن علم)

قلت: لما كان الاجتماع على الشيخ مرتباً على معرفته والتحقق به، استفتح الفصل بفاء السببية؛ والإشارة تعود على شروط الشيخ المتقدمة، أي فكان حين حصل ذلك الأمر المتقدم في الشيخ، وتحقق العلم به بعلامة شواهد اجتماع القوم له، وحضورهم مجلسه لتعلم علم العمل، أي لتعلم إتقان العمل بالعلم الذي كان عندهم واستفادوه منه.

والحاصل: أن فائدة الشيخ هي تحقيق الإخلاص، وإتقان العمل، إذ العلم عند الناس كثير، والعمل به قليل، وعلى تقدير وجود العمل: لا يخلو من طلب الحظوظ وقصد الحروف، وذلك مناف للإخلاص، والأعمال صور قائمة، وروحها وجود سر الإخلاص فيها، وأيضاً الإنسان لا يخلو من رعونات نفسه، فتوقعه في إفراط أو تفريط، أو تخرج به لخلاف المقصود، فإذا رجع فرأى من هو أعلم منه وأنصح له؛ لم تبق فيه بقية تفرقه عن الوصول إلى الحق.

وقوله: «عن علم» راجع للاجتماع، أي فكان اجتماعهم عليه بسبب إتقان

العمل بالعلم الذي حصلوه على علم ويقين منهم أنه على بينة من ربه؛ وأنه أهل للتربية، بحيث شهدت له أرواحهم بالتقديم، وسرهم بالتعظيم، ولم يكن اجتماعهم عليه على جهل به وتقليد وشك وترديد.

ثم الأليق بالشيخ إذا اختلط الفقراء: «أهل بدايات ونهايات» أن يفرقهم في المذاكرة على ما قاله الناظم وأشار إليه بقوله:

(ولم يكن ذلك عن رويّة بل يحضر القوم على السويه)

قلت الروية والتروي هي: المشاورة في الأمر والاتفاق عليه، يعني أن القوم لم يكن اجتماعهم عن اتفاق وروية على أن يحضروا في مجلس واحد ووقت واحد، ويكون أهل البدايات وأهل النهايات على السوية في مجلس واحد، كما يفعل أهل التدريس للعلم الظاهر، بل كانت الشيوخ تذكر كل فرقة على حدتها، وتخاطب كل واحد على قدر فهمه، فينبغي للشيخ أن يكون له مجلسان: مجلس يخص به أهل النهايات، ومجلس يعم به أهل البدايات والنهايات، وينبغي له أيضاً ألا يلتزم مجلساً واحداً لا يتعداه، بل مهما اتفق اجتماعهم ذكرهم في أي وقت كان، ومهما قدم عليه قوم ذكرهم، فقد يكون منهم من يحب الاستعجال في سفره، ومنهم من يريد المقام، ولا ينبغي للشيخ أن يحتجب عن الفقراء حتى يتضرروا بانتظاره، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يحتجب عن أصحابه، ولم يكن له بوابون ولا مشاورون.

وما ذكره الناظم من تفريق المذاكرة إنما يتأتى مع قلة الفقراء، وأما مع كثرتهم فيجعل لهم مجلساً واحداً، ويذكر فيه في البدايات، والوسط والنهايات، وكل واحد يشرب من منهله ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: 60]، هذا ما أدركنا أشياخنا عليه حين كثرة الأتباع.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: ويجعل مجلساً يتضرع فيه إلى الله في إصلاح شأنه وشأن من تعلق به، ليكون ناصحاً لهم في الباطن كما نصح لهم في الظاهر.

ولما ذكر سبب الاجتماع وآدابه أشار إلى وقته، فقال:

(ولم يكن أيضاً لدى العشاء إذ فيه نهي وهو للإغفاء)

قلت: الإغفاء هو: النوم، يعني أن اجتماع القوم لم يكن عند وقت العشاء، لأن ذلك الوقت جعله الله للنوم والراحة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ [يونس: 67]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ

سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿47﴾ [الفرقان: 47]، وذلك ليقوم للصلاة ناشطاً، ولاسيما عند قصر الليل.

وقد نهى سيدنا عمر رضي الله عنه عن النوم قبلها والحديث بعدها، يعني العشاء، وكذلك أيضاً لا ينبغي أن يكون عند أوقات الصلاة، لأن ذلك يؤدي إلى خروج وقتها، ولا ينبغي تطويل المجلس، فقد قال الزهري: إذا طال المجلس كان فيه حظ للشيطان.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: وحق المريد أن يدخل على الشيخ بالهمة، ويقعد عنده بالحرمة، ويخرج من عنده بالخدمة والعزيمة.

[حكمة الاجتماع]

ثم أشار إلى حكمة الاجتماع، فقال:

(وافتقروا فيه للائتلاف ليعلم المستوفي حال الوافي)

قلت: الائتلاف هو: الاجتماع، وتألف القوم اجتمعوا، قاله في «القاموس».

يقول رضي الله عنه: وافتقروا أيضاً للاجتماع لأمور، منها: معرفة حال الإنسان في العلم، والحال، والمقام، فإن النفس قد تغلط في نفسها، فتظن أنها أدركت مقام الأكابر، وهي مقيمة مع الأصاغر، فإذا اجتمع مع من هو أنهض منه حالاً وأكثر منه علماً؛ علم حاله وعرف مقامه، فيجد في سيره، ويتحقق بقدره.

وفي بعض الأخبار: «عاش من عرف قدره» وكذلك الفقير الكامل إذا رأى من هو دونه في الحال أو المقام حمد الله وشكره وطلب الزيادة من مولاه، وهذا معنى قوله: «ليعلم المستوفي حال الوافي» فالمستوفي الذي هو: الناقص، تنعشه رؤية الكامل الذي هو الوافي في العلم والحال، لاستشعاره نقصه وقصوره عن رتبة صاحبه الوافي، فينهض في العمل؛ وينافسه في الحال قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: 26]، والوافي يعرف قدر منة الله عليه فيما أدركه فيشكره، فيزيده الله تعالى على ما أعطاه، ويتشوف إلى مقام أعلى فيوصله الله إليه، إذ السير لا نهاية له.

قال الشيخ أبو هادي رضي الله عنه لأصحابه يوماً: بم يرتفع المريد إلى رتبة هي أعلى من رتبته؟ فقالوا: بفضل الله ورحمته، فقال: إنما سألتكم عن السبب الخاص بهذا الأمر، فقالوا: من عند الشيخ، قال: يخلق الله له همة هي أعلى من همته، فيرتفع بها إلى رتبة أعلى.

ومنها: أي ومن الأمور الداعية للاجتماع: حصول النشاط والقوة، فإنّ دوام الوحدة تبرد صاحبها، وتقوي عليه الحس والكسل إن كان في محل البدايات.

وقد تحصل له فترة أو وقفة، فإذا اجتمع مع الإخوان قوي حاله وزال كسله، ولذلك قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 2].

ورغب عليه الصلاة والسلام في حضور مجالس الذكر كما تقدم.

قال بعض المتقدمين: كنا إذا فترنا نظرنا إلى محمد بن واسع[1]، فعملنا عليه أسبوعاً ا هـ أي بقي نشاطنا فنعمل عليه أسبوعاً، فمشاهدة الأخيار ترفع الهمة وتقوي العزيمة، والمؤمن مرآة أخيه؛ فما في المحاذي ينطبع في المحاذي، وقد قال أنس رضي الله عنه: «ما نفضنا أيدينا من التراب من دفنه عليه الصلاة والسلام حتى فقدنا قلوبنا».

ومنها: استفادة العلم والمعرفة، وأما العلم فمن المذاكرة، وأما المعرفة فمن المشاهدة.

قال بعض الحكماء: «فهم سطرين، أفضل من حفظ وقرين» فضل ومذاكرة اثنين أفضل من هاتين، أي أفضل من فهم سطرين وحفظ وقرين، والنظر إلى العلماء ومجالسة الحكماء عبادة كبيرة، وبالله التوفيق.

[فضل الاجتماع]

ثم استدل على فضل الاجتماع بالحديث، ورواه بالمعنى، فقال:

(لا خير فيمن لم يكن ألوفاً ولم يكن لغيره مألوفاً)

قلت لفظ الحديث: «**المؤمن إلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**»[2]

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «**إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً الموطئين**

---

(1) هو محمد بن واسع بن جابر الأزدي أبو بكر (000 ـ 123 هـ = 000 ـ 741م) فقيه ورع من أهل البصرة وهو من ثقات أهل الحديث.
(الأعلام 7/ 133) (تهذيب التهذيب 9/ 499).

(2) أخرجه أحمد بن حنبل (2، 400، 5، 335).

أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون»[1]

فقوله عليه الصلاة والسلام: «الموطئين أكنافاً» معناه المأمون جانبهم بحيث لا يخاف منهم خيانة ولا جناية الذين يألفون الناس ويألفهم الناس، وهو معنى قول الناظم «لا خير فيمن لم يكن ألوفاً» بغيره ولم يكن مألوفاً لغيره؛ أي يألفه غيره.

وفي رواية أخرى: «**ألا أنبئكم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون**».

قلت وينبغي التفصيل في أحوال الناس: أما العارفون الراسخون؛ فلا يليق بهم إلا التآلف بالناس والتصبر لهم، لأنهم يأخذون نصيبهم من كل شيء، وقد وجههم الله تعالى لنفع عباده، فينبغي لهم أن يألفوا الناس ويألفهم الناس؛ وكذلك الصالحون المتوجهون لإصلاح الناس بالتبرك والدعاء؛ والعلماء المتوجهون لتعليم العباد، فلا بد من صبرهم على جفوة المتعلمين والسائلين، ومن تعلق بهم من المسلمين.

وأما المريدون السائرون، فلا ينبغي لهم أن يألفوا الناس كلهم، فإن ذلك يقطعهم عن ربهم، وكل فقير مال للرياسة والسياسة، وتوجه للناس قبل كماله، فلا يجيء منه شيء؛ وإنما يألف الفقير من ينهضه حاله ويدل على الله مقاله.

وفي الحديث: قالوا: «من نجالس يا رسول الله؟ قال: من ذكركم بالله رؤيته، وزاد في علمكم منطقه، ورغبكم في الآخرة عمله».

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: أوصاني حبيبي، فقال: لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالباً من معصية الله، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله، ولا تصطفِ لنفسك إلا من تزداد به يقيناً، وقليل ما هم، وبالله التوفيق، وإلى هذا المعنى أشار بقوله:

[أحكام الصحبة]

(ومن يكن يصحب غير جنسه   فجاهل والله قدر نفسه)

قلت: وإنما كان من يصحب غير جنسه جاهلاً بقدر نفسه، لأن النفس؛ وهي الروح: ياقوتة رفيعة، جعلها الله في صدف بشريتك، فإذا صحبت بها من هو أحسن

(1) أخرجه مسلم في (صحيحه 1810) والتبريزي في (مشكاة المصابيح 5075) والمنذري في (الترغيب والترهيب 3/ 403) وابن كثير في (البداية والنهاية 6/ 42).

فقد صنتها ورفعتها واعتنيت بشأنها، لأن صحبة الأبرار تصيرك من الأخيار، وإذا صحبت بها من هو أسوأ منك وأخسر منك فقد بخستها وحططت قدرها ورميت بها في المزابل، لأن الطباع تسرق الطباع، والمرء على دين خليله، وصاحب المرء رقعة من ثوبه، فلا يصح أن يكون من غير نوعه، ويرحم الله القائل حيث قال:

عليك بأرباب الصدور فمن غدا مضافاً لأرباب الصدور تصدرا
وإياك أن ترضى بصحبة ساقط فتحط قدراً من علاك وتحقرا

وقال غيره:

لا تصحب أخا الجهل فإياك وإياه فكم من جاهل أردىٰ حليماً حين وافاه
قياس النعل بالنعل إذا ما هو حاذاه يقاس المرء بالمرء إذا ما هو ما شاه
وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

وقال سهل بن عبد الله[1]: احذر صحبة ثلاثة من أصناف الناس: الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين.

وقال يوسف بن الحسين الرازي[2] رحمه الله: قلت لذي النون المصري رضي الله عنه: من أصحب؟ فقال: من لا تكتمه شيئاً يعلمه منك.

وقال حمدون القصار[3] رضي الله عنه: اصحب الصوفية، فإن للقبيح عندهم وجوهاً من المعاذير، وليس للحسن عندهم كبير همّ، إشارة إلى أن العجب بالعمل عندهم منتف في صحبتهم.

وقال الجنيد رضي الله عنه: إذا أراد الله بالمريد خيراً أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء.

---

(1) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري أبو محمد (200 ـ 283 هـ = 815 ـ 896م) أحد أئمة الصوفية وعلمائهم له كتاب في (تفسير القرآن) وكتاب (رقائق المحبين) وغير ذلك.
(الأعلام 3/ 143) (طبقات الصوفية 206) و(الوفيات 1/ 218) و(حلية الأولياء 10/ 189).

(2) هو أبو يعقوب ـ يوسف بن الحسين الرازي (توفي 304 هـ/ 916م) كان شيخ الري والجبال وكان عالماً أديباً. (الرسالة القشيرية 414).

(3) هو أبو صالح ـ حمدون بن أحمد بن عمارة القصار (توفي 271 هـ/ 884م) نيسابوري انتشر عن مذهب الملامتية بنيسابور (الرسالة القشيرية 426).

وقال سيدنا علي رضي الله عنه: شر الأصدقاء من أحوجك إلى المداراة، وألجأك إلى الاعتذار.

وقال أيضاً: شر الأصدقاء من تتكلف له، وأنشدوا:

أُحبُّ مِنَ الإخوانِ كلُّ مواتي وفي غضيضِ الطرفِ عن عَثَراتي
يوافقني في كلِّ أمرٍ أُحبهُ ويحفظني حيًّا وبعدَ وفاتي
فمَن لي بهذا: ليتني قَدْ وجدتُه فقاسمتُهُ ما لي مِنَ الحَسَنَات

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: يا ابن عمران كن يقظاناً، وارتد لنفسك إخواناً وكل أخ لا يوافقك على مسرتي فهو لك عدو يقسي قلبك ويباعدك مني.

قال الشيخ أبو عبد الله بن عباد رضي الله عنه: **والحاصل** من هذا أن صحبة الصوفية هي التي يحصل بها كمال الانتفاع للصاحب دون من عداهم من المنسوبين للدين والعلم، لأنهم خصوا من حقائق التوحيد والمعرفة بخصائص لم يساهمهم فيها أحد، وسريان ذلك إلى الصاحب من المصحوب هو غاية الأمل والمطلوب، فقد قيل: من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها، فمن جلس على دكان العطار لم يفقد الرائحة الطيبة، هذا في الحضور والمجالسة، فما بالك بالصحبة والمؤانسة، **ثم قال**: وبصحبة هؤلاء يحصل للمريدين من المزيد ما لا يحصل لهم بغيرها من فنون المجاهدات وأنواع المكابدات، حتى يبلغوا بذلك إلى أمر لا يسعه عقل عاقل، ولا يحيط به علم ناقل.

ولذا قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه: ماذا أصنع بالكيمياء، والله لقد صحبت أقواماً يعبر أحدهم على الشجرة اليابسة فتثمر رماناً للوقت، فمن صحب هؤلاء الرجال ما يصنع بالكيمياء.

وقال أيضاً رضي الله عنه: والله ما سار الأولياء من قافٍ إلى قاف إلا حتى يلقوا واحداً مثلنا، فإذا لقوه كان بغيتهم.

وقال أيضاً: الولي إذا أراد أغنى.

وقال أيضاً رضي الله عنه: والله ما بيني وبين الرجل إلا أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته.

وقال فيه شيخه سيدي أبو الحسن رضي الله عنه: أبو العباس هو الرجل الكامل، والله إنه ليأتيه البدوي يبول على ساقيه، فلا يمسي عليه المساء إلا وقد وصله إلى الله.

ثم أشار لحديث ورد في الجليس فقال:

(أفضل للمرء جلوس وحده ولا يكن جليس سوء عنده)

قلت: أشار إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «**الجليس الصالح خير من الوحدة، والوحدة خير من الجليس السوء، والجليس الصالح مثل العطار: إن لم تنل من طيبه أصبت من ريحه، والجليس السوء مثل الحداد إن لم تصب من شرره أصابك من نتنه**»[1] وفي معنى ذلك قيل:

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردىٰ فتردىٰ مع الردي
عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي رضي الله عنه: الجلوس مع العارفين أفضل من العزلة، والعزلة أفضل من الجلوس مع العوام، ولا شيء أضر على المريد من الجلوس مع المتفقرة الجاهلين.

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: الجليس السوء هو الذي جمع ثلاث خصال:

الأولى: الرضى عن نفسه، بحيث يرى له حقاً على الناس، ويرى الناس كلهم دونه، وهذه صفة الجبابرة الغافلين.

الثانية: الاسترسال في الغيبة، وتزكية النفس وتعظيم ذنب الغير، واحتقار ذنب نفسه، فلا يقيل عثرة، ولا يغفر زلة، وهذه صفة القراء المداهنين.

الثالثة: وجود الدعاوى، والطمع، وحب الرياسة، والبدع، وهذه صفة المتصوفة الجاهلين.

وقيل: الإخوان ثلاثة.

أخ لآخرتك، فلا تراع فيه إلا الإيمان.

وأخ لدنياك، فلا تراع فيه إلا حسن الخلق.

وأخ للناس، فلا تراع فيه إلا السلامة من شره.

وهو كلام جامع مفيد. انتهى، وبالله التوفيق.

---

(1) أخرجه أحمد بن حنبل (4، 405، 408).

[الاجتماع ونتيجته]

ثم أشار إلى الاجتماع ونتيجته فقال:

(قد يرتجى الشفاء للسقيم مهما يك ملازم الحكيم)

قلت: لا أعظم شفاء لأمراض القلوب وعللها من صحبة العارفين، والدخول تحت جناح تربيتهم وملازمة حضانتهم بالصدق والمحبة، والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح، وكان شيخنا رضي الله عنه يقول: من لم يصحب الفحول يبق في الوهم موحول، وإنما اشترطت الملازمة ودوام الصحبة، لأن بذلك يعرف صدقه في طلب دوائه ويظهر حاله في وجه الشفا من دائه لمعرفة وجه العلة وسببها الذي لا يعرف غالباً إلا بالملازمة، وأيضاً بذلك يقع العطف عليه، فينهضه بهمته ودعائه.

وفي ذلك يقول الشيخ أبو مدين رضي الله عنه:

وراقب الشيخ في أحواله فعسى يرى عليك من استحسانه أثراً
ففي رضاه رضىٰ الباري وطاعته يرضى عليك فكن من تركها حذراً

هكذا في بعض النسخ، وفي بعضها ترك هذا البيت، والمراد بالحكيم في كلام الناظم: شيخ التربية، لأنه طبيب حكيم كما تقدم.

[رد على من أنكر على الفقراء الاجتماع]

ثم رد على من أنكر على الفقراء الاجتماع فقال:

(ومن ينازع فاطرح نزاعه فالدين مبني على الجماعة)

قلت: يريد من نازع الفقراء وأنكر عليهم اجتماعهم فلا تسمع لقوله، بل انبذه وراء ظهرك، فالدين مبني على الجماعة، قال ﷺ:

«**الجماعة رحمة والفرقة عذاب**»[1]

وقال عليه السلام: «**يد الله مع الجماعة**» وقال أيضاً ﷺ:

«**من فارق الجماعة قيد شبر مات ميتة جاهلية**»[2]

---

(1) أخرجه أحمد بن حنبل (4، 278، 375).

(2) أخرجه البخاري (فتن 2) (أحكام 4) وأبو داود (سنة 27) (أدب 14) والترمذي (أدب 88) والنسائي (تحريم 6، 28) والدارمي (سير 75) (وأحمد بن حنبل 1، 70، 83، 93، 97، 123، 154، 275، 297، 296، 2، 306، 488، 3، 445، 446، 5، 180، 387، 406، 6، 19).

إلى غير ذلك من الأحاديث المرغبة في الاجتماع، وقد تقدمت في أول الفصل نبذة صالحة منها.

وقد حرر ابن عرضون في «مقنعه» الخلاف في المسألة، ورجح القول بالاستحباب، واستدل بأحاديث ووقائع، فطالعه إن شئت، وهذا أمر قد تواتر عند الصوفية، فلا يحتاج إلى دليل، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم أشار إلى الحكم الثالث، وهو اللباس، فقال:

[(الحكم الثالث في حكم اللباس)]

أي ما يختاره القوم من اللباس، وما يتركونه، ولا يكون ذلك قدحاً في طريقهم، أصلاً ولا فعلاً.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل متبذل لا يبالي ما لبس**»[*] وهو كلام تام، أي كل من يحب الخمول لا يبالي ما لبس.

وكان عمر رضي الله عنه يقطع من كميه ما جاوز الأصابع.

وقال بعض المشايخ: الفقير الصادق، أي شيء لبس يحسن عليه، ويكون عليه فيه الملاحة والمهابة، والثوب الخلق (أي البالي) أحب إليهم من الجديد، لأنه أكثر بركة، ويجتهدون في النظافة والظرافة.

قال ﷺ: «**النظافة من الإيمان**» ورأى على بعض الوفود ثوباً وسخاً، فقال ﷺ: «**أما كان يجد هذا ماءً يغسل به ثوبه**»[1] وقال: «**هب أن الفقر من الله، فما بال الوسخ**» وقال: «**إن الله يبغض الوسخ**»[2] ويكرهون لبس الشهرة من الثياب، ويتبركون بثياب المشايخ، وقد كانت الصحابة يتبركون بثيابه ﷺ، وبشعره وريقه، وعرقه، وفضل وضوئه، ففيه جواز التبرك بآثار الصالحين.

ثم ذكر الشيخ بعض أحكام اللباس، فقال:

(وقد أباحوا سائر الأثواب وتركها أقرب للصواب)

(*) أخرجه العراقي في الغني عن حمل الأسفار (4/ 226) والمنذري في الترغيب والترهيب (3/ 108) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (9/ 352) والفتني في (تذكرة الموضوعات 178، 3/ 108).

(1) أخرجه أبو داود في (سننه اللباس ب 17) وابن عبد البر في (التمهيد 5/ 52).

(2) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال 5181) والسيوطي في (جمع الجوامع 5182).

قلت: إنما أباحوا سائر الأثواب لقوله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: 26].

فأطلق فيه، وقال تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 31].

وقد لبس ﷺ جميع الألوان: الأحمر، والأصفر، والأخضر، والمحبر، والأسود، والأبيض، والقباء، والجبة، والكساء، والقميص، والعمامة، والرداء والبردة، وغير ذلك واشترى السراويل، وذكر البرنسي: ولم يرد عنه لباس الأزرق، ولا يكره، فجميع الألوان مباحة للباس؛ ويفضلها الأخضر، لأنه لباس أهل الجنة، والأبيض، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**إن من خير ثيابكم البياض، ليلبسها أحياؤكم وكفنوا فيها أمواتكم**»(1)

واستحب الصوفية لبس الصوف: لما في الصوف من رقة القلب، وخفة المؤنة، ولأن سيدنا موسى عليه السلام يوم ناجى ربه كانت ثيابه كلها صوفاً، وهذا ليس على سبيل التحجير، بل علىٰ سبيل الزهد فقط، ومخالفة النفس، واقتداءً بأهل الصفة.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ قال: «**من ترك لبس ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعاً لله، كساه الله حلة الكرامة**»(*).

وقال أيضاً ﷺ:

«ألا تسمعون: «**إن البذاذة من الإيمان**»(2) كررها ثلاث مرات.

قال المنذري: والبذاذة بفتح الباء الموحدة وذالين معجمتين، هو: التواضع في اللباس برثاثة الهيئة.

وقال أيضاً ﷺ: «**إن الله يحب المتبذل: الذي لا يبالي ما لبس**»(3) رواه البيهقي.

---

(1) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير 12/ 66) والطبراني في (المعجم الصغير 1/ 139) والشهاب في (المسند 1253 ـ 1254).

(*) رواه أبو داود في السنن، باب من كظم غيظاً، حديث رقم (4778) [4/ 248] ورواه القضاعي في مسند الشهاب، من كظم غيظاً. .، حديث رقم (437) [1/ 269].

(2) أخرجه أبو داود (ترجل 2) وابن ماجة (زهد 4).

(3) أخرجه العراقي في (المغني عن حمل الأسفار 4/ 226) والمنذري في (الترغيب والترهيب 3/ 108) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 9/ 352) والفتني في (تذكرة الموضوعات 178، 3/ 108).

وقوله: «وتركها أقرب للصواب» يعني ترك التكثر منها والتأنق فيها، لا تركها بالكلية، لأن التعري حرام.

ثم علل ذلك الترك فقال:

(إذ في لباس حلها الحساب أيضاً وفي حرامها العقاب)

قلت: في بعض الأخبار: «**اتقوا الدنيا فإن حلالها حساب، وحرامها عقاب**»[1] لكنني لم أقف على من ذكره، غير أن الزهد في الدنيا مرغب فيه بالاتفاق، والذي ثبت في الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم**»[2] رواه الترمذي وقال حديث غريب.

وقوله: «في لباس حلها الحساب» يعني عن أصلها وقصدها، وبحث بعضهم فيه بأن ما أبيح لا يكون سبباً للحساب، ويجاب بأن الحساب يقع على قصده بالزيادة على الحاجة، هل قصد التجمل أو التفاخر أو إظهار نعمة الله؟

وسئل أيضاً عن القيام بشكرها، فإنه من النعيم الذي يسأل عنه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ⁽٨⁾﴾ [التكاثر: 8].

وأما العقاب على الحرام فظاهر، لأنه عصى الله بتناوله ما حرم الله، فهو من جملة المعاصي التي يستحق عليها العقاب، إلا أن يتفضل الله بعفوه.

قال أبو عبد الله السلمي رضي الله عنه: وآدابهم في ذلك «أي في اللباس» أن يكون مع الوقت، يلبسون ما يجدون من غير تكلف ولا اختيار، ويقتصرون على ما يؤدون به الغرض، من ستر العورة وما يدفع به الحر والقر، فهي مما استثنى النبي ﷺ من الدنيا، وقيل: إنها ليست من الدنيا، ويتبرؤون من كثرة اللباس، ويواسون بالفضل.

قال ﷺ: «**ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب: رجل غسل ثوبه فلم يكن له خلق أي ثوب بال «يبتدل به» ورجل لم ينصب له على مستوقد قدران، ورجل دعا بشرابه**

---

(1) أخرجه صاحب (ميزان الإعتدال 10171) والمتقي الهندي في (كنز العمال 6063، 6196) وابن حجر في (لسان الميزان 7/ 416) والسيوطي في (الدر المنثور 1/ 100).

(2) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال 39012) والألباني في (السلسلة الصحيحة 946).

فلم يقل أيهما تريد»[1]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما أعد رسول الله ﷺ من شيء زوجين.

[فوائد لبس المرقعات]

ثم ذكر فوائد المرقعة فقال:

(والقوم ما اختاروا المرقعات	**إلا لأوصاف وسوف تأت**
أولها فيها إطراح الكبر	**ومنعها للبرد ثم الحر**
وخفة التكليف ثم فيها	**قلة طمع الطامعين فيها**
وذلة النفس وتطويل العمر	**والصبر ثم الاقتدا بعمر**
ألا ترى لابسها كالخاشع	**فهي إذن أقرب للتواضع)**

المرقعات: جمع مرقعة، وهي الثوب الملفق من رقاع كثيرة ملونة أو غير ملونة، كانت من صوف أو شعر أو جلد، وإنما اختارها القوم على ما سواها من الثياب لوجوه عشرة:

أولها: طرح الكبر ونفيه والتخلق بضده، وهو التواضع، إلا إذا قصد بذلك من حيث أنها شعار الصالحين، فيحرم لباسها حينئذٍ، أو يقصد بذلك التظاهر على من لم يلبسها من الفقراء، أو يرى له مزية بها على غيره، فينقلب الأمر حينئذٍ.

ثانيها: أنها تدفع الحر من حيث تناسبها وبرودتها، لاجتماع أجزائها دون تخليل، وتدفع القر: أي البرد، لكثافتها.

وثالثها: خفة مؤنتها في تحصيلها، فإنها من الخرق الملقاة على المزابل، التي لا يضر إعطاؤها من طلبت منه، نعم: إن كان يختار لها الرقاع الرفيعة، قد خرجت عن حقيقتها، وزالت ثمرتها لأنها صارت حينئذٍ من رفيع الثياب، فهي وسائر اللباس سواء.

ورابعها: قلة الطمع فيها للصوص السلابة وغيرهم، من حيث ذاتها، لا من حيث ما يحتوي عليها من الحرمة، فإذا جذبها الفقير إليه واختبروه لم يكن لهم إلمام: أي توصل بها، بل ردوها عليه واستغفروا من حقه، كما هو مشاهد معلوم،

---

(1) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 9/ 212، 282) والمتقي الهندي في (كنز العمال 6078، 43344).

ولبسها للاحترام جائز قاله الشيخ زروق رضي الله عنه.

وخامسها: ما في لبسها من دفع الشرور، باعتبار الاحترام لشبه لابسها بأهل الخير، وذلك جائز في الدفع، لا في الجلب لقوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: 59]، وهذا داخل في قوله: «وقلة الطامعين فيها».

وسادسها: ما فيها من ذلة النفس بين أبناء الجنس، وفي ذلك موتها، وفي موتها حياتها، وفي ذلك قال الششتري متكلماً على لسان الحق:

إنْ تُرِدْ وَصْلَنَا فَمَوْتُكَ شرطٌ   لا ينالُ الوصالَ مَنْ فيهِ فَضْلَه

وفي ذل النفس أيضاً: إسقاط المنزلة والجاه، وهو شرط في تحقيق مقام الإخلاص، وفيه أيضاً حصول الخمول الذي هو راحة لأن صاحبه لا يعرف بالتقية، ولا يدري بالأمور العالية، بل إذا غاب لا ينتظر، وإذا حضر لا يستشار.

وفي الحديث عنه ﷺ: «**رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه» (أي لا يعبأ) به لو أقسم به على الله لأبره**»[1]

وسابعها: ما فيها من رفع الهمة وقلة المبالاة بالخلق؛ فإن المعتقد لا يزيده اعتقاد الناس إلا شراً، والغالب على صاحبها عدم المبالاة بالخلق، قد استوى عنده المعتقد والمنتقد.

قال بعض المشايخ لبعض الشباب: إياكم وهذه المرقعات؛ فإنكم تكرمون لأجلها، فقال الشاب: إنما نكرم بها من أجل الله، قال: نعم، قال: حبذا من نكرم من أجله، أي ما أحبه إلينا، له: بارك الله فيك، وهذا السابع داخل في ذل النفس.

ثامنها: ما قيل فيها من طول العمر، ومحمل ذلك على البركة فيه، بحيث يدرك في يسير منه ما لا يدرك غيره في سنين متطاولة كما قال ابن عطاء رضي الله عنه: «من بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمان ما لا يدخل تحت دوائر العبارة، ولا تلحقه الإشارة» وعبادة العارفين كلها متضاعفة بأضعاف كثيرة.

وقال أيضاً في حكمه: «ما قل عمل برز من قلب زاهد، ولا كثر عمل برز من قلب راغب».

---

(1) أخرجه مسلم (بر 138) (جنة 48).

وقيل: إن ذلك يكون حقيقة، وهو من باب الخاصية، وإن من لبسها دل على طول عمره، والله تعالى أعلم.

وتاسعها: مقاساة الصبر وتجرع مخالفة النفس، وفي ذلك من الفضل ما لا يجهل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10]، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 155] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 153].

وقال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: الصبر من الدين كالرأس من الجسد، والصبر مطية الإمامة والاقتداء.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ [السجدة: 24].

وفيها أيضاً الوقاية من ارتكاب الكبائر المشهورة، إذ يعاب على صاحبها، ولا يمكن منها بحال، فهي عصمة من عظام الكبائر، والصبر عليها كأنه صبر عن القبائح كلها.

وعاشرها: الاقتداء بأمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر**»[1]

فالاقتداء بهما امتثال لأمره عليه الصلاة والسلام، وفيها جمع الخاطر الذي لبسها لأجله عمر رضي الله عنه، فإنه كانت له مرقعة: بين كتفيه ثلاث عشرة رقعة، إحداها من جلد، فلما طرحها يوم فتح بيت المقدس بإشارة المسلمين ولبس غيرها، قال: أنكرت نفسي، وعاد إليها؛ ولبس عمر رضي الله عنه المرقعة كان اختياراً منه وتواضعاً، وليس ذلك ضرورة، فقد كانت له أموال خاصة به، قبل الخلافة وبعدها، وبالله التوفيق.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: «فائدة» ينبغي لمن وسع الله عليه في الدنيا أن يظهر عليه أثر نعمة الله باستعمالها على وجه مباح، لا يخل بالحق ولا بالحقيقة، بأن يلبس أحسن لباس جنسه أو وسطه، ويتخذ مرقعة يجعلها عدته وأصل لباسه، فما دام غنياً عنها استغنى، وإلا فهي المرجع عنده، كذا أشار علينا شيخنا أبو

(1) أخرجه الترمذي (مناقب 16، 37) وابن ماجة (مقدمة 11) وأحمد بن حنبل (5، 382، 385، 399، 402).

العباس أحمد بن عبد الله الجزيري[1]، ثم الزواوي رضي الله عنه.

[(الحكم الرابع في الأكل)]

ذكر في هذه الترجمة: حكم الأكل، ومقداره، وصفته، وآدابه، وآداب تحصيل المأكول، والعمل فيه بعد حصوله، وكيفية العمل في صرف ما يتصرف منه، ومن أولى بصرف ذلك إليه، والتنبيه على أمور مهمة تتعلق بالأكل.

ثم بدأ بحكمه عند القوم فقال:

(الأكل فيه تركه مشروط إلا اضطراراً قدر ما يحوط
وإن يكن فحسن وإلا فتركه عند الجميع أولى)

قلت: الضمير من «فيه» يعود على طريق القوم، والطريق يذكر ويؤنث، يعني أن الأكل في طريق القوم تركه عندهم شرط أيضاً، لأن من كانت همته في بطنه، كانت قيمته ما يخرج منها، فلذلك لا يأكلون إلا اضطراراً، بقدر ما يسد الخلة، فقد قال رسول الله ﷺ:

«ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان ولا بد، فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس»[2]

وحد الاحتياج للطعام أن يشتهي الإنسان خبزه المعتاد، وحد الاضطرار: أن يشتهي كل خبز، بل يأكل أي نوع كان.

والجوع الكذاب: أن يشتهي مع الخبز شهوة ما؛ قال المشايخ: وعلامة أخذ الحاجة من الطعام تغيير طعم الطعام في الفم، والاحتياج في تسويغه لشرب الماء بوجه لا يمكن دونه، والإحساس بالثقل، والله تعالى أعلم قاله الشيخ زروق رضي الله عنه.

---

(1) هو أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي (800 ـ 884 هـ = 1398 ـ 1479م) فاضل مالكي من قبيلة زواوة أقام بالجزائر له (اللامية) في علم الكلام تسمى الجزائرية في العقائد الإيمانية في الأزهرية.
(الأعلام 1/ 160) (الضوء اللامع 1/ 374) وغيرها.

(2) أخرجه الترمذي في (السنن 2380) وأحمد بن حنبل في (المسند 4/ 132) والدارمي في (السنن 213) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 7/ 387) والقاضي عياض في (الشفا 1/ 186) وابن حجر في (فتح الباري 11/ 288، 13/ 248) وابن الجوزي في (تلبيس إبليس 214) والعجلوني في (كشف الخفاء 2/ 278).

وقوله: «قدر ما يحوط» يعني قدر ما يحفظ القوة ويمسك البدن، إذ لا يجوز لأحد أن يجيع نفسه حتى تختل قوته وتفسد فكرته، بل خير الأمور أوسطها، كما أشار إليه البوصيري رحمه الله بقوله:

واخش الدسائس من جوعٍ ومن شبعٍ فرب مخمصةٍ شر من التخم

وقوله: «وإن يكن» أي الاضطرار، أي وإن حصل الاضطرار فأكله حسن، وإلا فتركه أولى عند كافة أهل الطريق.

قال أبو عبد الله السلمي رضي الله عنه: سئل بعض المشايخ عن الأكل الذي لا يضر، فقال: أن يأكل بتنفيذ القدرة، لا بشاهد الشهوة، أي أن تأكل بسبب تنفيذ القدرة مرادها من بقاء هذا البدن. فيكون أكله لحفظ صحة هذا الجسم، كما أمرك ربك، لا بسبب شهوة بطنك.

وروي أن رجلاً تجشأ عند رسول الله ﷺ، فقال: «**كف عنا جشاءك، فأكثركم شبعاً في الدنيا أكثركم جوعاً يوم القيامة**»[1]

وقال الحسن. كان بلية آدم في أكلة أكلها، وهي بليتكم إلى يوم القيامة.

وقال سهل رضي الله عنه: لأن أترك من عشائي لقمة أحب إليّ من قيام ليلة.

وقال يحيى بن معاذ[2]: لو كان الجوع يباع في الأسواق لما أمكن أن يشتروا غيره.

وقال: لو تشفعت لنفسك بالملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين، في ترك شهوة لردتهم وأجمعين، ولو تشفعت إليها بالجوع لانقادت إليك وطاوعتك: يعني لو خوفتها به، لتركت تلك الشهوة.

وقال مالك بن دينار: لا تجعلوا بطونكم جرباً للشيطان يودع فيها ما أحب.

وقال ﷺ: «من أحس من نفسه نشاطاً فليؤدبها بالجوع والعطش» يعني نشاطاً للمعصية أو اللهو.

---

(1) أخرجه الترمذي في (السنن 2478) والمتقي الهندي في (كنز العمال 40868) وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث 1861، 1910).

(2) هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي أبو زكريا (000 ـ 258 هـ = 000 ـ 872م) واعظ زاهد من أهل الري أقام ببلخ ومات في (نيسابور له كلمات سائرة) الأعلام (8/ 172) والعروسي على شرح الرسالة القشيرية (1/ 119) وطبقات الصوفية (107 ـ 114) وغيرها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يصلي جالساً، **فقلت**: ما أصابك؟ قال: **الجوع**، فبكيت فقال لي: «لا تبك، إن شدة القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب ذلك»[1]

[بعض آداب الطعام]

ثم نبه على بعض آدابه فقال:

(وأدب القوم لدى الطعام	**جم فمنه ترك الاهتمام**
وقلة الذكر له إن غاب	**لكونه عندهم حجاب**
بل أنزلوه منزل الدواء	**عند العليل بغية الشفاء)**

قلت: أشار إلى أن آداب القوم «يعني الصوفية» عند تناول الطعام أو قبله «جم» أي كثير.

فمنها: عدم اهتمامهم به قبل الحاجة إليه، لأن الاهتمام به قبل الحاجة دليل الشره والحرص عليه، وذلك من قوة الأوصاف البهيمية عليها، وقد تقدم قول من قال: من كان همه بطنه كانت قيمته ما يخرج منها.

وحكي عن رويم رضي الله عنه أنه قال: «لم يخطر ذكر الطعام ببالي عشرين سنة». حتى احتضر رحمه الله.

ومنها: قلة ذكره قبل حضوره، لأن ذكره دليل تعلق النفس به، وتشوفها إليه، و«من أحب شيئاً أكثر من ذكره» ولأن ذكره يهيج الشهوة ويسلط النفس على الطلب، فيؤدي للاهتمام، أو يكون علامة عليه.

قلت: وينبغي للعارف ألا يأكل إلا بإذن من الله، بحيث يمهل حتى يتيسر ذلك من غير سؤال، فإذا دخل داره مثلاً فلا يطلب غذاءً، حتى يعرض عليه إلا لضرورة فادحة؟ وإنما أهملوا ذكره قبل حصوله اهتماماً وسؤالاً، لأن ذكره حجاب عن الحقائق باشتغال النفس له، لولوعها به طلباً وذكراً، ولو كانت فانية في الحق لأشغلها ذلك عن الحظوظ.

وقوله: «بل أنزلوه منزل الدواء»: يعني أن القوم رضي الله عنهم أنزلوا الطعام والشراب منزلة الدواء، لقيام هذا البدن، فلا يتناولون منه إلا قدر شفائه، وهو ما به قوامه؛ ولا يذكرونه ولا يهتمون به أصلاً اشتغالاً عنه بما هو أهم، من: ذكر أو فكر

---

(1) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال 18626).

أو شهود أو معاملة ظاهرة، وإذا تناولوه قصدوا به التقوي على الطاعة والقيام بحق البشرية التي هي معرفة السر، وإليه أشار بقوله: «بغية الشفاء» أي بقصد الشفاء لا بقصد المتعة والشهوة.

قال السلمي رحمه الله: قيل لبعض المشايخ: كيف يتناول الطعام؟ قال: كتناول العليل الدواء يرتجي الشفاء، والله تعالى أعلم.

[ذكر ما يتعلق به قبل حصوله]

ثم ذكر ما يتعلق به قبل حصوله، فقال:

(ولم يكن همهم بجمعه وكسبه وفضله ومنعه)

قلت: يعني أن القوم لم يكن همهم بالاشتغال بجمع الطعام واكتسابه، ولا اشتغال بإعطاء «فضله» أي ما فضل عن الحاجة «ومنعه» بل أنزلوه منزلة المهمل الذي لا قدوم له عليه إلا عند الضرورة، أو ما يقرب منها، فلا يهتمون بجمعه ولا بإعطاء فضله ومنعه، لاشتغالهم بما هو أهم.

قال السلمي رضي الله عنه: فمن آدابهم ترك الاهتمام بالرزق، وقلة الاشتغال بطلبه، وجمعه ومنعه، قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: 60]، أي لا تدخره.

وصح عنه ﷺ أنه كان لا يدخر شيئاً لغدٍ، ومن اشتغل منهم بشيء من الأسباب فإنما ذلك قياماً برسم العبودية، وإن حصل منها شيء كانوا فيه أمناء على وجه أنهم خزان المملكة، يترصدون سد الخلل، فيمسكون ما أمروا بإمساكه، ويرسلون ما أمروا بإرساله.

وقد سئل الشبلي رضي الله عنه: كم في خمس من الإبل؟ فقال أما الواجب فشاة، وأما عندنا فكلها لله، فقيل له ما دليلك على ذلك؟ فقال: أبو بكر رضي الله عنه، حيث خرج عن ماله كله لله ولرسوله، فمن خرج عن كل شيء فإمامه أبو بكر، ومن أعطىٰ بعضاً وترك بعضاً فإمامه عمر، ومن أعطى لله ومنع لله، فإمامه عثمان، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علي، وكل علم لا يدل على ترك الدنيا فليس بعلم.

وكان أبو العباس الحضرمي رضي الله عنه يقول: ليس الرجل الذي يعرف كيفية تفريق الدنيا فيفرقها، وإنما الرجل الذي يعرف كيفية إمساكها فيمسكها، يعني أنه يعرف كيف يمسكها ولا يشتغل قلبه بها، بحيث يكون يأخذها بالله ومن الله ويدفعها لله

وإلى الله، ولذلك قيل: الدنيا كالحية، وليس الشأن في قتل الحية، وإنما الشأن في إمساكها حية، وإمساكها حية هو إمساكها بالله، فانياً عنها وعن طلبها.

وقال الشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلاني[1] نفعنا الله به لما سئل عن الدنيا: فقال: أخرجها من قلبك واجعلها في يدك، فإنها لا تضرك.

وقال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه: الدنيا جرادة، إذا قطع رأسها حلت: ورأسها حبها.

وقال بعض أهل المعاني في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه: 17]، يقال للفقير: وما تلك بيمينك أيها الفقير، قال: هي دنياي أعتمد عليها في قيام بنيتي، وأنفق منها على عيالي، ولي فيها مآرب أخرى: أتصدق منها، وأفعل بها وجوه الخير، فيقال له: ألقها من يدك أيها الفقير، فألقاها فإذا هي حية تسعى، كانت تلدغه في قلبه، وتشغله عن شهود ربه، فلما فر منها وأيس من نفعها قيل له: خذها ولا تخف، لأنك غني بالله عنها، فتأخذها بالله لا بنفسك، وتدفعها كذلك، وبالله التوفيق.

[ذكر آدابه بعد حصوله]

ثم ذكر آدابه بعد حصوله، فقال:

(ولا استقلوه ولا عابوه   ولا يكن قصداً فيطلبوه)

قلت: من آداب القوم عند حصول الطعام ألا يستقلوه أي يصغرونه ولا يحتقرونه، بل يعظمونه ويكبرونه، ولو كان قليلاً في الحس. أو خشيناً أو رديء الصنعة، فمن آدابهم أن يتلقوا القليل من صاحبه الذي أتى على يديه بالبسط والفرح والتعظيم والتكثير والتبريك، ويبتدئون بأكله قبل غيره، تطييباً لخاطره ورفعاً لقلبه، وكذلك يفعلون في الطعام الخشين أو الرديء أو ما أشبه ذلك، ويتلقون الكثير أو الرفيع ممن يأتي به بالغنى، ورفع الهمة عنه شفقة على صاحبه من دخول العجب أو

(1) هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني أبو محمد محيي الدين الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي (471 ـ 561 هـ = 1078 ـ 1166م) من كبار الزهاد ولد في (جيلان) وانتقل إلى بغداد شاباً سنة 488 هـ وتفقه واشتهر وقرأ الأدب وتصدر للتدريس والإفتاء في بغداد سنة 528 هـ وتوفي بها له كتب منها (الفنية لطالب طريق الحق) و(الفتح الرباني) و(فتوح الغيب) و(الفيوضات الربانية) وغير ذلك:
(الأعلام 4/ 47) و(النجوم الزاهرة، 5/ 371) و(طبقات الشعراني 1/ 108 ـ 114) وغيرها.

الرياء، وإظهار الزهد والقناعة ليقتدي بهم غيرهم.

ومن آدابهم أيضاً ألا يعيبوا طعاماً ولا يقبحوه، لأن ذلك يدل على الشره له والحرص عليه، وقد تقدم أنهم غافلون عنه غائبون عن شأنه حتى يأتيهم الله بما قسم لهم، وهذا منهم اقتداء برسول الله ﷺ، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط، كان إذا اشتهاه أكله وإلا تركه**»[1]

وقوله: «ولم يكن قصداً فيطلبوه» يعني: إن الطعام عند القوم لم يكن مقصوداً عندهم، فلا يهتمون بشأنه قبل حصوله حتى يطلبوه، بل كانوا غائبين عنه مشغولين بذكر. لا يلتفتون إليه إلا عند الاضطرار، فيطلبون ما يتقوون به على عبادة ربهم دون حرص ولا استكثار ولا شهوة ولا اختيار.

روي أن الله تعالى أوحى إلى داوود عليه الصلاة والسلام: ما بال الأقوياء ومناولة الشهوات، إنما جعلت الشهوات لضعفاء خلقي: إن القلوب المعلقة بالشهوات عقولها محجوبة عني.

وحكي أن بشراً الحافي[2] رؤي في السوق، فسئل عن ذلك، فقال: نفسي تطالبني بخيارة منذ سنين، فمنعتها ورضيت الآن بالنظر إليها، فأعطيتها.

وقال بعضهم: إنما هي فورة جوع لا أبالي بما سددتها.

وقال آخر: ليس لها علينا إلا كفايتها، فلا نبالي فيه بطيب ولا رديء.

وهذا ما لم يكن حراماً، وسيأتي التنبيه عليه، وما لم يكن أيضاً مضراً للبدن، وإلا حرام تناوله، وليس تركه قادحاً في التوكل، وإنما هو من مقتضيات الحكمة وجري مع سنة الله في خواص مخلوقاته، وما وقع من الحكايات، فذلك أمر خارق للعادة، وصاحبه محمول على بساط الحال، محفوظ في ذلك الوقت، فلا يقتدى به، والله تعالى أعلم.

---

(1) أخرجه أبو داود في (السنن 3763) وابن ماجة في (السنن 3259) والترمذي في (السنن 2031) وابن تيمية في (الكلم الطيب 184).

(2) هو بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمٰن المروزي أبو نصر المعروف بالحافي (150 ـ 227 هـ ـ 767 ـ 841م) من كبار الصالحين من أهل (مرو) سكن بغداد وتوفي بها.
(الأعلام 2/ 54) و(روضات الجنات 1/ 123) و(وفيات الأعيان 1/ 90).

[أدب الصوفية في الادخار]

ثم ذكر آدابهم في الادخار، فقال:

(والقوم لم يدخروا طعاماً بل تركوا الحلال والحراما
إلا يسيراً قدر ما تيسرا إذ الحلال المحض قد تعذرا)

قلت: أخبر رحمه الله أن القوم لم يكونوا يدخرون شيئاً لوقت آخر، وإنما كانوا يأخذون قدر حاجتهم في الوقت، ويتصدقون بالفضلة، وهكذا كانت سيرته ﷺ في جل أوقاته.

قال ابن ليون التجيبي في «الإنالة»: وأما ترك الادخار فقد صح عنه في الأحاديث أنه عليه الصلاة والسلام لم يدخر.

وقال أنس: كان النبي ﷺ لا يدخر شيئاً لغد.

وعن عائشة رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال لبلال: أطعمنا يا بلال.

وقال: يا رسول الله ما عندي إلا صبر من تمر، خبأته لك، قال:

«أما تخشى أن يخسف الله به في نار جهنم، أنفق يا بلال ولا تخف من ذي العرش إقلالاً»[1]

والصبر جمع صبره، وهو ما كدس من التمر وغيره من غير وزن ولا كيل، وقد نظم الشريشي هذا المعنى في رائيته فقال:

ولا تكُ ممن لا يفارقُ خبزَه فديمةُ جود الحقِ دائمةُ القطر

قال سيدي أحمد بن يوسف الفاسي[2] رضي الله عنه في شرحها: يقول ـ والله أعلم ـ فلا تكن أيها المريد من الذين همهم بطنهم، الملازمين لخبزهم وغيره من المطبوخات، في كل وقت وأوان، بل اقتد بنبيك ﷺ في كونه: كان لا يدخر لغد، وينهى عنه، كما اقتدى بذلك فيه أقوياء أمته الذين أردت سلوك طريقهم والاهتداء

(1) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال 16188) والسيوطي في (جمع الجوامع 4298).

(2) هو أحمد بن يوسف (أبي المحاسن) ابن محمد بن يوسف، أبو العباس الفهري القصري الفاسي، فقيه مالكي غزير العلم بالحديث، أندلسي الأصل ولد بالقصر الكبير بين الرباط وطنجة سنة 971هـ وتوفي سنة 1021هـ بجبل أبي زيري من مصمودة (الأعلام 1/ 275).

بهديهم، ولا تنحط إلى ما نهى عنه فتنحط من العزيمة إلى الرخصة، ومن الورع إلى الإباحة، ولا يجيء منك شيء، ولا يدخلنك أيها المريد حين العمل بهذا كونك ترى أنك لا تجد ما تتقوت به إذا أعطيت ما يفضل عن غذائك في الحال لمن يستحقه، فإن قطر عطاء الله وجوده وفضله دائم الانصباب والانسكاب، قد عمت جميع الخلائق نعمه ومننه.

قال في «العوارف»: ومن أخلاق الصوفية الإنفاق من غير إقتار، وترك الادخار، وذلك أن الصوفي يرى خزائن فضل الحق، فهو بمثابة من هو مقيم على شاطئ بحر، والمقيم على شاطئ البحر لا يدخر الماء في قربته وراويته.

وروىٰ أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «**ما من يوم إلا وملكان يناديان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً**»[1]

وروي أنه أهدي لرسول الله ﷺ طيور، فأطعم خادمه طيراً، فلما كان الغد أتاه به، فقال له رسول الله ﷺ: «**ألم أنهك أن تخبأ شيئاً لغد، فإن الله يأتي برزق كل غد**»[2]

وروي عن عيسى عليه السلام أنه كان يأكل الشجر، ويبيت حيث أمسى، ولم يكن له ولد يموت، ولا بيت يخرب، ولا يخبأ شيئاً لغد.

فالصوفي كل خباياه في خزائن الله، لصدق توكله وثقته بربه، فالدنيا للصوفي كدار الغربة، ليس له فيها ادخار، ولا له منها استكثار.

قال عليه الصلاة والسلام: «**لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً**»[3] انتهى.

ثم قال: وورد أيضاً عنه ﷺ: «**أنه نهى أم أيمن عن أن تدخر لغد شيئاً، ونهى بلالاً عن الادخار في كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها، فقال: أنفق يا بلال ولا**

(1) أخرجه البخاري (زكاة، 27) وأحمد بن حنبل (2، 306، 347، 5، 197).
(2) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال 36894) وابن حبان في (المجروحين 3/ 86).
(3) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 9/ 477) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 4/ 260).

تخف من ذي العرش إقلالاً»[1]

وقال له: إذا سئلت فلا تمنع، وإذا أعطيت فلا تخبأ.

وأما ادخاره ﷺ، فلعياله، وتشريعاً وتبييناً للضعفاء من أمته، كما أن ترك ادخاره يعد تعليماً للأقوياء منهم حسبما ذكره الإمام أبو حامد رضي الله عنه، وقال بعضهم: فعله ﷺ دائر بين الإباحة والورع، فادخاره قوت سنة بيان للإباحة، وعدم ادخاره ورع، وشأن أهل الطريق الأخذ بالعزائم دون الرخص التي لم يندب العمل بها، أما ما ندب الأخذ به منها كالقصر في السفر، ونحوه فإنهم يسارعون إليه ويحافظون على تحصيله، على أن للعارفين علماً يصرفونه بحسب الأحوال والعوارض، قد يخفى على من ليس من أهله، فقد كان بعضهم لا يقصر في سفره قائلاً للناس: في ترك قصر الصلاة للفقراء نية حسنة يحبون اغتنام الصلاة خلفهم، فلا نحرمهم من نيتهم، ثم إن الشبهة تختلف باختلاف المقامات، فمن كان من أهل الحقيقة مثلاً، وأُتي إليه بشيء حلال، ثم شاهد الخلق قبل الحق فأهل الظاهر لا يفتون إلا بحليته، وأهل الباطن يحكمون بشبهته، فيقع التورع عنه، كما وقع للشيخ أبي مدين رضي الله عنه، وكذلك الادخار من أصله، وإن كان حلالاً من طريق الأحكام، لكنه شبهة عن أهل الباطن ذوي النهى، والأحكام في حق من لم يكمل حاله، ويستقيم يقينه ويستو عنده الوجد والفقد.

وقال الشيخ عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه: الورع ألا يخطر الرزق ببال، ولا يكون بينك وبينه نسبة، لا في التحصيل ولا عند المباشرة، لأنه لا يدري أيأكله أم لا

وقال الشيخ أبو طالب رضي الله عنه: ويقال من اهتم برزق غدٍ فهي خطيئة تكتب عليه سيئة.

وقال سفيان الثوري رضي الله عنه: الصائم إذا اهتم في أول النهار بعشائه،

---

(1) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد 3/ 126، 10/ 241) والسيوطي في (جمع الجوامع 4584) والطبراني في (المعجم الكبير 10/ 192) وابن كثير في (التفسير 7/ 439) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 7/ 140، 9/ 502) وأبو نعيم في (حلية الأولياء 2/ 280، 6/ 274) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، 52) والعجلوني في (كشف الخفاء 1/ 243).

كتبت عليه خطيئة.

وكان سهل يقول: إن ذلك ينقص من صومه، وقال: أعرف بالبصرة مقبرة عظيمة يغدى على موتاهم برزقهم من الجنة بكرة وعشية يرون منازلهم من الجنان، وعليهم من الغموم والكروب ما لو قسم على أهل البصرة لماتوا أجمعين، قيل: لم، قال كانوا إذا تغدوا قالوا بأي شيء نتعشى وإذا تعشوا قالوا: بأي شيء نتغدى.

وقد وقع النهي منه ﷺ، ومن الذين من بعده عن الادخار في زمانهم، الذي كان الحلال فيه كثيراً، فكيف بزمانك الذي غلب فيه الحرام، فالأولى أن تلزم الضرورة، فلا تأخذ إلا فاقة وضرورة، ولا تأكل إلا كذلك.

وقد كان شقيق البلخي[1] رضي الله عنه يقول في سنة تسعين ومائة: إن المكاسب اليوم قد فسدت، وإن التجارات والصنائع شبهات كلها، ولا يحل الاستكثار منها لوجود الغش وعدم النصح، قال: وإنما ينبغي للمسلم أن يدخل فيها ضرورة.

وقوله: «بل تركوا الحلال والحرام» يعني أن القوم تركوا الإكثار من الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام، وتركوا، الحرام تقوى، وتركوا المتشابه ورعاً.

وقيل: الورع هو ترك الحرام والمتشابه، وهم يطالبون أنفسهم بحقائق ذلك.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ناجى موسى بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام، فلما سمع موسى كلام الآدميين مقتهم، لما وقع في مسامعه من كلام الرب عز وجل، فكان مما ناجاه ربه أن قال: يا موسى إنه لم يتصنع إليَّ المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا، ولم يتقرب إليَّ المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم، ولم يتعبد إليَّ المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي، قال موسى: يا رب البرية كلها، ويا مالك يوم الدين، ويا ذا الجلال والإكرام: فما أعددت لهم؟ وماذا جزيتهم؟ قال: أما الزهاد في الدنيا، فإني أبحتهم جنتي، يتبوؤون فيها حيث شاءوا وأما الورعون عما حرمت عليهم، فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته الحساب، وفتشته إلا الورعون، فإني أستحييهم وأجلهم وأكرمهم، وأدخلهم الجنة بغير حساب، وأما البكاؤون من**

(1) هو أبو علي شقيق بن إبراهيم البلخي توفي (194 هـ/ 810م) من مشايخ خراسان كان زاهداً خرج للتجارة إلى أرض الترك وهو حدث. (الرسالة القشيرية 397).

خشيتي، فأولئك لهم الرفيق الأعلى، لا يشاركون فيه»[1] رواه الطبراني وغيره.

وقوله: «إلا يسيراً» إلخ يعني أنهم يأخذون اليسير على وجه الفاقة والضرورة، ويتركون الزائد، وسواء كان أخذهم لذلك بتكسب أو غيره، لأن أخذ ذلك لا بد لهم منه، لوجود الضرورة شرعاً، ودخول الكلف ليس من شأن الفقير، بل أموره كلها على التيسير، فلا يكلف ولا يتكلف، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**أنا وأتقياء أمتي برءآء من التكلف**»[2]

ولأن التكلف ينافي التوكل، وترك الأسباب من غير إذن ينافي الأدب، ولكن كما قال ﷺ: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً» فلما توكلوا على الله كفاهم كل مؤنة، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 3]، أي كافيه.

وقوله: «إذ الحلال المحض قد تعذر» الحلال المحض هو الخالص الذي لا شوب فيه ولا اختلاف، وقد تقدم قول شقيق: إن المكاسب اليوم قد فسدت. إلخ كلامه.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: فأما ما يجري على اختلاف العلماء، والراجح والمرجوح فهو موجود.

وقال العلماء: إذ فقد رأساً أقيم من عشرة أشياء تجارة بصدق، وإجارة بنصح، وأعشاب الأرض غير مملوكة، وهدية من أخ صالح، وصيد البحر، ومهر النساء بطيب نفس، وقسمة المغنم على وجه شرعي، والميراث على أصل مجهول، والسؤال عند الحاجة، وكثيراً ما يجري على ألسِنة المتدينين: أن الحلال ضالة مفقودة أي معدومة، وهو أمر يجعلونه عكازاً للاسترسال وأخذ كل ما والاهم، بل الحلال موجود، ولو لم يكن موجوداً في كل زمان ما كلفنا بطلبه، ولا نقطع أولياء الله سبحانه، إذ هو قوتهم، وذلك باطل، وأيضاً إذا حرمت الكل حللت الكل، وكل من بيده شيء يستأنف فيه حكم الله من الآن.

---

(1) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير 12/ 120) والهيثمي في (مجمع الزوائد 8/ 203، 10/ 295) والآجري في (الشريعة 327) والسيوطي في (الدر المنثور 327) والسيوطي في (الدر المنثور 3/ 116) والمنذري في (الترغيب والترهيب 4/ 159).

(2) أخرجه الفتني في (تذكرة الموضوعات 67) والشوكاني في (الفوائد المجموعة 86).

وقد كان شيخنا البوزيدي يقول: من بيده شيء لا يعرف فيه دخول حرام بالأصالة، ولا معاملة قبيحة مقصودة. فمن أين يحرم ماله؟ وما غلب على الناس من الجهل ورقة الديانة لا يحرم ما بأيديهم، لأن الإنسان لا يخاطب إلا بما في علمه، **ثم قال**: إن الله خلق المال حلالاً، كما خلق الماء طهوراً، فكما لا ينجس هذا إلا ما غيره، لا يحرم هذا إلا ما غيره، إلا أن السلف رضي الله عنهم لمعرفتهم بكمائن النفوس، تساهلوا في الطهارة لحصرها، وشددوا في باب الكسب لتساهل النفوس فيها، حتى جرى في قواعدهم في باب الطهارة: أن الأصل مقدم على الغالب، وفي باب الحلال والحرام: الغالب مقدم على الأصل، وهي مسألة اختلاف، وقد أهمل الناس في هذه الأزمنة باب الحرام، لا سيما في بلاد المشرق، فليكن الفقير من ذلك على بال، ومن يصحب العلم فلا يضل، ولا يضيق عليه الواسع، بل لا يزال في فسحة ما لم يتغير.

وأشار ابن الفاكهاني إلى أنه ينبغي عدم التعرض للبحث في هذه الأزمنة، والوقوف مع ظاهر الأحوال، لأن البحث لا يجب حيث لا علامة، ووجوده لا يكشف عن خير، وأكثر العلماء على أن الحلال ما جهل أصله، والحمد لله الذي جعل في الأمور سعة، انتهى كلامه مع بعض اختصار.

وقال الشيخ أبو الحسن: أحل الحلال ما لم يخطر لك على بال، ولا سألت فيه أحداً من النساء والرجال اهـ.

ثم أشار الناظم إلى ما يعمل بالفضلة على الحاجة.

قلت: أشار بقوله: «لا تكليف» إلى أن ما يدخل على الفقير كله من باب التيسير، بلا كلفة ولا تدبير، فإن كان من غير سبب فأمره ظاهر، إلا أنه ينبغي أن يسبق نظره في الأخذ إلى الحق دون الخلق، فإن سبق نظره إلى الخلق فمقتضى الورع عند الخصوص ألا ينيل نفسه شيئاً منه، كما وقع للشيخ أبي مدين رضي الله عنه: أتاه حمل قمح، فنازعته نفسه وقالت له: يا ترى من أين هذا؟ فقال لها: أنا أعرف من أين هذا يا عدوة الله، فأمر به بعض أصحابه أن يرفعه لبعض الفقراء عقوبة لها، لكونها رأت الخلق قبل رؤية الحق تعالى.

وينبغي له أيضاً ألا يتشوف إليه قبل حصوله، فإن تشوف لشيء منع نفسه منه، كما وقع لأيوب الحمال مع أحمد بن حنبل في قصة الخبز، وهي معروفة.

وأما إن كان بسبب شرعي، فينبغي أن يكون ذلك خفيفاً غير شاغل عن ذكر الله

وأن يكون مقصوداً به الأدب مع الحكمة، غير ملتفت له ولا معتمد عليه.

قوله: «ابتدءوا بالجار والضعيف» أشار إلى كيفية تفريق الفاضل عن الحاجة، وأنه يقدم الأهم فالأهم لحديث: «**ابدأ بنفسك، ثم بمن تعول**»[1]

قال رجل: يا رسول الله عندي دينار، قال أنفقه على نفسك؟ قال: عندي آخر، قال: أنفقه على عيالك، قال: عندي آخر، قال، صل به ذوي رحمك، قال: عندي آخر، قال: «**اصنع به ما شئت**»[2] الحديث.

وحق الجار معلوم من الدين بالضرورة، فيؤثرونه على غيره بعد المراتب المذكورة، ويؤثرون من الجيران أحوجهم، فإن استووا، فأقربهم إليك باباً، وإن كان هنالك ضعيف لا جوار له، والجيران أغنياء قدموه لأن سد الخلل مقدم على الإبرار، والأخوة في الله مقدمة على غيرها، هذا كله في الفضلة والإيثار، لا في باب الاضطرار بحيث إذا أعطاه هلك واختلت بنيته عن العبادة فذلك ممنوع، والإيثار ما يحتاج إلى الصبر عند إعطائه من غير إخلال في قوته ولا ضرر فادح يلحقه، والفضل ما لا يلحقه منه شيء من ذلك، والله تعالى أعلم.

[ورع الصوفية]

ثم أشار إلى ورعهم وتحفظهم من الحرام والمتشابه، فقال:

(وجنبوا طعام أهل الظلم   والبغي والفساد خوف الإثم
بل أكلوا مما استبان حله   غير الذي لا يعرفون أصله)

قلت: أهل الظلم هم ملوك الجور والعمال المضروب على أيديهم، وأهل البغي هم: السراق والمحاربون، وأهل الفساد من يتعامل بالربا وبالمعاملة الفاسدة، ولا يتحاشى الحرام.

ويحتمل أن يكون أهل البغي والفساد شيئاً واحداً، وهم اللصوص ومن يلحق بهم ممن لا يتقي الله في معاملته ولا يتحافظ من الحرام في مأكله وملبسه وغير ذلك.

---

(1) أخرجه مسلم (زكاة، 95، 97، 106) وأبو داود (زكاة، 39، 40) وأحمد بن حنبل (2، 94).

(2) أخرجه البخاري في (صحيحه 3/ 206) والحميدي في (المسند 674).

ويدخل في أهل الظلم قضاة الجور الذين يقبضون الأجرة على مجرد الحكم، وكذلك العدول الذين لا يتحاشون من أموال المسلمين، مهما قدروا عليها، عصمنا الله من جميع ذلك.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: وأما تجنبهم طعام الظلمة ونحوهم فلوجوه:

أحدها: ما في إرضائهم من الموالاة التي لا تحل، أي لأنهم يفرحون بأكل طعامهم أهل الصلاح والخير، مع ما هم عليه من الظلم، ما لم يخش الضرر الواضح.

الثاني: ما فيه من تسلطهم على المنتسبين: إما بسوء الظن بالجهل، لاعتقادهم حرمة ما بأيديهم، وأن من يأكله لا خلاق له فيستهينون بهذا الشخص، بل بكل أهل جنسه: يجعله حجة على غيره، ممن لا يقدر أن يتوسع توسعه لورع أو ضيق حضيرة، أي ضيق دائرة معرفته، فيقول له: فلان أكبر منك أكل طعامي، وما تكون أنت منه؟ فيؤذى لذلك.

الثالث: ما فيه من إعانتهم على ما هم فيه، إذ يرون أنفسهم حينئذٍ أنهم من أهل الخير ويقولون: لو رأى منا فلان ما يكره ما أكل طعامنا، لا سيما إن وجد له وجه في إباحة ذلك وتجرأ على الله بنسبتها لأهل الله، كما يفعله بعض من وهن الإيمان في قلبه، والعياذ بالله.

الرابع: ما في ذلك من ميل النفس لهم، ومحبتهم، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**اللهم لا تجعل لمنافق عليّ يداً فتحبه نفسي**»[1]

وحكى أبو نعيم في حليته أن ابن المبارك دخل على الخليفة فوعظه، وذكره فأعطاه مالاً، فاشترى به عبيداً فأعتقهم، فقال له محمد بن واسع في ذلك، فقال له: ذكرتهم بالله ووعظتهم، وأخذت منهم مال الله وصرفته في وجهه، فقال محمد بن واسع: الله قسم قلبك الآن لهم، كما كان، قال: لا، فاستغفر، رحمة الله على الجميع.

الخامس: ما في ذلك من تناول الشبهة من غير ضرورة، فقد قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: من كان من فقراء هذا الزمان مؤثراً للسماع أكولاً لأموال

---

(1) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 9/ 554).

الظلمة، ففيه نزعة ودية، قال الله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ [المائدة: 42]، اهـ. باختصار.

السادس: ما يلحقه بسبب ذلك من الذلة وتغيير الحال، كما اتفق لكثير من الناس، واتخذه بعضهم (أي بعض الكبراء) سياسة، فإذا رأى فقيراً استظهر عليهم بالقوة وخافوا دعوة أو غيرها والوه واحتالوا عليه، حتى يدخل في أيديهم فلا يمكنه التعزز عليهم، وقد كان بعض مشايخ المغرب يقول: الفقير لا يمشي بالليل، ولا يهرب بالنهار إن رأى ما يخاف ولا يأكل طعام الظلمة.

قلت: لأن هذه كلها تورث الذل.

السابع: ما في ذلك من فتح باب التشويش، باعتقاد الناس أن له عندهم جاهاً، فيتوجهون له بطلب الشفاعة، وذلك أمر لا يمكنه استيفاؤه، وقل ما تعلق به رجل فسلم في ديانته، والله تعالى أعلم.

وهذا كله ما لم تكن ضرورة، والمرء فقيه نفسه.

وقد ذكر الشيخ الغوري رحمه الله: أن السلطان أبا الحسن صنع طعاماً لجماعة من أهل الخير في وقته ودعاهم له، فكان منهم من أكل ولم يتوقف، ومنهم من استظهر بالصوم، ومنهم من أخرج خبزه وائتدم بإدام الملك، ومنهم من أكل وقلل، ومنهم من قال: أنا صائم، ولكن هاتوا من طعام الملك على وجه البركة، فسألهم شيخهم عن ذلك.

فقال الأول: طعام مستهلك ترتبت القيمة في ذمة مستهلكه، فحل له التصرف فيه، وقد مكنني منه عن طيب نفسه، فبأي وجه أتركه.

وقال الثاني: تجنبت حال الشبهة بجميع وجهه.

وقال الثالث: عملت على القول بإباحة الغلة للغاصب.

وقال الرابع: هو مال مجهول الأرباب يجب فيه التصرف بالقيمة، فكنت تأخذ وتقدر أي ليقومه بعد.

وقال الخامس: طعام مستحق للمساكين، قدرت على استخلاص بعضه، فاستخلصت ما قدرت عليه، وخرجت به لأربابه.

فمما ذكر عنه أنه غسل مزوده مما تعلق من الإدام، وشق عليه إخراج ما تعلق به من الزعفران، فأرسلها مع النهر.

ومن هذا النوع ما ذكر أن ابن عباد رحمه الله: أعطاه السلطان كسوة وأعطى الشيخ الركراكي كسوة، وأعلمهما أنه إنما عملهما من الجزية ونحوها، فقبلها ابن عباد وردها الركراكي رضي الله عنهما، فقيل لبعض أهل الوقت، ممن له بصيرة في ذلك، فقال: الورع مستحب بإجماع، وجبر قلب الملك واجب بإجماع، وأنتم ترون من وافق الصواب المتعلق بالواجب، أو بالمستحب، هذا ما وقع له في الأمر الظاهر، ولما بعث له (أي لابن عباد) بدواء ممسك يساوي مالاً لعلة كانت به: صبه في المرحاض، ولم ينتفع به، فاعرف لهذه الجملة حقها، فللرد آفات، كما للأخذ آفات كما لا يخفى، والورع من ورعه الله، وإنما يورعه إذا علم صدقه في ورعه. انتهى كلام الشيخ زروق.

قلت: وقد اضطرب العلماء في هدايا الملوك وإجازتهم، فمنهم من قبلها، ومنهم من ردها وقد ذكر الغزالي في الإحياء جماعة ممن قبلها ومن ردها، فانظره إن شئت.

وقوله: «بل أكلوا مما استبان حله» إلخ يعني أن القوم لا يأكلون إلا ما ظهر حله وتحققت إباحته، ولا يأكلون مما لا يعرفون أصله، هل هو حلال أو حرام؟ ولعل ذلك مع قيام الريبة والشك، والله تعالى أعلم.

وقد استوفى الغزالي في الإحياء الكلام على الحلال والحرام، فعليك به.

ثم ذكر الناظم:

[(بعض آداب الأكل)]

فقال:

(ولم يكونوا كرهوا الكلام عليه لكن كرهوا الإرغام)

قلت: الكلام على الطعام حسن، لأن السكوت عليه يدل على الشره والنهمة، ويستحب أن يكون بعلم، أو بحكايات الصالحين، ويكون الكلام بعد بلع الطعام، لا في حال مضغه، لأنه ربما يخرج شيء من فمه فيسقط في الطعام فيقذره على غيره، فلا يتكلم الآكل ما دام الطعام في فمه، وقد ذكر عن بعض المشايخ أنه استحب أن يسمي عند كل لقمة، ويحمد عند ابتلاعها، قال ابن الحاج: وهذا أمر حسن، لكن السنة لم ترد به، وهي أحسن من كل ما سواها، فلم يكن القوم يكرهون الكلام في حال الطعام، لكن كانوا يكرهون الإرغام: أي التحتم على الإخوان في

الأكل، لما في ذلك من التكلف المنهي عنه، بل الأدب في ذلك تركه يفعل ما يشاء، وقد يكون قولك له: كل، سبباً في رفع يده حياءً، فالواجب على صاحب الطعام أن يدفع الطعام ويقرب لهم الماء، ويغيب عنهم، فهو في غاية الظرافة، والله تعالى أعلم. **ثم ذكر**:

[(وقت الأكل)]

فقال:

(ويكرهون الأكل مرتين في اليوم والمرة في اليومين)

قلت: إنما كرهوا الأكل في اليوم مرتين، لما فيه من تقوية شهوة الطعام، وقد تقدم أنهم لا يأكلون إلا عن فاقة، وقد قيل لسهل رضي الله عنه: أكلة في اليوم؟ قال: أكلة الصالحين، قيل: أكلتان؟ قال أكلة المؤمنين، قيل: فثلاثة؟ قال: يا هذا مر أهلك يبنو لك معلافاً.

والمراد باليوم بياض النهار، ومن الفجر إلى الغروب، والغالب أن الأكل فيه مرتين يثقل الأعضاء ويبطىء الهضم، ويفسد الطعام في المعدة، وفيه قال ابن سينا عفا الله عنه:

توق إذا ما شئت إدخال مطعم ... على مطعم من قبل فعل الهواضم
فكل طعام يعجز السن مضغه ... فلا تبتلعه فهو شر المطاعم
واجعل طعامك كل يوم مرة ... واحذر طعاماً قبل هضم طاعم

وقال آخر:

ثلاثة هي أسباب المنايا ... وداعية الجسوم إلى الحمام
نكاح يستدام وكثرة نوم ... وإدخال الطعام على الطعام

ويفهم من كلام الناظم أن الممدوح هو الأكل مرة في اليوم يعني مرة في النهار، ومرة في الليل، وهو الوسط، وأن الأكل مرة في اليومين تفريط، كما أن الثلاثة في اليوم إفراط.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: وهذا حكم من اعتدل مزاجه أو قارب، فأما من انحرف إلى حد الإفراط أو التفريط، فلا ينبغي أن يهمل حكمه، بل يعمل بما يصلحه من غير إخلال ولا بعد للحق، فإن الشبع المفرط الذي يفسد المعدة ويضيع

الطعام من غير احتياج محرم، والذي يثقل الأعضاء ولا يفسد شيئاً مكروه، على خلاف فيه، والأولى بالشخص ألا يأكل حتى يجوع جوعاً متوسطاً، وهو الذي يشتهي ما يقوم به أوده، أي قوامه من معتاد طعامه، ولا يفرط إلى أن يشتهي كل خبز، فإنه مضر بالفكرة، مخل بالقوة، ولا يفرط بحيث يأكل بالتشهي، وهو طلب الطعام مقروناً بالشهوة.

[استحباب الاجتماع على الطعام]

ثم ذكر استحباب الاجتماع على الطعام، فقال:

(وفضلوا الجمع على الإفراد فيه لأجل كثرة الأياد)

قلت: إنما فضلوا الاجتماع على الانفراد في الأكل، لثلاثة أوجه:

أحدها: ما في ذلك من التماس البركة الحسية والمعنوية، أما الحسية فلقوله عليه الصلاة والسلام: «**اجتمعوا على الطعام يبارك لكم فيه**»(1) وأما المعنوية فلقوله عليه الصلاة والسلام: «من أكل مع مغفور غفر له» وبقدر ما تكثر الجماعة تعظم البركة، لأن مع كل إنسان ملكين أو أكثر، فيكثر حضور الملائكة بقدر ما يحضر من الناس.

وكان الجنيد رضي الله عنه يقول: المؤاكلة مراضعة، فانظروا من تؤاكلوه.

وثانيها: ما في ذلك من العفة والقناعة وعدم الحرص والشره، لأن أكل الإنسان وحده يدل على نذالته وبخله في النذالة وحرصه بهمته والنذالة باللام بعد الذال هي الرذالة والخساسة وبخله أو حرصه ونهمته، وفي الحديث «**شر الناس من أكل وحده، وضرب عبده، ومنع رفده**»(2) إلا لضرورة شرعية أو عادية.

وثالثها: ما في ذلك من الاقتداء برسول الله ﷺ، فقد «كان عليه الصلاة والسلام لا يأكل طعاماً إلا على ضيف أعني كثرة الأيدي» وكان سيدنا إبراهيم الخليل اتخذ قبة ينظر منها مد بصره من كل ناحية لأجل الضيفان، وربما كان يمشي الأميال في طلب من يأكل معه.

وقوله: لأجل كثرة الأيادي يصدق بالأوجه الثلاثة، والأيادي جمع أيد، وأيد جمع يد، فهو جمع الجمع، والله تعالى أعلم.

---

(1) أخرجه البخاري (بيوع 52) وابن ماجة (تجارات 39) وأحمد بن حنبل (4، 131، 501، 5، 414).

(2) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في أخلاق المسافرين [3/ 72].

ثم ذكر آداباً أخر فقال:

(ولـم يـلـقـم بـعـضـهـم لـبـعـض ولـم يـجـل بـصـره بـل بـغـض)

قلت: أشار رحمه الله إلى أن الصوفية لم يكن من عادتهم أن يلقم بعضهم لبعض، ويحمل ذلك إذا كان على وجه الانبساط والملاعبة لما فيه من قلة الاحتشام والتوقير، أو يحمل ذلك على تلقيم الخادم إذا أتاهم بالطعام، وهو نص قول السلمي: «وكره أكثرهم تلقيم من يخدمهم مما بين أيديهم، لا سيما إذا كان ضعيفاً، فإنه لا يجوز له التصرف فيما قدم إليه، فقال بعضهم: يملكه بالإحضار بين يديه، وقال بعضهم: بالتناول، وقال بعضهم: بالوضع في الفم، وقال بعضهم: باستيفاء الأكل، وقال الجنيد رضي الله عنه: تتنزل الرحمة على الفقراء عند الطعام، فإنهم لا يأكلون إلا بالإيثار» انتهى كلام السلمي.

فجعل التلقيم المكروه إنما هو للخادم، لكن قول الناظم «بعضهم لبعض» ظاهر في تلقيم الفقراء، فيحمل على ما تقدم من الانبساط، وأما إذا كان على وجه التبرك ممن ترجى بركته فلا بأس، وللمتأخرين من المشايخ فيه أسانيد وطرق، وقد يستدل له بحديث المرأة التي سألت رسول الله ﷺ: «**أن يناولها مما يأكل، فناولها من بين يديه، فقالت: لا أريد إلا من الذي في فيك فناولها، وكانت قليلة الحياء، فصارت بعد من أشد الناس حياءً**» الحديث[1]

وقد جرى العمل بهذا بشرط إذا طلب ذلك من الشيخ أو ممن ترجى بركته، ولا يكلف به من لا يطلبه، وأشار أيضاً إلى أن الصوفية إذا كانوا في حالة الأكل لا يجيلون بصرهم، أي لا يمدونها إلى من يأكل معهم، بل يغضون أبصارهم، وينظرون أمامهم لما في إجالة البصر من إخجالهم وقلة المروءة معهم، فإن هيئة الإنسان في حالة الأكل بشيعة، لا سيما إذا كان كبير السن، وقد كان بعضهم ترك أكل الطعام الذي يحتاج للمضغ حياءً من الله أن يراه على تلك الهيئة.

وقال بعضهم: استتروا بإدخاله كما تستترون بإخراجه، فالواجب من جهة الأدب ألا ينظر أحد إلى الآكلين، ولا يقف على رؤوسهم بماء ولا غيره، بل يضعه ويذهب عنهم خلاف ما يفعله أرباب الدنيا في الولائم وغيرها، والخير كله في

(1) أورده القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى، فيما أظهره الله تعالى على يديه من المعجزات وشرفه. . ، [1/ 197].

الاتباع، والشر كله في الابتداع.

وكان مالك رضي الله عنه كثيراً ما ينشد هذا البيت:

وخير أمور الناس ما كان سنة   وشر الأمور المحدثات البدائع

والله تعالى أعلم.

ثم أشار إلى أدب آخر وهو:

[(عدم انتظار الغائب إذا حضر الطعام)]

فقال:

(ولم يروا فيه بالانتظار   فيذهب الوقت بلا تذكار)

قلت: أشار رحمه الله إلى أن مذهب الصوفية إذا حضر الطعام بادروا إليه بالأكل، ولم يكن رأيهم فيه بالانتظار لمن كان غائباً منهم، بل يعزلون حقه ويأكلون الباقي، وذلك لما في ذلك من التكلف للغائب، وإهانة الطعام بابتذاله، أي إهماله وشغل بال الجائع منهم به لا سيما وهم لا يأكلون إلا عن احتياج، ولأن الحاضر مقدم حقه على الغائب.

قال أبو عبد الرحمٰن السلمي رضي الله عنه: ويكره الانتظار عند حضور الطعام.

وقد قيل: قلوب الأحرار لا تحمل الانتظار، ويكره تفويت الوقت بالاشتغال بالأكل حتى حكي عن بعضهم أنه كان يفطر على حسوة يحسوها، ويقول: الوقت أعز من أن يشغل بالأكل ا هـ.

قلت: وإلى هذا الأخير أشار بقوله: «فيذهب الوقت بلا تذكار» ولعله مرتب على محذوف تقديره ولا يطيلون الجلوس عليه فيذهب الوقت بلا ذكر كما رتبه السلمي، والناظم في هذا الباب ما نظم، إلا ما ذكره السلمي حرفاً حرفاً، غير أنه قدم وأخر، وفيه تنبيه على ما كان عليه السلف من الجد والاجتهاد، ومحافظتهم على أوقاتهم وساعاتهم.

قال الحسن البصري رضي الله عنه: أدركت أقواماً كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهمكم، يقول: كما لا يخرج أحدكم ديناراً ولا درهماً إلا فيما يعود عليه نفعه، فكذلك لا يحبون أن تخرج ساعة من أعمارهم إلا فيما يعود عليهم نفعه.

وقال السري السقطي: خرجت يوماً من بغداد، أريد الرباط بعبادان، أصوم بها رجب وشعبان، (فاتفق أن مررت) في طريق علي الجرجاني، وكان من الزهاد الكبار، فدنا وقت إفطاري، وكان معي ملح مدقوق وأقراص، فقال: ملحك مدقوق ومعك ألوان من الطعام، لم تفلح ولن تدخل سنن المحبين، فنظرت إلى مزود كان معه فيه سويق الشعير، فسف منه، **فقلت**: ما دعاك إلى هذا؟ فقال: إني سبحت ما بين المضغ والسف سبعين تسبيحة، فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة، وفي الخبر «**ما من ساعة تأتي على العبد لا يذكر الله فيها إلا كانت عليه حسرة يوم القيامة**»[1] أنظر تنبيه ابن عباد، فقد أطال فيه.

[النهي عن كثرة الأكل]

ثم نهى عن كثرة الأكل فقال:

(وكرهوا البطنة للإخوان فالبطن كالوعاء للشيطان)

قلت: البطنة بكسر الباء هي: امتلاء البطن من الطعام، فأخبر رحمه الله أن الصوفية كرهو البطنة للإخوان، وهي الشبع، أو الزائد فوقه إلى حد لا يضر، وإلا حرم، وأشار بهذا إلى قول سيدنا عمر رضي الله عنه: «**إياكم والبطنة فإنها تذهب الفطنة، وتبطىء بالجوارح عن الطاعة**»[2]

وأشار بقوله: «فالبطن كالوعاء للشيطان» إلى قوله ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فضيقوا مسالكه بالجوع**»[3]

فالبطن إذا امتلأت كثر دم البدن، فتتسع مجاريه للشيطان فيسلط عليه الكسل والثقل وسوء الخواطر، والوساوس، فيكون جسمه كالوعاء للشيطان يحشو فيه ما شاء.

---

(1) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد 10/ 8) والسيوطي في (الدر المنثور 1/ 150) والمنذري في (الترغيب والترهيب 2/ 401) والمتقي الهندي في (كنز العمال 1819) وأبو نعيم في (حلية الأولياء 5/ 362).

(2) أخرجه السيوطي في (جمع الجوامع 9377) والمتقي الهندي في (كنز العمال 6309) وابن حبان في (المجروحين 1/ 123) وابن القيسراني في (تذكرة الموضوعات 353) وابن حجر في (لسان الميزان 3/ 1271).

(3) أخرجه البخاري (أحكام 21) (بدء الخلق 11) (اعتكاف 11، 12) وأبو داود (صوم 78) (سنة 17) (أدب 81) وابن ماجة (صيام 65) والدارمي (رقاق 66) وأحمد بن حنبل (3، 156، 285، 309، 6، 337).

وقد قال لقمان لابنه: يا بني إذا ملىء البطن نامت الفطنة، وخرست الحكمة.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه**»(1)

وقيل يا رسول الله: من أفضل الناس؟ قال: «**من قل طعمه وضحكه، ورضي بما ستر به عورته**»(*)

[فوائد الجوع]

وقال ﷺ: «البسوا، واشربوا، وكلوا في أنصاف بطونكم، فإنه جزء من النبوة»(2)

وقال ﷺ: «لا تميتوا قلوبكم بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء»(3)

وفي حديث آخر: «إن الله يباهي الملائكة بمن قل طعمه في الدنيا، فيقول انظروا إلى عبدي ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فتركهما، اشهدوا يا ملائكتي ما من أكلة يدعها إلا أبدلته بها درجات في الجنة»(*) اهـ.

وقد ذكر في كتاب الإحياء للجوع عشر فوائد:

الأولى: صفاء القلب، وإنفاذ القريحة، ونفوذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة ويقسي القلب ويكثر البخار في الدماغ، كشبه السكر حتى يحتوي على معادن الفكر، فيشتغل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار.

الثانية: رقة القلب وصفاؤه الذي به يتهيأ لإدراك لذة المناجاة والتأثر بالذكر، فكم من ذكرٍ يجري على اللسان مع حضور القلب لا يلتذ به، حتى كان بينه وبين

---

(1) أخرجه الفتني في (تذكرة الموضوعات 151).

(*) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 7/ 387) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 3/ 78).

(3) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 7/ 387) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 3/ 78) والفتني في (تذكرة الموضوعات 151).

(*) أورده الغزالي في إحياء علوم الدين، بيان فضيلة الجوع وذم الشبع، [3/ 81] وعزاه إلى ابن عدي في الكامل.

الذكر حجاب من قساوة القلب، قال أبو سليمان: أحلى ما تكون العبادة إذا لصق ظهري ببطني.

وقال الجنيد رضي الله عنه: يجعل أحدكم بينه وبين الله مخلاة من طعام، ويريد أن يحصل حلاوة المناجاة.

الثالثة: الانكسار والذل، وزوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى، ولا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع، فعنده تسكن لربها وتخشع وتقف على عجزها وذلها.

الرابعة: ألا ينسى بلاء الله وعذابه، ولا ينسى أهل البلاء، فإن الشبعان ينسى الجائعين.

قيل ليوسف عليه السلام: مالك تجوع وأنت على خزائن الأرض، قال: أخاف أن أنسى الجائع.

والعبد الفاضل لا يشاهد بلاء إلا ويتذكر بلاء الآخرة، فيتذكر بجوعه: جوع أهل النار، وبعطشه: عطش يوم القيامة.

الخامسة: كسر شهوات المعاصي والاستيلاء على النفس، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى، ومادتهما من الأطعمة والأغذية فتقليلهما يقمع كل شهوة وقوة.

السادسة: دفع النوم ودوام السهر، فإن شبع شرب كثيراً، ومن كثر شربه كثر نومه، ولذلك قال بعض المشايخ: معاشر المريدين لا تأكلوا كثيراً وترقدوا كثيراً، فتخسروا كثيراً، وفي كثرة النوم تضييع العمر وفوات التهجد، وبلادة الطبع وقساوة القلب الذي هو أنفس الجواهر ورأس مال العبد.

السابعة: تيسر المواظبة على العبادة، الأكل يمنع من كثرة العبادة، لأنه لا بد يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل، وربما يحتاج إلى علاجه، ثم يكثر تردده إلى بيت الخلاء، والأوقات المصروفة إلى هذه لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لعظم ربحه وكثر خيره، ومما يتعذر مع كثرة الأكل دوام الوضوء وملازمة المسجد، فإنه يحتاج إلى الخروج لهراقة الماء وغيره، ويتعذر أيضاً مع كثرة الأكل عبادة الصوم، فإنه يتيسر لمن تعود الجوع دون غيره.

الثامنة: صحة البدن ودفع الأمراض فإن سبب الأمراض كثرة الأكل وحصول

فضلة الاختلاط في المعدة، ثم إن المرض يمنع من العبادات، ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر، وينغص العيش، ولذلك قال ﷺ: «**المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء**» و«أصل كل داء البردة»[1]

وفي رواية «**البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء**»[2] وسمع بعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قوله ﷺ: «ثلث طعام، وثلث شراب، وثلث نفس» فتعجب منه وقال: ما سمعت كلاماً في قلة الأكل أحسن منه، وإنه لكلام حكيم.

وقال ابن سالم: من أكل خبز الحنطة بحتاً بأدب لم يعتل إلا علة الموت، قيل وما الأدب قال: يأكل بعد الجوع، ويرفع قبل الشبع.

وفي الخبر المشهور «**صوموا تصحوا**»[3]

التاسعة: خفة المؤنة، فإن من تعود قلة الأكل كفاه من الماء قدر يسير، والذي تعود الشبع صار بطنه غريماً ملازماً، يأخذ بحتفه كل يوم، فيقول ماذا تأكل اليوم، فيحتاج إلى أن يدخل المداخل الرديئة، فيكتسب الحرام فيعصي، أو الحلال فيذل، وربما يمد عينيه إلى الطمع في الخلق، وهو غاية الذل والمهانة، والمؤمن ضعيف المؤنة لا يذل نفسه في شهوة بطنه.

---

(1) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال 28075، 28247، 28249) والعجلوني في (كشف الخفاء 1/ 146) والسيوطي في (الدر المنثور 3/ 80) (وصاحب ميزان الإعتدال 1341) وابن حجر في (لسان الميزان 3/ 1670) وابن حبان في (المجروحين 1/ 202) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 7/ 400) وابن القيسراني في (تذكرة الموضوعات 114) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، 15) والخطابي في (إصلاح خطأ المحدثين 13).

(2) أخرجه والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 7/ 400) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 3/ 84) وابن الجوزي في (زاد المسير 3/ 188) والشوكاني في (الفوائد المجموعة 262) وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة 320) والفتني في (تذكرة الموضوعات 206).

(3) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور 1/ 182) والكحال في (الأحكام النبوية في الصناعة الطبية 2/ 92) والمنذري في (الترغيب والترهيب 2/ 83) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 7/ 401) والربيع بن حبيب في (المسند 1/ 59) والمتقي الهندي في (كنز العمال 23605) وابن كثير في (التفسير 6/ 301) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 3/ 85) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة 103) والعجلوني في (كشف الخفاء 2/ 42) والفتني في (تذكرة الموضوعات 70) والهيثمي في (مجمع الزوائد 5/ 324).

العاشرة: التمكن من الإيثار والتصدق، فيعود بالفضلة على المساكين، ويكون يوم القيامة «في ظل صدقته» كما ورد، فما يأكله فخزانته الكنيف، وما يتصدق به فخزانته فضل الله، فليس للعبد من ماله إلا ما تصدق فأمضى أو أكل فأفنى ولبس فأبلى، فالتصدق بفضلة الطعام أولى من التخمة والشبع.

قال الحسن: لقد أدركنا أقواماً كان الرجل منهم يمشي وعنده من الطعام ما يكفيه، ولو شاء لأكله كله، فيقول: «والله لا أجعله كله في بطني، حتى أجعل بعضه لله تعالى، فهذه عشر فوائد للجوع، وتنبعث من كل واحدة قواعد لا تنحصر».

انتهى كلام الغزالي باختصار.

وقد تقدم تقييد الجوع بغير المفسد للفكرة أو المهلك للبشرية، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أدباً آخر، وهو ألا يرفع يده قبل الناس إذا كان يقتدىٰ به، فقال: «قالوا: ولا يمسك يداً ما داموا في الأكل، وليقم متى ما قاموا».

قلت: من آداب الأكل مع الجماعة ألا يمسك يده قبلهم حتى يعلم أن القوم أخذوا حاجتهم من الطعام، وهذا إذا كان كبيراً يقتدىٰ به، أو رب المنزل.

وفي بعض الآثار، إن لم تأكل فتواكل، فإن رفع اليد قبل الجماعة يخجلهم ويمنعهم من الاسترسال في الأكل، وقد يكون معهم من هو في الحاجة، فيمنعه من الأكل فيتضرر بسببه، ولهذا قالوا: من الأدب الجهر بالتسمية والإسرار بالحمدلة، لأن الجهر بها يخجل من معه، فيرفع يده قبل قضاء حاجته من الطعام.

ومن آدابهم أيضاً: لا يجلس إذا قام القوم عن الطعام، بل يقوم معهم لأن جلوسه يدل على نذالته: أي سقاطته وهجنته، وإن كان محتاجاً، إلا في محل لا يدركه شيء من ذلك.

قال السلمي رضي الله عنه: وإذا كان مع جماعة فلا يمسك عن الأكل ما داموا يأكلون، لا سيما إذا كان متقدمهم.

روي أن «**رسول الله ﷺ كان إذا أكل مع جماعة كان آخرهم أكلاً**» انتهى[1]

(1) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، برقم (25980) [9/ 120] وعزاه إلى عبد الرزاق، وأورده ابن عبد البر في التمهيد [1/ 292].

ولم يذكر السلمي ما ذكره الناظم بقوله: «وليقم متى قاموا» لكنه ظاهر.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: وينبغي أن يراعي في كل موقف ما يليق به، فطعام الفقراء يأخذ منه قدر حاجته سواء قلت أو كثرت.

قلت: والمراد بالفقراء: الإخوان.

ثم قال: وطعام المتفضلة أي الأجنبيون المتفضلون به، يأخذ منه مقداراً لا يخل بمروءته ولا يقدح عندهم في ديانته، لأنه إن قلل: قالوا مراءٍ متصنع، وإن كثر قالوا: إنه متوسع، ومن راءى في أكله فقد ستر نفسه، كذا قال بعض المشايخ لمن رآه يأكل أكلاً عنيفاً فنهاه، فقال: كل من راءى في أكله فقد راءى في دينه، وطعام العامة من المحبين والمنتسبين يأخذ منه على قدر شاهد الحال.

وقد كان حمدون القصار إذا دعى أصحابه إلى وليمة أشبعهم قبل الإجابة ليتناولوا بالعز.

وكان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه: يفعل ذلك ويغديهم عنده بأطيب الطعام.

ومن آدابهم: السخاء، والإيثار، والتوسط في تناوله، كما أبان ذلك بقوله:

(وأمروا فيه بفتح الباب وأكلوا بالقصد والآداب
وفتحوا الباب لكل سار وأكلوا بالرفق والإيثار)

قلت ذكر من:

[(آداب القوم في الأكل خمسة أمور)]

أحدها: فتح باب المنزل الذي يأكلون فيه، ليدخل عليهم كل من يحتاج إلى الأكل، وفيه دلالة على كرمهم وغنى قلوبهم، لأنهم لا يدفعون من يأتيهم، بل يقابلونه ويفرحون به، وربما رأوا له المنة عليهم في أكله معهم، بل يعتقدون أنه هدية من الله إليهم، لا سيما إن كان من إخوانهم أو من ذوي الحاجة لقوله عليه الصلاة والسلام: «**السائل على باب أحدكم هدية من الله تعالى**» أو كما قال.

وكان الشيخ الغوري رحمه الله يقول: رأيت لبعض العلماء أنه قال: يجب على الإنسان إذا وقف السائل وهو يأكل أن يناوله.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: فقلت له: يجب؟ قال: نعم، مثل الصلاة، قال: فاستغربته، وسألت عنه جماعة بالمشرق والمغرب، فلم أجده عند أحد،

واستدل له بأن عائشة رضي الله عنها أعطته حبة عنب، وذكرت حديث: «**ردوا السائل ولو بشق تمرة**»(1)

قال: وفي الاستدلال على الوجوب نظر.

قلت: إنما يظهر الوجوب إذا كان مضطراً أو حاملاً.

ثانيها: **الأكل بالقصد من غير إفراط ولا تفريط**، فلا يزيد على الشبع المعتاد، بل يقصر عنه، ولا يقلل جداً حتى لا يختل بدنه، وخير الأمور أوسطها، وكذلك لا يكبر اللقمة جداً، ولا يصغرها جداً، والوسط مطلوب في كل شيء.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: 29] الآية، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: 67].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**ما عال من اقتصد**»(2) إلى غير ذلك من الأخبار.

ثالثها: **الأكل بالآداب**، وهي كثيرة، فمنها ما تطلب في أوله، وهي التسمية جهراً. ونية التقوي على الطاعة.

والاعتبار في تيسيره بعد أن عمل فيه عوالم كثيرة، وغسل اليد إن كان مستقذراً، وإلا فلا، والأكل على السفرة دون الخوان المرتفع.

والجلوس على إحدى رجليه، وهي اليسرىٰ ورفع الأخرى وإلصاقها ببطنه.

والتشمير عند الأكل، قاله السلمي.

---

(1) أخرجه البخاري (أدب 34) (زكاة 10) (رقاق 51) (توحيد 36) ومسلم (زكاة، 66، 67، 68، 70) والترمذي (قيامة 1) (زهد 37) والنسائي (زكاة 63، 64) وابن ماجة (مقدمة 13) (زكاة 28) والدارمي (زكاة، 24) وأحمد بن حنبل (1، 388، 446، 4، 256، 258، 259، 377، 6، 79، 138).

(2) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند 1/ 447) وابن أبي شيبة في (المصنف 9/ 96) والطبراني في (المعجم الكبير 10/ 133) والهيثمي في (مجمع الزوائد 10/ 252) والسيوطي في (الدر المنثور 4/ 178) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 8/ 164) والمتقي الهندي في (كنز العمال 5431، 29260، 29261) وابن كثير في (التفسير 5/ 68، 6/ 134) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 3/ 235) والعجلوني في (كشف الخفاء 2/ 265) والسيوطي في (اللآلىء المصنوعة 2/ 38) وصاحب (ميزان الإعتدال 3338) وابن حجر في (لسان الميزان 4/ 134) وابن عدي في (الكامل في الضعفاء 3/ 1301).

ومنها: ما تطلب بعد الشروع فيه، وهي الأكل بثلاثة أصابع، حيث يتأتى ذلك.

قال السلمي: وليس من الظرافة أن يغمس يده في الطعام بحيث يتلطخ به انتهى.

والأكل مما يليه. وتصغير اللقمة، وتجويد المضغ، وترك النظر إلى لقمة صاحبه، وترك لعق الأصابع قبل تمامه، ثم يرده في القصعة، وترك الانحناء على الطعام لئلا يسقط من فيه شيء فيقذره على غيره، وترك نفض اليد مما يفضل من لقمته في القصعة، فإن ذلك يقذر على الآكلين، وهذا كثيراً ما يفعله من لا معرفة له بالأدب، فليتحرز الفقير منه جهده فإن التصوف كله آداب كما يأتي إن شاء الله، وترك مسح يده في جوانب القصعة، وترك الأكل وسط القصعة.

وقد قال ﷺ: «**كلوا من حواليها ولا تأكلوا من وسطها فإن البركة في وسطها**»(1)

والأكل باليد إلا ما كان مائعاً أو خفيفاً.

وكره بعضهم الأكل بهذه الملاعق إلا لضرورة.

ومنها: ما تطلب بعد التمام، وهي: **الحمد سراً، ولعق الأصابع**، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**إن أحدكم لا يدري في أي طعامه البركة**»(2) ثم مسحها ثم غسلها.

وقد رمز بعضهم لهذا الترتيب بلفظ: «لمغ» فاللام للعق، والميم للمسح، والغين للغسل.

ومنها: لقط ما سقط من الطعام، يقال: إنه مهر الحور.

وبقي من الآداب التي تطلب عند الأكل: الأكل باليمين بدلاً من اليسار، إلا أن يكون في هذه طعام وفي هذه أدام، كما وقع لسيدنا علي كرم الله وجهه، إذ كان في إحدى يديه خبز وفي أخرى شواء، وعدم القران في التمر مثلاً، إلا أن يكون مع

---

(1) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند 1/ 300، 343).

(2) أخرجه أبو داود في (سننه الأطعمة ب 50) والبيهقي في (السنن الكبرى 7/ 278) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 2/ 271) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 7/ 122) وابن أبي شيبة في (المصنف 8/ 106).

قوم أطعمهم وعدم جولان يده إلا أن يكون مع أهله وولده، وحيث يباح له الجولان.

وآداب الأكل كثيرة، ذكر منها في المدخل نبذة صالحة.

ورابعها: الأكل بالرفق، وهو التأني في الأكل بحيث يصغر اللقمة، ولا يرفع أخرى حتى يبتلع ما في فيه، ويجيد المضغ ويلوك طعامه إلى أن ينعمه مضغاً، ولا يظهر الشره والحرص، بل يظهر القناعة والغنى عنه.

وخامسها: الأكل بالإيثار، وهو أن يؤثر غيره على نفسه إن كان الطعام قليلاً، أو كان فيه ما يشتهي فيقدمه لغيره، كلحم جيد أو غيره، والإيثار: بذل ما تمس الحاجة إليه دون ضرر لاحق في الحال والمآل، وقد مدح الله أهل الإيثار بقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9].

وقال بعضهم: الزهد عندنا: إذا وجدنا آثرنا، وإذا فقدنا شكرنا.

وقوله: «وفتحوا الباب» إلخ لما كان الأمر لا يلتزم الفعل ذكر أولاً الأمر، ثم صرح بالفعل، أو يحمل الأول على الباب الخارجة، والثاني على الباب الداخلة إن كان للمنزل بابان، والله تعالى أعلم تتمة.

قال أبو عبد الرحمٰن السلمي رضي الله عنه: قال بعض مشايخ الصوفية: واجب على المضيف ثلاثة أشياء، وعلى الضيف ثلاثة أشياء.

فأما على المضيف بأن يطعمه من الحلال، ويحفظ عليه مواقيت الصلاة، ولا يحبس عنه ما قدر عليه من الطعام.

وعلى الضيف أن يجلس حيث يجلسه، وأن يرضى بما قدم إليه، وألا يخرج إلا بعد استئذان.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من السنة أن يشيع الضيف إلى باب الدار**»[1]

قلت: وإن زاد فهو خير.

ويذكر أن سيدنا إبراهيم الخليل كان يشيع الضيف مسيرة ميل أو أكثر، والله تعالى أعلم.

---

(1) ليس بحديث إذ لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع وهو من كلام العلماء.

ثم أشار إلى الحكم الخامس من الأحكام التسعة، فقال: **(والخامس ما يلزمهم من الآداب عند الاجتماع)**.

وحاصل هذا الحكم الحسن على الآداب ومواطنه وكيفيته، فقال موطئاً للكلام عليه:

[ظاهر وباطن السلوك]

(وللطريق ظاهر وباطن   تعرف منه صحة البواطن)

قلت: المراد بالطريق هو طريق السلوك إلى ملك الملوك، وهي طريق الصوفية، ولها ظاهر وباطن، فظاهرها ما يتعلق بإصلاح الجوارح الظاهرة، وباطنها ما يتعلق بإصلاح العوالم الباطنية.

وأخبر أن استقامة الظواهر دليل تعرف منه استقامة البواطن، وعبر عن الاستقامة بالصحة، فصحة الظاهر عنوان صحة الباطن.

قال ابن عطاء الله في الحكم: حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال، وحسن الأحوال من التحقق بمقامات الإنزال.

وقال أيضاً: ما استودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر، إلا أن ما تعلق بإصلاح الظواهر يسمى شريعة وما تعلق بإصلاح البواطن يسمى طريقة، ثم حقيقة.

ثم بين ما يختص بالظاهر وما يختص بالباطن فقال:

(ظاهره الآداب والأخلاق   مع كل خلق ما له خلاق
باطنه منازل الأحوال   مع المقامات لذي الجلال)

قلت: لما أخبر أن الطريق لها ظاهر، وهو ما يظهر على الجوارح من الآداب المرضية والأخلاق السنية والأعمال الزكية ولها باطن، وهو: ما يكمن في القلوب من الواردات الإلهية والأحوال الربانية والمقامات اليقينية والعلوم اللدنية والأسرار القدسية، عين هنا ما يختص به الظاهر وما يختص به الباطن، فأخبر أن ظاهر الطريق: الآداب، وحقيقته عند الصوفية حفظ الحواس، وضبط الأنفاس، أي الأوقات، والحق أنه تهذيب الجوارح وتصريفها في أنواع المصالح.

قال السلمي رضي الله عنه: وعلى كل جارحة آداب تختص به، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 36].

وقال بعض المشايخ: حسن ـ مع الله تعالى: لا تتحرك جارحة من جوارحك في غير رضى الله عز وجل، فأدب اللسان أن يكون رطباً بذكر الله تعالى، وبذكر الإخوان بخير، والدعاء لهم، وبذل النصيحة، والوعظ، ولا يكلمهم بما يكرهون، ولا يغتب ولا يَنِم (يعني يمشي بالنميمة) ولا يشتم ولا يخض فيما لا يعنيه، وإذا كان في جماعة تكلم معهم ما داموا يتكلمون فيما يعنيهم، فإذا أخذوا فيما لا يعنيهم تركهم وأمسك، ويتكلم في كل مكان بما يوافق الحال، فقد قيل: لكل مقام مقال، وقيل: خلق الله اللسان ترجماناً للقلب، ومفتاحاً للخير والشر، وقيل: إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك، والزم الصمت، فإنه ستر للجاهل وزين للعاقل، قال ﷺ: «**وهل يكب الناس على وجوههم أو مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»(1)

وآداب السمع: ألا تسمع الفحش والخنا والغيبة والنميمة والمناكر، وأنشدوا:

أحب الفتى ينفي المناكر سمعه كأن به عن كل فاحشة وقراً

بل يسمع الذكر والوعظ والحكمة وما يعود إليه بالفائدة ديناً ودنيا، ويحسن الإصغاء إلى مكلميه ومخاطبيه، ملتذاً بذلك.

وآداب البصر: الغض عن المحارم، وعن عيوب الإخوان، وعن المنكرات والمحرمات، فإن الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: 16].

وقيل: من طاوع طرفه تابع حتفه (أي موته) وفي رواية (من أرسل طرفه مات حتفه) وأنشدوا:

وإنك مهما ترسل الطرف رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
ترى ما الذي لأكله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

ثم قال السلمي: وقيل من غض طرفه تم ظرفه، وقيل: من كثرت لحظاته

---

(1) أخرجه البخاري (إيمان 19) (زكاة 53) (مناقب 2) (أحكام 2) ومسلم (إيمان 237) (مساجد 261، 262) (زكاة 131) وأبو داود (سنة 15) والترمذي (ديات 8) (إيمان 8) والنسائي (إيمان 7) وابن ماجة (فتن 6، 12) والدارمي (سير 77) وأحمد بن حنبل (1، 176، 182، 2، 111، 215، 4، 94، 340، 5، 25، 231، 236، 237، 6، 3).

دامت حسراته، ويكون نظره بالاعتبار والاستدلال على قدرة الله تعالى وعظمته وجميل صنعه، عارياً عن حظوظ النفس الأمارة بالسوء.

حكي عن بعضهم أنه قال: نظرت إلى شخص نظرة شر، فرأيت في المنام قائلاً يقول لي: الدنيا داري، والخلائق فيها عبيدي وإمائي، فمن نظر إلى واحد منهم بغير حق فقد خانني، فانتبهت وآليت ألا أنظر إلى شخص بعد ذلك إلا على حد الأمانة.

وحكي عن أبي يعقوب النهرجوري أنه قال: رأيت في الطواف إنساناً بفرد عين، وهو يقول: أعوذ بك منك، **فقلت**: ما هذا الدعاء، فقال: اعلم أني مجاور منذ خمسين سنة فرأيت يوماً شخصاً استحسنته فإذا لطمة وقعت على عيني، فسالت على خدي، **فقلت**: آه فقيل لي: لحظة بلطمة، ولو زدت لزدناك.

وقال ﷺ لعلي رضي الله عنه: «**إياك أن تتبع النظر فإن الأولى لك والثانية عليك**»[1]

وآداب القلب مراعاة الأحوال السنية المحمودة، ونفي الخواطر الردية المذمومة، والتفكر في آلاء الله ونعمائه وعجائب خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 191] الآية.

وقال ﷺ: «**تفكر ساعة خير من عبادة سنة**»[2]

قلت: وفي رواية «**خير من عبادة سبعين سنة**».

فيحمل الأول على تفكر أهل الدليل، والثاني على تفكر أهل الشهود.

[ومن آداب القلب]

حسن الظن بالله وبجميع المسلمين، وتطهيره من الغل والحسد والخيانة وسوء الظن وسوء المعتقد، فإنها من خياناته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ

(1) أخرجه أبو داود (نكاح 3) والدارمي (أدب 28) (رقاق 3) وأحمد بن حنبل (5، 351، 353، 357).

(2) أخرجه القرطبي في (التفسير 4/ 314) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 1/ 161) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 3/ 409) وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة 162) والعجلوني في (كشف الخفاء 1/ 370) والشوكاني في (الفوائد المجموعة 251) والفتني في (تذكرة الموضوعات 188).

﴿وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 26].

وقال النبي ﷺ: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح بصلاحها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد سائر الجسد، ألا وهي القلب**»[1]

وقال سري السقطي: القلوب ثلاثة، قلب كالجبل لا يحركه شيء، وقلب كالنخلة أصلها ثابت والريح يميل بها يميناً وشمالاً، وقلب كالريشة يذهب مع كل ريح ولا يثبت.

[وآداب اليدين]

البسط بالبر والإحسان، وخدمة الإخوان وألا يستعين بهما على معصية الله تعالى.

[وآداب الرجلين]

السعي بهما في صلاح نفسه وإخوانه، وألا يمشي بهما مرحاً، ولا يختال ولا يتبختر، ولا يزهو، فإنها مما يبغضه الله تعالى، وألا تستعين بهما على المعاصي. انتهى.

[وأما الأخلاق]

فالمراد بها: حسن الخلق مع كل مخلوق، ومرجعها إلى: الحلم، والعفو، والصبر.

أو تقول: مرجعها إلى أن تعامل الخلق بما تحب أن تعامل به.

أو تقول: مرجعها إلى كف الأذى، وبذل الندا، والإنصاف فيما ظهر وما بدا، وحمل الجفا، وشهود الصفا، ورمي الدنيا بالقفا.

وقال الغزالي: هي ملك النفس عند الشهوة والغضب، ويرجع إلى ما تقدم.

وقوله: «مع كل خلق ما له خلاق» معناه: أن تحسن أخلاقك مع من لا خلاق له، أي لا نصيب له عند الله، أمرك أن تحسن أخلاقك مع من لا قدر له، لأنه هو

---

(1) أخرجه البخاري في (صحيحه 1/ 20) ومسلم (في صحيحه المساقاة 103) والبيهقي في (السنن الكبرى 5/ 264) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 6/ 253، 10/ 171) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 4/ 356).

الذي يحتاج إلى تحسين الأخلاق، وأيضاً التأدب وحسن الخلق مع من لا خلاق له يتضمن التأدب مع غيره بالأحروية، ومرجع ذلك لقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: 199].

قال عليه الصلاة والسلام: «**أمرني ربي أن أعطي من حرمني، وأعفو عمن ظلمني، وأصل من قطعني**»[1]

وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34]، ومعناه أن تحسن إلى من أساء إليك.

وقوله: «باطنه منازل الأحوال... مع المقامات» يعني: أن باطن الطريق هو محل تنزل الأحوال والمقامات، وهي القلوب والأسرار، لأنها باطنية لا يعلمها إلا الله والفرق بين الحال والمقام أن الحال يتحول فيذهب ويجيء، بخلاف المقام، فإنه رسوخ وتمكين.

قال في العوارف: كثر الاشتباه بين الحال والمقام، واختلفت إشارات المشايخ في ذلك ووجود الاشتباه لمكان تشابههما في نفسهما، وتداخلهما فتراءى للبعض الشيء حالاً وتراءى للبعض مقاماً، وكلا الروايتين صحيح لوجود تداخلهما، ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما على أن اللفظ والعبارة عنهما تشعر بالفرق.

[الحال والمقام]

فالحال سمي حالاً لتحوله، والمقام مقاماً لثبوته واستقراره، وقد يكون الشيء بعينه حالاً، ثم يصير مقاماً، مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة، ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس، ثم تعود، ثم تزول، فلا يزال العبد حال المحاسبة تعاهده الحال، ثم يحول الحال بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم، ويغلب حال المحاسبة فتنقهر النفس وتنضبط، وتتملكها المحاسبة، فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه، ثم ينازله حال المراقبة، فمن كانت المحاسبة مقامه تصير له المراقبة حالاً، ثم يحول عنه حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة في باطن العبد، إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة، ويتدارك الله عبده المعونة، فتصير

---

(1) رواه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال، باب القصد في المال، حديث رقم (328) [1/ 99].

المراقبة مقاماً بعد أن كانت حالاً، ولا يستقر مقام المحاسبة قراره إلا بنازل حال المراقبة، ولا يستقر مقام المراقبة إلا بنازل حال المشاهدة، فإذا منح العبد نازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه، ونازل المشاهدة أيضاً يكون حالاً ويحول بالاستتار، ويظهر بالتجلي، ثم يصير مقاماً، وتتخلص شمسه من كسوف الاستتارة، ثم في مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه، كالتحقق بالفنا والتخلص إلى البقاء، والترقي من عين اليقين إلى حق اليقين، وحق اليقين نازل يخرق شغاف القلب، وذلك أعلى فروع المشاهدة، انتهى.

وكذلك التوبة والورع والزهد والتوكل والرضى والتسليم، تكون أحوالاً، ثم تصير مقامات، فما دامت مجاهدة فهي أحوال، فإذا كانت ذوقاً فهي مقامات.

وقد قالوا: الأحوال مواهب، لأنها موهبة من الله جزاء على الأعمال، والمقامات مكاسب، لأن التمكين منها مكتسب بدوام الأعمال.

وفي التحقيق: كلها مواهب.

وقول سيدنا علي كرم الله وجهه: «سلوني عن طرق السماوات، فإني أعرف بها من طرق الأرض» أشار إلى المقامات والأحوال فإن السالك يصير قلبه سماوياً، فهي طرق السموات، ومستنزل البركات. قاله السهروردي أيضاً.

وقوله: «لذي الجلال» يتعلق بمحذوف، أي يستقر بها عند ذي الجلال، وهو الحق تعالى: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: 27]، والله تعالى أعلم.

ولما كان بين الظاهر والباطن تلازم: ما كمن في هذا ظهر في هذا، أشار إلى ذلك بقوله:

(والأدب الظاهر للعيان دلالة الباطن في الإنسان)

قلت: هذا داخل فيما تقدم من أن صحة الظواهر تدل على صحة البواطن، فما استودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر.

وفي الحديث عنه ﷺ: «**ما أسر عبد من سر سريرة إلا ألبسه الله رداءها**»[1].

فأحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن، فالأسرة تدل على السريرة، وما فيك ظهر على فيك، وكل إناء بالذي فيه يرشح، وما خامر القلوب فعلى الوجوه أثره

(1) رواه الطبراني في الصغير برقم (7906) [8/ 44] وفي الكبير برقم (1702) [2/ 171].

يلوح، فتهذيب الجوارح يدل على تهذيب القلوب، وآداب الظاهر يدل على آداب الباطن.

حكي أن الجنيد دخل على أبي حفص النيسابوري، فرأى أصحابه واقفين عند رأسه كأصحاب الملك، فقال الجنيد: أدبت أصحابك يا أبا حفص أدب الملوك؟ فقال: لا يا أبا القاسم ولكن: أدب الظاهر عنوان أدب الباطن.

وهو الذي ذكر الناظم هنا، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر فضيلته فقال:

(وهو أيضاً للفقير سند ... وللغني زينة وسؤدد)

وقيل: من يحرم سلطان الأدب فهو بعيد، ما تدانا واقترب.

وقيل: من تحبسه الأنساب فإنما تطلقه الآداب.

[آداب المريد الفقير]

قلت: المراد بالفقير هنا: من لا مال له، بدليل مقابلته بالغني وإنما كان الأدب سنداً للفقير أي معتمداً عليه، ويرتفع إلى مقام الأكابر ديناً أو دنيا، لأن القلوب مجبولة على حب أهل الإحسان والتواضع والحلم، فإن أراد اللحوق بأكابر الدين كان أدبه معهم سبباً في التحاقه بهم، وإن أراد اللحوق بأكابر الدنيا، كان أدبه أيضاً سبباً في لحوقه بهم، لأن القلوب مجبولة على حب أهل الإحسان كما تقدم.

وإنما كان للغني زينة وسؤدداً، أي شرفاً، لأن الغني محبوب بالطبع، فإذا كان أديباً متأدباً زاد عندهم شرفه.

[آداب المريد الغني]

ومن آداب الغني: التواضع والكرم، فإذا خلا من هذين فليس بأديب، وإذا خلا الغني من الآداب التحق بالأراذل، وانخرط في سلك الأنذال، ولذلك قيل: خير ما أعطي الإنسان: عقل يزجره، فإن لم يكن فحياء يمنعه، فإن لم يكن قال يستره، فإن لم يكن فصاعقة تحرقه يستريح منه البلاد والعباد.

والآداب أيضاً من موجبات القرب والوصال؛ ولذلك قيل: «من يحرم سلطان الأدب» أي يمنع منه ولم يوجد فيه شيء منه «فهو بعيد ما تدانا» في زعمه «واقترب» في وهمه، فما مصدرية، وتدانا واقترب من عطف التفسير والمرادف، أي فهو بعيد

مدة كونه متدانياً قريباً في ظنه.

وأشار بهذا لقول أبي حفص رضي الله عنه: التصوف كله أدب، لكل وقت أدب، ولكل حال أدب، ولكل مقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب، مردود من حيث يظن القبول.

وقال ابن عطاء الله: من جهل المريد أن يسيء الأدب، فتؤخر العقوبة عنه، فيقول: لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد وأوجب البعاد، فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يدري، ولو لم يكن إلا منع المزيد، وقد يقام مقام البعد من حيث لا يدري، ولو لم يكن إلا أن يخليه وما يريد.

وإنما سمى الناظم الأدب سلطاناً لأنه حاكم على الشخص في نفسه، فلا يتركه يميل إلى جهة النقائص والرذائل.

ومن فضيلة الأدب أنها تلحق من لا نسب له بذوي الأنساب، وتصير الوضيع شريفاً والدني رفيعاً، ولذلك قيل: «من تحبسه الأنساب الدنية تطلقه الآداب المرضية» أي من يحبسه عن الارتفاع مع الكبراء نسبه الوضيع، يطلقه إلى طلب العلو أدبه الرفيع.

قيل لبعض الملوك في بعض الكتب أنه ليس بحسيب، أي من قوم لهم حسب، فسأله الملك، فقال للملك: أنا حسيب لأولادي، أي يصير أولادي من ذوي الأحساب بسببي، وهكذا كما قال بعضهم: «نحن بنات المجد لغيرنا» أي نحن نؤسس المجد ونبنيه لغيرنا، «ولا نستظل ببناء مجد غيرنا» وفي ذلك قيل:

كن حليماً ودع فلان ابن من كا ... ن حليماً واجمع إلى الحلم علماً
لا تكن سكراً فيأكلك النا ... س ولا حنظلاً تذاق وترمى

ثم تمم:

[(فضيلته وشرفه)]

فقال:

(فالقوم بالآداب حقاً سادوا ... منه استفاد القوم ما استفادوا)

(قلت) السؤدد هو الشرف أي ما ساد القوم وشرفوا إلا بالآداب مع الله ومع رسوله ﷺ ومع أشياخهم ومع سائر المسلمين، فالأدب مع الله بامتثال أمره واجتناب

نهيه، والاستسلام لقهره.

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه في «شرح الحكم»: هو حفظ الحدود، والوفاء بالعهود والنطق بالملك الودود، والرضى بالموجود، وبذل الطاقة والمجهود.

والأدب مع رسول الله ﷺ باتباع سنته وإيثار صحبته، والاهتداء بهديه والتخلق بأخلاقه.

والأدب مع الأشياخ بحفظ الحرمة، وحسن الخدمة، وصدق المحبة.

والأدب مع المسلمين، بأن تحب لهم ما تحب لنفسك، أو أكثر.

وتقدمت آداب الجوارح، فلا بد منها، وكذلك آداب الأوقات، وهي تعميرها بالطاعات، فأوقات العبد أربعة كما قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: وقت الطاعة، ووقت المعصية، ووقت النعمة، ووقت البلية، فوقت الطاعة مقتضى الحق منك شهود المنة ووقت المعصية مقتضى الحق منك تحقيق التوبة، ووقت النعمة مقتضى الحق منك الشكر، ووقت البلية مقتضى الحق منك الصبر، فإذا قام العبد بهذه الآداب كلها حصل له الشرف التام والمنزلة الكبرى عند الخاص والعام.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: وكل نسبة لا أدب فيها فصاحبها كذاب، لأن عنوان الصدق وجود المراقبة، وإن كانت الغفلة مع حفظ الأصل غير قادحة، فقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: كل سوء أدب يثمر أدباً فليس بإساءة أدب، يعني من حيث الواقع، لا من حيث القصد، فتأمل ذلك، وبالله التوفيق.

وقوله: «منه استفاد القوم ما استفادوا» يعني من العلوم والمعارف والأنوار والأسرار والكرامات الحسية والمعنوية، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر:

[(بعض تفاصيل الأدب)]

فقال:

(إذ نصحوا الأحداث والأصاغر وحفظوا السادات والأكابر)

قلت: ذكر هنا أربعة أصناف من الناس، ممن يتأدب معهم إذا اجتمعوا معه، أولهم الأحداث: جمع حدث:

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: هو من لا نبات له، وهم ثلاث: الحدث

سناً، وهو الصغير الذي لم يميز حقائق الأمور، فله ولوع بكل ما يراه أو سمعه من مستحسن، فلا تؤمن غائلته في الانقلاب، ثم للنفوس ولوع به، من حيث الجمال الصوري، أو من حيث التعلق الروحاني، وقد يكون ذلك لا يشعر به الشخص، وقد يكون من حيث شعوره، ولصحبتهم آفات حاضرة من حيث شغل البال وحفظه، ثم حيث اشتغال النفس بالميل له، ثم من حيث كمون الضرر في النفس بصحبته، فلا خير فيها، ولا بد من نصحه عند إقباله بتعريف الأصول، وترك الفضول.

قلت: الأصل في صحبته الجوار، وإنما يمنع لهذه العوارض التي ذكرها، فمن تحقق سلامته منها فلا يعترض عليه، وقد ذكره التجيبي، واستدل للجواز بخدمة أنس بن مالك[1] رضي الله عنه رسول الله ﷺ، وإن كان عليه الصلاة والسلام معصوماً، فالأصل فيما يفعله الاقتداء حتى يرد ما يخصصه به.

القسم الثاني: من أقسام الحدث: الحدث عقلاً، وهو الذي لا يثبت على حقيقة، ولا ينتهج على طريقة: يتبع كل ناعق، ويتنسم كل ناشق، هذا أعظم ضرراً من الذي قبله لفقدان الحقيقة فيه، وانتفاء قابليتها منه، ونصحه بتعريف الوجه الذي يقصده، وبيان الحق بوجه واضح حتى تقوم الحجة وتظهر المحجة، وأكثر ما يوجد هذا في فقراء البادية.

قلت: إن كان على الفطرة سهل علاجه وقربت هدايته.

القسم الثالث: الحدث ديناً، وهو مع كل قوم بما هم عليه، يميل مع كل ريح، ويسمى: الإمعة بكسر الهمزة وشدة الميم، ونصحه بدعواه إلى إفراد الوجهة، وتذكيره بما في ذلك من الضرر.

فقد قال رسول الله ﷺ: **«في كل واد من قلب ابن آدم شعب فمن تتبع قلبه تلك الشعب لم يبال الله في أي واد أهلكه»**[2]

---

(1) هو أنس بن مالك بن النضر بن خمضم البخاري الخزرجي الأنصاري أبو ثمامة أو أبو حمزة (10 ق هـ - 93 هـ = 612 - 712م) صاحب رسول الله (ص) وخادمه وروى عنه رجال الحديث 2286 حديثاً ولد بالمدينة وتوفي بالبصرة.
(الأعلام 2/ 25) (طبقات ابن سعد 7/ 10) (وتهذيب ابن عساكر 3/ 1139) (والجمع 35) (وصفة الصفوة 1/ 298).

(2) أخرجه ابن ماجة (زهد 14).

الثاني: الأصاغر، والمراد بهم: صغار السن الذين لم يبلغوا سن الحداثة والتمكن فيها، ونصحهم بغرس الخير في قلوبهم، كما قال ابن أبي زيد في رسالته: «وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليها».

وقال السلمي رضي الله عنه: والصحبة مع الأصاغر بالشفقة والإرشاد والتأديب والحمل على ما يوجبه حكم المذهب، ويدلهم على ما فيه صلاحهم، لا على ما فيه مرادهم، وعلى ما يفيدهم لا على ما يحبونه، ويزجرهم عما لا يعنيهم.

الثالث السادات: والمراد بهم: العباد، والزهاد، والصالحون، والعلماء العاملون، والمريدون السالكون، الذين لم يبلغوا مرتبة المشيخة، ونصح الأول بدلالته على الإخلاص وإسقاط الحظوظ النفسانية والروحانية، ونصح الثاني بتصحيح النية وإفراد الوجهة مع ما نصح به الأول، ونصح الثالث بتحقيق التوبة والاستقامة، ونصح الرابع بتحقيق الإخلاص وتوفير الصبر والحلم والتواضع، ونصح الخامس بالغيبة عن السوى، أو بإسقاط الهوى ومحبة المولى، وحفظهم بالتعظيم والتوقير والاحتشام، وبإعطاء الرتبة حقها من كل وجه، ولا يستحقر أحداً أقامه الله في مقام من المقامات كيفما كان.

قال في الحكم: إذا رأيت عبداً أقامه الله بوجود الأوراد، وأدامه عليه مع طول الإمداد، فلا تستحقرن ما منحه مولاه، لأنك لم تر عليه سيما العارفين ولا بهجة المحبين، فلولا وارد ما كان ورد.

وقال أيضاً: قوم أقامهم الحق لخدمته، وقوم اختصهم بمحبته، ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾ ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 20].

الرابع: الأكابر، والمراد بهم المشايخ، وحفظهم بثلاثة أمور:

اتباع ما رسموه، وإن لم يفهم معناه، فقد قالوا «خطأ الشيخ أحسن من صواب المريد» فإن بان غيه توقف من غير اعتراض حتى يظهر أمره.

الثاني: عدم البحث عما جاءوا به إلا من حيث التفهم، فإن من قال لأستاذه: لم، لا يفلح أبداً.

الثالث: موالاة من والاهم ومعاداة من عاداهم، ما لم يكن له مانع شرعي، أو يجره إلى منكر.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: آداب الفقير المتجرد أربعة: الحرمة

للأكابر، والرحمة للأصاغر، والإنصاف من نفسه، وعدم الانتصار لها ا هـ.

ثم ذكر:

[(آدابهم في الكلام)]

فقال:

(واجتنبوا ما يؤلم القلوب

قلت: هذا عام مع جميع المسلمين، فلا يتكلم مع مسلم بما يوجعه في قلبه، وإن كان نصحاً، فقد قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿44﴾﴾ [طه: 44].

فالوعظ إنما ينفع إذا كان على وجه الملاطفة والسياسة، ويتأكد ترك ما يؤلم مع الزوجة والأهل، وكذلك مع الإخوان، لأن جبر القلوب في جبر القلوب، وكسر القلوب في كسر القلوب، فمن جبر قلب عبد بإدخال السرور عليه أو هداية إليه: جبر الله قلبه، ومن كسر قلب عبد بإدخال الحزن عليه أو تنفيره: كسر الله قلبه، ومن أراد جبر قلوب عباد الله فليغض عن مساويهم، وليسكت عن عيوبهم، ويرحم الله القائل:

إذا شئت أن تحيا ودينك سالم ... وجاهك موفور وعرضك صيِّن
لسانك لا تذكر به عورة أمرىء ... فعندك عورات وللناس ألسن
وإن أبصرت عيناك عيباً فقل لها ... أيا عين لا تنظري فللناس أعين
وعاشر بمعروف وجانب من اعتدى ... وفارق ولكن بالتي هي أحسن

وقال الشيخ زروق: فهذه الأبيات جامعة لجميع ما يؤلم القلوب بطريق الاجتناب، فمن عمل عليها سلم من هذه الآفات التي أصلها كلها التجسس عن أخبار الناس، وسوء الظن بهم، وقد قال عليه السلام: «**ثلاثة لا ينجو منها ابن آدم: الحسد، والطيرة، والنظر، فإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فأمض**»(1)

ومن خلقه عليه الصلاة والسلام أنه «**كان لا يواجه أحداً بما يكره، إلا أن**

(1) أورده السيوطي في الدر المنثور، سورة الحجرات، آية 12 [7/ 566] وعزاه إلى الطبراني عن حارثة بن النعمان.

تنتهك حرمات الله»[1]

ثم ذكر:

[(آدابهم في العمل)]

فقال:

وابتدروا الواجب والمندوب)

قلت: أشار بذلك إلى كمال عبوديتهم، وأنهم يتبادرون إلى حقوق مولاهم: واجبة كانت أو مندوبة، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: 133]، على اختلاف قصدهم.

فمنهم من يقصد الثواب والنجاة من العقاب عاجلاً وآجلاً، وهم العوام منهم.

ومنهم من يقصد: تحقيق العبودية والقيام بوظائف الربوبية، وهم الخواص، أو خواص الخواص، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر:

[(آدابهم مع الأشياخ والإخوان)]

فقال:

(وخدموا الشيوخ والإخوانا وبذلوا النفوس والأبدانا)

قلت: خدمة الشيوخ قربة عظيمة ومنقبة جسيمة، وهي سبب الفوز بالوصول إلى معرفة الحق تعالى، ونيل درجات المقربين السابقين.

وفي ذلك يقول سيدي عبد الوارث[2] رضي الله عنه: خدمة الرجال سبب الوصال إلى مولى الموالي.

وقال سيدي عبد الله الهبطي رضي الله عنه:

إن كان الخديم ظنه جميل دل على فلاحه دليل

---

(1) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 6/ 211) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 2/ 174).

(2) هو عبد الوارث بن سعيد بن ذكوان أبو عبيدة العنبري بالولاء، التنوري البصري (102 ـ 180 هـ = 720 ـ 796م) (كان فصيحاً من أهل الحديث).
(الأعلام 4/ 178) (شذرات الذهب 1/ 293)، (طبقات ابن سعد 7/ 289).

أهـل نـفـسـه لـخـدمـة الـرجـال لـكـي يـنـال مـن حـبـيـبـه الـوصـال
غـيـره ذل الـمحب في طلب القوت عـن عـزيـز عـنـد أهـل الـحـب

وقال أبو عبد الرحمٰن السلمي رضي الله عنه: الصحبة مع الأستاذ باتباع أمره ونهيه، وهي في الحقيقة خدمة لا صحبة.

قيل لأبي منصور المغربي: كم صحبت أبا عثمان؟ فقال: خدمته وما صحبته، يعني أن صحبة الصغير للكبير تسمى خدمة، لا صحبة.

ثم قال: والقيام بخدمة أستاذه واجب، والصبر تحت حكمه، وترك مخالفته، ظاهراً وباطناً. وقبول قوله والرجوع إليه في جميع ما يعرض له، والتبرك به واستماع كلامه، وتعظيم حرمته، ومجانبة الإنكار عليه في شيء من أموره، سراً وجهراً، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: 65]، الآية.

سأل بعض أصحاب الجنيد الجنيد عن مسألة فأجابه، فعارضه في ذلك، فقال الجنيد: فإن لم تؤمنوا فاعتزلوا.

ويكون في صحبته كالصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ، تأديبهم بآداب القرآن في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: 1 ـ 2]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: 1 ـ 2] الآية، وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾ [النور: 63]، وما أشبه ذلك.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**الشيخ في قومه كالنبي في أمته**»[1] ا هـ.

قلت: والحديث قال ابن الجوزي «إنه موضوع» والله تعالى أعلم.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: خدمة الشيوخ أمر زائد على تعظيمهم انتهى.

وأما:

[(خدمة الإخوان)]

فهي إعانة على ما يعرض له من أمور دينية أو دنياوية بنفسه أو بماله أو بجاهه

(1) أورده المتقي الهندي في (كنز العمال 42632) والعجلوني في (كشف الخفاء 2/ 22) وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة 229).

أو بما يقدر عليه.

قال السلمي رضي الله عنه: رأيت جدي إسماعيل في النوم يقول لي: ألست تعلم شيئاً من العلوم؟ **فقلت**: ربما أعلم شيئاً، فقال: أليس سئلت أمس عن الاعتقاد في خدمة الفقراء؟ **فقلت**: نعم، فقال: كتبت ما كتبت ولست بمحتاج إليه، إنما هي ثلاث كلمات، وهي: أن تخدم من فوقك بالحرمة، وأقرانك بالنصيحة، ومن دونك بالشفقة، وانتبهت انتهى.

وقال في آداب صحبتهم ما نصه: والصحبة مع الأقران بالبشر والانبساط والموافقة وبذل المعروف والإحسان، والكون معهم على حكم الوقت.

حكي أن العباس بن عطاء مد رجليه بين يدي أصحابه، وقال: ترك الأدب مع أهل الأدب أدب.

وقال الجنيد رضي الله عنه: إذا صحت المودة سقطت شروط الأدب.

روي عنه ﷺ أنه كان عنده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فدخل عثمان فغطى ركبتيه، وقال: «**ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة**»[1] فحشمة عثمان وإن عظمت فالحالة التي بينه ﷺ وبينهما: يعني أبا بكر وعمر، أصفى، **ثم قال**: ولا يداهنهم فيما يخالف المذهب.

وقد قال رويم: ما زالت الصوفية بخير ما تنافروا، فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم، ويخضع عند الحق لقائله بالقبول.

روي أن عمر رضي الله عنه أمر بقلع ميزاب كان من دار العباس بن عبد المطلب[2] إلى الطريق بين الصفا والمروة، فقال له العباس، قلعت ما كان رسول

---

(1) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند 1/ 71، 6/ 104، 288) والبيهقي في (السنن الكبرى 2/ 231) والحاكم في (المستدرك 3/ 95، 103 والهيثمي في (مجمع الزوائد 9/ 72) وابن عبد البر في (التمهيد 6/ 380) والمتقي الهندي في (كنز العمال 32799، 36215، 36219، 36248) والطحاوي في (مشكل الآثار 2/ 284، 293) والسيوطي في (الحبائك في الملائك 137) والبخاري في (الأدب المفرد 603) والبخاري في (التاريخ الكبير 5/ 104).

(2) هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف أبو الفضل (51 ق هـ ـ 32 هـ = 573 ـ 653م) من أكابر قريش شهد وقعة (حنين) وشهد فتح مكة وعمي في آخر عمره وأحصي ولده في سنة 200 هـ فبلغوا 330 وكانت وفاته في (المدينة) وله في (كتب الحديث 35 حديثاً). (الأعلام 3/ 262) و(أسد الغابة)، و(الجهشياري ونكت الهميان 175)، و(الإصابة وابن سعد والمبرد) (وصفة الصفوة 1/ 203).

الله ﷺ وضعه بيده؟ فقال: إذن لا يرده إلى مكانه غيرك، ولا يكون السلم غير عاتق عمر، فقام على عاتقه، فرده إلى موضعه، رضي الله عنهما، انتهى.

وقوله: «وبذلوا النفوس» إلخ، والبذل هو الخدمة والمهنة، يقال: ثوب مبتذل، أي مهان بالخدمة، يعني أنهم بذلوا نفوسهم وأهانوها في خدمة الشيوخ والإخوان، فنالوا غاية العرفان، وحازوا أقصى مقام الإحسان، نفعنا الله بهم وخرطنا في سلكهم، آمين.

ثم ذكر:

[(آدابهم في العلم)]

فقال:

(وأنصتوا عند المذاكرات واحترموا الماضي معاً والآت
وسألوا الشيوخ عما جهلوا ووقفوا من دون ما لم يصلوا
وعملوا بكل ما قد علموا وآثروا واغتفروا واحتشموا)

قلت: أما الإنصات عند المذاكرة فلأنه يدل على كمال العقل والرزانة، فقد قالوا: من كمل عقله قل كلامه، ومن قل عقله كثر كلامه، وأيضاً الكلام إنما يفهم بتمامه، فإذا تم الكلام تكلم بما عنده من غير ملاججة ولا خصام، ولا ينبغي السكوت بالكلية إذ لا يعرف الشيخ حاله ولا مقامه إلا بكلامه.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي رضي الله عنه: تعلم المذاكرة كتعلم الرماية، فلا بد أن يرموا الإشارة، فتارة أمامها وتارة قدامها، حتى يصادفها، أو كلام هذا معناه.

وأما احترام الماضي فالمراد من تقدم من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين والعلماء العاملين، واحترامهم ألا يذكروا إلا بالإحسان، وأن يلتمس لهم أحسن المذاهب.

ويرحم الله النووي لما سئل عن ابن العربي الحاتمي: فقال: «الكلام كلام صوفي، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون».

ومن احترامهم الاستغفار والترضي عنهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: 10].

وأما احترام الآتي، فمعناه ألا يقطع المادة ويحجر القدرة، فيقول: انقطعت الأولياء ولم يبق أحد، وانقطعت التربية ولم يبق من يصلح لها، أو كان الناس وليس هذا زمانهم أو نحو ذلك من سوء الظن بالله وبعباده.

وأما:

[(سؤال الشيوخ عما جهلوا)]

فلأن طلب العلم واجب على كل مسلم، وهو معلوم من الدين بالضرورة، ووقع الإجماع على أنه لا يحل لامرىء أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه، وإنما يسألون عما يحتاجون إليه في الحال من عمل أو حال أو مقام دون ما يتعلق بالمستقبل من المقامات، وهو معنى قوله: «ووقفوا من دون ما لم يصلوا» يعني دون الذي لم يدركوه بالمنازلة والذوق، فلا يسألون عنه، لأنه لا تدركه عقولهم، وإن أدركته اتصلت به على غير وجه التحقق، فكان ضرره أكثر من نفعه.

وأما:

[(عملهم بكل ما علموا)]

فلأن العمل نتيجة العلم، فعلم بلا عمل وسيلة بلا غاية، وعمل بلا علم جناية.

وفي الحديث: «**مثل العالم الذي لا يعمل، كالشمعة: تحرق نفسها وتضيء على غيرها**»[1]

ولأن «**العلم يهتف بالعمل فإن وجده وإلا ارتحل**» و«**من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم**».

فالعلم إذا أيد بالعمل نهض، ثم أنتج نوراً تاماً، ينتج ذلك النور حكمة، فيكون كل شيء من صاحبه علماً وحكمة.

وقوله: «وآثروا» يعني أنهم آثروا على أنفسهم في الكلام، فيقدمون أكبرهم علماً أو سناً، ويؤثرون أيضاً على أنفسهم في صدور المجالس والمحافل، وكل ما فيه تعظيم.

---

(1) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير 2/ 178) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 1/ 304) والخطيب في (اقتضاء القول والعمل 70).

وقوله: «اغتفروا» أي سامحوا وعفوا عن جفوة الإخوان الذين لم يتهذبوا، وصبروا على غلظتهم في المذاكرة وغيرها.

وقوله: «واحتشموا» أي تركوا المنازعة والمخاصمة والملاجحة بالغضب، لأن ذلك يؤدي إلى الشرور والعداوة والحقد، فتخرج المذاكرة حينئذٍ إلى المجادلة والمراء.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**من ترك المراء وهو محق بني له بيت في أعلى الجنة، ومن ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في أسفل الجنة**»(*)

ثم ذكر:

[(آدابهم في المعاشرة)]

فقال:

(واحتكموا بالعدل والإنصاف فوردوا كل معين صاف)

قلت: أشار رحمه الله إلى أن الفقراء لا يداهن بعضهم بعضاً في الحق، ولا ينافق بعضهم بعضاً، بل يأتمرون بينهم بالمعروف ويتناهون عن المنكر، فيحكمون بالعدل على بعضهم بعضاً، وعلى أنفسهم، ومن توجه عليه حق من الحقوق أنصف وأذعن وانقاد للحق، ولا يتعصب ولا يتحامى حمية الجاهلية، وحقيقة العدل هو: تنفيذ الحق من غير زيادة عليه ولا نقصان منه، والإنصاف هو الاعتراف به من غير توقف، ويقال الإنصاف من شيم الأشراف.

وقال أبو العباس بن العريف رحمه الله: لا بد لطالب العلم الحقيقي من معرفة الإنصاف ولزومه بالأوصاف اهـ.

قلت: ولا بد أيضاً للعالم من التحقق بالإنصاف ليرجع للحق أينما ظهر.

وقد قالوا: «إذا أخطأ العالم لا أدري أصيبت مقاتله».

وكان الشيخ عبد العزيز المهدي رحمه الله: إذا سئل عن شيء لا يدريه يقول: لا أدري، وإذا سئل عن شيء يدريه يقول: أحب أن أسمعه من غيري.

(*) أورده بنحوه المتقي الهندي في كنز العمال برقم (9026) [3/ 356] وعزاه إلى ابن منده وأبو نعيم.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: ومن عجيب ما سمع في ذلك أن ابن الحاج حكى في مدخله: أنه لما طلب شيخه ابن أبي جمرة رضي الله عنه في أن يقرأ عليه، قال له: وتترك القضاة والأكابر الذين كنت تقرأ عليهم وتقرأ علي؟ فقال: عزمت، قال: استخر الله، قال: استخرت ثم جئت من الغد، فقال: عزمت، **قلت**: نعم، قال: لا يخطر على بالك أنك جلست بين يدي عالم ولا إلى عالم وأنت متعلم، ولكنا قوم اجتمعنا لطلب أحكام الله، فإن وجدنا الحق على لسان صبي من صبيان المكتب اتبعناه.

قلت: فهذا الأمر الذي كان عليه سلف هذه الأمة، وإلا لما صحح مخالفة متأخرهم لمتقدمهم، والله أعلم.

ثم المنصف هو: الذي لا يبالي كان شيخاً أو تلميذاً أو عالماً أو معلماً، ظهر الحق على لسانه أو لسان غيره، لأنه مقصوده دون ما سواه، وقليل ما هم ا هـ.

قوله: «فوردوا كل معين صافي» الورود، هو: الشرب، والمعين هو: الماء الجاري، والصافي: لا تغيير فيه، يعني أن الصوفية لما حكموا بالعدل، واتصفوا بالإنصاف شربوا من العلوم أعذبها وأصفاها، لأن القلوب إذا صفت وتزكت وتطهرت من الدعوى والمكابرة أشرقت فيها أنوار العلوم، ولاحت فيها أسرار الفهوم، فأخذت من العلوم أصفاها، ومن الأنوار أبهاها، ومن الأسرار أسناها وأوفاها، فمن صفى صفي له، ومن كدر كدر عليه، فالعلم المكدر عو علم التقليد، أو علم الدليل، والعلم الصافي هو علم الأذواق، أو علم الشهود.

وفي هذا المعنى قال القطب ابن مشيش رضي الله عنه: «وانشلني من أوحال التوحيد وأغرقني في عين بحر الوحدة» والله تعالى أعلم.

ثم ذكر:

[(شروط الأخوة وآدابها)]

فقال:

(وبعضهم كان لبعض عوناً — يلقى لديه دعة وأمناً
ينصره في الحق حيث كانا — فإن أساء قارضه إحساناً)

قلت: أشار رحمه الله إلى أن الصوفية رضي الله عنهم (أعني الفقراء) كانوا يتعاونون على البر والتقوى، لأن ذلك لمقصد جمعهم، فيعين أخاه بنفسه وماله

وجاهه وعلمه وعمله وهمته وحاله ومناصحته ومواداته ومصادقاته إلى غير ذلك، وما كان اجتماعهم إلا ليتعاونوا على ذكر الله وسائر أبواب الخير.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 5]، وبذلك التعاون يصير كل واحد منهم في راحة وأمن من حاجته، وهذا معنى قوله: «يلقى لديه دعة وأمناً» أي يلقىٰ عنده راحة فيما يعانيه عند توجه أخيه لذلك الأمر، أو عندما يعينه عليه، وأمناً من فوات مقاصده بسببه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «**مثل الأخوين كمثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى**»(1) وكمثل البنيان يشد بعضه بعضاً، وفي معناه قيل:

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك بدد فيك شمله ليجمعك

قوله: «ينصره في الحق» إلخ أشار به إلى قوله ﷺ:

«**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قالوا: يا رسول الله، فإذاً ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: تأخذ على يديه فترده عن ظلمه**»(2)

وإنما كان رده عن الظلم نصراً، لأن نفسه ظالمة له، وهو مغلوب في يديها، فإذا رددته عن ظلمه فقد نصرته عليها، وإذا تركته يظلم فقد خذلته، وقد تقدم قول رويم، لا يزال الصوفية بخير ما تنافروا، فإذا اصطلحوا قل دينهم.

وقوله: «فإن أساء قارضه إحساناً» القرض هو السلف، أطلقه هنا على مطلق العطاء، أي فإن أساء فقير إلى أخيه في قول أو فعل سامحه، وبذل له إحساناً وعفواً، وامتثالاً لقوله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ومن يقتدي به: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: 34 ـ 35]، أي ادفع السيئة بالتي هي أحسن، وقد تقدم قوله عليه الصلاة والسلام في تفسير قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف: 199]، الآية «**إن الله أمرني أن أعفو عمن ظلمني وأصل من قطعني وأعطي من حرمني**»(*)

(1) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 6/ 204).

(2) أخرجه البخاري مظالم 4) (إكراه 7) والترمذي (فتن 68) والدارمي (رقات 40) وأحمد بن حنبل (3، 99، 201).

(*) هذا الحديث سبق تخريجه.

[آداب الأخوة وحقوقها]

قلت: وقد رأيت للغزالي كلاماً حسناً في آداب الأخوة وشروطها ذكره في الإحياء، فرأيت أن أذكره على وجه الاختصار لما فيه من الفوائد الغزار، قال رضي الله عنه:

اعلم أن عقد الإخوان رابطة بين الشخصين، كعقد النكاح بين الزوجين، وكما يقتضي النكاح حقوقاً يجب الوفاء بها، فكذلك عقد الأخوة، فلأخيك عليك حق في المال وفي النفس وفي اللسان وفي القلب، وبالعفو وبالدعاء.

ثم قال: وذلك يجمعه ثمانية حقوق:

الحق الأول: في المال بالمواساة، وذلك على ثلاث مراتب أدناها أن تنزله منزلة عبدك وخادمك، فتقوم بحاجته بفضلة مالك، فإذا سنحت له حاجة وعندك فضلة أعطيته ابتداءً، فإن أحوجته إلى سؤال فهو غاية التقصير.

الثانية: أن تنزله منزلة نفسك، وترضى بمشاركته إياك في مالك، فتسمح له في مشاطرته.

الثالثة: وهي العليا، أن تؤثره على نفسك، وتقدم حاجته على حاجتك، وهي رتبة الصديقين ومنتهى درجة المتحابين.

ومنها: الإيثار بالنفس أيضاً كما روي أنه سعى بجماعة من الصوفية إلى بعض الخلفاء، وهو المتوكل، فأمر بضرب رقابهم، وفيهم أبو الحسن النوري، فبادر إلى السياف ليكون أول مقتول، فقيل له في ذلك: فقال: أحببت أن أوثر إخواني بالحياة في هذه اللحظة، فكان ذلك سبب نجاة جميعهم في حكاية طويلة.

الحق الثاني: الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات، والقيام بها قبل السؤال، وتقديمها على الحاجة الخاصة، وهذه أيضاً لها درجات كالمواساة، فأدناها: القيام بالحاجة عند السؤال، ولكن مع البشاشة والاستبشار، وإظهار الفرح، وأوسطها أن تجعل حاجته كحاجتك، فتكون متفقداً لحاجته، غير غافلٍ عن أحواله، كما لا تغفل عن أحوال نفسك، وتغنيه عن السؤال، وأعلاها أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك، وتؤثره على نفسك وأقربائك وأولادك.

كان الحسن يقول: إخواننا أحب إلينا من أهلينا وأولادنا، لأن أهلينا يذكروننا الدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة.

الحق الثالث: على الإنسان بالسكوت، فيسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله، وإذا رآه في طريقه فلا يسأله عن غرضه وحاجته، فربما يثقل عليه أو يحتاج إلى أن يكذب ويسكت عن أسراره التي بثها إليه، فلا يبثها إلى غيره، ولا إلى أخص أصدقائه، ولا يكشف شيئاً منها، ولو بعد القطيعة، ويسكت عن مماراته ومدافعته في كلامه.

الحق الرابع: على اللسان بالنطق، فيتودد إليه بلسانه ويتفقده في أحواله التي يجب أن يتفقده فيها، كالسؤال عن عارض عرض له، وأظهر شغل القلب بسببه، فينبغي أن يظهر بلسانه كراهتها، والأحوال التي يسر بها ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركته في السرور بها، فمعنى الأخوة المساهمة في السراء والضراء، ويدعوه بأحب أسمائه في حضوره ومغيبه، ويثني عليه بما يعرف من محاسن أحواله عند من يريد هو الثناء عنده، وكذا على أولاده وأهله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه، وجميع ما يفرح به من غير كذب، ولا إفراط، ويبلغه ثناء من أثنى عليه، مع إظهار الفرح به، ويذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض بعرضه، بكلام صريح أو تعريض، وتعلمه مما علمك الله، وتنصحه.

الحق الخامس: العفو عن الزلات والهفوات، فإن كانت زلته في الدين بارتكاب معصية فليتلطف في نصحه، فإن بقي مصراً فقد اختلف الصحابة في ذلك، فذهب أبو ذر إلى مقاطعته، وقال: إذا انقلب أخوك عما كان عليه فابغضه من حيث أحببته، وذهب أبو الدرداء وجماعة إلى خلاف ذلك، وقال أبو الدرداء: إذا تغير أخوك عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى، وهذه ألطف وأفقه، وذلك لما في هذه الطريق من الرفق والاستمالة والتعطف المفضي إلى الرجوع والتوبة، وأيضاً للأخوة عقد ينزل منزلة القرابة، فإذا انعقدت وجب الوفاء بها، ومن الوفاء ألا يهمله أيام حاجته وفقره، وفقر الدين أشد من فقر المال.

ثم قال: والفاجر إذا صحب تقياً وهو ينظر إلى خوفه رجع عن قريب، ويستحي من الإصرار، بل الكسلان يصحب الحريص في العمل، فيحرص حياءً منه، وإن كانت زلته في حقك، فلا خلاف أن العفو والاحتمال هو المطلوب.

الحق السادس: الدعاء له في حياته ومماته بكل ما يحب لنفسه وأهله.

الحق السابع: الوفاء والإخلاص، ومعنى الوفاء: الثبات على الحب،

وإدامته إلى الممات معه، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه.

الحق الثامن: التخفيف، وترك التكليف والتكلف، فلا تكلف أخاك ما يشق عليه، بل تروح سره عن مهماتك وحاجاتك، وترفهه عن أن تحمله شيئاً من أعبائك، ولا تستمد منه من مالٍ وجاه، ولا تكلفه التواضع لك والتفقد والقيام بحقوقك، بل ما تقصد بمحبته إلا الله تعالى.

انتهى المراد منه ببعض اختصار.

ثم ذكر:

[(بعض ما يجتنب فعله)]

فقال:

(وليس حط الرأس من آدابه   بل الصواب كان في اجتنابه
بل هو مبني على القصاص   لمن أراد حسبه الخلاص
وليس في قيام الاستغفار   أصل صحيح واصطلاح جار)

قلت: أما حط الرأس، فهو أن الفقير إذا أساء الأدب مع أحد من الفقراء أو غيرهم يأتي إليه ويحط رأسه بين يديه، ليؤدبه أو يقتص منه، أو يسمح له، وهذا أمر لم يرد في الشريعة، ولا جرى به عمل في الطريقة، فالصواب اجتنابه، لأن ذلك كان عند من قال مبنياً على القصاص ليتخلص المجني عليه من الجاني، فهو من باب التمكين من القصاص، وهو يتأتى بغير حط الرأس، فلا حاجة إلى ابتداع هذا الحط، وقد مكن عليه الصلاة والسلام عكاشة من القصاص، ولم يكن فيه شيء زائد على التمكين من القصاص لمن أراد أن يحتسب لله بخلاص نفسه في الدنيا قبل الآخرة.

وأما قيام الاستغفار، فهو أن الفقير إذا أساء في حق الفقراء أو غيرهم، وإرادته التوبة والاستغفار قام على رؤوس الفقراء معترفاً بذنبه ومظهراً للاستغفار، ومعتذراً مما صنع، وهذه الحالة لم يجهر بها عمل فقراء المغرب، ولا مستند لها من السنة، فتركها أولى، إلا لضرورة، وهذا خلاف ما ذكره أبو مدين بقوله:

وحط رأسك واستغفر بلا سببٍ   وقم على قدم الإنصاف معتذراً

فلعله لم يصحبه عمل بعده، وأراد به المبالغة في الاعتذار، والله تعالى أعلم.

ثم أجمل:

[(ما بقي من الآداب)]

بقوله:

(والقصد من هذا الطريق الأدب   في كل حال منه: هذا المذهب)

قلت: أشار رحمه الله إلى أن الطريق مبنية على الآداب، فمن لا أدب له، لا طريق له، ومن أساء الأدب مع الأحباب طرد إلى الباب، ومن أساء الأدب في الباب، طرد إلى سياسة الدواب.

وقال بعضهم: اجعل عملك ملحاً وأدبك دقيقاً، وقد تقدم قول أبي حفص: التصوف كله آداب إلخ.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: أربعة آداب إذا خلا الفقير المتسبب منها فلا تعبأن به وإن كان أعلم البرية: مجانبة الظلمة، وإيثار أهل الآخرة، ومواساة ذوي الفاقة، ومواظبة الخمس في الجماعة.

وأربعة آداب إذا خلا الفقير المتجرد منها، فاجعلوه والتراب سواء: الرحمة للأصاغر والحرمة للأكابر، والإنصاف من نفسه، وترك الانتصار لها.

وقال محيي الدين بن العربي رضي الله عنه: أربعة من حازها فقد حاز الخير كله: تعظيم حرمات المسلمين، وخدمة الفقراء، والإنصاف من نفسه، وترك الانتصار لها.

وباب الأدب باب كبير قد استوفى جله السلمي والغزالي في الإحياء، وبداية الهداية، ومداره على ما تقدم.

والضمير في «منه» يعود على الطريق، أي: والقصد من هذا الطريق الأدب في كل حال من أحواله، هذا هو مذهبهم الذي تمسكوا به فوصلوا، وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم ذكر الحكم السادس فقال:

[(السادس في حكم السماع)]

قلت: السماع هو استماع الأشعار بالنغم والموسيقى، وتكلم هنا على حكمه وأحكامه وآدابه وفوائده، وبدأ بالحكم فقال:

(ولـلأنـام فـي الـسـمـاع خـوض لـكـن لـهـذا الـحـزب فـيـه روض
قـال الـعـراقـيـون بـالـتـحـريـم قـال الـحـجـازيـون بـالـتـسـلـيـم)

قلت: الخوض في الأصل هو الدخول في الماء، ولما كان الغالب على الماء التغير بالخوض فيه، صار يطلق على الدخول في الأمور المشكلة الملتبسة لكثرة الخوض فيها، والروض معلوم، يجمع على رياض، وهو مكان النزهة والفرجة.

يقول رحمه الله: للناس في السماع خوض كبير في منعه وجوازه، لكن لهذا الحزب (وهي جماعة الصوفية) التي هي حزب الله نزهة وخمرة يجدونها في قلوبهم وأسرارهم، ولذلك لما سئل الجنيد عن السماع قال: كل ما يجمع القلب بالله فهو جائز، أو ما هذا معناه.

ثم ذكر الخلاف، فأخبر أن العراقيين قالوا بالتحريم، والمراد بهم الحنفية ومن تبعهم، وأهل الحجاز قالوا بالتسليم أي الإباحة أو الوقف، والمراد بهم مالك والشافعي ومن تبعهم فقد روى أبو معصب أن مالكاً سئل عن السماع فقال: لم يبلغني فيه شيء إلا أن أهل العلم ببلدنا لا ينكرونه، ولا يقعدون عنه، ولا ينكره إلا غبي جاهل، أو ناسك عراقي غليظ الطبع.

قلت: لا يشك عاقل أن الأصل في السماع هو الجواز، بدليل قضية الجواري اللاتي كن يغنين ويضربن بالدف يوم العيد، والرسول عليه الصلاة والسلام حاضر، وهي في البخاري وغيره.

وقال أبو عبد الرحمٰن السلمي رضي الله عنه:

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كانت عندي جارية تسمعني فدخل رسول الله ﷺ وهي على حالها، ثم دخل عمر ففرت، فضحك رسول الله ﷺ، فقال: ما يضحكك يا رسول الله، فحدثه فقال: لا أخرج حتى أسمع مما سمعه رسول الله ﷺ، فأمرها فأسمعته.

قلت: وذكره التجيبي أيضاً بهذا اللفظ، ثم قال السلمي:

وسئل ذو النون عن السماع، فقال: وارد حق يزعج القلوب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق.

قال السري: تطرب قلوب المحبين إلى السماع وتخوف قلوب التائبين، وتحرق قلوب المشتاقين.

وقيل: مثل السماع مثل الغيث إذا وقع على الأرض المجدبة فتصبح مخضرة، كذلك القلوب الزكية تظهر مكنون فوائدها عند السماع، وقيل يحرك ما ينطوي عليه القلب من السرور والحزن، والرجاء والشوق، فربما يخرجه إلى البكاء، وربما يخرجه إلى الطرب.

وقيل: السماع فيه حظ لكل عضو، فربما يبكي وربما يصرخ، وربما يصعق وربما يرقص، وربما يغمى عليه.

وقيل: أهل السماع ثلاثة: نائب، وصادق، ومستقيم.

وقيل: المستمعون ثلاثة: مستمع بربه، ومستمع بقلبه، ومستمع بنفسه.

وقيل: يحتاج المستمع إلى ثلاثة: دقة، ورقة، وحرقة مع فناء الطبع ودخول الحقائق، ولا يصح السماع إلا لمن فنيت حظوظه، وبقيت حقوقه وخمدت بشريته، **ثم قال**: فكذلك السماع يؤثر على مقدار صفاء الباطن وقوة الوارد.

قال بعض المشايخ: لا يصح السماع إلا لمن كان قلبه حياً ونفسه ميتة، فأما من كانت نفسه حية وقلبه ميتاً، فلا.

حكي عن بعض الأبدال أنه قال: رأيت النبي ﷺ، **فقلت**: ما تقول في السماع الذي عليه أصحابنا، فقال: هو الصفاء الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء، انتهى المراد منه.

وقد أشبع الكلام فيه ابن ليون التجيبي في الإنالة، قال فيها: فاستماع الشعر لا ينكره إلا جاهل بالسنة، **ثم قال**: وقال صالح بن أحمد بن حنبل[1]: إنه رأى أباه يستمع من جاره غناءً كان في بعض ديار جيرانه، **ثم قال**: وعن أنس كنا عند النبي ﷺ إذ نزل عليه جبريل فقال: يا رسول الله فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، وهو نصف يوم، ففرح فقال: «**أفيكم من ينشدنا**»[2]، فقال

---

(1) هو صالح بن الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي أبو الفضل (203 ـ 265 هـ = 818 ـ 878م) قاضٍ ولد ببغداد ونشأ بين يدي أبيه الإمام أحمد ثم ولي قضاء أصبهان وتوفي فيها.
(الأعلام / 188) و(ابن عساكر 6/ 362)، و(شذرات 2/ 149).

(2) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 6/ 571).

بدري: نعم يا رسول الله، فقال: هات، فأنشد البدري يقول:

قد لسعت حية الهوى كبدي فلا طبيب لها ولا راق
إلا الحبيب الذي قد شغفت به فعنده رقيتي وترياقي

فتواجد عليه السلام وتواجد أصحابه معه، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فلما فرغوا أوى كل واحد إلى مكانه، فقال معاوية ما أحسن لعبكم يا رسول الله، فقال: «**مه مه يا معاوية ليس بكريم من لم يهتز عند ذكر الحبيب**»[1]، ثم اقتسم رداءه من حضرهم بأربعمائة قطعة، وذكره المقدسي والسهروردي، وتكلم الناس في هذا الحديث.

[تفصيل القول في السماع]

قلت: والتحقيق في السماع هو التفصيل فأما أهل الحقائق فلا شك في جوازه لهم، أو استحبابه على ما يأتي، ومستندهم ما تقدم، وأما أهل الشرائع فإن خلا المكان من النساء أو الشبان فهو حرام سداً للذريعة، والله تعالى أعلم. وإلى هذا التفصيل أشار بقوله:

(وإن للشيوخ فيه فناً إذ جعلوه للطريق ركناً
وإنما أبيح للزهاد ونـدبه إلى الشيوخ باد
وهو على العوام كالحرام عند الشيوخ الجلة الأعلام)

قلت: أشار رحمه الله إلى أن السماع فيه للشيوخ العارفين فنون، وزيادات ومواجيد، وأحوال وواردات، فلذلك جعلوه ركناً يأوون إليه، ولا يعتمدون عليه، لأنه رخصة الضعفاء منهم، كما يأتي، وأما الأقوياء فلا يحتاجون إليه، وقد سئل الجنيد رضي الله عنه عن السماع: أمباح هو؟ فقال: كل ما يجمع العبد على ربه فهو مباح، وقد تقدم، والتحرير: هو التفصيل، كما ذكره الناظم، فقسم مباح، وقسم مندوب، وقسم حرام، فهو للزهاد مباح، لأن نفوسهم ماتت عن الشهوات والمستلذات، فلا ضرر لهم فيه حتى يحرم، ولا نفع لهم فيه حتى يندب، إذ لم يبلغوا رتبة التحقيق والذوق، وللشيوخ العارفين مندوب، لأنه يثير فيهم الوجد والوارد حتى ينشر ذلك في عوالم الأجساد، وتتسع ميادين الحضرة، فيكون للحضار منها نصيب، لأن من تحقق بحاله لم يخل حاضروه منها، وكل ما أفضىٰ إلى الكمال فهو كامل، وعلى العوام حرام، أو كالحرام، لأنه ينشر فيهم الشهوات

(1) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 6/ 571).

والمعاصي، ويحرك عليهم الطباع الرديئة والعوائد الدنيئة، فإذا انتفت هذه العلل كان مباحاً، إلا أن حضره أهل الفساد، فيمنع مطلقاً سداً للذرائع، وإنما حرم على العوام لأن الغنا مرقاة الزنا، وأنه ينبت النفاق في القلب.

وقالوا أيضاً: السماع راح، تشربه الأرواح، بكؤوس الآذان، على مغاني الألحان، ولكل امرىء ما نوى، «**ماء زمزم لما شرب له**»[1] وهذا وما سمع له.

وقالوا أيضاً: من سمع بتزندق تزندق، ومن سمع بتحقق تحقق، وإذا ذكر الهوى فلكل امرىء ما نوى.

وكان بعضهم يقول: أنتم غنوا كما تحبون، ونحن نسمع كما نحب، وبالله التوفيق.

ثم ذكر نتائجه السنية والدنية فقال:

(وفيه كان ميلق الأحوال كيما يبين سافل وعال)

قلت: الميلق في اللغة هو، السرعة، وفرس ميلق، أي سريع (قاله في القاموس) يعني أن السماع سرعة ظهور الأحوال الزكية أو الدنية، فمن كان قلبه مع ربه حركه سريعاً إلى حضرة قدسه، ومن كان قلبه مع حظه وهواه حركه إلى حظوظه ومناه. لأجل ذلك يظهر من سقط في أسفل سافلين، ومن ارتفع في أعلى عليين.

ثم أشار إلى نتيجة أخرى فقال:

(وهو صراط عندهم محدود يعبره الواجد والفقيد)

قلت: السماع عند الصوفية طريق محدود، أي معلوم بحدوده ورسومه، «يعبره»: أي يسلكه الواجد لحاله، وهو الذي حجب بالجمع عن الفرق، أو الذي لم يحجبه جمعه عن فرقه ولا فرقه عن جمعه، ويسلكه أيضاً الفاقد لحاله، وهو الذي حجب بالفرق عن الجمع، فيظهر على كل واحد ما كن في سره، فالواجد يزيده في حضرة الحق عشقاً ووجداً، والفاقد يزيده عن ربه طرداً وبعداً، فكل إناء بالذي فيه يرشح.

قال الجنيد رضي الله عنه: كل مريد رأيته يميل إلى السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة.

---

(1) أخرجه الدارقطني في (السنن 2/ 289).

وقال أيضاً: السماع صراط محدود، عليه يعبر صاحب يقين وجود، وصاحب شك وجحود إما أن يرفع سالكه إلى أعلى عليين، أو يكبكبه في أسفل سافلين ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿94﴾﴾ [الشعراء: 94]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿52﴾﴾ [النور: 52].

وإلى هذا أشار الناظم بقوله:

(فعابر يحله عليين وآخر يحطه في سجين)

قلت: فالعابر الذي يحله في عليين هو: من تحقق بالوحدة، وفهم الإشارة، وذاق حلاوة الخمرة، فلا يزال يسمع بالله، ومن الله حتى يغيب عن حسه، ويغرق في حضرة قدسه، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، والآخر الذي يحطه في سجين هو الذي يسمع بنفسه، ويتذكر حظوظه وهواه الذي كان مشغولاً به سره ونجواه، فلا يزال يزعجه الشيطان حتى يلقيه في بحر الردىٰ والهوان، فينهض في طلب المعاصي والطغيان فأولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الرحمٰن أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون، فيكتب مع الفجار ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿7﴾﴾ [المطففين: 7]، نسأل الله العصمة بمنه آمين.

ثم ذكر نتيجة أخرى فقال:

(وهو سرور ساعة يزول نعم وسم ساعة قتول)

قلت: السماع إنما هو فرح ساعة، ثم يذهب، فمن كان فرحه بالله اجتنى ثمرته وجناه، وفاز بمعرفة ربه ورضاه، ومن كان فرحه بهواه فقد باء بغضب من الله، وهو أيضاً سم قاتل لمن حركه إلى الهوى والباطل.

قال السلمي رحمه الله: بلغني أن أبا عمرو بن نجيد قال لأبي القاسم النصراباذي: بلغني أنك مولع بالسماع؟ قال: نعم هو خير من أن نقعد فنغتاب، فقال: هيهات يا أبا القاسم زلة في السماع شر من كذا وكذا سنة تغتاب.

قلت: ولعله من جهة الاقتداء به، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر نتيجة أخرى من نتائج السماع، فقال:

(وهو قياس العقل نقاش القلوب إذ ينزل الحال به ثم يؤوب)

قلت: السماع معيار العقول في الخير والشر، فيعرف به الكامل في الخير من الناقص فيه والكامل في الشر من المتوسط فيه.

أما الكامل في الخير فهو المتمكن في المعرفة الراسخ فيها، فهذا كالجبل لا يحركه سماع ولا تهزه ريح، وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب.

قيل للجنيد: ما لك كنت تتحرك في السماع، والآن لا يظهر عليك شيء؟ فقرأ الآية ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ [النمل: 88]، إلى آخرها.

وأما الناقص في الخير فهو السائر، فهذا إذا سمع تحرك وتواجد، ورقص وشطح، فهذا مغلوب للحال، لكنه في أثر الرجال، فمن دام سيره ظهر خيره، ووصل إلى ما وصل إليه غيره.

وأما الكامل في الشر، فهو المنهمك في الغفلة، إذا سمع هاج شره، وغلبته نفسه، وبطشت في الحين إلى ما تقدر عليه من الفساد.

وأما المتوسط في الشر، فتحركه نفسه، ويغلبها في الوقت، فإذا قامت جمحت إلى طلب ما تحركت إليه، إلا أن يعصمه الله بحفظه.

وهو أيضاً (أي السماع) نقاش القلوب، فيخرج ما فيها من خير وشر، كمن ينقش على الماء فيخرجه، إن كان صافياً شرب، وإن كان متغيراً طرح.

وقوله: «إذ ينزل الحال به ثم يؤوب»، هو تصوير النقش المذكور، لأن السماع ينقش عن ما فيه من الحال، إما رباني، أو شيطاني، أو نفساني، والجميع يزول ويذهب، فإن كان ربانياً بقي أثره من الخشوع والطمأنينة والتواضع والزهد وحسن الخلق، وإن كان شيطانياً أو نفسانياً لم يبق بعده إلا القسوة والغلظة والحرص والطمع وغير ذلك من الأخلاق المذمومة.

وفي الحكم لابن عطاء الله «لا تزكين وارداً لا تعرف ثمرته، فليس المراد من السحابة الإمطار، وإنما المراد منها وجود الأثمار» وهذا مراد من قال: من لم يؤثر فيه السماع زيادة ما عنده فهو نقص في حقه، لأن الواردات لا تراد لذاتها، وإنما تراد لثمراتها، والله تعالى أعلم.

ثم شبه الحال الرباني بالمطر النازل في أصول الشجر كما تقدم في الحكم، فقال:

(وآثاره في عرصات القلب كالوبل في الغصن القويم الرطب)

قلت: العرصات: جمع عرصة، وهو المكان الواسع الذي تغرس فيه الأشجار، كنى به هنا عن سعة القلوب الفارغة من الشواغل والشواغب، وأراد أن

السماع يترك آثاره في قلوب العارفين المطهرة من دنس الهوى، الفارغة من حب السوى، كما يترك المطر الغزير آثاره في الغصن القويم الرطب، وهو الزهر أولاً، والعقد ثانياً، والثمار ثالثاً، فليس المراد من المطر نزوله، وإنما المراد ما ينشأ عنه من الثمار، والله تعالى أعلم.

[آداب السماع]

ثم ذكر آدابه في الجملة، فقال:

(ولا يجوز عنده التكلم ولا التلاهي لا ولا التبسم)

قلت: إنما لا يجوز التكلم عنده، لأنه عند العارفين محل الوجد والخمرة والكلام يشوش القلب ويبعده من الحضرة، ويتلف عن الحقيقة، فالواجب تركه لمن أراد جبر قلبه، وعند غير العارفين رخصة، لأنه قريب من رتبة الباطل، فأقل شيء يرده إليه.

قال السلمي رضي الله عنه: والسكون مع حضور القلب وجمع الهم، والوقوف على أقوال المنشدين أولى من المداخلة، لأنه محل الاستكانة والتمكين، والهدوء والإنصات من آداب المستمعين، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ [الأحقاف: 29] الآية، وقال: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: 108]، انتهى.

وأما التلاهي عنه، فإنه يقتضي أنه لا أرب له فيه من جهة قلبه، وإنما مراده راحة نفسه، والفرجة والتلاهي يكون بالالتفات عنه بقلبه أو بدنه، شغلاً بغيره.

وأما التبسم فيه، فإن فيه إساءة الأدب، فإن غلبه خرج، وإلا أخرج وزجر.

قال السلمي رحمه الله: ولا يحضر مجلس السماع من يتبسم أو يتلاهى -.

يحكى عن الشيخ أبي عبد الله بن خفيف أنه قال: حضرت مع شيخي أحمد بن يحيى السماع ببشران (اسم موضع) فاتفق فيها سماع أمم بموضع، فطاب وقت الشيخ وتواجد ودار، وكان في ضفة بحذائنا قوم من أبناء الدنيا، فتبسم واحد منهم، فأخذ الشيخ منارة كبيرة كانت هناك فرماه بها، فأصابت الجدار فانغرست أرجلها الثلاث في الحائط، وكان قد صلى ثلاثين سنة الصبح بوضوء العشاء، ا نتهى.

[النهي عن حضور الأحداث]

ثم: نهى عن حضور الأحداث فقال:

(ويمنع الأحداث من حضوره وإن يكن ذاك فمن ظهوره)

قلت: مما يتأكد في مجلس السماع منع الأحداث من حضوره، إما حدث السن وإما حدث الدين، أو العقل، وقد تقدم تفسيرهم.

أما حدث السن فلما تحرك مشاهدتهم من الفتنة، لاسيما مع دواعي ذلك من الشعر والأوزان والترنم بالأصوات الحسان، والنفس لها في هذا الميدان مجال عظيم ومكر كبير:

وأما حدث الدين أو العقل، فإن حضور غير الجنس يمنع من المدد، وذلك مجرب في الذكر والمذاكرة، والسماع عند الصوفية ذكر قلبي، فإن ألجأت الضرورة إلى حضورهم فليكونوا صفاً من خلف الناس خافضين أصواتهم، وهذا معنى قوله: «وإن يكن ذاك فمن ظهوره» أي، وإن يكن ذلك الحضور ولم يمكن التحرز منهم بوجه، فليكن حضورهم من ظهور السماع، أي من وراء ظهور المستمعين، والله تعالى أعلم.

قال السلمي رحمه الله: ولا رخصة للأحداث في القيام والتحرك أصلاً، وأكثر المشايخ يكرهون حضورهم مجلس السماع، ولا يرخصون لهم فيه.

سمعت والدي رحمه الله يقول: دخلت بغداد زائراً لجعفر الخلدي[1]، فوجدت أبا العباس النهاوندي عنده، وهو حدث، فكلما حضرنا دعوة فيها سماع أمر أبا العباس بالانصراف، ولم يأمره أن يقعد في مجلس السماع.

[النهي عن الرقص لغير المغلوب]

ثم: نهى عن الرقص والتحرك فيه لغير المغلوب فقال:

---

(1) هو جعفر بن محمد بن نصير، أبو محمد الخلدي (253 ـ 348 هـ = 867 ـ 959م) شيخ الصوفية وأعلمهم بالحديث ببغداد نسبته إلى قصر الخلد ببغداد ولد وتوفي ببغداد. (الأعلام 2/ 128) (وفيات سنة 348) و(طبقات الأقطاب والتاج 2/ 345) وغيرها.

(والرقص فيه دون هجم الحال ليس على طريقة الرجال
وإن يكن يقوى على السكون فإنه أسلم للظنون)

قلت: الرقص والترقص هو الارتفاع والانخفاض، يعني أن الرقص في السماع والتحرك دون غلبة الحال، ليس هو طريق الكمال، بل الكمال هو السكون والوقار وخفض الصوت والاستماع، فإنه أسلم لسوء الظنون بمن يفعل ذلك، وإن كان صادقاً، إذ لا سلامة من الخلق، ثم اعلم أن الرقص وقع فيه اضطراب كبير بين الصوفية وعلماء الشريعة، والتحرير في المسألة أن نقول: الأصل في الرقص هو الإباحة، إذ لم يرد نص عن الشارع فيه بتحريم ولا إباحة، بل ظواهر النصوص تقتضي الإباحة، وسيأتي ذكرها إن شاء الله، وأيضاً الأصل في الأشياء هي الإباحة، وقيل الوقف حتى يأتي الحظر، ولم يرد في كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ ما يقتضي التحريم، وإنما حرمته الأئمة لما قارنه من تعاطي أهل الفساد بجمع النساء والشبان وآلة اللهو، والعلة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً، فيتحصل في الرقص أنه على ثلاثة أقسام: قسم حرام، وقسم مباح، وقسم مطلوب.

فأما القسم الذي هو حرام، فهو رقص العوام بمحضر النساء والشبان، فهذا حرام لما يؤدي إليه من الفساد، وما يهيج من الطباع الدنية والنفوس الشيطانية، ويلتحق به ما خلا من ذلك، لكن قصد به التصنع والرياء وإظهار الحال، والتظاهر بما ليس فيه حقيقة، فهو حرام أيضاً لما داخله من الرياء والتلبيس.

وعلى هذين القسمين يحمل كلام من أطلق التحريم، كصاحب «المعيار» «والنصيحة الكافية» وغيرهما.

وأما القسم المباح، فهو: الذي يفعله الصالحون وأهل النسبة من غير وجد ولا تواجد، وإنما يفعلونه راحة لنفوسهم، وتنشيطاً لقلوبهم بشرط الزمان والمكان والإخوان، خالياً من حضور ما تقدم من النساء والشبان، فهذا مباح إذ لا موجب للتحريم فيه، إذ علة التحريم هو ما تقدم، وهو خالٍ من ذلك، وأما ما يقال: إنه من فعل السامرية حين عبدوا العجل فعلى تقدير صحته فإنما حرم فعلهم لفساد قصدهم، لأنهم قصدوا بذلك تعظيم العجل أو الفرح به، وهذا كفر، ولو كان رقصهم خالياً من ذلك ما حرم عليهم.

وقد ثبت أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه رقص بين يدي رسول الله ﷺ حين

قال رسول الله: «**أشبهت خلقي وخلقي**»[1] وذكره السنوسي في «نصرة الفقير» وغيره.

وقال ابن ليون التجيبي ما نصه: وأما الرقص في المسجد ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: جاء جيش من الحبشة يزفون يوم عيد في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فوضعت كفي على منكبيه، فجعلت أنظر إلى لعبهم قال ابن عيينة: والزفف الرقص، فثبت أن الرقص في أصله مباح، ولو كان حراماً لذاته ما فعل بين يدي رسول الله ﷺ.

[رقص الصوفية]

وأما القسم المطلوب فهو: رقص الصوفية أهل الذوق والحال، إما وجداً أو تواجداً، وسواء كان ذلك في حضرة الذكر أو السماع، ولا شك أن دواء القلوب من الغفلة وجمعها بالله مطلوب بأي وجه أمكن، ما لم يكن بمحرم مجمع على تحريمه، فلا دواء فيه، وقد تقدم قول الجنيد لما سئل عن السماع، قال: كل ما يجمع العبد على ربه فهو مباح.

وقال الفاسي في «شرح الحصن» عن شيخ الإسلام السيوطي رحمه الله ما نصه: أقول وكيف ينكر الذكر قائماً، وقد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: 191].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «**كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه**»[2] وإن انضاف إلى هذا القيام رقص ونحوه فلا إنكار عليهم، فلذلك من لذة

---

(1) أخرجه البخاري في (صحيحه 3/ 242، 5/ 24، 180) والترمذي في (السنن 3765) وأحمد بن حنبل في (المسند 1/ 98، 108، 115، 230، 4/ 342) والبيهقي في (السنن الكبرى 8/ 5، 10/ 226) والحاكم في (المستدرك 3/ 120) وعبد الرزاق في (المصنف 20394) والتبريزي في (مشكاة المصابيح 3377) وابن كثير في (التفسير 6/ 379، 7/ 341) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 2/ 31، 300) والطحاوي في (مشكل الآثار 4/ 173) والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد 11/ 171) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 5/ 307، 6/ 566) وابن سعد في (الطبقات الكبرى 4/ 1/ 24) والمتقي الهندي في (كنز العمال 33196، 33198، 36760، 36905، 36906).

(2) أخرجه البخاري في (صحيحه 1/ 83، 163) ومسلم في (صحيحه الحيض ب 30 رقم 117) وأبو داود في (سننه 18) والترمذي في (السنن 3384) وابن ماجة في (السنن 302) وأحمد بن حنبل في (المسند 6/ 70، 153، 278) والبيهقي في (السنن الكبرى 1/ 90) والمتقي الهندي في (كنز العمال 17980) والبغوي في (شرح السنة 2/ 44) وابن حجر في (فتح =

الشهود والمواجيد:

وقد روي في الحديث رقص جعفر بن أبي طالب بين يدي رسول الله ﷺ لما قال له: «**أشبهت خلقي وخلقي**» وذلك من لذة هذا الخطاب، ولم ينكر ذلك عليه النبي عليه الصلاة والسلام، فكان هذا أصلاً في رقص الصوفية لما يذكرونه من لذة المواجيد.

وقد صح القيام والرقص في مجالس الذكر والسماع عن جماعة من أكابر الأئمة منهم شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ا هـ.

وهو نحو ما في «الإحياء» وزاد فيه حديث نظر عائشة رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ إلى الحبشة وهم يرقصون، وقوله لها: «**أتحبين أن تنظري إلى زفف الحبشة**»[1] والزفف الرقص انتهى.

وذكره ابن ذكرى في شرح النصيحة.

قلت: وقد تواتر النقل عن الصوفية قديماً وحديثاً شرقاً وغرباً أنهم كانوا يجتمعون لذكر الله، ويقومون ويرقصون، ولم يبلغنا عن أحد من العلماء المعتبرين أنه أنكر عليهم.

وقد رأيت بفاس بزاوية الصقليين جماعة يذكرون ويرقصون من صلاة العصر يوم الجمعة إلى المغرب، مع توفر العلماء، فلم ينكر أحد عليهم، وقد بلغني أن شيخنا شيخ الجماعة سيدي الناودي بن سودة كان يحضر معهم في بعض الأحيان، فلا ينكر على الفقراء الرقص في حال ذكرهم إلا مقلد جامد، أو معاند جاحد، يرحم الله الشيخ زروقاً رضي الله عنه في بعض شروحه على مقطعات الششتري لما تكلم على هذا المعنى، قال: وإنما أطلت الكلام هنا لوجهين:

أحدهما: مخافة أن يغتر الغوغاء، ممن لا خلاق له بهؤلاء السادات فيتعاطونه في غير محله، فيقع في المقت.

ثم قال: والآخر أن يتبع قول الملحدين، أهل العقول الواهية، والأفئدة الخاوية، فيقدح في جملة طريقة أنتجها الصالحون من أولياء الله، وظهرت نتيجتها

= الباري 2/ 114) والقرطبي في (التفسير 4/ 310) والألباني في (إرواء الغليل 2/ 244، 269) و(صاحب شرح معاني الآثار 1/ 88، 91) والألباني في (السلسلة الصحيحة 406).

(1) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 6/ 567).

في كثير من عباد الله واشتملت نسبتها على رجال قاموا بأحكام الشريعة وآداب الحقيقة، وتعلقوا بأسماء رب العالمين، وتخلقوا بأخلاق سيد المرسلين، آثارهم حميدة، وملاقاتهم سعيدة، ترغب الملائكة في خلتهم، واشتاقت الأنبياء والرسل إلى رؤيتهم، كتاب الله مطرز بالثناء عليهم، وبشائر السنة كلها تشير إليهم، عند ذكرهم تتنزل الرحمة، وبسبب وجودهم تدفع النقمة، رغب في اللحوق بعسكرهم خليل رب العالمين حيث قال فيما أخبر الله عنه في كتابه المبين ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: 83]، وتبعه الصديق الأمين في ذلك، حيث قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101]، واستشهادنا في معرض الولاية بهاتين الآيتين اللتين سبقتا في مقام النبوة، إنما اقتبسنا الدليل على ذلك، وهذا من باب تناول الأعلى إلى الأدنى بالثناء عليه ليعرف غيره ببعض شواهد فضيلته كما في قوله ﷺ:

«اللهم أحيني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين»(1)

أي «واجعل المساكين هم قرابتي المحدقون بي يوم المحشر» فقد عرف ﷺ بفضيلة المساكين، وعظم جاههم عند الله ورسوله، لطلبه من الله أن يكونوا في كفالته، لا أنه في كفالتهم، فكذلك عرف الصديق بفضيلة أمة الإسلام، وخصوصاً الصالحين منهم لا أنه طلب من الله اللحوق بعسكرهم لقصوره عن إدراك مقامهم، لكن مبالغة في التعريف بعظيم جاههم عند خالقهم، فعرف أولاً بفضيلة الإسلام عموماً، وعرف ثانياً بفضيلة الصالحين منهم خصوصاً، ملأ الله قلوبنا من محبتهم، وسلك بنا سبيل سيرتهم، وحشرنا في زمرتهم، اللهم آمين» انتهى كلامه رضي الله عنه.

[سماع الضعفاء]

ثم أشار إلى أن السماع إنما هو رخصة للضعفاء فقال:

(وليس يحتاج إلى السماع إلا أخو الضعف القصير الباع)

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق، حديث رقم (7911) [4/ 358] ورواه الترمذي في السنن، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة. .، حديث رقم (2352) [4/ 577] ورواه غيرهما.

قلت: أشار إلى أن السماع لا يحتاجه ويزيد به إلا من كان ضعيف الحال قصير الباع في المعرفة والشهود، وأما القوي المتمكن فلا يحتاج إليه.

قال السلمي رضي الله عنه: وقيل يحتاج إلى السماع من كان ضعيف الحال، فأما القوي فلا يحتاج إلى ذلك.

وقال الحصري: ما أدون حال من يحتاج إلى مزعج يزعجه، ولعمري ما تحتاج الثكلى (بالمثلثة) إلى نائحة، والثكلى هي: التي مات ولدها.

وقيل هو (أي السماع) لقوم كالغذاء، ولقوم كالدواء، ولقوم مروحة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: 44]، الآية.

وقال في موضع آخر (وسئل بعض الشيوخ عن شرب القلوب من السماع، وشرب الأرواح والنفوس) فقال: شرب القلوب الحكم، وشرب الأرواح النغم، وشرب النفوس ما يوافق طبعها من الحظوظ، ونعت الحسن والجمال.

ثم أشار إلى:

[(علامة الضعف)]

فقال:

(والزعقات فيه والتمزيق ضعف وهز الرأس والتصفيق)

قلت: الزعق هو: الصياح والتمزيق هو: تخريق الثياب، وهز الرأس: تحريكه، والتصفيق الضرب بالكف يعني: أن الصراخ في السماع وتمزيق الثياب وتحريك الرأس والتصفيق باليد إنما يصدر من ضعيف الحال، الذي هو مغلوب للأحوال، وأما القوي المالك للأحوال، فلا يصدر منه شيء من ذلك.

قال السلمي رضي الله عنه: وليس من الأدب استدعاء الحال والتكليف للقيام، إلا من غلبه حال فيه، فينزعج أو يكون على سبيل مساعدة لصادق، أو مطايبة لخاطر من غير تساكر ولا إظهار حال، وترك ذلك أولى.

روي أن النبي ﷺ كان يعظ فصعق رجل من جانب المسجد، فقال: «**من هذا الملبس علينا ديننا، إن كان صادقاً فقد شهر بنفسه، وإن كان كاذباً محقه الله**»[1]

---

(1) أورده المتقي الهندي في كنز العمال برقم (8843) [3/ 614] وعزاه إلى أبي بكر بن كامل في معجمه وابن النجار.

ثم قال: حكي أن شاباً كان يخدم الجنيد، وكلما سمع شيئاً زعق وتغير، فقال: إن ظهر فيك شيء بعد هذا فلا تصحبني، فكان يضبط نفسه، وربما كان يقطر من كل شعرة منه قطرة عرق حتى كان يوم من الأيام زعق زعقة خرجت منها روحه.

والزعقة من وجهين: أحدهما للتوجع، والأخرى للتطلع، زعقة التوجع من حيث الخوف والحزن، وهي نظيرة صيحة المصاب، وزعقة التطلع من المحبة والشوق والرجاء، وهي نظيرة صيحة المتطلعين للإهلاك إذا تحققوا ذلك، وهذا لا يكون إلا عند وجود غائب أو فقدان حاضر، ومثلها كمثل العطسة لا يدري كيف تجيء.

قلت: أما التمايل يميناً وشمالاً فلا يدل على الضعف، وقد رأيت شيخنا يفعله عند السماع وهو من لذة التواجد، فلا يدل على الضعف، والله تعالى أعلم.

وقد ذكر ابن عرضون في «مقنعه» أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا ذكروا الله مال بعضهم على بعض كالشجرة في يوم الريح العاصف، أو ما هذا معناه.

ثم أشار إلى أن السماع لم يكن عندهم مقصوداً للاجتماع، بل حيث ما تيسر، فقال:

(ولم يكن لأجله اجتماع ولا لدىٰ غيبته انصداع)

قلت: الانصداع هو الافتراق، يعني أن القوم لم يكن اجتماعهم مقصوداً للسماع. بحيث إذا وجد اجتمعوا وإذا غاب افترقوا، بل كانوا إذا اتفق اجتماعهم لأمر من الأمور، أو إذا دعاهم أحد إلى وليمة أو سرور استعملوه، لأنهم أغنياء عنه بحلاوة الذكر والمعرفة والله تعالى أعلم.

[عدم وجود آلات اللهو مع السماع]

ثم ذكر أنه: لم يكن فيه آلة اللهو فقال:

(ولم يكن فيه مراسنونا ولا طنابر ومسمعونا
وليس أيضاً كان فيه طار ولا مزاهر ولا تنقار
والشمع والفرش والتكالف أحلف ما كانت يمين حالف)

قلت: «المراسنون» بفتح الميم هي الطائفة التي تجيب القوال بالدندنة ونغم الموسيقى، بحيث إذا فرغ القوال من الشعر أجابوه بكلام اللهو والنغم المستلذة،

وهو من شأن أهل اللهو، فالتشبه بهم هجنة، والطنابير: جمع طنبور، وهو شبيه بالعود في صورته، وقيل هو بنفسه والمسمعون المرصدون للغناء في الولائم، يسمعون الناس غناءهم ولهوهم، والطار معلوم، وهو ذو الشراشر، والمزهر هو المجلد من جهتين، والتنقار هو: فعل النقر، ويكون في نقر الأوتار المعلومة.

يقول رحمه الله: إن سماع القوم لم يكن فيه شيء مما ذكر، مما هو من آلات اللهو، ويلتحق بما ذكر: الربابة، والشبابة، والبندير، والزمارة، وغير ذلك مما يستعمله أهل اللهو فينبغي للفقير أن يجتنبها، وهذه مسألة خلافية، فقد رجح الغزالي في «الإحياء» جواز سماع هذه الأشياء، بشرط خلو المكان والإخوان والزمان، قيل: وهو مذهب الشافعي، ورده بعضهم.

والحاصل أن العارف المحقق الذي غرق في عين بحر الوحدة حتى كان سمعه بالله ومن الله وبصره بالله وإلى الله، ووجد أنه بالله ومن الله، لا يكدره شيء، فلا ينكر عليه شيء.

وقد قالوا: إذا ثبتت عدالة المرء فليترك وما فعل.

وهذه مسألة خلافية لم يرد فيها نص من الشارع، والأصل في الأشياء الإباحة حتى يرد الحظر، وما حرم السماع حتى أخذه أهل اللهو، ونقلوه إلى لهوهم وقارنوه مع شرب الخمر والزنا، فحرم حينئذٍ، سداً للذريعة، والله تعالى أعلم.

وقد كان بعض علماء الحديث من أهل الحفظ والضبط يستعمل ضرب العود، فعيب عليه فحلف لا يحدث بحديث حتى يضرب العود، فأخبر به السلطان (قيل هارون الرشيد) فأرسل إليه وقال له: حدثني بحديث المخزومية، فقال: أحضر العود، فقال له الملك: عود البخور؟ فقال: بل عود الطرب، فضحك الملك، **ثم قال**: من يحرم السماع من الفقهاء، فقال له: من طبع الله على قلبه، ثم قال له ذلك العالم: لقد حضرت وليمة بالمدينة، وفيها علماؤها، حتى لو سقط البيت لم يبق مغني بالمدينة، وأصغرهم مالك ابن أنس، فغنوا وهو بمزهره، فغنوا وأنشدوا، ا هـ (ذكره ابن عرفة في باب النكاح) نقلته بالمعنى.

وقوله: الشمع والفرش إلخ. يعني أنهم لم يكونوا يتكلفون بالسماع حتى يحضروا الشموع الموقودة، والفرش الممهدة، والوسائد المزوقة، وإنما كانوا يحضرون له على حالة الفاقة والابتذال، على ما يصادف الوقت والحال، وليس مراده أنها محرمة، وإنما مراده أن طريق القوم عدم التكلف، فإن صادف الحال أنها

أعدت فلا يمتنعون منها، لأن الصوفي اتسعت دائرته، فلا يختار شيئاً ولا يمتنع من شيء، بل ما أعطاه سيده أخذه بالقبول، إلا ما حرمته الشريعة المطهرة بنص صريح لا تأويل فيه، فهو حينئذٍ أولى بالأدب من غيره والله تعالى أعلم، **ثم قال:**

(وأمروا فيه بغلق الباب وإنما ذاك للاجتناب)

قلت: وإنما أمروا في حال السماع بغلق الباب لئلا يحضر معهم من يجتنب حضوره من الأحداث والعوام والنساء وغير ذلك مما لا يليق حضوره، لأن مجلس السماع إذا كان ربانياً هو كمجلس الذكر والمذاكرة، ومجلس الذكر والمذاكرة غذاء الأرواح ورضاع القلوب، فهي ترضع بعضها بعضاً، فإذا حضر صاحب التخويض رضعت منه بعض القلوب ذلك التخويض، فربما يسري ذلك في الجماعة، فلا يجدون حلاوة الوجد، ولا لذة الخمرة، ولذلك قال الجنيد رضي الله عنه: المواكلة رضاعة فانظروا من تواكلوا، فيصدق بالحسي والمعنوي.

وقد عقد بعض الشيوخ حلقة الذكر في بيت مظلم فلم يجدوا قلوبهم، فقال لهم ائتوني بالمصباح، فلما أتوا به وجدوا معهم طالباً من طلبة المدرسة، فأخرجوه فحينئذٍ وجدوا قلوبهم.

وحكي عن بعض أشياخنا (وأظنه سيدي محمد بن عبد الله) أنه كان في مجلس المذاكرة فجلس معهم رجل عامي، فأزال الشيخ عنه ثوباً، وقال له: قم بع في السوق، فلما خرج قال له: خذ ثمنه ولا تعد، وسد الزاوية.

والحاصل: أن حضور غير الجنس مشوش مانع من زيادة المدد، والله تعالى أعلم.

[خلاصة القول في حكم السماع]

ثم حرر الخلاف في السماع فقال:

(وليس للقائل ما يقول في الشعر إذ سمعه الرسول)

قلت: «سماع الشعر من غير ألحان ولا موسيقى لا نزاع فيه، لأنه سمعه عليه الصلاة والسلام وأجاز عليه ودعا لقائله، وإنما النزاع في الترنم به».

وقوله: «بألحان وموسيقى» فمن كان طبعه جامداً لا يحركه شيء، لا لخير ولا لشر، كان في حقه مكروهاً إن شغله عن ذكر الله أو مباحاً إن لم يشغله، ومن كان طبعه مائلاً للهوى وحب الدنيا وعلم أنه يحركه للفساد حرم عليه، ومن كان قلبه

معموراً بمحبة مولاه، فانياً عما سواه، كلما سمع زاد به إلى مولاه، فهذا يستحب في حقه السماع.

هذا حاصل ما ذكره في «حل الرموز» حين تكلم على السماع.

فقال: السماع ينقسم إلى ثلاثة أقسام: **منه ما هو حرام محض**، وهو لأكثر الناس من الشبان، ومن غلبت عليهم شهواتهم، وملكهم حب الدنيا، وتكدرت بواطنهم، وفسدت مقاصدهم، فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب عليهم من الصفات المذمومة، لا سيما في زماننا هذا.

والقسم الثاني: منه مباح، وهو: من لا حظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن، واستدعاء السرور والفرح.

والقسم الثالث: مندوب، وهو: من غلب عليه حب الله تعالى، والشوق إليه، فلا يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة، وتضاعف الشوق إلى الله، واستدعاء الأحوال الشريفة والمقامات العلية، والكرامات السنية، والمواهب الإلهية.

قال الشيخ ابن ذكرى رحمه الله: فتبين من هذا أنه لا نص فيه من الشارع، والذي تقتضيه قواعد الشريعة انقسامه إلى ما ذكر، ا هـ.

ثم ذكر:

[(أصل استعمال السماع)]

فقال:

(وإنما كان السماع قدما ... قصداً المريد الشيخ يشكو السقما
وجاء هذا ثم جاء هذا ... حتى استقلوا عنده أفذاذا
فبث كل ما به قد جاء ... فعوضوا من دائهم دواء
فعندما نشطت النفوس ... وزال عنها كسل وبوس
وطابت القلوب بالأسرار ... واستعملت نتائج الأفكار
ترنم الحادي ببيت شعر ... فاكتنفته غامضات الفكر
كل له مما استفاد شرب ... هذا له قشر وهذا لب
فإن تمادى وأتم الشعرا ... أبدوا من الشرح عليه سفرا
فهكذا كان سماع الناس ... فهل ترى به كذا من باس)

قلت: القدم بكسر القاف معناه: القديم، وهو ظرف، أي في القديم،

والسقم: المرض والأفذاذ: الجماعة المتفرقة، جمع فذ، وهو المنفرد، وبث شكواه: أودعها وأخبر بها، والنشاط خفة الأعضاء، والكسل ضده، والبأس هو الضر والداء، والأسرار: الأذواق والأحوال، ونتائج الأفكار: العلوم، والترنم: التغني، والحادي: القوال، واكتنف الشيء: أحاط به، فصار في كنفه. والغامض: الخفي، والشرب (بكسر الشين) النصيب من الماء، والقشر: ظاهر الشيء، واللب باطنه.

يقول رضي الله عنه: وإنما كان استعمال السماع في الزمان المتقدم عند قصد المريد الشيخ يشكو إليه سقمه ومرضه الذي أصاب قلبه من غفلة أو فترة أو قسوة أو كسل أو طغيان أو غير ذلك من العيوب التي لا تحصى، ثم توالى المجيء إلى الشيخ: هذا بعد هذا، حتى استقل عنده جماعة من الفقراء، فشكى كل واحد داءه، لأنه طبيب ماهر، وقد يداوي بالهمة أو بالنظرة، فعندما أحسوا بالشفا ونشطت نفوسهم، وذهب داؤهم وبؤسهم، وطابت قلوبهم بالأذواق، وامتلأت قلوبهم بالأنوار، وأشرقت فيها شموس المعارف والأسرار، واستعملت نتائج أفكارهم، فأبدت من العلوم ما يليق بسعة صفائها: ترنم الحادي بالغزل الرقيق، واستعمل من الشعر ما بالجانب يليق، فإذا سمعته دقائق أفكارهم الصافية، وغوامض فهومهم العلية، أحاطت بمعاني تلك الأشعار، واستخرجت ما فيها من علوم وأسرار، كل واحد على قدر نصيبه وشربه مما استفاد من شيخه بمحبته وصدقه، وعلى قدر مجاهدته وسيره، فمنهم من يكون حظه معاني الكلام الظاهرة ومنهم من يخوض بفكره إلى المعاني الباطنة، وقد يقع في أسماعهم من كلام واحد ما يليق بحال كل واحد، على حسب مقامه، كالنفر الثلاثة الذين سمعوا قائلاً يقول: يا سعترا بري، فبعضهم سمع: اسع تر بري وبعضهم سمع: الساع ترى بري، وبعضهم سمع: ما أوسع بري، فالأول حاله بداية، والثاني الاستشراف على النهاية، والثالث حاله واصل إلى الغاية.

وفي هذا المعنى قال ابن عطاء الله: العبارة قوت لعائلة المستمعين، وليس لك منها إلا ما أنت له آكل، فإن تمادى الحادي على شعره حتى أتمه تكلموا فيه، واستخرجوا ما عندهم فيه من العلوم، كل على قدر وسعه ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق: 7]، الواصلون ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: 7]، السائرون، فأظهروا من علومهم ما يملؤ سفراً أو أكثر، فهكذا كان سماع الناس في الزمان

المتقدم، فهل ترى أيها المنكر لهذا الفعل من بأس أو أنت من الحال والوجد من أهل الإفلاس.

قلت: وليس مراد الشيخ الحصر في هذه الكيفية حتى لا يصح السماع، إلا إذا كان هكذا بل كل من وجد في نفسه كسلاً أو قبضاً: استعمل ما يزيل به كسله أو مرضه.

ثم اعلم أن اعتراض أهل الظاهر على الصوفية لا ينقطع أبداً: سنة ماضية، وخصوصاً في السماع والرقص، وهم معذورون، لأنهم لا يشاهدون إلا ذواتاً ترقص وتشطح، ولا يدرون ما في باطنها من المواجيد والأفراح، فيحملون ذلك على خفة العقل والطيش، فيقعون فيهم، إلا من عصمه الله بالتسليم، ولذلك كان التصديق بطريقة القوم ولاية، والاعتراض جناية، إلا من صحت نيته وحملته الغيرة، فهو مأجور من جهة، محروم من جهة.

وقد رأيت للطرطوشي اعتراضاً كبيراً على الصوفية في الرقص، حتى قال فيه: إنه ضلالة وجهالة، وذلك لما قلنا، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: 39].

وكان الشيخ ابن عباد رضي الله عنه يقول: لا تجعلوا لأهل الظاهر حجة على أهل الباطن، أي لأنهم لم يدركوا ما أدركه أهل الباطن، فلا تقوم الحجة عليهم بمجرد سوء الظن، ولله در أبي مدين حيث يقول:

إذا لم تذقْ ما ذاقت الناسُ في الهوى ... فبالله يا خالي الحشَا لا تُعنفنَا

إذا اهتزَّتِ الأرواحُ شوقاً إلى اللقا ... نعم ترقصُ الأشباحُ يا جاهلَ المعنى

إلى آخر كلامه وبالله التوفيق.

[مسألة خلع الثوب]

ثم أشار إلى مسألة الخَلْع، وهي خلع الثوب عنه، وإلقاؤه للفقراء فرحاً وتواجداً كما فعله عليه الصلاة والسلام، فقال:

(وكرهوا الخلع على المساعدة ... لأن فيه كلفة المعاندة

ومن يكن يخلع عند الحال ... فلا يجوز رده بحال

إذ كان كل عائد في هديه ... كالكلب ظل عائداً في قيئه)

قلت: الخلع بفتح الخاء وسكون اللام هو: نزع الثوب عند السماع، وهو

على ثلاثة أقسام: إما أن يكون مساعدة لغيره، أو لغلبة حال عليه، أو سقط بنفسه، الأول مكروه لما فيه من التكلف والمعاندة، أعني المنافسة، لأنه لما رأى غيره خلع ثوبه وجداً أو حالاً: خلع هو ثوبه مساعدة له، ومنافسة فيما فعل، وهذا لا يخلو من رياء وتصنع، وإليه أشار بقوله: «وكرهوا الخلع» إلخ. وإما أن يكون لغلبة حال عليه، فنزعه فرحاً بالوجد أو شكراً لما وهبه الله من سني الأحوال، فهذا يأخذه الفقراء، ولا يجوز له الرجوع فيه بحال، لأن فيه الرجوع في الصدقة وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**العائد في صدقته كالكلب يعود في قيئه**»[1]، وإلى هذا أشار بقوله: «ومن يكن يخلع عند الحال» إلخ.

قال السلمي: وأكثر المشايخ يكرهون طرح الخرقة على سبيل المساعدة، لما فيه من التكلف المخالف للحقيقة، وما كان من معارضة حال أو وقت، فلا يجوز فيه الرد، لأن ذلك شبه هبة وهدية، وقال ﷺ: «**العائد في صدقته كالكلب يعود في قيئه**».

وقيل: من رجع في هبته بالغ في خسته انتهى.

[حكم خلع الثوب]

ثم إلى حكمه، فقال:

(وحكمه في أفضل الأحكام رأي العراق ليس رأي الشام)

قلت: ظاهر كلامه أن الضمير في «حكمه» يعود على الخلع الذي هو أقرب مذكور، لكن لم يذكر السلمي الذي يعتمده الناظم في هذا النظم هذا الخلاف، وكذلك التجيبي في «الإقالة» مع أنه أطال فيه الكلام، ويحتمل أن يرجع الضمير إلى السماع من أصله، ويكون استدراكاً لترجيح أحد القولين المتقدمين، في قوله: «قال أهل العراق بالتحريم، وقال الحجازيون بالتسليم» لكنه بعيد، لأن أهل الحجاز غير أهل الشام، وأيضاً السياق يأباه، ولعل الناظم اطلع على خلاف بين أهل العراق وأهل الشام في الخلع بالجواز والمنع.

(1) أخرجه البخاري (هبة 30) ومسلم (هبات 5، 6) وأبو داود (بيوع 81) والنسائي (هبة 3، 4) وابن ماجة (صدقات 1) وأحمد بن حنبل (1، 40، 54، 217، 227، 289، 349، 350، 2، 27، 175، 208).

وجنح الشيخ زروق إلى المنع فقال: تنبيه الذي ينبغي الجزم في هذا الزمان منع الخرق، أي خلعها وأخذها والدخول عليها، لما عليه الناس من الشحة والاعتلال ا هـ.

قلت: بل الظاهر الجواز، وليس في طريق الصوفية صوفي شحيح، بل هو من أقبح القبيح، ومن كان شحيحاً تعلم السخاء بهذا وبغيره.

ثم أشار إلى ما يفعل بها ومن يستحقها، فقال:

(وحكموا الوارد في الخروق للأنس والخبرة بالطريق)

قلت: إذا اختلف الفقراء في الخرق التي تخلع في مجلس السماع والذكر، هل ترد لصاحبها أو تقطع وتفرق بينهم أو تعطى للأحوج منهم، حكم أول وارد عليهم، فما حكم به اتبعوه وإنما فعلوا ذلك للأنس الذي يحصل بينهم في ذلك الحكم، بحيث لا يتغير قلب أحد.

وقيل: يحكمون من كان أهل الخبرة بطريق القوم، وهذا ما لم يحضر الشيخ، وأما إن حضر فالحكم له، وإذا خلعت على القوال فهي له لقوله عليه الصلاة والسلام: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**»[1]

وقيل: إن كان من جملة الفقراء فهو كأحدهم، وإن كان محباً فقط فهي له، وإن كان بأجرة فلا شيء له.

ثم ذكر:

[(ما يسقط بنفسه من غير أن يخلعه صاحبه)]

فقال:

(والسقط مردود بلا خلاف وقدر هذا في السماع كاف)

قلت: السقط بالكسر بمعنى: المسقوط، يعني أن ما سقط من غير اختيار صاحبه فهو مردود عليه، ولو كان من غلبة حال أو وجد إذ الخلع المتقدم إنما هو ما كان باختيار صاحبه فرحاً بالوجد أو الحال، أو شكراً، لا ما سقط بغير اختياره، فلا يحل أخذه، إذ: «**لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفسه**»[2]

---

(1) أخرجه أبو داود (جهاد 136) والدارمي (سير 43) وأحمد بن حنبل (3، 114، 123، 190، 198، 279، 4، 46، 50، 5، 295، 306).

(2) أخرجه ابن عبد البر في (التمهيد 10/ 222).

تتميم: قال ابن ليون التجيبي: ومن أشار بيده أن يخلع، بان عنه ما عليه، ومن دخل الطابق (أي الحلقة) بفرجية غير مزورة بانت عنه، يعني لتفريطه وعدم حزمه، ومن خلع ما على رأسه بان عنه كل ما عليه، فإن الخزق تابعة للتاج. **قلت**: ولعل هذا حيث جرى به أو عمل، وإلا فالظاهر اختصاصه بما خلع **ثم قال**: ومن رقص ويده تحته بانت عنه خرقه، ومن عثر في ثوبه أو داسه (أي وطيء عليه برجله) أو أطفأ به السراج، أو آذى به أحداً أو شبه ذلك بان عنه الثوب، وكذلك الإشارة بالكم، فإن الفقير محفوظ والسقط بائن عنه، فيبين عنه ثوبه بأقل شيء، بخلاف المحب، فإنه لا يبين عنه ثوبه إلا باختياره، والعياط الفاحش في السماع يطالب صاحبه، فإن انفصل، وإلا استغفر، وكذلك الوقف الكثير في الطابق (أي الحلقة) ما لم تشهد له البواطن بالصدق، ولا يزاحم محترم محترماً في طابقه، ولا يدخل الطابق غير فقير، لأنه لا يدري مشرب القوم، ويحبسه الخادم في موضعه إن غلب عليه وارد، انتهى.

وهذا القدر كافٍ في السماع، لمن له صدق واستماع، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم أشار إلى الحكم السابع من أحكام الترجمة التسعة فقال:

[(السابع في حكم السفر والقدوم على المشايخ)]

اعلم أن للسفر آداباً تطلب قبل الشروع فيه، وآداباً حال الشروع، وآداباً بعده، فأما التي تطلب قبل الشروع.

[آداب تُطلب قبل السفر والقدوم على المشايخ]

فمنها: الاستخارة لقوله عليه الصلاة والسلام:

«**ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار**»[1].

وروى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله (ص) يعلمنا الاستخارة لما يعلمنا الفاتحة، يقول: «**إذا هم أحدكم بأمر فليركع ركعتين ثم يقول: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن**

(1) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد 2/ 280، 8/ 96) والسيوطي في (الدر المنثور 2/ 90) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 8/ 164).

هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال عاجل أمري وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به»[1]، انتهى. والركعتان بالكافرون والإخلاص، ويقتصر على هذه الاستخارة دون غيرها مما فيها نوم أو غيره، ويكررها ثلاثاً أو سبعاً إن كان أمراً مهماً.

ومنها: الاستشارة إن كان له شيخ، فليستشره ولا يسافر بغير إذنه، وإن لم يكن له شيخ فليستشر من اشتهر بالصلاح والخير من العلماء العاملين، وكذلك الوالدين.

ومنها: النية الصالحة فلا يسافر بقصد الدنيا أو النزهة، وسيأتي الكلام على هذا عند قول الناظم ولم تكن أسفارهم تنزهاً بل كان فيها نحو التوجها . . .

وبقدر ما يعدد من النيات يحصل له من الخيرات، وقد قال الشيخ القطب ابن مشيش لأبي الحسن: لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالباً من معصية الله، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله، ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقيناً، وقليل ما هم.

ومنها: التماس الصاحب، وفي بعض الآثار «**التمسوا الرفيق قبل الطريق**»[2] وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن السفر وحده، وقال: «**الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب**»[3] انتهى. ولا يسافر مع غير جنسه، ولا يصحب إلا من

---

(1) أخرجه البخاري في (صحيحه 2/ 70، 8/ 101، 9/ 144) والترمذي في (السنن 408) وأبو داود في (سننه 1538) والنسائي في (السنن 6/ 80) وابن ماجة في (السنن 1383) والبيهقي في (السنن الكبرى 3/ 52، 5/ 249) والمتقي الهندي في (كنز العمال 21530) والتبريزي في (مشكاة المصابيح 1323) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 1/ 207) والبخاري في (الأدب المفرد 703) والسيوطي في (الدر المنثور 5/ 135) وابن كثير في (التفسير 3/ 22) والبيهقي في (الأسماء والصفات 119، 124).

(2) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 4/ 324، 6/ 398) وابن عراق في (تنزيه الشريعة 1/ 391) والعجلوني في (كشف الخفاء 1/ 204).

(3) أخرجه أبو داود في (سننه 2607) والترمذي في (سننه 1674) وأحمد بن حنبل في (المسند 2/ 186، 214) والبيهقي في (السنن الكبرى 5/ 257) والحاكم في (المستدرك 2/ 102) والبغوي في (شرح السنة 11/ 21) والمنذري في (الترغيب والترهيب 4/ 70) والتبريزي في =

يزيد به إلى ربه.

وفي الحديث عنه ﷺ حين قالوا له: من نجالس يا رسول الله؟ قال: «**من ذكركم بالله رؤيته وزاد في علمكم منطقه، وذكركم بالآخرة عمله**»(*) والمراد بالمجالسة مطلق المصاحبة، فتصدق بالسفر وبغيره.

ومنها: قضاء الديون، ورد الودائع، فإن لم تحل وتعذر تعجيلها فليترك وكيلاً يؤدي عنه وإن كانت عليه مظالم تحلل منها، لأنه لا يدري: هل يرجع أم لا؟.

ومنها: استعداده لحمل الماء، فيستصحب قربة أو ركوة يتوضأ منها، قال السلمي رضي الله عنه: ويجب على المسافر استصحاب ركوة أو كوز للطهارة، والركوة أولى، والركوة إناء من جلد، وقال في القاموس: زق صغير، **ثم قال**: سمعت والدي رحمه الله يقول: كان بعض المشايخ إذا صافحه المسافر تفقد أثر حمله الركوة من كفه وأصابعه، فإن وجده «أي أثر الركوة» أحسن قبوله، وإلا ازدراه.

وقال بعضهم: إذا رأيت الصوفي وليس معه ركوة ولا كوز، فاعلم أنه عزم على ترك الصلاة وكشف العورة، شاء أم أبى.

ويستحب للمسافر استصحاب العصا والإبرة والخيوط، والمقص والموسى ونحوها، فإن ذلك مما يستعين به على أداء الفرائض كما يجب، وإذا أراد أن يسافر فمن الأدب أن يطوف على إخوانه ويعرفهم بسفره ويودعهم، ويستحب لمن هو في صحبتهم تشييعه، كذلك كان أدب المشايخ. انتهى.

وأما:

[(الآداب التي تطلب حين الشروع في السفر)]

فمنها: صلاة أربع ركعات، فقد روى الديلمي أنه ﷺ كان إذا أراد سفراً صلى

= (مشكاة المصابيح 3910) والمتقي الهندي في (كنز العمال 17515) والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد 5/ 383) ومالك في (الموطأ 978) وابن عبد البر في (تجريد التمهيد 322) وابن الجوزي في (تلبيس إبليس 298) وابن عراق في (تنزيه الشريعة 2/ 46) والألباني في (السلسلة الصحيحة 62).

(*) رواه أبو يعلى في المسند، حديث رقم (2437) [4/ 326] ورواه ابن حميد في المسند، حديث رقم (631) [1/ 213].

أربع ركعات، يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب والإخلاص، فإذا سلم قال: «**اللهم إني أتقرب بهن إليك، فاجعلهن خليفتي في أهلي ومالي، فإذا نهض للسفر من جلوسه قال: اللهم بك انتشرت وإليك توجهت، وبك اعتصمت، اللهم أنت ثقتي ورجائي، اللهم أكفني ما أهمني وما لا أهتم به، وما أنت أعلم به مني، وزودني التقوى، واغفر لي ذنبي، ووجهني للخير حيث ما توجهت، ثم يقرأ الكافرون والإخلاص والمعوذتين**»[1]

ومنها: توديعه أهله وجيرانه وأصحابه، يقول: أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، ويقال له: زودك الله التقوى، وغفر ذنبك، ويسر لك الخير حيث ما كنت.

ومنها: قراءة ورد السفر، وهو: أستغفر الله (عشراً) اللهم صلي على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً (عشراً) حسبنا الله ونعم الوكيل (عشراً) ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (عشراً).

هكذا تلقيناه من أشياخنا زاد شيخنا البسملة (عشراً).

قال ينبغي أن تكون بعد الصلاة على النبي ﷺ، وهذا الورد حفيظة وحصن يقال في كل سفر ولو قرب، وينبغي تقديمه على التوديع، وإذا كان له مركوب قال إذا جعل رجله في الغرز: بسم الله، وإذا استوى على ظهره الحمد لله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: 13 - 14]، ثم قال: «**سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[2] هكذا روى الترمذي.

زاد غيره: «**الحمد لله الذي حملنا في البر والبحر، ورزقنا من الطيبات، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا، وأطوعنا بعده؛ اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة**

---

(1) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال 17638).

(2) رواه أبو داود في سننه، باب ما يقول الرجل إذا ركب، حديث رقم (2602) [3/ 34] ورواه الطبراني في الدعاء، باب القول عند ركوب الدابة، حديث رقم (785) [1/ 250].

المنقلب وسوء المنظر في المال والأهل»[1]

ويكبر ويسبح ويحمد (ثلاثاً وثلاثين) ويهلل (مرة).

وأما التي تطلب بعد الشروع فاشتغاله بذكر الله، وبالتفكر والاعتبار في عظمة الله، وكل ما رأى شيئاً عرف فيه صانعه ومولاه، وإذا علا على شرف كبر، وإذا هبط في واد أو مكان منخفض سبح، وإذا انفلتت دابته قال: يا عباد الله احبسوا، وإذا رأى قرية أو مدينة قال: اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها. وإذا وصل وضع يده على سورها، ويقرأ لإيلاف قريش (ثلاثاً). فإذا فعل ذلك لم يزل صحيحاً جسمه فيها حتى يخرج، وإذا دخلها قال: اللهم بارك لنا فيها (ثلاثاً) اللهم ارزقنا جناها وأعذنا من وباها، وحببنا إلى أهلها وحبب صالح أهلها إلينا.

وسيأتي بقية الأدب والآداب التي تطلب حين يصل عند الناظم إن شاء الله.

وينبغي للفقير أن يشد يده على هذه الآداب النبوية، فإنها دليل المحبة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31]، والله تعالى أعلم.

[حكمة سفر المريدين]

ثم قدم الحكمة في سفرهم وما المقصود به فقال:

(مذهبهم في جولة البلدان	**زيارة الشيوخ والإخوان**
ثم اقتباس العلم والآثار	**أو رد ظلم أو للاعتبار**
أو للخمول أو لنفي الجاه	**أو للرسول أو لبيت الله)**

قلت: من سنة الفقراء في بدايتهم الجولان في البلدان، وعدم التقرر في الأوطان، وذكر الناظم في حكمة ذلك عشرة أوجه:

أولها: زيارة الشيوخ، وهي أعظمها بعد الحج وزيارة الرسول ﷺ، وذلك لما فيها من زيادة فيض الإمداد واكتساب الأوصاف المحمودة، والتخلص من

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره، حديث رقم (1342) ورواه أبو داود، باب ما يقول الرجل إذا سافر، حديث رقم (2598) [3/ 33] ورواه غيرهما.

الأوصاف المذمومة، مع اقتباس العلم والحال، وفي ذلك من الخير ما لا يعلمه إلا الله، وسيأتي بعض ذلك إن شاء الله.

وعن أبي رزين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**زر في الله فإن من زار في الله شيعه سبعون ألف ملك**»[1]، يقولون: اللهم صله كما وصل فيك، وناداه منادٍ أن «**طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة مقعداً**»[2]

قلت: وهذا الذي ذكره الناظم زيارة الأحياء.

وأما زيارة الأموات، فمن ظفر بشيخ التربية، فلا يحتاج إلى زيارة غيره: حياً كان أو ميتاً.

وقد قال التجيبي: إن زيارة الأموات ليس من طريق القوم.

قلت: وهو كذلك، لأن القوم قد أغناهم بالأحياء، فلا يزورون الأموات إلا للدعاء لهم والترحم عليهم، وأما من لم يظفر بشيخ التربية فينبغي له الإكثار من زيارتهم، فإن غاية نفع الميت أن يدله على الحي، وفي ذلك يقول الشيخ الصالح أبو إسحاق سيدي إبراهيم التازي (دفين وهران).

زيارة أرباب التقى مرهم يبري ... ومفتاح أبواب الهداية والخير
وتحدث في الصدر الخلي إرادة ... وتشرح صدراً ضاق من سعة الوزر
وتنصر مظلوماً وترفع خاملاً ... وتكسب معدوماً وتجبر ذا كسر
فكم خلصت من لجة الإثم فاتكاً ... فألقته في بحر الإنابة والبر
وكم من مريد أظفرته بمرشد ... خبير بصير بالبلاء وما يبري
فألقى عليه حلة يمنية ... مطرزة بالفتح واليمن والنصر
عليك بها فالقوم باحوا بسرها ... ووصوا بها يا صاح في السر والجهر
فزر وتأدب بعد تصحيح نية ... تأدب مملوك مع المالك الحر
ولا فرق في أحكامها بين سالكٍ ... مربٍ ومجذوبٍ وحي وذي قبر
وذي الزهد والعباد فالكل منعم ... عليه ولكن ليست الشمس كالبدر

ثانيها: زيارة الإخوان، ولا شك أن السفر لزيارة الإخوان قربة عظيمة ومنقبة جسيمة وهي من أفضل السياحة قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ

(1) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (3345).
(2) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 6/ 296).

حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿56﴾﴾ [المائدة: 56]، فالمراد بالذين آمنوا: هم أنصار الدين، الذين ينصحون عباد الله، وهم الفقراء المتوجهون إلى الله، فإن كل من لقيهم نصحوه وذكروه بالله.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**يقول الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين في، المتجالسين في، المتزاورين في، المتباذلين في**»[1]، رواه مالك.

وقال ﷺ: «**إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها أعدها الله للمتحابين فيه، والمتزاورين فيه، والمتباذلين فيه**»[2] رواه الطبراني.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**أن رجلاً زار أخاً له في قرية فأرصد الله تعالى له على مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله: قال: فإني رسول الله إليك أن الله قد أحبك كما أحببته فيه**»[3] اهـ. رواه مسلم، والمدرجة الطريق.

وقال ﷺ: «**من عاد مريضاً أو زار أخاً في الله، نَاداه منادٍ أن طبت وطاب ممشاك**»[4]

وقال أيضاً ﷺ: «**ما من عبد أتى أخاه يزوره في الله، إلا ناداه منادٍ من السماء أن طبت وطابت لك الجنة، وإلا قال الله في ملكوت عرشه: عبدي زارني وعلى قراه فلم يرض له بثواب دون الجنة**»[5]

---

(1) أخرجه الحاكم في (المستدرك 4/ 169) والربيع بن حبيب في (المسند 1/ 19).

(2) أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى 4/ 301) وأبو نعيم في (حلية الأولياء 6/ 205) وصاحب (ميزان الاعتدال 1235) وابن حجر في (لسان الميزان 2/ 127).

(3) أخرجه مسلم في (صحيحه البر والصلة 38) وأحمد بن حنبل في (المسند 2/ 462) والمنذري في (الترغيب والترهيب 3/ 363) والتبريزي في (مشكاة المصابيح 5007) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 6/ 176) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 2/ 157) والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد 3/ 400، 11/ 76، 12/ 376، 14/ 31) والشجري في (أمالي 2/ 135).

(4) أخرجه مسلم (بر 40، 42) وأبو داود (جنائز 8) والترمذي (بر 64) وابن ماجة (جنائز 2) وأحمد بن حنبل (1، 121، 138، 239، 3، 304، 460، 5، 241، 277، 281).

(5) أخرجه المنذري في (الترغيب والترهيب 3/ 362) والمتقي الهندي في (كنز العمال 24721).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لأصحابه حين قدموا عليه: هل تجالسون؟ قالوا: لا نترك ذلك، قال: فهل تزاورون؟ قالوا: نعم يا أبا عبد الرحمٰن، إن الرجل منا ليفقد أخاه فيمشي على رجليه إلى آخر الكوفة حتى يلقاه، قال: إنكم لن تزالوا بخير ما فعلتم ذلك. ا هـ.

ثالثها: اقتباس العلم النافع، ولا شك أن السفر لطلب العلم فرض فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[1] وقال أيضاً: «**اطلبوا العلم ولو بالصين**»[2] ذكره في القوت.

وقال ﷺ: «**من سلك طريقاً يلتمس بها علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة**»[3] وقال ﷺ: «**ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت الملائكة له أجنحتها، رضى بما صنع**»[4]

---

(1) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير 10/ 240) وأبو حنيفة في (المسند 20) وأبو حنيفة في (جامع مسانيد 1/ 23، 83، 93، 94) وابن كثير في (البداية والنهاية 11/ 322) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة 105) وابن القيسراني في (تذكرة الموضوعات 508) والعقيلي في (الضعفاء 2/ 58، 3/ 410، 4/ 250) وابن الجوزي في (العلل المتناهية 1/ 54، 55، 56، 57، 58، 59، 60، 61، 62، 155).

(2) أخرجه صاحب (ميزان الاعتدال 421) وابن حجر في (لسان الميزان 1/ 62611/ 1090) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 1/ 9) والسيوطي في (اللآلىء المصنوعة 1/ 100) وابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله 1/ 827) والشجري في (أمالي 1/ 57) وابن حبان في (المجروحين 1/ 382) وابن عراق في (تنزيه الشريعة 1/ 258) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 1/ 98، 129، 143) والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد 9/ 364) والمتقي الهندي في (كنز العمال 28697، 28698) وابن عدي في (الكامل في الضعفاء 1/ 182) والعقيلي في الضعفاء 1/ 230) وابن القيسراني في (تذكرة الموضوعات 118) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة 39) وابن الجوزي في (الموضوعات 1/ 215) وأبو نعيم في (تاريخ أصبهان 2/ 156) والربيع بن حبيب في (المسند 1/ 9).

(3) أخرجه أبو داود (علم 1) والبخاري (علم 10) والترمذي (قرآن 10) (علم 19) وابن ماجة (مقدمة 17) وأحمد بن حنبل (2، 252، 325، 407).

(4) أخرجه ابن ماجة في (سننه 226) وأحمد بن حنبل في (المسند 4/ 240) والبيهقي في (السنن الكبرى 1/ 282) والطبراني في (المعجم الكبير 8/ 67) والدارقطني في (السنن 1/ 197) والمنذري في (الترغيب والترهيب 1/ 104) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 1/ 96) والمتقي الهندي في (كنز العمال 28748) وعبد الرزاق في (المصنف 793).

وعن قبيصة رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ فقال: «**يا قبيصة ما جاء بك؟ قلت**: كبرت سني ورق عظمي فأتيتك لتعلمني ما ينفعني الله به قال: يا قبيصة ما مررت بحجر ولا شجر ولا مدر إلا استغفر لك»[1] الحديث.

وقال ﷺ: «**من غدا يريد العلم يتعلمه لله فتح الله له باباً إلى الجنة، وفرشت له الملائكة أكنافها، وصلت عليه ملائكة السموات، وحيتان البحر، وللعالم من الفضل على العابد كالقمر ليلة البدر على أصغر كوكب في السماء، والعلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، ولكنهم ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر، وموت العالم مصيبة لا تجبر، وثلمة لا تسد، وهو نجم طمس: موت قبيلة أيسر من موت عالم**»[2]

والمراد بالعلم في الحديث: العلم النافع فيصدق بعلم ذات الله وصفاته وأحكامه، والمراد بالعابد الذي فضل عليه العالم: العابد الجاهل بما يلزمه من أداء فرضه، فلا شك أن عبادة الجاهل في جحره، والعالم شامل للعلم بالله، وهو الولي، والعالم بأحكام الله وهو: العالم العامل المخلص، والله تعالى أعلم.

رابعها اقتباس الأثر وهو حديث النبي ﷺ، وفضل السفر إليه كفضل السفر إلى العلم، لأنه عين العلم، وقال ﷺ: «**نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغٍ أوعى من سامع**»[3] ومعنى «نضر» بهج وحسن.

خامسها: رد المظالم والسفر لذلك فرض، كما إذا كان على الفقير دين أو قصاص أو حق من حقوق العباد، فيسافر إليه ليرده أو يتحلل منه، هكذا ذكره السلمي، ونصه: ثم لطلب العلم، ثم لزيارة الإخوان والمشايخ، إلى أن قال: ثم لرد المظالم والاستحلال، ثم لطلب الآثار والاعتبار، ثم لرياضة النفوس وخمول الذكر ا هـ. وهذا نص ما ذكره الشيخ في هذه الأبيات.

وقد تردد الشيخ زروق في تفسيره، فحمله أولاً على رد ظلم العباد بعضهم عن

(1) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند 5/ 60) والهيثمي في (مجمع الزوائد 1/ 132).

(2) أخرجه أبو داود (علم 1) والترمذي (علم 19) وابن ماجة (مقدمة 17) والدارمي (مقدمة 29) وأحمد بن حنبل (5، 196).

(3) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 8/ 463).

بعض، وجعله من تغيير المنكر وقال: هذا على من يمكنه ذلك من غير تقص في دينه كما هو معلوم في باب تغيير المنكر.

قلت: ولو حمله على رده بالشفاعة والإصلاح لكان أقرب، ويكون في حق الكاملين منهم.

وحمله ثانياً على ما قلنا من رد المظالم، **ثم قال**: وقد يريد الفرار من الظلم، فإن المؤمن لا يذل نفسه، وقد قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت: 56]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: 97]، وقد يريد الفرار من المحل الذي يجري فيه الظلم على يديه كفرار إبراهيم ابن أدهم رضي الله عنه من أرضه وغيره، وكما في حديث الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ثم كمل المائة بالعابد، فلما دل على التوبة قال له: «اخرج من أرضك إنها أرض سوء» الحديث. ا هـ.

وهذه كلها احتمالات يقبلها اللفظ، وأما المقصد فهو الأول، لأن عادة الناظم محاذاة ما للسلمي، والله تعالى أعلم.

سادسها: الاعتبار بما يرى في سفره من جبال وأنهار وعيون وبحار وأشجار وثمار وأصناف المخلوقات، وضروب الكائنات، وقد تقدم أنه ينوي هذا في أول سفره.

سابعها: قصد الخمول ونفي الجاه إذ لا يتحقق الإخلاص حتى يسقط من عين الناس، ويسقط الناس من عينه، ولا شك أنه إذا تغرب في البلدان لا يعرفه أحد، فيأمن من الظهور الذي هو قاصم الظهور، والخمول مقصود عند القوم في البدايات، وملحوظ في النهايات.

ثامنها: نفي الجاه، وهو قريب من الخمول، ويفرق بينهما بأن قصد الخمول هو الذي لم يكن له جاه فأراد أن يبقى على خموله، ونفي الجاه هو الذي كان له جاه وأراد نفيه وزواله فإذا سافر إلى موضع لا يعرفه أحد، فالغالب تحقيق خموله، وينبغي له أن يكتم اسمه ويخفي حاله حتى لا يعرف لأنه إذا عرف رجع إليه ما هرب منه، والمراد بالجاه: المضر أو الجاري على غير وجه مستقيم، أو الذي يخشى منه نقماً أو شغلاً، أو الذي تميل إليه النفس وتركن إليه فإن الركون إلى ظل العز قاطع كبير.

تاسعها: لزيارة الرسول ﷺ، وهي من أكبر القربات وأعلى الدرجات، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**من زارني في المدينة وجبت له شفاعتي**»[1]، أو كما قال، وقال ﷺ: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**»[2] انتهى.

عاشرها: زيارة بيت الله الحرام، والوقوف بعرفة، وهو فرض المستطيع، مستحب لغيره إذا سلم من تضييع واجب، قال ﷺ: «**من حج هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»[3] انتهى.

تنبيه: قال الشيخ زروق رضي الله عنه: كل هذه الوجوه تحتاج لتصحيح النية، وتحقيق القصد، فإن النفس خادعة، وللأمور آفات، واعتبر هذا بحكاية أحمد بن أرقم، حيث جنحت نفسه لطلب الجهاد فتعجب منها، وقال: نفس تأمر بالخير، هذا عجب، ثم سأل الله تعالى قائلاً: اللهم إني مصدق بقولك: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: 53]، ولها مكذب فأطلعني على حقيقة هذا الأمر، قالت: يا أحمد إنك تقتلني كل يوم كذا وكذا قتلة، ولا يشعر بي أحد فأردت موتة واحدة، ويقال: مات شهيداً.

قال الإمام أبو حامد رحمه الله، فانظر كيف رضيت بالرياء بعد الموت انتهى بمعناه.

قلت: وبقي من فوائد السفر صحة البدن والقلب فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**سافروا تصحوا وتغنموا**»[4] وكذلك قصد موت الغربة، فقد قال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «**الغريب شهيد ويفسح له في قبره كبعده من أهله**»[5]

ثم ذكر مفهوم ما تقدم فقال:

(ولم تكن أسفارهم تنزها بل كان لله فيها نحوه التوجها

(1) أخرجه أحمد بن حنبل (4، 108).
(2) أخرجه ابن أبي شيبة في (المصنف 4/ 67).
(3) أخرجه البخاري (حج 4) (محصر 9، 10) ومسلم (حج 438) والترمذي (حج 4) وابن ماجة (مناسك 3) والدارمي (مناسك 7) وأحمد بن حنبل (2، 229، 248، 410، 484، 494).
(4) أخرجه الألباني في (السلسة الضعيفة 255).
(5) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد 5/ 301).

ولم تكن أيضاً بلا استئذان ... للشيخ والآباء والإخوان
ولم يكن ذلك الفتوح ... أو لامرىء مبتذل ممدوح)

قلت: إنما لم تكن أسفارهم للتنزه في البلدان، أو لكروب الأوطان، بل في رضى الرحمٰن، لأن مقاصدهم دائرة على الجد والتحقيق والمناقشة والتدقيق، لا ينقلون أقدامهم إلا حيث يرجون رضىٰ الله، ولا تنزل هممهم العالية إلا على الله، غائبون عما سواه، لا يتوجهون بهممهم إلا نحو الحبيب، ولا يسافرون بقلوبهم إلا إلى حضرة القريب المجيب بخلاف العامة: أنفسهم غالبة عليهم، وشهواتهم حاكمة عليهم، إن تحركوا للطاعة خوضتها عليهم، فأفسدت عليهم نياتهم وأزعجتهم في هوى أنفسهم، تظهر لهم الطاعة وتخفي لهم الخديعة.

وروي أن رجلاً جاء يودع بشراً الحافي[1] رضي الله عنه عند مشيه للحج، وقال: قد عزمت على الحج أتأمر بشيء، فقال له بشر: كم أعددت للنفقة؟ فقال: ألفي درهم، فقال له بشر: أي شيء تبتغي بحجك نزهة أو اشتياقاً إلى البيت وابتغاء مرضاة الله، قال: ابتغاء مرضاة الله؛ قال فإن أصبت رضىٰ الله تعالى، وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله، أفتفعل ذلك؟ قال: نعم، قال: اذهب فاعطها عشرة أنفس: مديناً يقضي دينه، وفقيراً يرم شعثه، ومعيلاً يجبر عياله، ومربي يتيم يفرحه، وإن قوي قلبك أن تعطيها لواحد فافعل، فإن إدخالك السرور على قلب امرىء مسلم، وإغاثة لهفان وكشف ضر محتاج، وإعانة رجل ضعيف اليقين أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرناك وإلا قل لنا ما في قلبك، قال: يا أبا نصر: سفري أقوى في قلبي، فتبسم بشر وأقبل عليه وقال له: المال إذا جمع من وسخ الشبهات والتجارات اقتضت النفس أن تقضي به وطراً تسرع إليه بظاهر الأعمال الصالحات، وقد آلى الله على نفسه ألا يقبل إلا عمل المتقين اهـ.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إذا أكرم الله عبداً في حركاته وسكناته نصب له العبودية لله، وستر عنه حظوظ نفسه، وجعله يتقلب في عبوديته، والحظوظ عنه مستورة مع جري ما قدر له، ولا يلتفت إليها كأنه في معزل عنها،

---

(1) هو أبو نصر ـ بشر بن الحارث الحافي (150 ـ 227 هـ/ 767 ـ 841م) أصله من مرو وقد سكن بغداد ومات فيها وهو ابن أخت علي بن خشرم وكان كبير الشأن. (الرسالة القشيرية 404).

وإذا أهان الله عبداً في حركاته وسكناته نصب له حظوظ نفسه، وستر عنه عبوديته فهو يتقلب في شهواته وعبودية الله عنه بمعزل، وإن كان يجري عليه شيء منها في الظاهر، قال: وهذا باب من الولاية والإهانة.

وأما الصديقية العظمى والولاية الكبرى، فالحظوظ والحقوق كلها سواء عند ذوي البصيرة لأنه بالله فيما يأخذ ويترك ا هـ.

وإنما لم تكن أسفارهم بلا استئذان الشيخ والآباء، لأن السفر من غير إذن الشيخ لا بركة فيه، ولا سير إلى الله فيه، بل فيه نقض للعهد الذي أخذه عنه: ألا يتحرك إلا بإذنه، وقد يكون له نظر في إقامته، وكانت الفقراء في الزمان السالف يستأذنون فيما هو أقل من هذا وقد وجد بعض الفقراء باقلا (أي فولاً) فأتى به إلى الشيخ فقال: يا سيدي ما أفعل بهذه الباقلا، فقال له: أفطر عليها، فقال بعض الحاضرين: يا سيد يشاورك حتى في الباقلا، فقال: نعم لو خالفني في شيء لم يفلح، أو ما هذا معناه، وهذا إن كان السفر بعيداً، وأما القريب الذي لا يستغنى عنه، فأمره قريب.

[استئذان الآباء]

وأما استئذان الآباء فهو أيضاً من الأمور المؤكدة.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: فإن حق الوالدين واجب شرعاً، إلا في واجب لا محيد عنه، ولا تراخي فيه كطلب علم حاله، والجهاد عند تعيينه، والحج عند ضيق وقته، إذا توفر شرطه.

وقال السلمي: ولا يسافر بغير رضى الوالدين والأستاذ، وبغير إذنهم، حتى لا يكون عاقاً في سفره، فلا يجد بركة في أسفاره.

قلت: هذا إن تحقق أنهم لا يمنعونه من زيارة الشيخ، وأما إن تحقق أنهم يمنعونه من زيارة شيخ التربية أو من صحبته، فلا فائدة في استئذانهم، ويسقط عنه استئذانهم، حسبما ذكره البلالي في «اختصار الإحياء» ونصه في باب حقيقة علم الباطن، ويسافر إليه ولو منع أبواه في فرضه.

وذكر الشيخ السنوسي في «شرح الجزيري» أن النفس إذا غلبت كانت كالعدو إذا فجأ فتجب مجاهدتها والنهوض إليها بقواه العلمية والعملية، وفي مثل هذا يسقط استئذان الأبوين وغيرهما، إلخ كلامه الطويل في المسألة.

وقد يرجح هذا قوله تعالى: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: 15]، فإن الشرك على قسمين: أكبر وأصغر «وما» من ألفاظ العموم، والشرك الأصغر لا ينجو منه في الغالب إلا بصحبة من تخلص منه بشيخ كامل، والقرآن بحر واسع يغرف منه كل أحد على قدر وسعه.

ومما يناسب ما قلناه من مخالفة الأبوين في صحبة الشيخ، قول الشاعر:

ولا أصغي إلى من قد نهاني ولي إذن عن العذال صما
أخاطر بالخواطر في هواكم وأترك في رضاكم أباً وأماً

ولقد سمعت من أشياخنا وغيرهم: أن شاباً كان يحضر مجلس شيخ شيوخنا «سيدي يوسف الفاسي» وكان أبوه ينهاه عن ذلك ويزجره، حتى كان ربما يأتي لمجلس الشيخ ويقول: أترك لي ولدي، فكان الشيخ يقول للشاب: يا ولدي أطع أباك في كل شيء إلا في القدوم إلينا وحضور مجلسنا، وكأنه تمسك بقول الغزالي: «إن أخذ علم التصوف فرض عين» والله تعالى أعلم.

وقول السلمي: لئلا يكون عاقاً لوالديه: اعلم أن عقوق الوالدين لا يكون بمجرد مخالفتهم، فإن الوالدين على ثلاثة أقسام:

قسم: يكونان وافري العقل واسعي الصدر، لا يغضبان بشيء.

وقسم: يكونان ضعيفي العقل ضيقي الصدر، يغضبان بأقل شيء، وقد يغضبان بلا شيء.

وقسم: يكونان معتدلي الحال.

فأما القسم الأول: فقد يعقهما، ولو لم يغضبا.

وأما القسم الثاني: فقد لا يكون عاقاً لهما ولو غضبا، والمرجع في ذلك لعرف أهل العقول الكاملة بحيث يشهدون في ذلك ويقولون: إنه عقوق، سواء ظهر غضب أو لا

وأما الثالث: فغضبهما عقوق، كذا سمعت هذا التفصيل من بعض العلماء الفاسيين وهو صحيح حسن (نقله بعض شراح الشمايل) والله تعالى أعلم.

وأما استئذان الإخوان، فهو حسن لعله ينهض حالهم للزيارة معه.

وأما كون سفرهم لم يكن للفتوح، وهو ما يقبضه من الهدايا والصدقات، فقد تقدم أن سفرهم إنما كان لرضى الرحمٰن، أو لتذكير الإخوان، أو لرياضة النفوس،

ولم تكن أسفارهم لقصد الدنيا، فإن ذلك من الهمة الدنية، وكل من كان سفره للدنيا، فلا قيمة له عند الله، ومن كانت همته ما يدخل بطنه، كانت قيمته ما يخرج منها، وجلوس من كانت هذه همته في بيته أفضل له، نعم إن تخلصت النية ثم أعطاه الله فتوحاً أخذه بنية الشيخ أو صرفه فيما يضطر إليه، وكذلك السفر لمن كان مشهوراً بالسخاء والعطاء، فهو من قبيل السفر للدنيا إذ لا يخلو من طمع فيه، وما أقبح الطمع، وما أحسن الورع.

دخل سيدنا علي كرم الله وجهه البصرة فوجد الناس يقصُّون في المسجد، فأقامهم حتى وقف على الحسن البصري، فرأى عليه سمتاً وهدياً، فقال له: إني سائلك فإن أجبتني تركتك، وإن لم تجبني أقمتك كما أقمت أصحابك، فقال له: سل عما بدا لك، فقال له: ما فساد الدين؟ قال: الطمع، قال: وما صلاح الدين؟ قال: الورع، قال له اجلس فمثلك يتكلم على الناس. انتهى.

وإلى هذا أشار بقوله: «أو لامرىء مبتذل ممدوح» والمبتذل اسم فاعل، من ابتذل طعامه أعطاه، وأصل ما ذكره الناظم قول السلمي رحمه الله: ولا يسافر للنزهة والبطر ورئاء الناس والجولان في البلدان لطلب الدنيا والدؤوب على متابعة الهوى.

قال أبو تراب النخشبي رضي الله عنه: ليس شر أضر على المريدين من أسفارهم على متابعة هواهم، وما فسد من فسد من المريدين إلا بالأسفار البطالة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: 47]، وقال النبي ﷺ: «**يأتي على الناس زمان يحج أغنياء أمتي للنزهة، وأوسطهم للتجارة، وقراؤهم للرياء، وفقراؤهم للمسألة**»(1) وقال أيضاً قال أبو حفص النيسابوري: ينبغي للمسافر ثلاثة أشياء: ترك تدبير الزاد، وتقدير الطريق، ويعلم أن الله حافظه.

ثم ذكر:

[(آداب الوصول)]

فقال:

(1) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (8689) [5/ 444] ورواه الخطيب البغدادي، حديث رقم (5433) [10/ 296].

(فحيث ما حلوا بلداً فبالحرا أن يقصدوا الشيخ وبعد الفقرا)

قلت: من آداب الفقراء إذا حلوا بلداً من البلدان، سواء كانت التي فيها شيخهم. أو لا، أن يقصدوا شيوخها وكبراءها أولاً، ثم يقصدوا فقراءها، لأن التقديم تعظيم، والتعظيم على قدر المقام، ومن لا يعظم لا يعظم، وإذا قصدوا شيوخها فلا يدخلون عليهم إلا معتقدين كمال ولايتهم، ولا يدخلون مختبرين فيحرمون بركتهم، فكل من قصد الأولياء بالميزان، فلا ينال إلا الحرمان، ومن أتاهم بالتعظيم وحسن الاعتقاد نال من الله كمال المحبة وحسن الوداد، وينبغي أن ينعزل من علمه وعمله وحاله، كما يفعل مع شيخه، وكذلك يفعل مع الفقراء، فلا يدخل عليهم إلا معتقداً كمالهم، وينعزل أيضاً عن علمه وعمله، فيرجع إلى علمهم فيما يشيرون إليه، ولا يدعي علماً، ولا يراه في حضرتهم، بل يرى علمهم أكمل من علمه، وأنه مفتقر إليهم وإن كان أعلى منهم في الظاهر، ويرى عملهم أوفى من عمله، وإن كان أوفى منهم فيه، لأن ذلك معتبر بالحقائق، وهي باطنية قلبية، فيحملها على أكمل الوجوه وأتمها، فيشرب منهم على قدر اعتقاده، ويأخذ من مددهم على قدر صدقه، وهذا الترتيب الذي ذكرنا هو مع الاختيار، فإن تعذر لقاء المشايخ أولاً: قدم الفقراء.

وقوله: «فبالحرا» أي فبالأحروية والأولوية أن يقدموا الشيخ، ثم بعد ذلك الفقراء إن أمكن كما قلناه، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر:

[(آداب لقاء الأشياخ، والجلوس معهم ومكالمتهم)]

فقال:

(وإن للقوم هنا آداباً إذ جعلوا كلامهم جواباً
فإن تعاطى الشيخ منهم قولاً قالوا وإلا فالسكوت أولى)

قلت: للقوم في لقاء المشايخ آداب.

منها: أنهم إذا قربوا المنزل رفعوا أصواتهم بالهيللة والذكر، فلا يزالون كذلك حتى يصلوا إلى الزاوية فهو من تعظيم النسبة ويفعلون ذلك عند قربهم للمداشر، لما فيه من تنبيه الغافلين الشياطين.

ومنها: انتظار خروج الشيخ من غير نداء عليه، ولا رسول إليه، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات: 4].

ومنها: تقبيل يد الشيخ، ثم رجله إن جرت بذلك عادة للفقراء، فهو من أحسن التعظيم، وهو من تربية الآداب والمهابة.

وفي ذلك قال الشاعر:

يا من يريد خمرة المحبة خذوها عني: هي حلال
ومن يريد يسقي منها غبا خد يضع لأقدام الرجال
رأسي حططت لكل شيخ هم الموالي: سقوني زلال

ومنها: جلوسهم بين يديه على نعت السكينة والوقار، خافضين أصواتهم، ناكسين رؤوسهم غاضين أبصارهم، فلا يكلمونه حتى يبدأهم بالكلام.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: ثم إن طلب أحدهم بالكلام، فإن كان الكلام عادياً أتى به منخفضاً، وإن كان في العلوم والحقائق نظر، فإن حضرته نفسه ترك، وإلا تكلم بأقل ما يمكنه الكلام في ذلك، لأن الكلام في حضرة الأستاذين مقت.

ثم قال: ومن أعجب ما شهدته في بعض الناس أنهم يدخلون على رجال من أهل الكمال لقصد الانتفاع بهم، ثم يبسطون ألسنتهم بالكلام في وجوه من صور الحقائق، ويرون أنهم بذلك متقربون لقلوبهم، ومتحببون لهم، ولا أدري هل ذلك لظنهم خلوهم عما يألونه، أو لرؤيتهم أن ذلك مما يقربهم إليهم، أو ليروهم أنهم يفهمون ويذوقون، هذه كلها جهالات أعاذنا الله منها، انتهى كلامه.

قلت: أما في حال المذاكرة فلا بأس أن يتكلم بما عنده من العلم إعانة للشيخ، بانخفاض وتواضع، ولا يعارضه في كلامه، فإن لم يفهم كلام الشيخ، أو رآه مخالفاً لرأيه، أو لما عند غيره، يقول: يا سيدي هذا ما فهمته، وقد ظهر لي كذا وكذا، وقال فلان: كذا وكذا على وجه الاستفهام، لا على وجه التعارض، فإن ظهر له خلاف ما ظهر للشيخ فليسكت، وإن وقعت معارضة بين الشيخ وبعض الفقراء أو غيرهم، فلينصر الشيخ ما استطاع، فإن ذلك مما يجلب المودة من الشيخ، ثم إن تعاطى الشيخ من الفقراء كلاماً أو من أحدهم: كلمه بخفض وتواضع، وإلا فالسكوت أولى.

وقد أشرت إلى هذه الآداب مع زيادة في قصيدتي العينية التي وضعتها في الآداب، فقلت بعد كلام:

مع الشيخ آداب إذا لم تكن له فإنه في واد القطيعة راتع

خضوع، وهيبة، وصدق محبة وعقل كمال فيه: إنه جامع
فلا ترفعن صوتاً إذا كان حاضراً ولا تضحكن فالضحك فيه فجائع
ولا تعترض أصلاً عليه فإنه بنور شهود للبصيرة تابع
ولا ترمين عيناً إلى ماء غيره فترمي كسيراً في المعاطش ضائع
ولا تخرجن من غش تربية غدت تمدك بالأنوار منها تتابع
إلى أن ترى الترشيد قد حان وقته وصرت من التمكين أمرك شائع
تمد من الأنوار من كل وجهة وتسقى من الأنام من هو تابع

ثم أشار إلى:

[(آداب المقدم عليهم في حق القادمين)]

فقال:

(واجب على أولي الإقامه تفقد الوارد بالكرامه
وهو يزور القوم في الحرام وإنما ذاك للاحترام
ويبدأوا الوارد بالسلام وبالطعام ثم بالإكرام
وكلموه بعدها تكليما تأسياً بفعل إبراهيما
وكرهوا سؤال هذا الوارد إلا عن الشيخ أو التلامذ)

قلت: ذكر في هذه الأبيات ستة آداب في حق المقدم عليهم:

أولها: تفقد الوارد بالكرامة، وهو الذهاب إلى لقائه وإظهار المبرة في وجهه والفرح به وإراحته من شؤونه وتعلقاته، وإنزاله في محل يظهر به التعظيم كدار، أو زاوية، والدار أبلغ في تعظيمه، فإن نزل في محل قدم عليه من لم يكن خرج للقائه، فالوارد أحق أن يزار في محله إلا أن يكون بمكة، فإن عليه أن يزور المجاورين لبيت الله الحرام، لحرمة بيت الله الحرام، فلا يخرجون منه إلى غيره، وهذا معنى قوله: «واجب على أولي الإقامة» إلخ. وقوله: «وهو يزور القوم» إلخ. على ما في بعض النسخ.

ثانيها: ابتداؤه بالسلام تأنيساً له لقوله عليه الصلاة والسلام: «**لكل داخل دهشة فابدءوه بالسلام، ولكل طاعم وحشة، فابدءوه باليمن**»[1]

وإليه أشار بقوله: «ويبدأوا الوارد» انتهى

(1) أورده العجلوني في (كشف الخفاء 2/ 208).

ثالثها: مبادرته بالطعام، ويسمى هذا الطعام «القرى» والمراد ما تيسر ووجد من غير تكلف، وهذه من المسائل التي تطلب المبادرة بها، وقد نظمها بعضهم فقال:

بَادِرْ بِتَوْبَةٍ قِرىً والدّفْن نِكَاحِ بِكْرٍ، وَصلاةٍ، دَيْنِ

رابعاً: إظهار كرامته بما يقدر عليه من الطعام من غير تكلف مفرط ولا تفريط، فالصوفي لا يتكلف ولا يكلف، فإن كان موسعاً عليه بالغ في إكرامه من غير سرف.

قال السلمي: ولما ورد أبو حفص على الجنيد تكلف في خدمته فأنكر عليه، فقال: لو دخلت خراسان علمتك كيف الفتوة، فقيل له في ذلك؟ فقال: صيرت أصحابي مخانيث، تقدم إليهم ألوان الطعام والطيبات كل يوم، وإنما الفتوة عندنا ترك التكلف، ثم قال له: إذا حضرك الفقراء فاخدمهم بلا تكلف، حتى إذا جعت جاعوا معك، وإذا شبعت شبعوا معك، وحتى يكون مقامهم وخروجهم من عندك واحداً.

خامساً: تكليمه تكليماً خفيفاً، كما فعل إبراهيم عليه السلام حيث بدأ بالسلام، ثم أتى بالطعام، ثم تكلم معهم، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الذاريات: 24] الآية، **ثم قال**: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات: 31]، فهذا هو الكلام، وإليه أشار بقوله: «وكلموه» إلخ. والتأسي هو الاقتداء.

سادسها: ترك سؤاله عن أحوال الدنيا وأحاديثها، فإن ذلك مما لا يعني، ويقسي القلب، وإليه أشار بقوله: «وكرهوا» إلخ.

وأصل ما ذكره الناظم قول السلمي رضي الله عنه: وعلى المقيمين أن يسلموا عليه، أي على الوارد، فحق القادم أن يزار، إلا أن يكون بمكة، فإن عليه زيارة المجاورين لحرمة بيت الله الحرام، ثم يقدم إليه ما حضر من الطعام من غير تكلف، فقد قيل: الأدب مع الضيف أن يبدأ بالسلام، ثم بالإكرام، كصنع الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾ ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: 69]، وقد قال عز وجل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة: 4]، ولا يسأل عن أحاديث الدنيا مما لا يعني، بل عن أخبار المشايخ والأصحاب والإخوان المتعاونين على أعمال الخير.

[ملازمة الأوراد في حال السفر]

ثم أشار إلى ملازمة الأوراد في حال السفر، فقال:

(وكرهوا تضييعه أوراده كيف، وقد جاء إلى الزياده)

قلت: أوراد الإنسان ما كان وظفه عليه شيخه، أو وظفه على نفسه، والمراد هنا ما كان يعمله في حضره، فإذا سافر بقي على ما كان عليه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل**»[1]

وذلك بقدر الاستطاعة، وإلا فالسفر محل التعب والنصب، فقد يشق عليه في حال حضره مع أن أجره جارٍ عليه، ولو لم يفعل، ففي الحديث: «**إذا مرض الإنسان أو سافر أجرى عليه ما كان يعمل مقيماً صحيحاً**»[2] أو كما قال عليه الصلاة والسلام: «**نعم الفكرة والنظرة إن كان من أهلها لا يتركها**»[*] وكذلك المذاكرة، وكيف يترك أوراده بالكلية، وهو إنما سافر لطلب الزيادة الباطنية.

كان بعض المشايخ يقول: عليك بالذكر عند البسط، وبالفكر عند القبض، وبالحمد على كل حال، وردك لا تتركه، فإن فاتك بالليل استدركه بالنهار، وإن سافرت فاجعل وردك كله في الذكر، أو اتركه على حاله، إلى آخر كلامه، **ثم قال**:

(ومن يسافر في هوى النفوس فإنما يؤمر بالجلوس)

قلت: ما قاله ظاهر، وقد تقدم هذا المعنى مراراً، وتقدم ضابط أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه قريباً، والغالب على من لم يظفر بشيخ التربية هذا الوصف إلا النادر، إذ لا يخرج من حظوظ النفس إلا بصحبة من خرج منها، والله تعالى أعلم.

[آداب تتعلق بالسفر ذكرها السلمي]

تتمة: بقي آداب تتعلق بالسفر ذكرها السلمي.

منها: أنه إذا دخل بلداً فيها زوايا قصد أعظمها وأكثرها فقراء.

قلت: هذا إن كانوا كلهم من طريقته، وإلا نزل على من هو متفق معه في النسبة.

ومنها: أنه ينبغي أن ينزل على الموضع الذي فيه المياه الجارية، والمطاهر النقية.

---

(1) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد 10/ 81).

(2) أخرجه البخاري في (صحيحه 4/ 70) وأحمد بن حنبل في (المسند 4/ 410) والبيهقي في (السنن الكبرى 3/ 374) والتبريزي في (مشكاة المصابيح 5144) والزيلعي في (نصب الراية 2/ 150) والسيوطي في (الدر المنثور 6/ 367) والبخاري في (التاريخ الكبير 6/ 432) وابن حجر في (فتح الباري 2/ 571) والمتقي الهندي في (كنز العمال 6663) وأبو نعيم في (تاريخ أصبهان 1/ 60).

(*) هذا الأثر ل لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

قال: وسمعت أبا طاهر الأشقر يقول: كان يصحبني فقير مليح، كلما نزلنا منزلاً تفقد موضع الطهارة، فإن وجده نظيفاً طيباً استطاب المكان وتناول ما قدم إليه من الطعام، وإن لم يكن ذلك لم يتناول الطعام، وقال: هذه بلية ليس فيها كنيف.

ومنها: أنه إذا دخل بلداً ليس فيها فقراء نزل على أكثرهم محبة لهذه الطائفة، وأحسنهم إيماناً بهم وميلاً إليهم، فإذا دخل دويرة تنحى ناحية ونزع خفيه، يبدأ باليسرى في النزع وباليمنى في اللبس، فقد قال رسول الله ﷺ: «**إذا تنعل أحدكم فليبدأ باليمنى وإذا نزع خفيه، يبدأ باليسرى**»[1] ثم يقصد موضع الطهارة فيتوضأ ويصلي ركعتين، فإن كان هناك شيخ قصد زيارته وقبل رأسه، إلا أن يكون الزائر حدثاً فيقبل يديه ا هـ.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد السفر أن يتعلم أحكامه كأحكام قصر الصلاة، والتيمم، والقبلة، وغير ذلك مما يتوقف عليه في السفر.

قال الشيخ أبو يعقوب السنوسي رحمه الله: يحتاج المسافر إلى أربعة أشياء في سفره، وإلا فلا يسافر: علم يسوسه، وورع يحجزه، وخلق يصونه، ويقين يحمله.

سئل أبو رويم عن أدب المسافر؟ فقال: ألا تسبق همته خطوته، وحيث ما وقف كان منزله.

ومنها: أنهم إذا كانوا جماعة وليس فيهم مقدم، ولا شيخ أن يتفقوا على مقدم يرجعون إليه في أمورهم، ففي بعض الآثار: «**لا خير في قوم ليس فيهم من يعظم في الله**» ومعناه ثابت في الحديث عند المنذري، غير أني لم أستحضره.

وقال السلمي في «آداب الصحبة»: ومن آدابهم إذا اجتمعوا أن يقدموا أحدهم لتكون مراجعتهم إليه واعتمادهم عليه، ويكون أرجحهم عقلاً، ثم أكبرهم همة، ثم أعلاهم حالاً ثم أعلمهم بالمذهب، ثم أسنهم.

قال النبي ﷺ: «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن استووا فأفقههم في الدين، فإن استووا فأقدمهم هجرة ثم أحسنهم خلقاً، ثم أتمهم أدباً، ثم أسبقهم بلقاء المشايخ**»[2]، انتهى المراد منه.

---

(1) أخرجه ابن عبد البر في (تجريد التمهيد 268، 269).

(2) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير 17/ 219، 222) وابن أبي شيبة في (المصنف 1/ 343) وابن عدي في (الكامل في الضعفاء 7/ 738).

وقال أيضاً: ومن آدابهم ألا تجري بينهم في حديثهم: هذا لي وهذا لك، ولو كان كذا لم يكن كذا، ولعل، وعسى، ولم فعلت؟ ولم لم تفعل؟ وما يجري مجراها فإنها من أخلاق العوام.

ثم قال: ولا يجري بينهم الإعارة والاستعارة.

قال بعضهم: الصوفي لا يعير ولا يستعير، ولا تجري بينهم المخاصمة ولا المجادلة، ولا الاستهزاء ولا الازدراء، ولا المراجعة، ولا المغالبة، ولا الغلبية، والنقيصة لا تكون بينهم، بل يكون كل واحد منهم للكبير كالابن، وللصغير كالأب، وللنظير كالأخ، وللوالدين والأستاذين كالمملوك.

وهذا ليس خاصاً بالسفر، وإنما هو من آدابهم في الصحبة على الدوام، وفي السفر أكثر لأن السفر يسفر عن المعايب، ولا يبقى على حاله في حال السفر إلا الصديق.

ومنها: أنه إذا أقبل وقرب إلى بلده، قال: «**لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون، لربنا حامدون صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»[1] لا يزال يقولها حتى يدخل البلد، فإذا دخلها قال: اللهم اجعل لنا بها قراراً، وارزقنا حسناً» فإذا دخل على أهله قال: أوبا أوبا، لربنا توبا، لا يغادر علينا حوبا.

ومنها: أنه ينبغي أن يستصحب هدية لأهله وأقاربه وجيرانه، على قدر وسعه.

ومنها: أنه ينبغي أن يدخل أول النهار، ولا يدخل ليلاً فإن تعذر أرسل رسولاً يعلم به وقد نهى عليه الصلاة والسلام: «**أن يطرق أهله ليلاً**»[2] والله تعالى أعلم وبالله التوفيق.

ثم أشار إلى:

---

(1) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند 1/ 256) والمتقي الهندي في (كنز العمال 17649، 54/ 18) والنووي في (رياض الصالحين 401) (وصاحب الأذكار النووية 203) والبغوي في (شرح السنة 11/ 31) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 6/ 412).

(2) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند 1/ 175، 3/ 302، 310، 451) وابن أبي شيبة في (المصنف 12/ 523، 524) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق 7/ 390) وأبو نعيم في (حلية الأولياء 8/ 315، 9/ 26).

[(الحكم الثامن من الأحكام التسعة، وهو السؤال)]

فقال:

الثامن في السؤال: أي الطلب.

قلت: ذكر في هذه الترجمة: حكمه، وآدابه، ومواطنه، فبدأ بحكمه، فقال:

(حكم السؤال عندهم مشروع طوراً، وطوراً عندهم ممنوع)

قلت: اعلم أن السؤال أصله في الشريعة الجواز، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى: 10]، وقال عليه الصلاة والسلام: «اعط السائل ولو على فرسه»[1]

ثم تعتريه الأحكام الخمسة يكون: واجباً، ومندوباً، ومباحاً، ومكروهاً، وحراماً.

فأما الواجب: فهو سؤال الاضطرار خوفاً على البشرية أو الروحانية، وذلك إذا غلبته نفسه للرياسة والكبر.

وقد نص ابن العربي على وجوبه على المريد في بدايته، حسبما ذكره القسطلاني في شرح البخاري في باب الزكاة.

وأما المندوب: فهو إذا سأل لغيره عند حاجته، أو لتهذيب نفسه عند الأمن عليها، **وأما المباح:** فهو ما إذا سأل اختباراً لنفسه، هل تقدر عليه أم لا، وإذا طال عهده به اختبرها، هل رجعت لأصلها أو هي باقية على موتها، وأما المكروه فهو سؤاله لنفسه عند الحاجة قبل الضرورة، وقيل: مباح، على ما سيأتي.

وأما الحرام: فهو السؤال تكثراً أو إلحاحاً، وسيأتي الكلام على هذه الأقسام في شرح كلام الناظم إن شاء الله.

[السؤال الواجب والمندوب]

ثم أشار إلى القسم الواجب أو المندوب، فقال:

(وما على السائل من تأويل لأجل قهر النفس والتذليل

---

(1) أخرجه صاحب (ميزان الاعتدال 4047) وابن حجر في (لسان الميزان 3/ 980) والسيوطي في (جمع الجوامع 3502) وابن عدي في (الكامل في الضعفاء 5/ 1878).

فمن أولي الأذواق والأحوال   من كان راض النفس بالسؤال
قالوا: ولا خير إذن في العبد   ما لم يكن قد ذاق طعم الرد)

قلت: السؤال لأجل قهر النفس يصدق بالواجب والمندوب، فالواجب ما إذا كانت نفسه غالبة عليه، وفيها فخفخة وكبر ورياسة، ولا يمكن دواؤها إلا به لقوله عليه الصلاة والسلام: «**لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال خردلة من كبر**»[1] والمندوب ما إذا كانت مأمونة من ذلك، لكن ثقل عليها وجمحت منه وهو في محل الرياضة، فهذا مستحب في حقه إذ لا يثقل عليها إلا ما يقتلها، ولا شيء أسرع في قتلها منه، فتقرب عليه المسافة، وهذا ما لم يأمره به شيخه، وإلا تعين عليه، وصار من قبيل الواجب (وقيده) الشيخ زروق بما إذا لم يوصله إلى ضرر في دينه ودنياه.

قلت: مثل الضرر في الدين ما إذا كان يتكشف في الديار على محارم الناس، لأن عادة النساء لا يستترن من الفقراء في السؤال، ومثل ضرر الدنيا إذا خاف أن يقبض ويؤخذ ماله.

ثم قال الشيخ زروق: ولا يجعله الشيخ منهاجاً وقاعدة كلية يعرف بها فقراءه، فإن ذلك يؤدي لنقيض المقصود، لاسيما مع هيئة مقصودة وكيفية معلومة تصير صاحبها علماً فيما توجه له فيزيده تعززاً وفساداً، ولذلك قل ما ينجح من استعمله إلا أن يكون ذلك كما كان يفعله بعض الفقراء من أهل مصر: أنه كان إذا أتاه أحد من أبناء الدنيا ألزمه بذلك من غير شهوة حتى يأتي على آخر المدينة ثم يتصدق به، فقد يكون له وجه انتهى.

قلت: وما ذكره الشيخ زروق محمول على ما يفعله بعض الفقراء، يأخذون علماً أو راية ويقصدون المداثر والخيم، وهذا حرام، وأما ما يفعله أصحابنا فإنما هو لقتل النفوس، وقوت الأرواح إذ لا يتقدم له الفقير حين يؤمر به، إلا بعد جهد جهيد وجهاد شديد، بحيث تتمنى النفس الموت الحسي اختياراً، وترضى أن تموت مراراً ولا تتقدم له، إلا أن الصدق وهمة الشيخ تحمله على الامتثال، فلا شك أنه

---

(1) أخرجه أبو داود في (السنن 4091) والترمذي في (السنن 1998، 1999) وابن ماجة في (السنن 59، 4173) والهيثمي في (مجمع الزوائد 1/ 98) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 8/ 338) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق 7/ 451) والطبراني في (المعجم الكبير 10/ 92، 11/ 435).

يقرب مسافة بعيدة، ويقتل النفس، ويجهز عليها في مرة واحدة، وأصل دخوله في هذه الطائفة على هذا الوجه أن شيخ شيخنا (سيدي علي العمراني)[1] كان له جاه ووزارة ورياسة في فاس، فلما دخل في يد الشيخ، ورأى صدقه وجده، قال له: أرى لك خمرة لم يقدر عليها أحد قبلك، ولولا ما رأيت فيك من الصدق والجد ما دللتك عليها، قال: وما هي يا سيدي؟ قال: السؤال، فتقدم إليه.

ورأيت في كتابه أنه قال له: يا ولدي، إنك تطلب هذا العلم، ولا تنال منه ما تريد إلا بالذل، فدخل فيه، وسكن إلى مماته رضي الله عنه.

قوله: «فمن أولي الأذواق» إلخ. يعني أن بعض أهل الأذواق والأحوال «كان راض نفسه» أي ريضها وهذبها بالسؤال.

قال السلمي رضي الله عنه: وقد رخص بعضهم في السؤال لمن يقصد بذلك تذليل النفس.

وقال عبد الله بن منازل: لا خير فيمن لم يذق طعم إجابة الرد.

وكان بعض المشايخ يأكل من السؤال، فسئل عن ذلك؟ فقال: اخترته لكراهته نفسي.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: ولا يزال الفقير بخير ما دام خبزه كسراً، فإذا دارت الخبزة بين يديه دار الشر على رأسه.

وما أحسن حال السائل يقف بكل باب يسمع «يفتح الله» انتهى.

وكان إبراهيم الخواص تعرض عليه الألوف فلا يقبلها، وربما سأل من يعرف من الناس الدرهم والدرهمين، لا يزيد على ذلك، وكان أبو جعفر الحداد، وهو شيخ الجنيد: يسأل باباً أو بابين أو ثلاثاً بين العشائين، فكانت العامة تتعجب منه أولاً، ثم عرف بذلك، فكان لا يعيبه عليه العامة ولا الخاصة مع جلالة قدره وعلو معرفته بربه.

وكان إبراهيم بن أدهم معتكفاً بجامع البصرة، ولا يفطر إلا من ثلاثة أيام إلى

---

(1) هو علي بن أحمد العمراني (000 ـ 344 هـ = 000 ـ 955م) عالم بالحساب والهندسة جماع للكتب من أهل الموصل له كتاب (الإختيارات) و(شرح الجبر والمقابلة وعدة كتب في النجوم وما يتعلق بها).
(الأعلام 4/ 253) و(أخبار الحكماء 156).

ثلاثة أيام، يخرج بعد صلاة المغرب يطلب على الأبواب فطره.

وممن راض نفسه بالسؤال شيخ شيوخنا (سيدي عبد الرحمٰن المجذوب) وكذلك الشيخ العارف أبو الحسن الششتري، وفعله أيضاً أول بدايته أبو الحسن البردعي بأمر شيخه أبي عبد الله التاودي، وغيرهم ممن لا يعرف.

وقوله: «ولا خير إذن في العبد» إلخ. يعني أن الفقير إذا لم يذق طعم الرد حتى يكون الرد عنده أحلى من العطاء، فلا خير فيه، لأن نفسه لم تمت حيث استحسنت العطاء، وثقل عليها المنع، فالواجب عليه الدوام عليه حتى يذوق سره، وذوق سره أن يكون المنع أحب إليها من العطاء والله تعالى أعلم.

[السؤال الممنوع]

ثم أشار إلى القسم الممنوع فقال:

(ومنعوا السؤال التكاثر بل حكموا عليه بالتهاجر
والقوم لما يسألوا إلحافاً ولا تكاثراً ولا جزافاً
بل ذاك كان منهم اضطراراً فيسألون القوت والإفطارا)

قلت: هذا من القسم الممنوع، وهو أن يسأل لقوت البشرية من غير اضطرار، واختلف العلماء في القدر الذي تحرم معه المسألة، فقيل: أربعون درهماً، وقيل: قوت يوم وليلة، وهو أقرب، والسؤال للتكاثر وهو لاكتساب المال والتكثر منه، ولو صحبته نية قبل نفسه فلا ينفع، لأن الخبيث يغلب الطيب، لكثرته.

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم**»[1] والمزعة القطعة.

وقال أيضاً ﷺ: «**إنما المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه، فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك، إلا أن يسأل ذا سلطان في أمر لا يجد منه بدا**»[2] اهـ. والكدوح الخموش.

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في (المصنف 3/ 208).

(2) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير 7/ 218) والهيثمي في (موارد والظمآن 833) والمنذري في (الترغيب والترهيب 1/ 572) وأبو نعيم في (تاريخ أصبهان 1/ 97).

وقال ﷺ: «**لا يزال العبد يسأل وهو غني حتى يخلق وجهه، فما يكون له عند الله وجه**»[1] انتهى.

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سأل مسألة عن ظهر غنى استكثر بها من رضف جهنم، قالوا: وما ظهر غنى قال عشاء ليلة**»[2]

قلت: وهذا يرجح القول الثاني في القدر الذي يحرم معه السؤال، وهذا كله مبني على القصد والنية، فمن كان مراده قوت الروحانية فلا كلام معه، ومن كان مراده قوت البشرية خسر وخاب ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: 84]، ومن عادة القوم إذا عرفوا أحداً يسأل لشهوة نفسه هجروه ولاموه حتى يتوب، ومن عادتهم أنهم لا يسألون إلحافاً، أي بحرص وإلحاح حتى يؤذىٰ المسؤول.

قلت: وقد كان يفعله بعض الإخوان عفا الله عنهم، فإن كان لجذب غلب عليهم فيسلم وإلا فغير صواب، والله تعالى أعلم.

وقيل: الإلحاف السؤال دون احتياج، قال عليه الصلاة والسلام: «**من سأل وله أربعون درهماً فقد ألحف**»[3] ويجمع بين مفهوم هذا والحديث المتقدم عن علي كرم الله وجهه بأن المتقدم في حق من عرف بالزهد والتوكل، واشتهر بسيما الفقر، وهذا في حق العوام الذين لم يعرفوا بذلك كما قال عليه الصلاة والسلام في فقير وجد عنده دينار، فقال: «كية من نار» وقد وجد عند غيره أكثر من ذلك فلم يقل فيه ذلك، والله تعالى أعلم.

والسؤال جزافاً بكسر الجيم وفتح الزاي هو من يتخذه حرفة يصطاد به أموال الناس، وذكر في القاموس أن الجزاف بفتح الجيم وشد الزاي، هو: الصياد والمجزفة بكسر الميم شبكة يصطاد بها.

قال بندار بن الحسن رضي الله عنه: «**من سأل وله ما يغنيه خفت أن يخاصمه**

---

(1) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد 3/ 96) والمنذري في (الترغيب والترهيب 1/ 572) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 9/ 304) والمتقي الهندي في (كنز العمال 16741) وأبو نعيم في (حلية الأولياء 1/ 215).

(2) أخرجه أحمد بن حنبل (5، 281).

(3) أخرجه أحمد بن حنبل (4، 36، 3، 7، 9، 4، 36، 5، 430) والنسائي (زكاة 89، 90) والموطأ (صدقة 11).

فقراء المسلمين يوم القيامة»[1] ويقولون أخذت ما جعل لنا من المال ولم تكن منا انتهى.

وإنما كان سؤال القوم عند الفاقة والاضطرار دون السعة والاختيار، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر:

[(الآداب التي تكون عند السؤال)]

فقال:

(وأدب الصوفي عند المسأله أن يدخل السوق إليه يسأله
لسانه يشير نحو الخلق وقلبه معلق بالحق)

قلت: السؤال الذي يكون لقوت الروحانية له آداب، إذا فعلها استحق بذلك فتح الباب ورفع الحجاب، وإن لم يفعلها لم يفتح له فيه الباب، وربما كان زيادة في الحجاب:

الأول: أن يكون قصده قوت الروحانية فقط، أو قوت الفقراء، أو من تعلق به مع الاضطرار، وأما إن كان قصده قوت بشريته، أو شهوة من شهواته فضرره أكبر من نفعه.

الثاني: أن يكون بإذن من الشيخ، فإن لم يكن إذن فقد خسر فيه، وكل من تبطش نفسه له فلا نفع له فيه، إذ لا تموت النفس إلا بما يثقل عليها.

الثالث: أن يكون متحلياً بحلية العبد الفقير، يطلب المدد من العلي الكبير، فيكون حافي الرجل عاري الرأس فقيراً ذليلاً ينادي سيده متاع الله: لله، ويحضر قلبه المعرفة حين يقول: لله.

الرابع: أن يكشف عن يده إلى الذراع، ويمدها إلى نحو المسؤول، وينظر إلى جهته، لأن ذلك أشد على النفس وأسرع في موتها، إذ الحياء جله في العين، والمراد إنما هو موت النفوس وحياة الأرواح.

الخامس: أن يكون عارفاً أو مستشرفاً فتكون يده ولسانه يشيران إلى الخلق

(1) أخرجه الترمذي (مواقيت 4) (زكاة 22) والنسائي (زكاة 87) والدارمي (زكاة 17) وأحمد بن حنبل (1، 388، 441، 466، 4، 181).

حكمة، وقلبه معلق بالملك الحق.

قال في الحكم: لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق، إلا أن ترى أن المعطي فيهم مولاك فإن كنت كذلك فخذ ما وافقك العلم.

وقيل: من علامة الفقير الصادق أن يأخذ الصدقة ممن يعطيه، لا ممن جرت الصدقة على يديه، وعلامته أن لا يذم مانعاً، ولا يمدح معطياً، ومن لم يكن عنده هذا العلم تعلمه قبل الخروج إلى السؤال، فإن كثر عليه العطاء فينبغي أن يقصر في السؤال، لأن النفس مجبولة على حب العطاء، وأما إن ظهر عليه المنع فينبغي أن يزيد فيه، لأن ذلك حينئذٍ تمحض لحياة الروح، فإن قبض شيئاً ولم يجد أحداً من الإخوان فليتصدق بذلك ليلاً، بحيث لا يشعر به أحد، أو يرميها في موضع خالٍ، والأحسن أن ينزل ذلك في موضع ينتفع به الناس ولا يشعر به.

السادس: ألا يسأل من النساء ولا من الصبيان، وهو من لم يحتلم، ولا من أهل الذمة ولا ممن لا يتحاشى من الحرام، وهذا إن كان معه شيء من السلوك، فإن كان مجذوباً محضاً، فلا كلام عليه، وهذا معنى قوله في الحكم «فجذ ما وافقك العلم» وقد حرر المسألة الشيخ ابن عباد علماً وتصوفاً، وذكرنا من ذلك في الشرح نبذة صالحة، فلينظر ذلك من أراده، والله تعالى أعلم.

[السؤال المكروه والمباح]

ثم ذكر القسم المكروه والمباح والمندوب، فقال:

(وكرهوا سؤاله لنفسه ... ثم أباحوه لأهل جنسه
ولم يعدوه من السؤال ... لكن من العون على الأعمال
إذ كان خير الخلق في أترابه ... يسأل أحياناً إلى أصحابه)

قلت: اتفقت الصوفية على كراهية سؤال الفقير لقوت بشريته عند الحاجة، ما لم يبلغ حالة الاضطرار، وحالة الاضطرار أن يضعف عن العمل أو تضعف فكرته، أو إن كان مسافراً ضعفت قوته على المسير، فهذا يباح له أو يندب، فإن خاف على نفسه وجب، فإن لم يبلغ الفقير إلى الحال الذي وصفنا فالأفضل في حقه الصبر والاكتفاء بعلم الله حتى يأتيه الله برزقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37]، ويعطي بلا أسباب، فقد قيل: «ما نزلت فاقة بمؤمن فأنزلها بالله، فدامت عليه أكثر من ثلاثة أيام قط».

وفي حكاية بشر الحافي رضي الله عنه، قال: رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في النوم، **فقلت**: يا أمير المؤمنين ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء: طلباً للثواب، فقال رضي الله عنه: وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله.

ولله در القائل:

إذا ما مددت الكف ألتمس الغنى ... إلى غير من قال اسألوني: فشلت
سأصبر جهدي في صيانة غرتي ... وأرضى بدنياي، وإن هي قلت

وقال بعض الحكماء: عز النزاهة أشرف من سرور الفائدة.

وفي الحكم: ربما استحيا العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه اكتفاءً بمشيئته، فكيف لا يستحي أن يرفعها لخليقته.

وقوله: «ثم أباحوه لأهل جنسه» يعني أنهم أباحوا السؤال لإخوانه المحتاجين، وهم أهل جنسه، لأن الفقراء جنس، والعوام جنس، وهذا مندوب، ولم يعدوا هذا من السؤال وإنما هو من التعاون على البر والتقوى، وقد فعله عليه الصلاة والسلام لأصحابه حين قدموا عليه عراة فخطب على الناس، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النساء: 1]، الآية، **ثم قال**: «**تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من صاع بره، ثم من صاع تمره، اتقوا النار ولو بشق تمرة**»[1]

وكقوله للنساء: «**يا معشر النساء تصدقن، ولو من حليكن**»[2]

والكل منه عليه الصلاة والسلام للتشريع، وتحصيل الخير للسائل والمعطي، وليس على معنى المسألة (قاله الشيخ زروق رضي الله عنه) وإليه أشار بقوله: «إذا كان خير الخلق في أترابه» والأتراب بالتاء المثناة من فوق الأقران، فإن أراد به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلعله اطلع على نقل، وأن الأنبياء كانوا يسألون

---

(1) أخرجه البخاري (مناقب 25) (أدب 34) (زكوة 10) (رقاق 51) (توحيد 36) ومسلم (زكاة 66، 67، 68، 70) والترمذي (قيامة 1) (زهد 37) والنسائي (زكاة 63، 64) وابن ماجة (مقدمة 13) (زكاة 28) والدارمي (زكاة 24) وأحمد بن حنبل (1، 388، 446، 4، 256، 258، 259، 377، 6، 79، 138).

(2) أخرجه البخاري (حيض 6) ومسلم (إيمان 132) (عيدين 4) (زكاة 46، 47) والترمذي (زكاة 12) (إيمان 6) والنسائي (زكاة 82) وابن ماجة (فتن 19) والدارمي (زكاة 23) وأحمد بن حنبل (1، 376، 423، 425، 433، 436، 2، 66، 3، 318، 502، 503، 4، 283، 6، 363).

لأصحابهم، وإن أراد به غير ذلك، فلا تحمله اللغة، إذ الأتراب لا يطلق إلا على الأقران، والأقران هم المشاركون في الوصف، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر:

[(ضابط صحة السؤال)]

فقال:

(ولا تصف بصحة السؤال من يؤثر الأخذ على الإبذال)

قلت: لا يسلم حال السؤال للفقير ويوصف بصحة قصده فيه، حتى يكون البذل والإخراج من يده أحسن عنده من القبض من الناس.

قال الجنيد رضي الله عنه: لا يصح السؤال إلا لمن العطاء أحب إليه من الأخذ اهـ.

وكذلك السلف الصالح: كان العدم أحب إليهم من التحصيل، والمنع أحب إليهم من العطاء، إذا أقبلت الدنيا، قالوا: ذنب عجلت عقوبته، وإذا أقبل الفقر، قالوا: مرحباً بشعار الصالحين، إلى غير ذلك من حكاياتهم رضي الله عنهم.

ثم ختم الباب بـ:

[(مسألة التجريد)]

فقال:

(والشغل دون الكسب بالعباده محض التوكل، ورأي الساده
ثم السؤال آخر المكاسب وهو بشرط الاضطرار واجب)

قلت: الاشتغال بالعبادة والتجريد عن الأسباب من أعظم القرب عند ذوي الألباب، إذ لا يصفو الباطن من الأغيار ويملأ بالمعارف والأسرار، إلا إذا تخلص الظاهر من كثرة الأكدار، ولا يتخلص من الأكدار إلا إذا تجرد من الأسباب، واتكل على الملك الوهاب قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 3]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2 ـ 3]، وقال ﷺ: «**لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً**»[1]، فصفاء الباطن من صفاء الظاهر، وتنشب الباطن من

(1) أخرجه ابن ماجة (زهد 14).

تنشب الظاهر، فالاشتغال بالعبادة دون الاكتساب هو محض التوكل على مسبب الأسباب عند السادات أولي الألباب.

وقد تكلم الناس على درجات التوكل، وأحسن ما في ذلك ما قاله أبو حامد الغزالي رضي الله عنه، قال في «الإحياء» التوكل مشتق من الوكالة، يقال وكل أمره إلى فلان أي فوضه إليه واعتمد عليه، ويسمى الموكل إليه وكيلاً، **ثم قال**: فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده، **ثم قال**: فإن ثبت في نفسك بكشف أو اعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله، واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد، وأنه ليس وراء قدرته قدرة، ولا وراء منتهى علمه علم، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة، اتكل لا محالة قلبك عليه وحده، ولم يلتفت إلى غيره بوجه، ولا إلى نفسه وحوله وقوته، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فإن الحول عبارة عن القدرة، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك، فسببها أحد أمرين: إما ضعف اليقين، وإما ضعف القلب ومرضه، باستيلاء الجبن عليه، **ثم قال**: فإذن لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته، **ثم قال**: وإذا انكشف لك معنى التوكل، وعلمت الحالة التي سميت توكلاً، فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات:

الأولى: ما ذكرناه، وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله بالثقة بالوكيل.

الدرجة الثانية: وهي أقوى: أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها، ولا يفزع إلى سواها، ولا يعتمد إلا إياها، فإن رآها تعلق بكل حال بذيلها، وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه: يا أماه، وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فإنها مفزعه، لأنه قد وثق بكفالتها وشفقتها ثقة منه أنها ليست بتاركته، **ثم قال**: والفرق بين هذا وبين الأول، أن هذا قد فني في توكله عن توكله، إذ ليس يلتفت فيه إلى التوكل وحقيقته، بل إلى المتوكل عليه فقط، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه، وأما الأول فمتوكل بالتكلف والكسب، وليس فانياً عن توكله، **ثم قال**:

الدرجة الثالثة: وهي أعلاها أن يكون بين يدي الله تعالى مثل الميت بين يدي الغاسل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتاً، تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد

الغاسل الميت، وهو الذي قوي يقينه بأنه مجري الحركة والقدرة، والإرادة وسائر الصفات، فيكون عند الانتظار لما يجري عليه كالمبهوت، ويفارق الصبي بأن الصبي يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها صياحاً، وهذا المقام في التوكل يصحح منه ترك الدعاء والسؤال ثقة منه بكرمه وعنايته فإنه يعطي ابتداءً أفضل مما يسأل، والمقام الثاني لا يقتضي ترك الدعاء والسؤال، إنما يقتضي ترك السؤال من غيره.

فإن **قلت**: هل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال، فاعلم أن المقام الثالث ينفي التدبير رأساً ما دامت الحالة باقية، بل يكون صاحبها كالمبهوت والمقام الثاني ينفي كل تدبير من الآن حيث الفزع إلى الله، لكن بالدعاء والابتهال، كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط، والمقام الأول لا ينفي أصل التدبير والاختيار، ولكن ينفي بعض التدبيرات، كالمتوكل على وكيله في الخصومة، فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل، ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيله به، أو التدبير الذي عرفه من عادته وسنته، دون صريح إشارته. انتهى المقصود منه مختصراً.

والمختار في مسألة التجريد: ما أشار إليه ابن عطاء الله بقوله: (إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية) وقال في موضع آخر (من علامة إقامة الله إياك في الشيء تيسره لك مع حصول النتائج) انتهى.

وهذا كله مع عدم الشيخ، وأما من ظفر بالشيخ فهو الذي يقوم به تجريداً وأسباباً.

وقوله: «ثم السؤال» إلخ أشار به إلى الحديث: «. . . **والمسألة آخر كسب الرجل**» وقال أيضاً ﷺ في ذم كثرة السؤال «**إن الله ينهاكم عن وأد البنات، وعقوق الأمهات، ومنع وهات، وكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»[1] انتهى.

وهذا آخر الفصل الثالث، وهذه الأحكام الثمانية كلها مقدمة لما يذكره في هذا الحكم التاسع الذي أشار إليه بقوله:

---

(1) أخرجه البخاري (استقراض 19) (أدب 6) (رقاق 22) (اعتصام 3) ومسلم (أقضية 12، 14) والدارمي (رقاق 38) وأحمد بن حنبل (4، 246، 251، 254، 255).

[أحكام المريد]

(التاسع في حكم المريد، ومعنى الإرادة، وفائدة الشيخ، وتدريج المريد إلى أن يصير شيخاً).

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: وهذا الفصل هو لباب الكتاب، وسر الطريق ومدارها، وكل ما قبله أو بعده دائر عليه، وذكر فيه أربعة مواقف، لكل موقف معاقل ومعاهد يطول شرحها.

قلت: أما حكم المريد، فالمراد ما يلزمه في بدايته من العلم الضروري، ثم المجاهدة في الأعمال الظاهرة، والاستقامة الكاملة، وما يلزمه في وسطه من الرياضات الباطنية، ومقاساة الأحوال السنية، ثم ما يلزمه في نهايته من الاستغراق في الشهود، والفناء في ذات المعبود، ثم الرجوع إلى البقاء بنظره إلى الحكمة والقدرة، وسيأتي تفسير المريد، ولماذا سمي المريد مريداً.

وأما معنى الإرادة فهو: طلب السلوك إلى ملك الملوك، أو تقول: هي صدق الوجهة إلى الله بإفراد القصد إلى حضرة مولاه، فالمريد سالك، والمراد مجذوب، المريد محب، والمراد محبوب.

وأما فائدة الشيخ، فهو جمع القلب لحضرة الرب، أو رفع حجاب الوهم بتحصيل حقيقة العلم، أو تدريج المريد في مقامات الإنزال وتبعيده عن القواطع والأشغال.

وأما تدريج المريد فهو: نقله من شهود الحكمة إلى شهود القدرة، ومن شهود القدرة إلى شهود الحضرة، وهي شهود الذات، أو تقول: تدريجه هو نقله من شهود الأسماء إلى شهود الصفات، ومن شهود الصفات إلى شهود الذات، ثم من شهود الذات يرد إلى أثر الصفات، هذه طريقة السلوك.

وأما طريق الجذب فهو: شهود الذات أولاً، ثم شهود الصفات، ثم شهود الحكمة عين القدرة، والله تعالى أعلم.

ثم اعلم أن الناس على ثلاثة أقسام: طالبون، ومريدون، ومرادون، فالطالبون هم الذين يطلبون الشيخ ويتعطشون إليه، أو هم الذين يطلبون الطريق إلى علم التحقيق، ولا يعرف الطريق إلا من سلكها، فإن علم الله صدقهم وصلهم إليه، والمريدون هم الذين اتصلوا بالشيخ واشتغلوا بالسير، وهو السلوك، والمرادون هم: الذين انجذبوا إلى الحضرة إما بعد السلوك وهم الكمل، أو قبله.

فأشار الناظم إلى القسم الأول، وهو الطالب فقال:

(فإن أتى القوم أخو فتون وقال يا قوم أتقبلون
تقبلوه صادقاً أو كاذباً إذ كان محتوماً عليهم واجباً)

قلت: الفتون: جمع فتنة، وهي ما يقطع عن الله: ويشغل القلب عن الحضور مع مولاه وأخوها هو: الملتبس بها، والمنهمك فيها سواءً كانت هذه الفتون ذنوباً أو عيوباً أو أشغالاً أو أموالاً أو أغياراً أو أكداراً، فإذا أراد الله أن يخلصه من تلك الفتن، سواءً كانت ظاهرة أو باطنة، ألقى في قلبه الاضطرار إلى الله، وحسن الظن بعباد الله، فإذا أطلعه على سر ولي من أوليائه وأتى إليه، وقال له: جئتك لتقبلني وتأخذ بيدي، وجب عليه قبوله والأخذ بيده، لأن رده نوع من كتم العلم، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا﴾ [البقرة: 159] الآية.

وأيضاً رده إلى ما كان عليه فيه إعانة له على الدوام فيما هو فيه، والإعانة على المعصية معصية، هذا إن كان صادقاً في إرادته، وأما إن كان كاذباً فلما فيه من تقليل المفاسد، وتعريضه لنفحة رحمة الله بالوقوف ببابه ومخالطة أوليائه، وهم قوم لا يشقى جليسهم ولعل الله أن يفتح عليه بمثل ما فتح عليهم، إذ كل من تحلى بحالة لا يخلو حاضروه منها، فمن جالس العطار طاب بطيبه، ولله رجال من نظر إليهم نظرة سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، ولله رجال إذا نظروا أغنوا غنىً لا فقر بعده أبداً، رضي الله عنهم، وخرطنا في سلكهم آمين.

ثم ذكر:

[(ما يؤمر به بعد الدخول)]

فقال:

(وحذروه من ركوب الإثم وأمروه باقتباس العلم
وأمروه بلزوم الطاعة والماء والقبلة والجماعة
وقرروا فيه شروط التوبة وأمروه بلزوم الصحبة
ثم أمدوه بعلم الظاهر حتى استقامت عنده السرائر)

قلت: إذا أتى الفقير إلى الشيخ ليأخذ بيده، فأول ما يلقنه الورد، فإن التلقين فيه بركة عظيمة، وقل أن ينهض الإنسان قبل التلقين، والتلقين سلسلة مروية عن السادات إلى سيدنا علي كرم الله وجهه، إلى النبي ﷺ، ثم يأمره بالتوبة ورد المظالم، وقضاء الدين بقدر الاستطاعة، ويحذره من الرجوع إلى ما كان عليه.

ثم يعلمه ما يلزمه في دينه من طهارة وصلاة وما يتعلق بذلك إن كان جاهلاً، وما تيسر من علم التوحيد خالياً عن الدليل، فإن كان الشيخ ليس من شأنه ذلك دفعه إلى من يعلمه.

ثم يأمره بلزوم الطاعة من: صلاة، وصيام، وذكر، وغير ذلك، كل واحد ما يليق به، لأن الشيخ تقدم أنه يكون طبيباً ماهراً.

ثم يأمره بالصحبة ولزوم مجالسة الشيخ، والاجتماع مع الإخوان، فطريق التربية ليست طريق الانفراد، وإنما هي طريق الاجتماع والاستماع والاتباع، فمهما انفرد المريد عن الإخوان، لم يكن منه شيء، فإن تعذر إقامته مع الشيخ أمره بالزيارة والوصول، فمدد الشيخ جارٍ إلى المريد، كالساقية أو القادوس، فإن كان يتعاهدها ويمشي معها بقي الماء جارياً وإن غفل عنها تخرم الماء وانقلب مع غيره.

وأيضاً: الوصول إلى الشيخ يدل على المحبة، والانقطاع يدل على نقضها، كما قال المجذوب رضي الله عنه:

لا محب إلا بوصول ولا وصول إلا غالي
لا شراب إلا مختوم ولا مقام إلا عالي

ثم يذكره أولاً بـ:

[(ما يصلح جوارحه الظاهرة)]

وهي: التقوى، والاستقامة، فإذا صلحت جوارحه الظاهرة، أمره بالعزلة والصمت والجوع المتوسط، وفراغ القلب والفناء في الاسم المفرد، فإذا رآه تحقق فناؤه وكثر تعطشه، فتح له شيئاً من علم الحقائق، وأمره بالتفرغ التام وقطع العلائق والزهد في الكونين، فإذا رآه أخذته حيرة أو دهشة دفع له علم الحقيقة، وأمره بتقليل ذكر اللسان وعمل الجوارح، وشغله بالفكرة، فإذا رآه لم يقدر على علم الحقيقة، أو رآه قنع بالعلم دون الذوق، أمره بتخريب الظاهر والتجريد التام، فإذا تمكن من الحقيقة ورسخت فيه ذوقاً وتحقيقاً، أمره بإرشاد للناس إن رآه أهلاً، هذا الذي أخذنا به وفهمناه من طريق أشياخنا.

والناظم رحمه الله قدم وأخر في هذا الترتيب، فذكر أنه أول ما يأمره بترك الآثام، ويحذره من ركوب الجرائم، وهذا هو المقصود من صحبة المشايخ وأخذ العهد عنهم، إذ لم يلتجىء لصحبة الأشياخ إلا بقصد الحفظ ببركة صحبتهم، وذلك محقق بفضل الله لمن صح صدقه وقويت نورانية شيخه.

وأصل هذا العهد من السنة حديث عباده بن الصامت[1] قال: قال لنا رسول الله ﷺ في بيعة العقبة «**بايعوني عليَّ: ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف**»[2] الحديث.

ثم يأمره بـ:

[(اقتباس العلم)]

فإن كان هو أهلاً أمره بلزوم صحبته ليعلمه، وإلا دفعه إلى غيره كما تقدم، فلا بد للمريد بعد عقد التوبة من طلب العلم، إذ لا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36]، وقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43].

ولا يجب عليه التوسع في العلم لما فوق حاله، لأن ذلك فرض كفاية، ومتى نزلت به نازلة لزمه طلب علمها.

ثم يأمره بـ:

[(لزوم الطاعة والقبلة والجماعة)]

يعني: الصلاة مع الجماعة، لأن الأمر الخاص لا يصح إلا بعد إحكام الأمر العام، لأن من لا يصلح أن يكون من عوام المتقين، لا يصلح أن يكون من خواص

---

(1) هو عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي أبو الوليد (38 ق هـ - 34 هـ = 586 - 654م) صحابي من الموصوفين بالورع شهد العقبة وبدر وفتح مصر ومات بالرملة أو ببيت المقدس روى 181 حديثاً.
(الأعلام / 258) (حسن المحاضرة 1/ 89) (والمحبر 270) وغير ذلك.

(2) أخرجه البخاري في (صحيحه 1/ 11، 5/ 70، 8/ 198) والنسائي في (سننه 7/ 171) والبخاري في (صحيحه 6/ 187، 5/ 104، 8/ 201) والدارمي في (السنن 2/ 220) والبيهقي في (السنن الكبرى 8/ 18، 328) والبغوي في (شرح السنة 1/ 60) وابن الجوزي في (زاد المسير 2/ 103، 166) والبخاري في (صحيحه 9/ 169) (بغوي 1/ 578) والساعاتي في (بدائع المنن 1480) والتبريزي في (مشكاة المصابيح 68) والطبراني في (المعجم الكبير 18/ 70) والشافعي في (المسند 363) والطحاوي في (مشكل الآثار 3/ 49) وابن حجر في (فتح الباري 1/ 64، 12/ 84) والمتقي الهندي في (كنز العمال 1521) والسيوطي في (الدر المنثور 6/ 209) والحاكم في (المستدرك 2/ 318).

المقربين، فالشريعة باب، والحقيقة دخول مع الأحباب قال تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: 189].

ثم يأمره بـ:

[(التوبة وتحقيق شروطها)]

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: شروط التوبة ثلاثة أقسام:

شروط صحة، وهي ثلاثة: الندم على ما فات، والإقلاع في الحال، والنية ألا يعود أبداً.

وشروط تحقيق، وهي ثلاثة: تصميم القصد، لأن التوبة وإن صحت من بعض الذنب مع البقاء على ذنب آخر فصاحبها ناقص، وقل أن يسلم من العودة لما عنده من أصل المخالفة وأداء الحقوق الواجبة له من: الصلاة، والصيام، والزكاة، والكفارات، وغيرها، ورد المظالم المالية باتفاق، والعرضية على المشهور.

وشروط كمال، وهي ثلاثة: التشمير في المستأنف، بدلاً من التقصير في السالف، والفرار من موارد الفتن بكل وجه أمكن، والحرص على تحصيل الكمال له بأي وجه كان، فمن فاتته شروط الصحة فلا توبة له، ومن فاتته شروط التحقيق فهو عاصٍ، وقل أن يسلم من آفات الانقلاب، ومن فاتته شروط الكمال لم يجد لتوبته لذة، ولا يدرك لها نتيجة، وكل واحدة لا تصح إلا بعد تحقيق ما قبلها.

وقوله: «وقرروا فيه شروط التوبة» المراد بالتقرير هو الأمر بها والحض عليها: المرة بعد المرة، والتنبيه عليها تفصيلاً وإجمالاً

ثم يأمره بـ:

[(لزوم الصحبة)]

يعني إن تأتى له ذلك، وإلا أمره بالوصول المرة بعد المرة كما تقدم، وفائدة الصحبة ثلاثة أمور.

أحدها: أنها حصن من الانقلاب والرجوع، فإن رؤية الشيخ والجلوس معه ترياق مجرب، فلا تميل نفسه إلى الفضول أبداً ما دام مع الشيخ.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي رضي الله عنه: الجلوس مع العارفين أفضل من العزلة، والعزلة أفضل من الجلوس مع العوام، والجلوس مع العوام أفضل من الجلوس مع المتفقرة الجاهلين.

قلت: والجلوس مع علماء الظاهر أقبح في حق الفقير من جميع ما تقدم، والله ما رأيت فقيراً صحبهم فأفلح في طريق القوم أبداً، فلا قاطع أعظم منهم، إلا من عرف بالتسليم لأهل النسبة، وقليل ما هم.

الثاني: أن علم القلوب إنما يقوى مدده بالصحبة، فمن تحقق بحالة لا يخلو حاضروه منها، والطبع يسرق من الطبع من حيث لا يعلم، «**والمرء على دين خليله**»[1] «**والمؤمن مرآة أخيه**»[2] وما كان في المرآة انطبع في المرآة المقابلة لها.

الثالث: أن الإنسان مبتلىٰ بنفسه، فإذا انفرد وحده ظهر له أنه على شيء، وليس كذلك، وقد تقدم هذا في فائدة الاجتماع، وربما ظفر به الشيطان، لأن الشاة المنفردة من سهم الذئاب، وفي الحديث: «**الشيطان يهم بالواحد والاثنين ولا يهم بالجماعة**»[3] أو كما قال عليه الصلاة والسلام، فلا بد من صحبة أخٍ صالحٍ أو شيخٍ ناصحٍ لتحصل السلامة من الرعونات وغيرها ولا يتأدب الفقير وحده أبداً، وإنما يتأدبُ إذا صحب أهل الأدب، فإن صحبهم تأدب أحب أم كره، وأيضاً النفس الحية لا تموت ما دامت مع الأحياء، وإنما تموت إذا صحبت الأموات كما قال شيخنا البوزيدي رضي الله عنه.

ثم يمده بـ:

[(العلم الظاهر)]

ومعناه أنه يذكره بعلم الشريعة وعلم الطريقة دون علم الحقيقة حتى إذا تهذب ظاهره وباطنه صلح لعلم الحقائق، ولا بد من الترتيب، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته، ومن لا بداية له لا نهاية له.

وقد قالوا: من قدم الباطن على الظاهر فاته الباطن والظاهر، ومن طلب الباطن بالظاهر حصل له الباطن والظاهر، ومن طلب الباطن والظاهر تحير في الباطن والظاهر، والظاهر رأس مال، وما عداه ربح، ولذلك أموا به أئمة العلم والدين مجرداً.

---

(1) أخرجه الترمذي (زهد 45).

(2) أخرجه أبو داود (أدب 49) والترمذي (بر 18).

(3) أخرجه مالك في (الموطأ 978) والهيثمي في (مجمع الزوائد 3/ 215، 5/ 258) والمتقي الهندي في (كنز العمال 17516) والعجلوني في (كشف الخفاء 1/ 399).

وقد قال عليه الصلاة والسلام لمن سأله أن يعلمه من غرائب العلم «**ما فعلت في كذا وفي كذا**» في أمور في أحكام الظواهر، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**اذهب فأحكم ما هنالك وتعال أعلمك غرائب العلم**»[1]

ثم من أصلح ظاهره على لسان الصدق فتح الله بصيرته برؤية الحق، انتهى.

قال: الشيخ زروق رضي الله عنه: ولما ذكر ما يتعلق بالبداية.

[ذكر ما يتعلق بالوسط من المجاهدات والرياضات]

فقال:

(حتى إذا انقاد مع الإفادة	**وكاد أن يصلح للإرادة**
إذ للمريد عندهم حدود	**لأجلها قيل له مريد**
فعندها رد إلى الأوراد	**كالصمت والصوم مع السهاد**
وعاملوه بالمعاملات	**إذ علموا مختلف العلات)**

قلت: أما الانقياد إلى طلب الإفادة، فيكون بثلاثة أمور: بالزهد في: نفسه، وفلسه، وجنسه.

فالزهد في النفس بالإطلاق منها والغيبة عنها وإسلامها إسلاماً كلياً حتى يكون كالميت بين يدي الغاسل، والزهد في الفلس بالبذل والإيثار في الحاصل، وعدم التشوف إلى غير الحاصل.

والزهد في الجنس بالإنكار لمن يعرف، وعدم التعرف لمن لا يعرف.

فإذا حصل هذه الثلاث استحق الإفادة وصلح للإرادة، والمراد بالإفادة إفادة العلوم الباطنية والأسرار الربانية، لكن بعد تحقيق التخلية والتحلية، وسيأتي عند قوله: «ألقوا إليها من صفات النفس» إلخ.

وأما حدود المريد فثلاثة: مجاهدة، ثم مكابدة، ثم مشاهدة.

فالمجاهدة في تقديم الظاهر، والمكابدة في تقديم الباطن، والمشاهدة ثمرة المكابدة.

أو تقول: حدود الإرادة: قطع العلائق، وخرق العوائد، واكتساب الفوائد.

(1) أخرجه العراقي في (المغني عن حمل الأسفار 1/ 64).

فإذا تحققت فيه هذه الأمور سمي مريداً لتحقق إرادته بمعرفة سيده، لأنه لما حصر الإرادة في إرادة واحدة، ولم يبق له مراد إلا محبة سيده سمي لذلك مريداً، وقيل غير ذلك فجواب «إذا» الذي هو عامل فيها هو قوله: «رد إلى الأوراد» وما بينهما معترض، والتقدير إذا صلح للإفادة والإرادة رد عند ذلك إلى الأوراد، وباعتبار السبك رد وقت صلاحيته للإفادة إلى الأوراد، ثم فسر تلك الأوراد التي يرد إليها بعد إصلاح ظاهره، فقال: كالصمت، وفيه سبعة آلاف حكمة، جمعت في سبعة: عبادة من غير تعب، حصن من غير حائط، هيبة من غير سلطان، راحة الكرام الكاتبين، ستر للجاهل، زين للعالم، قلة الاعتذار.

ومن خواصه أنه: يلقح الفكرة، ويجلب الحكمة إذا كان مع الفكرة، وإلا فهو سهو، كما قال بعضهم: كل كلام بغير ذكر فهو لغو، وكل صمت بغير فكر فهو سهو، وكل نظر بغير عبرة فهو لهو، فالصمت الذي يصحبه الخواطر والوساوس هو بمنزلة الكلام، وأما الصوم فهو يعين على الجوع، وقد تقدم فوائد الجوع وأسراره، إلا أنه لا ينبغي الإفراط فيه، فخير الأمور أوسطها.

«والسهاد» هو: السهر، والمراد قلة النوم، حتى لا يزيد على القدر المحتاج.

قال أحمد بن عامر[1] رضي الله عنه: أعداؤك أربعة: الشيطان، وسلاحه الشبع، وسجنه الجوع، والهوى، وسلاحه الكلام، وسجنه الصمت، والدنيا، وسلاحها، لقاء الخلق، وسجنها الخلوة، والنفس، وسلاحها النوم: وسجنها السهر.

ثم المطلوب من هذه الأربع الوسط والأخذ بالأهم، فمن كان الجوع أحب إليه من الشبع لم يأكل فوق حاجته، ومن كان الصمت أهم إليه من الكلام لم يتكلم إلا فيما يعنيه، ومن كان الخلوة أهم إليه من الخلطة لم يرتح للقاء الناس، بل يستوحش منهم، ومن كان السهر أحب إليه من النوم لم ينم فوق الحاجة، والإفراط مضر في كل شيء، فمن الجوع مضر بالفكرة ومن الصمت مضر بالحكمة، ومن

(1) هو أحمد بن عامر بن بشر بن حامد (000 ـ 362 هـ = 000 ـ 973 م) فقيه من كبار الشافعية عُرف بالقاضي أبي حامد ولد بمرو الروذ وإليها نسبته (المروروذي) ومات ببلده. له كتاب «الجامع» فقه و«شرح مختصر المزني» وكتاب في «أصول الفقه».
(الأعلام 1/ 142)، و(فيات الأعيان 1/ 18) (وشذرات الذهب 3/ 40) وغيرها.

السهر: يؤدي إلى الحمق، ومن الخلوة: يؤدي إلى الملل، قاله الشيخ زروق رضي الله عنه.

وقوله: «وعاملوه بالمعاملات» أي بالمعاملات التي فيها دواؤه، فمن تليق به العزلة عاملوه بها ودلوه عليها، ومن تليق به الخلطة دلوه عليها، وهكذا، إذ ليست معاملة أهل البداية كمعاملة أهل النهاية، وليست معاملة السائرين كمعاملة الواصلين.

وقوله: «إذ علموا» إلخ يعني أنهم إنما عاملوا المريدين بمعاملات مختلفة، لأجل ما علموا فيهم من العلات المختلفة، فعاملوا كل واحد بما فيه دواؤه.

وفي بعض النسخ «كقرب نفسه من الفلات» وهو إشارة إلى العزلة.

وفي الحكم: ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة.

وقد أشبعنا الكلام عليها في شرح الحكم، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر:

[(سر دلالته على الأعمال دون الحقائق)]

فقال:

(ولم يحيلوه على الحقيقة إذ لم يكن مستوفي الطريقة
لكن أحالوه على الأعمال لأجل ما فيها من النوال
إذ الطريق إلى العلم ثم العمل ثم هبات بعدها تؤمل)

قلت: الحقيقة شهود القدس وإنما لم يحيلوه على الحقيقة، أي لم يطلعوه عليها قبل استيفاء الطريقة، لأن الحقيقة أمرها هائل لا ينالها إلا الشجاع الصائل، وفي ذلك يقول الشيخ الجيلاني (عبد الكريم في عينيته):

وإيّاكَ جَزعاً لا يَهُولُكَ أمرُها فما نالَها إلا الشجاعُ المقارِعُ

فلا تطاق إلا بعد موت النفوس وحط الرؤوس وتصفية البواطن من الأغيار وتحليتها بالأنوار، فمن أُطلع عليها قبل ذلك خيف عليه التزندق، لأن الحقيقة لا تدرك بالعلم، وإنما هي أذواق ووجدان، نعم: قد تكون علماً، ثم تصير ذوقاً، لمن راض نفسه بالشريعة، وعظم صدقه، فإنه يأخذها علماً وتصير ذوقاً.

وأيضاً إطلاعه على الحقيقة قبل كمال الطريقة توجب له التقصير في الأعمال والتفتر في الخدمة، فإن الحقيقة حلوة قد يشتغل بها ويهمل الشريعة، ولذلك قيل:

من تصوف ولم يتشرع فقد تزندق لتعرية الحقيقة عن الشريعة، وهذا معنى قوله: «ولم يحيلوه على الحقيقة إذ لم يكن، أي حيث لم يكن» مستوفياً لعمل الطريقة، لكن أحالوه على الأعمال، والمراد بالأعمال هنا: العمل الظاهر، كالصلاة والصوم والصمت والعزلة وذكر الله، ويكون ذكراً واحداً، وهو الاسم المفرد الذي هو اسم الله الأعظم، وسلطان الأسماء.

هذه طريقة الشاذلية، وسيأتي للناظم التنبيه عليه، وإنما أحالوه على الأعمال لما فيها من النوال، أي العطاء، والمراد به نتائجه، فكل ذكر له نتيجة وثمرة تخصه، كما ذكره ابن جزي في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152]، قال: واسم الجلالة وهو «الله» جامع لتلك الثمرات كلها.

وفي بعض النسخ «لأجل ما فيها من المنال» أي نيل ما يقصده الذاكر ويتمناه، ثم ذكر علة تقديم العمل على علم التحقيق، فقال: «إذ الطريق العلم، ثم العمل، ثم هبات» وهي مواهب الأسرار، فبعد العلم العمل، ثم الحال، ثم الذوق، ثم الشرب، ثم الري، ثم السكر، ثم الصحو، ثم شهود وعيان، والعمل حينئذٍ فكرة ونظرة وآداب مع الحضرة، والله تعالى أعلم.

ثم:

[(ذكر كيفية انتقال العمل إلى الباطن)]

فقال:

(حتى إذا أحكم علم الظاهر ... وأبصروا القبول فيه ظاهر
ألقوا إليه من صفات النفس ... ما كان فيها قبل ذا من لبس
وهي إذ أنكرتها فلتعرف ... إحدى وتسعين وقيل نيف)

قلت: ثم لا يزال الشيخ يأمر المريد بعمل الظاهر، كصلاة وصيام وعزلة وصمت وذكر لسان، حتى إذا رآه أتقن علم الظاهر وذاق سره وحلاوته، فيكون قد ذاق حلاوة الصلاة والصيام، وحلاوة العزلة والصمت، حتى تكون العزلة عنده أشهى من الخلطة، والصمت عنده أحلى من الكلام، وذكر الله قد امتزج معه، حتى لو أراد أن يسكت ما سكت، فهذه علامة إتقان أحكام الظاهر، وصار قبوله لعلم الباطن ظاهراً، فحينئذٍ يلقى إليه من صفات نفسه ما كان ملتبساً عليه، كحب الجاه أو الرياسة، أو حب المال، أو الغضب أو القلق أو غير ذلك من أوصاف النفس

التي يتعذر حصرها، حتى قال بعضهم: «للنفس من النقائص ما لله من الكمالات» وقال الناظم: إنها تزيد على تسعين، بتقديم التاء.

وقد ذكر السلمي نبذة صالحة، فلنذكره بنصه، لأن عادة الناظم النسج على منواله، **فقال رضي الله عنه:**

وأما أخلاق النفس، فمنها: الكبر، والعجب، والفخر، والخيلاء، والغل، والغش، والبغض، والحرص، والأمل، والحقد، والحسد، والضجر، والجزع، والهلع، والطمع، والجمع، والمنع، والجبن، والجهل، والكسل، والبذاء، والجفا، واتباع الهوى والازدراء، والاستهزاء، والتمني، والترفع، والحدة، والسفه، والطيش، والمراء، والتحكم، والظلم، والعداوة، والمنازعة، والمعاندة، والمخالفة، والمغالبة، والمزاحمة والغيبة، والبهتان، والكذب، والنميمة، والتهويس، وسوء الظن، والمهاجرة، واللؤم، والوقاحة، والغدر، والخيانة، والفجور، والشماتة، إلى غير ذلك مما يكثر تعداده.

فيجب على المريد معرفتها ومجانبتها، والمجاهدة في تبديلها بأحسن منها، فمن لم يعرف ذلك لم يزدد مع مرور الأيام إلا إدباراً، فيبدل الكبر بالتواضع، والحدة بالتؤدة، والكذب بالصدق، وبالله التوفيق، انتهى.

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: وأصول الأخلاق المذمومة ثلاثة: الرضى عن النفس، وخوف الخلق، وهم الرزق، فيتولد من الأول: الشهوة، والغفلة، والمعصية.

ومن الثاني: الغضب، والحقد، والحسد.

ومن الثالث: الحرص، والطمع، والبخل.

ثم قال: لكن التزام أصل واحد ينفي جميعها، وهو عدم الرضى عن النفس في جميع الأحوال، والحذر منها في كل الأوقات.

قال في الحكم: أصل كل معصية وشهوة وغفلة: الرضى عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة، عدم الرضى منك عنها، ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه، خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه.

فأي علم لعالم يرضى عن نفسه، وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه ا هـ.

قوله: «حتى إذا أحكم علم الظاهر» هو على حذف مضاف، أي أتقن عمل

علم الظاهر لأن الإتقان إنما هو للعمل، إذ هو الذي أمره به، وهي فائدة صحبة الشيخ كما تقدم في الاجتماع، والله تعالى أعلم.

ثم:

[(ذكر كيفية موت النفس)]

فقال:

(فجرعوها أكؤس المنون وهي تنادي كيف تقتلوني)

قلت: التجرع هو تكلف الشرب، يعني أن المريدين إذا أراد الشيخ أن ينقلهم إلى عمل الباطن، أمرهم بقتل نفوسهم ليكون ذلك سبباً في حياة أرواحهم، كما قال ابن الفارض:

فالموت فيه حياتي وفي حياتي قتلي

«فجرعوها» أي سقوها كرهاً «أكؤس المنون» جمع كأس، على وزن فعل، والمنون: الموت، يعني أنهم تجرعوا في قتل نفوسهم مرارة الموت، وذلك بخرق عوائدها وردها عن شهواتها، وأعظم العوائد: العز، والجاه، فلا تنتقل إلى الذل والهوان والخمول إلا بعد جهد جهيد، وقتل شديد، فإذا صار عندها الذل والعز والخمول والظهور سواء، فقد تحقق موتها.

قال محمد بن خفيف[1] رضي الله عنه: لا يكمل الرجل حتى يستوي قلبه في أربعة أشياء: في المنع، والعطاء، والعز، والذل.

وقال الشيخ أبو مدين: من لم يمت لم ير الحق تعالى.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: لا دخول على الله إلا من بابين: إما بالفناء الأكبر الذي هو الموت الطبيعي، أو بالفناء الأصغر الذي تعنيه هذه الطائفة.

وقال بعضهم: لا يدخل على الله حتى يموت أربع موتات: الموت الأحمر، وهو: مخالفة النفس، والموت الأسود، وهو: احتمال الأذى من الخلق، والموت الأبيض وهو: الجوع، والموت الأخضر، وهو: لبس المرقعات.

---

(1) هو محمد بن خفيف أبو عبد الله الشيرازي (276 ـ 371 هـ = 890 ـ 982م) صوفي شافعي من أولاد الأمراء تزهد وسافر في سياحات كثيرة وصنف كتباً كثيرة.
(الأعلام 6/ 114)، (طبقات الأقطاب)، و(شذرات 3/ 76).

وفي رواية وهو: طرح الرقع بعضها على بعض ا هـ.

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: موت النفس لا يكون إلا بثلاث: عزلها عن مواردها، بحيث لا يتحرك ولا يسكن إلا بتحقيق نية توافق العلم من غير هوى، ثم الإعراض عن كل ما تلتذ به في عالم الأجسام والطباع والعلوم والأعمال والمعاني والمباني والحقائق، ثم ترك الإنسان ما تميل إليه من ذلك أو من غيره، ولذلك قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: ولن يصل الولي إلى الله تعالى حتى تنقطع عن نفسه شهوة الوصول، يعني انقطاع أدب واستسلام، لا انقطاع ملل، كذا قال ابن عطاء الله رحمه الله، ومن هذا القبيل دعاء الشيخ أبي محمد عبد السلام بن مشيش[1] حيث قال: «اللهم إني أعوذ بك من برد الرضى والتسليم، كما يستعيذ بك أقوام من حر المعصية والتدبير».

ومنه قول الواسطي رحمه الله: استحلاء الطاعة سم قاتل ا هـ.

قوله: «وهي تنادي» إلخ نداؤها بلسان حالها القريب من لسان المقال، وقد يسمع ذلك الإنسان من باطن النفس كأنه حسي مقالي، وقد تتمنى الموت الحسي اختياراً، فلا تزال كذلك حتى ترتاض وتتهذب، وهي علامة موتها، والله تعالى أعلم.

ثم أشار إلى:

[(عمل أهل الاستشراف)]

فقال:

(فعندما مالت إلى الزوال ... ادخل في خلوة الاعتزال
وقيل قل على الدوام الله ... واحذر كطرف العين أن تنساه)

قلت: ميل النفس إلى الزوال هو: إعطاؤها الطوع من نفسها، بحيث يتصرف فيها صاحبها بلا نزاع منها، فهي حينئذٍ قريبة للموت، مشرفة على الزوال، فعند

---

(1) هو عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر (منصور) بن علي (أو إبراهيم) الإدريس الحسني، أبو محمد (000 ـ 622 هـ = 000 ـ 1225م) ناسك مغربي اشتهر برسالة له تدعى (الصلاة المشيشية) ولد بثغرتطوان وقتل فيه شهيداً.
(الأعلام / 9) و(شوارق الأنوار) و(مخطوطات الرباط 2/ 195) وغيرها.

ذلك يدخله الخلوة، أي يأمره بها، ويحضه على ذكر الاسم المفرد، حتى لا يفتر عنه ساعة.

قلت: وهذا التدريج الذي ذكره الناظم ليس بلازم لكل الشيوخ، ولا لكل المريدين أن يسلكوه، بل من الشيوخ من يلقن الاسم من أول مرة إذا رأى الفقير أهلاً له، ويأمره بقتل نفسه مع ذكر ربه، بحيث يجعل له وقتاً يذكر فيه ربه، ووقتاً يقتل فيه نفسه، وهذا الذي أدركنا عليه أشياخنا بأمر الفقير بالخلوة في أول النهار إلى وقت العصر، ثم يخرج إلى السوق ويعمل من الأحوال الصافية ما تموت به نفسه، فيكمل فناؤه في الاسم مع موت نفسه، فيقرب وقت فتحه، ومن المريدين من لا يحتاج إلى خلوة، بل يأمره بالخلطة من أول مرة، والناس معادن وطبائع، والعلل متفاوتة، والفتح من الله من غير توقف على الأسباب، إلا أن الحكمة جارية مع القدرة، والله تعالى أعلم.

قال الشيخ أبو حامد الغزالي رضي الله عنه: ولقد أردت في بداية أمري سلوك هذا الطريق بكثرة الأوراد والصوم والصلاة فلما علم الله صدق نيتي قيض لي ولياً من أوليائه، قال لي: يا بني اقطع من قلبك كل علاقة إلا الله وحده، واخل بنفسك، واجمع همتك وقل «الله، الله، الله» ولا تزد على ما فرض الله عليك شيئاً إلا الرواتب، وقل هذا الاسم بلسانك وقلبك وسرك، وأحضر قلبك، واجمع خاطرك، ومهما قالت نفسك: ما معنى هذا، فقل لها: لست مطلوباً بمعناه، وإنما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ [المزمل: 8].

ثم ذكر:

[(ما يفعل في حال خلوته مع الذكر)]

فقال:

(ووكل الشيخ به خديما يلقي إليه القوم والتعليما
وقيل إن تكتم من الأحوال شيئاً سلكت سبل الضلال
فليس عند القوم باللبيب من لم يصف شكواه للطبيب)

قلت: أما توكيل الشيخ بالفقير الخديم، فلعله كان في الزمان القديم، فكان الشيخ إذا أتى إليه الفقير وعلمه ما يلزمه في حال نفسه أدخله الخلوة وأمره بالذكر، ووكل به الخديم يلقي إليه القول الذي يأمره به الشيخ من الأذكار التي تليق به، ويعلمه ما يحتاج إليه في سيره ويشترط في الخديم أن يكون أعلى منه علماً وحالاً وذوقاً.

قلت: وهذه الكيفية قد انقطعت اليوم، ولعلها هي التي قصد الشيخ الحضرمي: نعم بقي اليوم عوض الخديم: تذكير الفقراء بعضهم بعضاً، فيأمر الشيخ من يراه أهلاً للتذكير، فيدور على الفقراء أينما كانوا يذكرهم وينبههم ويزيد بهم إلى الله كما يزيدون به، ولذلك كانت السياحة للفقير في بدايته أمراً كبيراً، وزيارة الشيوخ: سبب في التمكين والرسوخ فهذه الحالة اليوم أغنت عن الخديم والخلوة، ولا ينبغي للفقير أن يكتم شيئاً من أحواله عن الشيخ، قلَّت أو جلَّت، لأن الشيء اليسير يورث الشيء الكثير، فليس باللبيب من لم يصف داءه للطبيب، فإن تعذر عليه الوصول إلى الشيخ وقد عرض له مرض أو أمر فليشخص شيخه بين عينيه بصفته وهيئته، ويشكو له فإنه يبرأ منه بإذن الله، وإن كان مع جماعة واستحيا فليشتك إليه في قلبه وإن كتم ذلك فهو حسن، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر:

[(نتائج الذكر ونهايته)]

فقال:

(فلم يزل مستعملاً للذكر فيصمت اللسان وهو يجري
وقد ما تجوهر اللسان بالاسم يستثبته الجنان
ثم جرى معناه في الفؤاد جري الغذا في جملة الأجساد
فعندها حاذى مرآة القلب لوح الغيوب وهو غير مخب
فأدرك المعلوم والمجهولا حيث اقتضى لتركها قبولا)

قلت: فإذا دخل الفقير الخلوة فينبغي أن يستعمل معها العزلة، وهي عزلة القلب فالخلوة للأشباح، والعزلة للقلوب، فلا بد فيها من التفرغ الكلي، وإلا لم ينتفع بها.

وفي الحكم: ما نفع اللب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة:

فالمقصود من الخلوة هو دواء القلب، ولا يشفي القلب إلا إذا تفرغ من الأخلاط الردية فإن القلب كالمعدة كلما كثرت عليه الأخلاط مرض، وهي الخواطر والشواغب، فإذا تفرغ القلب نفعه الذكر، وإلا فلا، ثم لا يزال مستعملاً للذكر لهجاً به، حتى يصمت اللسان، ويبقى الجنان ذاكراً، وينبغي أن يستثبت الجنان ما يذكره اللسان، فإن ذكر اللسان بلا جنان قليل النهوض إلى حضرة العيان،

ثم لا يزال يذكر بلسانه ويستثبه بجنانه حتى يجري معناه في فؤاده، ويتمكن نوره في قلبه، ثم يجري ذلك في جميع أعضائه كما يجري الدم في سائر جسده، وكما يجري الماء في الأغصان الرطبة، فيكون البدن كله يتحرك بذكر الله.

ولقد سمعت شيخ شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه يقول: بقيت أربع سنين نذكر الاسم المفرد، حتى كان البدن كله يتحرك بالذكر، فكنت إذا وضعت يدي على فخذي لنسكنه تحرك الفخذ الآخر، وإذا وضعت يدي على الفخذ الآخر تحرك الفخذ الآخر اهـ.

فإذا صفت مرآة القلوب وتجوهرت، فعند ذلك يحاذيها لوائح الغيوب، وهي أنوار المواجهة تقدمة لأنوار المشاهدة، لأن المشاهدة تكون لوائح، ثم طوالع، ثم تشرق شمس العرفان، فما لها غروب عن العيان، فعند ذلك يكاشف بحقائق الأشياء، فيدرك سر كل موجود، ويعلم حقيقة كل معلوم، وكل مجهول، يعني ما كان مجهولاً صار عنده معلوماً، وما كان معلوماً أدرك سره وحكمته، وهنا يطلع على سر المتشابهات وحقائق المشكلات، فتتسع عليه دائرة العلوم، وتخرق له مخازن الفهوم، ويخرج إلى فضاء الشهود ويصير حاكماً بسره على الوجود، فلا تقله أرض، ولا تظله سماء، قد فتحت له ميادين الغيوب، وتطهر من جميع المساوىء والعيوب ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: 17].

فقوله: «فيصمت اللسان وهو يجري» يعني أنه ينطبع الذكر في القلب انطباعاً كلياً، حتى يجري الذكر على القلب، ولو سكت اللسان، وهذا هو المقصود من الذكر، وقوله: «وقدر ما تجوهر» إلخ. يحتمل أن يكون إنشاء، ومعناه الأمر باستثبات القلب عند ذكر اللسان أي ويستثبت الجنان ما ذكره اللسان، فيكون بقدر ما تجوهر اللسان يستثبته، ويحتمل أن يكون إخباراً، ومعناه: وبقدر ما يتجوهر اللسان بالذكر يدخل في القلب فيستثبته فيكون فيه الحض على ذكر اللسان، لعله يدخل الجنان، والاحتمال الأول فيه الحض على الحضور عند ذكر اللسان، وهو أولى، لأن ذكر اللسان إذ لم تصحبه مجاهدة لا يفضي إلى القلب، ولو كثر.

وقوله: «ثم جرى معناه في الفؤاد» يعني أنه ينصبغ القلب بمعنى الذكر حتى لا ينفك عنه، وهي الطمأنينة بذكر الله.

وقوله: «فعند ما حاذى مرآة القلب» أي فعند انصباغ القلب بالذكر وطمأنينته

به، يحاذي مرآة قلبه الصافية المجلوة أنوار الغيوب، وهو الذي أراد بقوله: «لوح الغيوب» وتسمى اللوائح، وإنما قصره للوزن، فإذا أطلعت له لوائح الغيوب ظهر ما كان مختبئاً، أي خفياً من أنوار الشهود، فانطوى عند ذلك وجود كل موجود، وفي ذلك يقول الشُشتري:

لقد تجلى ما كان مخبى والكون كل طويت طي
مني علي دارت كؤوسي من بعد موتي تراني حي

وفي بعض النسخ «فعند ما حاذى أمير القلب» أي وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف أي فعند جري الذكر في الفؤاد حاذى القلب الذي هو سلطان الجسد، لوائح الغيوب، وفي بعض النسخ بلفظ «ما» المصدرية بعد «عند» والعامل في الظرف «فأدرك» أي: فأدرك عند محاذاة لوح الغيوب سلطان القلب المعلوم والمجهول.

وقوله: فأدرك المعلوم والمجهول، يعني: أنه لما طلعت عليه شمس المعارف أدرك سر ما كان مجهولاً، حيث عرف سر وجوده، وغاب عن شهوده بشهود معبوده.

وقوله: «حيث اقتنى لدركه قبولاً» يعني أنه لا يدرك سر المعلومات والمجهولات، إلا إذا اقتنى، أي ادخر لذلك قوة باستعداده لذلك، وهو التفرغ التام، فبقدر تفرغه من الأشياء يكشف لك عن شهود المكون، أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك، ومحال أن ترتبط مع الأكوان وتطلع على أسرار مكونها فيها، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر:

[(مخاطبات الحق له على ألسنة الهواتف)]

فقال:

(حتى إذا جاء بطور القلب خوطب اذ ذاك بكل خطب
فقيل لو عرفتني بكوني قيل إذن فاخلع نعال الكون)

قلت: إذا وصل النور من ناحية المذكور إلى جبل الطور، وهو قلبك المستور، بحجاب هيبة المذكور، رفع عنه الستور، وخاطبه حينئذٍ بكل أمر جميل، فلم تعلم نفس ما خصص به من المساررة والمصافة والمصافاة والمكالمة

والمناجاة، فيناديه لسان الملكوت مترجماً على عالم الجبروت، يا أيها العبد الشائق إلى حضرتي لتعاين سر قدرتي، هلا عرفتني بكوني، وقنعت بذلك مني، فيقول العبد المشتاق إلى حضرة التلاق لا أريد إلا وجهك الكريم، ومشاهدة سرك العظيم؛ فيقول له الحق جل جلاله: إن أردت هذا الخطب الجسيم؛ والأمر العظيم فاخلع عنك نعال الكونين، وتخط بقدم همتك نعيم الدارين، فإذا خلعت عنك الحظوظ والهوى، فأنت بالوادي المقدس طوى، وأنشدوا:

واخلع النعلين إن جئت إلى ذلك الحي ففيه قدسنا
وعن الكونين كن منخلعاً وأزل ما بيننا من بيننا
وإذا قيل لمن تهوى؟ فقل أنا من أهوى ومن أهوى أنا

فهذه مسايرة كلام الناظم، ولنرجع إلى تفسير ألفاظه، فنقول حتى إذا جاء ذلك اللائح الذي عبر عنه بلوح الغيوب، وهو النور الذي أثمره الذكر، حاذى مرآة القلب، أي وصل لظهر القلب الذي هو محل المناجاة، ومعدن المصافاة، فهو كجبل الطور الذي وقعت عليه مناجاة الكليم عليه السلام، فإذا وصل إليه ذلك النور، ورفعت عنه الحجب والستور، «خوطب إذ ذاك» أي حين وصل النور إلى القلب «بكل خطب» له أمر جليل، وهذه المخاطبات تكون هواتف من ناحية القلب، فيجب تصديقها حيث انقطعت الخواطر الردية عنه، وتكون أيضاً مخاطبات على ألسنة الهواتف الكونية، فيسمع العارف منها كل ما يحتاج إليه، وهذا أمر مجرب لمن ذاق الفهم عن الله، وفي ذلك يقول الششتري:

أنا بالله أنطق ومن الله أسمع

وقال أيضاً:

إسمع كلامي وافهم إن كنت تفهم
لأن كنزك قد أعرى عن كل طلسم
من هو المكلم الكليم على طور الأفهام

والحاصل أن هذه الخطابات الهواتفية والكونية لا تكون إلا لمن صفت مرآة قلبه من الأغيار، ولم يشاهد إلا الأنوار والأسرار، فحينئذٍ يخاطب من كل ناحية، ويسمع التأييدات من كل جانب.

ولقد كنا في بعض أسفارنا لا نسافر من موضع إلا بإذن من الله، ولا نقيم إلا كذلك، وما ذلك إلا ببركة صحبة العارفين بالله.

وقوله: «فقيل لو عرفتني بكوني» يعني أن السالك إذا أشرقت عليه لوائح الوصول، وهب عليه نسيم القبول، وجد في طلب بلوغ المأمول، يقول له الحق تعالى اختباراً لصدقه: يا عبدي هلا قنعت بمعرفة الدليل فتعرفني بنظرك لكوني، فيقول العبد: يا رب لا أريد إلا معرفة ذاتك، فإذا قال له ذلك يقول له الحق جل جلاله: إن أردت ذلك فاخلع عنك نعال الكونين، وتحقق بالزهد في الدارين، تحصل لك منا قرة العين.

قال بعض العارفين: قيل أول ما يقول الله للعبد: اطلب العافية والجنة والأعمال وغير ذلك، فإن قال: لا، ما أريد إلا أنت، قال له: من دخل هذا معي؛ فإنما يدخل بإسقاط الحظوظ، ورفع الحدوث، وإثبات القدم، وذلك يوجب لك الندم، وأنشدوا:

من لم يكن فيك فانياً عن حظه وعن العنا والأنس بالأحباب
فلأنه بين المنازل واقف لمنال حظ أو لحسن مآب

والله تعالى أعلم.

ثم ذكر:

[(ثمرة الزهد وخلع النعل)]

فقال:

(ثم فني عن رؤية العوالم ولم ير في الكون غير العالم
ثم انتهى لفلك الحقيقة فقيل هذا غاية الطريقة)

قلت: إذا تحقق زهد المريد في الكونين، وغاب عن حظه في الدارين، أشرق عليه نور الإيقان، فغطى وجود الأكوان، فما حجب العباد عن الله إلا تعلق القلب بالحظوظ والعمل على الحروف، فلو تحرروا من رق الحظوظ، وعملوا على نعت العبودية والقيام بوظائف الربوبية، لأشرقت عليهم الأنوار، وغابوا عن شهود الآثار، فتعلق القلب بالحظوظ النفسانية، يمنع من مقام المراقبة، وتعلقه بالحروف الروحانية يمنع من مقام المشاهدة، فالحروف الروحانية تمنع من مقام المشاهدة، والحروف الظلمانية تمنع القرب من القريب، والحروف الروحانية تمنع شهود الحبيب، فالحروف الظلمانية هي الشهوات الحسية، والحروف الروحانية هي الشهوات المعنوية، كطلب الخصوصية والكرامة والمعرفة فلا تدرك المقامات إلا بالزهد فيها.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «ولن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته، أو اختيار من اختياراته».

وتقدم قول الشيخ أبي العباس رضي الله عنه: «لن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول» أي حتى يزهد فيه أدباً واكتفاءً بعلم الله.

وأعلم أن هذه الحظوظ القاطعة عن الله هي التي يسميها شعراء الصوفية في تغزلاتهم: «عواذل ورقباء» كما قال الششتري رضي الله عنه:

يا أخي افن تشهد كل سر عجيب   وتجول في المشاهد حين قرب الحبيب
حيث لا ثم حاسد   أو عذول أو رقيب

قوله: ثم فني عن رؤية العوالم، أي ثم بعد تحقيق الخلع عن الكونين يفنىٰ عن رؤية العوالم حين تتلطف وتصير معاني.

أو تقول حين تنقلب أنواراً ملكوتية بعد أن كانت ظلمات ملكية، فإذا غابت العوالم بقي الخبير العالم.

أو تقول: فإذا غابت الأواني بقيت المعاني.

أو تقول: فإذا غاب الكون بقي المكوِّن، وفي ذلك يقول الششتري رضي الله عنه:

جميع العوالم رفعت عني   وضوء قلبي قد استفاق
تراني غائباً عن كل أين   كاس المعاني حلو المذاق

وقوله: «ثم انتهى لفلك الحقيقة» هو مرتب على ما قبله، فمهما غاب عن العوالم انتهى لفلك الحقيقة، والحقيقة هي شهود العظمة بالعظمة، أو شهود حق بحق، وتقدم قريباً تفسيرها أيضاً بتفسير آخر، وفلكها أنوارها المحيطة بالأكوان المغيبة لها.

قال في الحكم: «محقت الآثار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار».

وفلك الحقيقة هو عالم الجبروت الأصلي، فإذا انتهى المريد إلى ذلك وتمكن فيه، فقد انتهى سيره، وذلك غاية الطريق إلى عين التحقيق، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: 42]، وبالله التوفيق.

ثم ذكر:

[(مقام الشهود)]

فقال:

(ثم امتحى في غيبة الشهود — فأطلق القول أنا معبودي
حتى إذا رد عليه منه — أثبت فرقاً حيث لم يكنه)

قلت: العبد في حال غفلته يكون مبتلى برؤية نفسه، واقفاً مع شهود حسه، مسجوناً بمحيطاته، محصوراً في هيكل ذاته، فإذا أراد الله تعالى أن يرفع عنه الحجاب، ويدخله في حضرة الأحباب، ألقاه إلى ولي من أوليائه، وعرفه سر خصوصيته واصطفائه، فلا يزال يسير به ويحاذيه، ويخرق عليه عوائد نفسه ويغيبه عنها، ويزهده في فلسه وجنسه فإذا رآه الشيخ قد رق في حقه الحجاب، واستحق الانخراط في سلك الأحباب، فتح له الباب. وقال له: ها أنت وربك، فإذا زج في حضرة النور، ورفعت عنه الستور، أنكر الوجود بأسره، وأنكر وجود نفسه، فامتحق وجوده في وجود محبوبه، وانطوى شهوده في شهود معبوده، فأنشأ يقول: أنا من أهوى ومن أهوى أنا. أنا المحب والحبيب، ليس ثم ثاني: فإذا تمكن في الشهود، وتحقق برؤية نور الملك المعبود رد عليه صحوه ورجع إليه سلوكه، فأثبت فرقاً في عين الجمع قياماً بوظائف الحكمة في عين شهود القدرة، فيكون الجمع في باطنه مشهوداً، والفرق على ظاهره موجوداً، فرقاً لفظياً لا حقيقياً، أدباً مع الربوبية، وقياماً بوظائف العبودية، فلا تبتهج رياض الملكوت إلا بزهر جمال الشريعة المحمدية.

وقد **قلت**: في قصيدة سايرت بها تصلية ابن مشيش رضي الله عنه في مدح النبي ﷺ:

رياض بساتين المعارف بهجت — بزهر جمال من شريعة أحمد
كذاك بحار الجبروت تدفقت — بأنواره في كل غيب ومشهد

قوله: «ثم امتحى في غيبة الشهود» أي امتحى وجوده في وجود الحق.

قال في الحكم: الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته.

وقال أيضاً ـ في الكلام على الإشارة ـ بل العارف من لا إشارة له، لفنائه في وجوده وانطوائه في شهوده.

وقوله: «فأطلق القول أنا معبودي» إطلاق هذا القول لا يسلم له، إلا في حالة

القوة والجذب، وإلا فقد علمت ما وقع للحلاج، وهو ولي الله حقاً، وفي معنى ذلك قيل:

ومن شهد الحقيقة فليصنها وإلا سوف يقتل بالسنان
كحلاج المحبة إذ تبدت له شمس الحقيقة بالتدان

وقال آخر:

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء البائحين تباح

قال ابن خلدون: قتل الحلاج بفتوى أهل الظاهر، وأهل الباطن: أهل الشريعة وأهل الحقيقة، لأنه باح بالسر؛ فوجبت عقوبته ا هـ.

وممن أفتى بقتله: الجنيد، والشبلي: غيرة على السر أن يفشىٰ لغير أهله، فالواجب كتم الأسرار، وإظهار شريعة النبي المختار، ولله در الششتري حيث يقول:

شق ثوب الوهم شقة ترتفع عنك المشقة
إن منك اليوم شوق فافن عن ذاتك وترقى

فإذا حققت ذاتك، وانتهى بادي صفاتك، قف على طور سينائك، واجعل الوجد حياتك، وافن به حتى تكن، إياك أن تقول: أناه، واحذر أن تكون سواه.

وقوله: «حتى إذا رد عليه منه» هو على حذف مضاف، أي حتى إذا رد عليه من شهود نفسه، أي بربه، فحينئذٍ أثبت فرقاً لتظهر العبودية في مظهر الربوبية، سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية، وظهر بعظمة الربوبية في مظاهر العبودية، فربوبية بلا عبودية نقص، وعبودية بلا ربوبية محال، وبهذا الفرق ثبت التكليف.

قال شيخ شيوخنا سيدي علي العمراني رضي الله عنه في كتابه: اعلم أن الكلف صفة من أوصاف الفرق، وعدم الكلف صفة من أوصاف الجمع، والفرق عبودية، وهو محق، والجمع ربوبية وهو حق أيضاً، صار الحق هو القائل وهو المستمع لما قال، لأجل هذا المعنى تجد هؤلاء المتوجهين إلى الله تعالى: من غلب عليه شهود الجمع، تجده في غاية البسط والراحة من الكلف، ومن غلب عليه شهود الفرق، تجده في غاية القبض والتعب والكلف ويرحم الله القائل[1]:

(1) القائل هو الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن عربي الحاتمي المتوفى سنة 638هجرية. ورد هذان البيتان في كل من كتابيه: «الفتوحات المكية» و«فصوص الحكم».

الــــرب حـــق والـــعـــبـــد حـــق ... يـا لـيـت شـعـري مـن الـمـكـلـف؟
إن قـيـل عـبـد فـالـعـبـد مـيـت ... أو قـيـل رب أنـىٰ يـكـلـف!؟

وقد أجابه سيدي عبد الرحمٰن الفاسي، نفعنا الله بالجميع بقوله:

نـعـم يـحـق إثـبـات عـبـد ... بـنـعـت فـرق بـه يـكـلـف
والـعـبـد مـيـت بـغـيـر رب ... لـسـر عـون مـنـه يـكـلـف

وقوله: أدرك فرقاً حيث لم يكنه، ومعناه أي أدرك فرقاً حيث لم يكن فرق، وإنما أثبتته الحكمة، فوجب إثباته بالله، فالشريعة أدب منه إليه، والطريقة سير منه إليه، والحقيقة: وصول منه إليه، وإليه يرجع الأمر كله، فاعبده وتوكل عليه.

سمع بعض العارفين هاتف الحق يقول: أنا الله سبحاني ما أعظم شأني، ظهرت لخفائها صفاتي، وخفيت لظهورها ذاتي، فشهدت صفاتي بوحدانية ذاتي، وأحاطت ذاتي بجميع صفاتي، فاضمحلت الصفات في الذات، وغابت الذات في الصفات، فمنّي إليّ قربي تنزيهاً وتقديساً عن مثلي، لا إله إلا أنا الملك الحق المبين، كل شيء هالك إلا وجهي (آلم كهيعص طسم حسم عسق) لمن الملك اليوم، لله الواحد القهار، والله تعالى أعلم.

ثم أشار إلى:

[(مقام البقاء)]

فقال:

(فـرد نـحـو عـالـم الـتـحـويـل ... وعـبـروا عـن ذاك بـالـنـزول
ورده بـالـحـق نـحـو الـخـلـق ... كـي مـا يـؤدي واجـبـات الـرق)

قلت: إذا تمكن المريد في الجذب، وتحقق من شهود الرب، وأتقن صناعة السباحة في البحر، رد إلى شهود جزيرة البر، ليكون ماشياً بين بر وبحر، وهو مقام الكمال، كما قال ابن عطاء الله بعد الكلام على مقام الجذب والخمرة: «وأكمل منه عبد شرب فازداد صحواً، وغاب فازداد حضوراً، فلا جمعه يحجبه عن فرقه، ولا فرقه يحجبه عن جمعه، يعطي كل ذي حق حقه، ويوفي كل ذي قسط قسطه»، انتهى.

ويسمى هذا مقام البقاء؛ لأنه أبقى ما كان نفاه أول مرة في حال جذبه، فلما صحا من سكرته، وجد ما كان نفاه باقياً على حاله، وإنما نفى الوهم فقط، وفي

ذلك يقول الجيلي في عينيته:

فأفنيتها حتى فنت، وهي لم تكن ولكنني بالوهم كنت أطالع

وقال الششتري:

افنِ من لم يكن يبق من لم يزل

فمقام البقاء مقام شريف، وحال منيف، وهو مقام الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو معنى قول الشيخ أبي يزيد: «خضنا بحراً وقفت الأنبياء بساحله» لأن الأنبياء عليهم السلام لما خاضوا البحر من القدم الأول، رجعوا إلى ساحل البحر ليسيروا الناس في البر والبحر، ولو بقوا في البحر ما أمكنهم أن يسيروا أحداً في البر، فتبطل حكمة الإله في إرساله لهم، ولعل الشيخ أبا يزيد قال هذه المقالة قبل رجوعه للبقاء والسكر غالب عليه.

قوله: «فرد» أي رده الشيخ «نحو عالم التحويل» بالحاء المهملة، أي التصديق، وهو محل ظهور تصرفات الأسماء والصفات، وهو عالم الخلق، وقد كان في حالة الجذب في عالم الأمر.

وفي بعض النسخ بالمعجمة أي محل ظهور إنعام الله على خلقه، وما خولهم به من كرمه وجوده.

وقوله: «وعبروا عن ذاك بالنزول» لأن الحرية ارتفاع، والعبودية نزول.

وقال في الحكم ـ بعد ما تكلم على الحضرة ـ فإن نزلوا إلى سماء الحقوق، أو أرض الحظوظ، فبالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين.

وقوله: «ورده بالحق نحو الخلق» أي رده بالله نحو عالم الخلق، لأجل أن يؤدي ما وجب عليه من حقوق الرق، وهي العبودية، وهي عند الله أشرف المقامات وأسنى الكرامات، وما خاطب الله أنبياءه ورسله إلا بالعبودية، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: 1]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: 45]، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: 41]، إلى غير ذلك.

وقد قلت في قصيدتي العينية في هذا المعنى:

تمسك بمنهاج الشريعة إنها أمان من كل هول للظهر قاطع
فشد لها يد الضنين فمنتهى كمال الكمال منك هو الشرائع

وقال سيدي علي رضي الله عنه في كتابه: اعلم أن مقام البقاء هو مقام الملك

بالله، وهو مقام خاصة الخاصة، وهو مقام الراحة بعد الشقاء، والربح بعد الخسران، وهو مقام العبودية لله بلا علة، والنظر إليه بلا واسطة، وهو مقام التفريق بعد الاجتماع، والتواضع بعد الارتفاع، والعجز بعد القدرة، والأدب لله بالله بعد التمكين في الحضرة الإلهية، صاحب هذا المقام راسخ في العلم والعمل، راتع في شهود الحق في الجلال والجمال، لتحقيق المقامات والأحوال.

قال أبو المواهب التونسي في قوانينه: من وصل البقاء أمن الشقاء.

ثم أشار إلى:

[(ما يفعل بعد ترشيده وإطلاق يده من التحجير)]

فقال:

(فكلم الناس بكل رمز ... وألغز التعبير أي لغز
وعندما أسلكه المسالك ... أقامه شيخاً لكل سالك)

قلت: الفقير إذا كان في مقام الاستشراف، ولم يتمكن من علم التحقيق، تجده يعبر عن الحقيقة بعبارة واضحة عارية من الكسوة، وذلك لضيق عطنه وعدم فروسيته، فإذا تمكن في العرفان، ورسخ في الشهود والعيان، استحق حينئذٍ دخول الميدان، وجال مع الفرسان، فإذا جال بفرسه بين الناس لا يسبق ولا يضر أحداً من الخلق.

أو تقول: كل من لم يتحقق بالوصول لا يقدر أن يرقق الغزول ولله در الغزالي حيث قال:

غزلت لهم غزلاً رقيقاً فلم أجد ... لغزلي نساجاً فكسرت مغزلي

فإذا رد المريد إلى مقام البقاء وسلك تلك المسالك المتقدمة من جذب وفناء وتخلية وتحلية أمره الشيخ بتذكير الناس وإرشادهم إلى ربهم، فاستحق أن يكون شيخاً مربياً، وهذا حاصل البيتين، والرمز أدق وأخفى من اللغز، لأن الرمز إشارات وتلويحات، واللغز كلام يراد به غير ظاهره، يفهمه من عرف اصطلاحه أو قرينته.

وكان حق الناظم أن يقدم البيت الثاني على الأول، لأن تعبير المريد ناشىء عن تذكيره، وتذكيره ناشىء عن تقديمه لذلك، وتقديمه هو إقامته للشيخوخة، فإذا أقامه لذلك أمكن أن يأتي بالرمز أو باللغز، والأمر في ذلك قريب، والله تعالى أعلم.

[التصوف أذواق]

ثم أشار إلى أن هذا العلم ليس هو أقوالاً باللسان، وإنما هو أذواق بالجنان، فقال:

(فهذه أحوال ذي الأحوال   تدرك بالأفعال لا الأقوال)

قلت: الإشارة تعود إلى ما قدمه من أول الباب إلى هنا، وأن تدريج السالك في هذه الأحوال والمقامات هي أحوال أهل الأذواق والوجدان من أرباب الأحوال، وهي إنما تدرك بالأعمال: مجاهدة ومكابدة، ثم مشاهدة.

قال الجنيد رضي الله عنه: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، والمراء والجدال، وإنما أخذناه عن الجوع والسهر، وكثرة الأعمال.

وأنشدوا في معنى ذلك:

يا من يريد منازل الأبدال   من غير قصد منه للأعمال
لا تطمعن فيها فلست من أهلها   ما لم تزاحمهم على الأعمال
بيت الولاية قسمت أركانه   ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمتٍ واعتزالٍ دائمٍ   والجوع والسهر النزيه العالي

ثم بين أن ما ذكره هو طريق السلف المتقدمين من الجهابذة المتمكنين، وأنه لا يزال الخصام في وجودها أبداً، فقال:

(فكذا كان طريق القوم   ولم يزل يخصم كل خصم)

قلت: الإنكار على الأولياء سنة ماضية، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: 31]، وما قيل في النبي يقال في الولي، لأنه على قدمه، لكن حجة الأنبياء غالبة واضحة، وحجة المنكرين عليهم واهية داحضة، وكذلك حجة الأولياء على الأغوياء، لا تزال قائمة غالبة، لأنها هي الطائفة الظاهرة إلى يوم القيامة، وهذا معنى قوله: «ولم يزل يخصم كل خصم» أي يغلب كل من يخاصمه، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

تنبيه: قوله: «فهكذا» الإشارة تعود إلى تدريج المريد وتربيته بالكيفية التي تقدمت، وهل هذه التربية تجري في كل زمان؟ أو لكل زمان تربية مخصوصة؟ الظاهر أن كل زمان تحدث له تربية مخصوصة، لأن الأولياء على قدم الرسل، فكما أن الحق تعالى لم يكتف برسول واحد لجميع بني آدم لاختلاف المصالح والعوائد، فكل زمان

بعث الله فيه رسولاً يخرج أهله من عوائدهم التي حجبتهم عن الله، وكذلك الأولياء يبعثهم الله في كل زمان بخرق عوائده.

وقد قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز[1]: تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور.

ويقال في قياسه: تحدث للناس تربية بقدر ما تعودوا من الأمور، والله تعالى أعلم.

[التصوف ميراث نبوي]

ثم إن هذه الطريق ميراث نبوي، أخذه وارث عن وارث إلى خير وارث، وهي مستمرة حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، وإلى ذلك أشار بقوله:

(وهي إذا ما حققت موارث عن خير مبعوث وخير وارث)

قلت: هذه الطريقة موروثة، أخذها عارف عن عارف إلى سيد العارفين ﷺ ولنذكر سلسلتنا تبركاً واقتداءً بمن ذكر ذلك، فنقول:

أخذنا الطريق وعلم التحقيق عن شيخنا الواصل المحقق الكامل مربي السالكين ومرشد الطالبين سيدي: محمد البوزيدي الحسني، عن شيخه القطب العارف شيخ المشايخ مولاي العربي الدرقاوي الحسني، عن شيخه: سيدي علي، عن شيخه سيدي: العربي، عن شيخه سيدي: أحمد بن عبد الله، عن شيخه سيدي: قاسم الخصاصي، عن شيخه سيدي: محمد بن عبد الله الكبير، عن شيخه سيدي: عبد الرحمٰن الفاسي[2]، عن شيخه سيدي: يوسف الفاسي، عن شيخه سيدي: عبد

---

(1) أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي أبو حفص، الخليفة الصالح والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبيهاً له بهم ولد سنة 61هـ وتوفي سنة 101 هجرية. (انظر في الأعلام 5/ 50).

(2) هو عبد الرحمٰن بن عبد القادر بن علي أبو زيد الفاسي (1040 ـ 1096 هـ = 1631 ـ 1685م) فقيه باحث من أهل فاس وصنف نيفاً وسبعين كتاباً منها (مفتاح الشفاء) (أزهار البساتين) والأقنوم في (مبادىء العلوم) (ابتهاج البصائر فيمن قرأ على الشيخ عبد القادر) ومنظومات في (الطب) و(الإسطرلاب) و(التوقيت) وغير ذلك.
(الأعلام 3/ 310) و(اليواقيت الثمينة 195) و(الدرر الفاخرة 13) و(سلوة الأنفاس 1/ 315).

الرحمٰن المجذوب، عن شيخه سيدي: علي الصنهاجي المشهور «بالدوار» عن شيخه سيدي: إبراهيم الفحام، عن شيخه سيدي: أحمد زروق، عن شيخه سيدي: أحمد بن عقبة الحضرمي، عن شيخه سيدي: يحيى القادري، عن شيخه سيدي: علي بن وفا، عن أبيه سيدي: محمد بحر الصفا، عن شيخه سيدي: داوود الباخلي، عن شيخه سيدي: أحمد ابن عطاء الله، عن شيخه سيدي: أبي العباس المرسي، عن شيخه سيدي: أبي الحسن الشاذلي عن شيخه القطب سيدي: عبد السلام بن مشيش، عن شيخه سيدي: عبد الرحمٰن المدني، عن شيخه القطب: تقي الدين الفقير (بالتصغير فيهما)، عن شيخه القطب: فخر الدين، عن شيخه القطب: نور الدين أبو الحسن عن شيخه القطب: تاج الدين، عن شيخه القطب: شمس الدين، عن شيخه القطب زين الدين القزويني، عن شيخه القطب سيدي: إبراهيم البصري، عن شيخه القطب سيدي: أحمد المرواني، عن شيخه القطب سيدي: سعيد، عن شيخه القطب سيدي: سعد، عن شيخه القطب: فتح السعود، عن شيخه القطب سيدي: سعيد الغزواني، عن شيخه القطب أبي محمد: جابر، عن أول الأقطاب سيدنا: الحسن سبط رسول الله ﷺ، عن والده أمير المؤمنين سيدنا: علي كرم الله وجهه الذي هو «باب مدينة العلم» (عن نخبة الوجود) ومادة عين الرحمة والجود، سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا: محمد رسول الله ﷺ عن سيدنا جبريل، عن الرب الجليل جل جلاله وتقدست صفاته وأسماؤه.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: طريقتنا هذه مروية مسلسلة، قطب عن قطب إلى رسول الله ﷺ.

فمن لم يكن له سلسلة أشياخه فهو مقطوع، لا يصح الاقتداء به، والله تعالى أعلم.

[ما سلكه الشيخ يسلكه المريد]

ثم ذكر أن ما سلكه التلميذ المتقدم من المقامات والأحوال هكذا يكون سلكها شيخه، فقال:

(وهكذا الشيخ على التحقيق إذ كان مثل سالك الطريق)

قلت: الإشارة تعود إلى التربية المتقدمة، يعني أن الشيخ المحقق كان سلك الطريق مثل ما سلكها المريد، وهذا إخبار بمعلوم، إذ لو لم يسلكها شيخه قبله ما سلكها هو، وقد تقدم في شروط الشيخ ذلك كله، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(فمن يكن بهذه الأوصاف شيخاً وتلميذاً فعن إنصاف)

قلت: يريد أن من اتصف بهذه الأوصاف المتقدمة، بأن كان جامعاً بين حقيقة وشريعة، بين جذب وسلوك، زاهداً في الدنيا، رافعاً همته عن الأكوان بأسرها، فهو مستحق بأن يكون شيخاً، ومن كان على قدمه من أتباعه، استحق أن يكون تلميذاً على نعت الحق والإنصاف، وإلا فلا.

ثم ختم الفصل بفذلكة ليس تحتها حكم يتعلق بالفن، فقال:

(فهذه لوازم الأحكام جئنا بها تترىٰ على نظام
وما ذكرنا فهو كالقليل إذ اختصرنا خشية التطويل)

قلت: يعني أن هذه الأحكام التي ذكرها في هذا الفصل من تدريج المريد إلى أن يصير شيخاً، هي الأحكام التي تلزم المريد الذي يطلب الوصول، ولوازم الأحكام، من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي فهذه الأحكام اللوازم، أي اللازمة للمريد الصديق جئنا بها تترى، أي يتبع بعضها بعضاً، وإنما ذكر القليل دون الكثير، لأن كثرة التطويل موجب للملل، ومقلل للتحصيل.

وقد قالوا: التحبر مفتاح التحير.

وكان الزهري يقول: إذا طال المجلس حضره الشيطان، لأنه موجب لكثرة الكلام فيوقع في التحير، والله تعالى أعلم.

خاتمة: قال الشيخ زروق رضي الله عنه: فإن **قلت**: هل يصح دخول الخلوة والسلوك على هذا الأسلوب بغير شيخ؟ قلنا: نعم، ولكن يتعذر النجاح لقوة العوارض وكثرتها، فلذلك قيل: إن الشيخ واجب في هذه المجاهدة دون مجاهدة التقوى والاستقامة، وقد تقوى همة مريد في ذلك ولا يجد شيخاً، فيهجم على ذلك ويتوقف في الثبات والترك على رأي أخٍ صالحٍ ذي بصيرة سليمة، ثم يقوم مستعيناً بالله، فإن الله سبحانه يمنحه على قدرِ همتهِ بفضله، وأما الرياضات والخوات الاصطلاحية التي يذكرها أبو العباس البوني وغيره، فأسلمها ما يتعلق بالذكر المجرد، وقد قربه في كتابه «القبس» وذكره من غير تقييد بأكل ولا صوم ولا كيفية ولا سبب، فاعمل به إن شئت بعد تحقيق علم، وبالله التوفيق، انتهى.

قلت: طريقة الأسماء لا تخلو من حروف وحظوظ، الفتح فيها بعيد،

والإخلاص فيها معدوم، وطريق الذكر المجرد إن كان بالشيخ نهض من ساعته، وإن كان بغير شيخ، فإن كان مراده الأجور أخذه وافراً، وإن كان مراده الوصول فغاية ما يصل إليه الفناء في الصفات، وأما الفناء في الذات فلا يمكن بغير شيخ، هذا ما جرت به العادة، وإن خرقت العادة في فرد فلا يقاس عليه، والله تعالى أعلم، وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل الرابع: تقبيح من أُنكر هذا الطريق

ثم شرع في الفصل الرابع، فقال:

(الفصل الرابع في الرد على من رده   وليس يدري شأنه وقصده)

قلت: مضمن هذا الفصل: تقبيح من أنكر هذا الطريق، وتوبيخ من رد على أهله وتزييف رأيه وتحقير شأنه، حيث أنكر ما لم يحط به علماً، ولم يدرك له شأناً ولا قصداً إذ لو عرف شأنه لعظمه، ولو أدرك المقصود منه سارع إليه، ولكن كما قال القائل: «من جهل شيئاً عاداه»، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: 11]، وقال الشاعر:

وكم عائب ليلى ولم ير وجهها   فقال له الحرمان: حسبك ما فات

وقد تقدم أول الكتاب «فصل الاجتماع» على ترجيح مذهب الصوفية على غيرهم، وذكر هنا الاحتجاج على ترجيح علومهم على علوم غيرهم، ومن أين نشأ الإنكار عليهم وذم المنكر عليهم، **فأشار إلى الأول بقوله:**

(هذا الطريق من أجلّ الطرق   فافهم هديت واقتده بنطق)

قلت: إنما كان من أجل الطرق، لأنه يدل على الله من أول قدم، وخصوصاً طريق الشاذلية، بخلاف غيره من الطرق، فإن منها ما يدل على العمل، ومنها ما يدل على العلم بالأحكام.

وقد قال الشيخ القطب ابن مشيش: «من دلك على العمل فقد أتعبك، ومن دلك على الدنيا فقد غشك، ومن دلك على الله فقد نصحك».

والدلالة على الله هي الفناء فيه بالغيبة عمَّا سواه.

ولقد سمعت شيخ شيخنا رضي الله عنه يقول: صاحبنا أول قدم ندخله في الفناء في الذات، ولا يحتاج إلى مجاهدة عمل، إذا صدق في صحبته.

وإن شئت **قلت**: إنما كان من أجلِّ الطرق لأن شرف العلم على قدر شرف متعلقه، ومتعلق هذا العلم أشرف المتعلقات، لأن مبدأه صدق التوجه إلى الله. ومنتهاه إفراد القلب والقالب إلى الله على وجه تحقيق اليقين،

حتى يصير في معد الشهود والعيان.

أو تقول: أوله داعٍ إلى محبة الله، وأوسطه داعٍ إلى السير إلى الله، ونهايته الوصول إلىٰ معرفة الله.

وقالوا في شأن المحبة: أولها جنون، وأوسطها فنون، وآخرها سكون.

وقال الجنيد رضي الله عنه: لو أعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه.

وقال الشيخ الصقلي رضي الله عنه: كل من صدق بهذا العلم فهو من الخاصة، وكل من فهمه فهو من خاصة الخاصة، وكل من عبر عنه وتكلم فيه فهو النجم الذي لا يدرك والبحر الذي لا يترك.

وقوله: «فافهم هديت» إلخ: الجملة دعائية معترضة بين المعطوفين، أي فافهم واقتد بما نقول لك، هداك الله لطريق الحق، وأبان لك معانية.

وأثبت هاء السكت في الوصل على حد قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90]، فيمن بها.

ثم ذكر:

[(وجه ترجيحها على سائر الطرق)]

فقال:

(إن العلوم كلها المعلومة فنونها في هذه متهومة)

قلت: إنما كانت العلوم المعلومة عند الناس «فنونها» أي فروعها في جانب هذه الطريقة «متهومة» أي مشكوكة، لأن غايتها لا يحصل إلا غالب الظن الراجح، وقد يحصل الجزم المطابق عن دليل، لكن لا يسلم من اختلاج الوهم لعدم الجزم بصحة الدليل.

فقد قال بعضهم: إيمان أهل علم الكلام كالخيط المعلق في الهوى، يميل مع كل ريح، أو كريشة تتقلب مع كل ريح، بخلاف علم التصوف، فإن غايته الطمأنينة والتحقيق ذوقاً وكشفاً وشهوداً، فالعلوم كلها تحصل علم اليقين، والتصوف يحصل عين اليقين وحق اليقين.

العلوم كلها: استدلالية وبرهانية، وعلوم القوم: ذوقية وعيانية.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان.

وقال الشبلي رضي الله عنه: ما ظنك بعلم: علم العلماء فيه تهمة، يعني أنه في معد العيان، وغيره في محل التهمة، إذ لا يخلو صاحبه من خاطر ريب وتهمة، إذ لا تنقطع الخواطر عن القلب، إلا إذا حصلت فيه الطمأنينة بالله، ولا تحصل الطمأنينة إلا بصحبة أهل الطمأنينة.

وفي بعض الأحاديث: «**تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين، والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح**»[1]

قلت: ومما يرجح أيضاً ما قاله الناظم: أن طالب العلم الظاهر لا تجد قصده إلا معلولاً إذ غالب طلبة العلم فساد قصدهم فيه بطلب الحظوظ والحروف، بخلاف طالب علم الباطن، فلا تجد نيته إلا صحيحة، لأنه مبني على قتل النفوس وطرح الحظوظ، فلا ينال منه شيئاً إلا من ترك حظوظه وشهواته.

[العلوم الكسبية]

ثم بين الشيخ وجه دخول التهمة في العلوم الرسمية فقال:

(إذ العلوم في مقام البحث وإن هذا في مقام الإرث)

قلت: العلوم الرسمية كلها كسبية، تدرك بالبحث عليها بالدلائل والبراهين، فنهايتها الظن القوي، وهذا شأن الفروع الفقهية، لأن جلها ظنية وأما أصول الدين فنهايتها الجزم المطابق عن دليل، فغايتها الإيمان بالغيب، بخلاف علوم القوم، فإنها مواهب وأسرار وكشوفات وأذواق تورث عن أربابها بالصحبة والمحبة والخدمة، حتى يسري ما في باطن الشيخ إلى باطن التلميذ فيتنور الباطن بنور اليقين، ثم يغيب في شهود رب العالمين، حتى يصير ما كان غيباً شهادة، وما كان علماً ذوقاً وحالاً، وما كان دليلاً مدلولاً، وما كان نظرياً يصير ضرورياً، كما قال شيخ شيوخنا المجذوب رضي الله عنه:

طلع النهار على قلبي حتى نظرت بعينيا

---

(1) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 1/ 409) وأبو نعيم في (حلية الأولياء 6/ 95) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 1/ 72).

أنت دليل يا رب أنت أولى مني بيا
غيبت نظر في نظري وأفنيت عن كل فاني
حققت ما وجدت غير وأمسيت في الحال هاني

وفرق كبير بين من يكون مع الأحباب داخل الحجاب، وبين من يكون يأخذ أجرته من وراء الباب ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9]، قوم أقامهم لخدمته، وقوم اختصهم بمحبته ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿20﴾﴾ [الإسراء: 20].

وفي نوازل المعيار: سئل ابن رشد رحمه الله عن قول الإمام أبي حامد الغزالي في الإحياء لما ذكر معرفة الله تعالى والعلم به قال: والرتبة العليا في ذلك للأنبياء، ثم للأولياء العارفين، ثم العلماء الراسخين، ثم الصالحين، فقدم الأولياء على العلماء، وفضلهم عليهم.

وقال الأستاذ القشيري في أول رسالته: فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه، فهل هذا نحو قول أبي حامد، وهل هذا المذهب صحيح أم لا، فقد قال بعض الناس: لا يفضل الولي على العالم، لأن تفضل الشخص على الآخر إنما هو برفع درجاته عليه لكثرة ثوابه المرتب على عمله، فلا فضل إلا بتفاوت الأعمال، وقد ثبت أن العلم أفضل من العمل، لأنه متعدٍ والعمل قاصر، والمتعدي خير من القاصر، فثوابه أكثر، وصاحبه أفضل.

فأجاب: أما تفضيل العارفين بالله على العارفين بأحكام الله، فقول الأستاذ وأبي حامد فيه متفق، ولا يشك عاقل أن العارفين بما يجب لله من أوصاف الجلال ونعوت الكمال، وبما يستحيل عليه من العيب والنقصان أفضل من العارفين بالأحكام، بلى العارفون بالله أفضل من أهل الأصول والفروع، لأن العلم يشرف بشرف المعلوم وثمراته، فالعلم بالله وصفاته أشرف من العلم بكل معلوم، من جهة أنه متعلق بأشرف المعلومات وأكملها، لأن ثماره أفضل الثمرات، ثم قال بعد ذكر ثمرات المعرفة بالله من الاتصاف بالأخلاق السنية بعد التطهير من الأوصاف الدنية: ولا شك أن معرفة الأحكام لا تورث شيئاً من هذه الأحوال ويدل على ذلك الوقوع، فإن الفسق فاشٍ في كثير من علماء الأحكام، بل أكثرهم مجانبون للطاعة والاستقامة، بل قد اشتغل بعضهم بأقوال الفلاسفة في النبوات والإلهيات، ومنهم

من خرج عن الدين، ومنهم من شك فتارة يترجح عنده الشك وتارة يترجح عنده البطلان، **ثم قال**: فكيف يساوى بين العارفين وبين الفقهاء، والعارفون أفضل الخلق وأتقاهم لله سبحانه وتعالى، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13].

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]، فإنما أراد العارفين به وبصفاته وأفعاله، دون العارفين بأحكامه، ولا يجوز حمله على علماء الأحكام، لأن الغالب عليهم عدم الخشية، وكلام الله صدق، فلا يحمل إلا على من عرفه وخشيه.

وقد روي هذا عن ابن عباس رضي الله عنه، وهو ترجمان القرآن، فإن كان عالماً بالله تعالى وبأحكامه، فهذا من السعداء، وإن كان من أهل الأحوال العارفين بالله، فهذا من أفضل العارفين، إذ قد حاز ما حازوا وفضل عليهم بمعرفة الأحكام.

وأما قول من قال: إن العمل المتعدي خير من القاصر، فإنه جاهل بأحكام الله تعالى بل العمل القاصر أحوال: إحداها أن يكون أفضل من المتعدي، كالتوحيد، والإسلام والإيمان وكذلك التسبيح عقب الصلوات فإن رسول الله ﷺ فضله على التصدق، **ثم قال**: فإن كانت مصلحة القاصر أفضل من مصلحة المتعدي قدمت على المتعدي وإن كانت مصلحة المتعدي أرجح قدمت على القاصر، فتارة نقف على الرحجان فنقدم الراجح، وتارة ينص الشارع على تفضيل أحد العلمين فتقدمه وإن لم نقف على رجحانه، وتارة لا نقف على الرجحان ولا نجد نصاً يدل على التفضيل، فليس لنا أن نجعل القاصر أفضل من المتعدي، ولا المتعدي أفضل من القاصر، لأن ذلك موقوف على الأدلة الشرعية فإذا لم يظهر شيء من الأدلة الشرعية لم يجز أن نقول على الله ما لا نعلمه، أو نظنه بلا أدلة شرعية، ثم ذكر قوله ﷺ في أبي بكر: «**ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صدره**»[1] انظر بقية كلامه ذكره في الجنائز، والتفضيل عند المحققين إنما هو بقوة اليقين، فمن قوي يقينه أكثر كان عند الله أكبر، وهو الذي وقر في صدر أبي بكر، فسبق به، والله تعالى أعلم.

---

(1) أخرجه علي القاري في (الأسرار المرفوعة 476).

[منكرو علم التصوف]

ثم ذكر المنكر لهذا العلم ومنشأ إنكاره، فأشار إلى الأول بقوله:

(وأنكروه ملأ عوام لم يفهموا مقصوده فهاموا)

قلت: الملأ في أصل اللغة هم أشراف القوم وعظماؤهم، لأنهم تملأ العين بالنظر إليهم ثم صار يطلق على مطلق الجماعة، والعوام ضد الخواص، فالعوام هم أهل اليمين، والخواص هم السابقون من المقربين، فكل من حجب بسحب الآثار عن رؤية الأعمال فهو من العوام، وكل من نفذ إلى شهود الأنوار قبل الكون أو معه أو عنده فهو من خواص المقربين، وكل علم وفن له عوام وخواص فيه، يعني أن جماعة من العوام أنكروا علم الباطن، وقالوا ليس إلا علم الشريعة الذي هو العلم الظاهر، وأما علم الباطن فلم ينزل به كتاب ولا سنة.

قلنا: يرد عليهم بقوله تعالى في قضية سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام: ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 62]، فالعلم اللدني هو العلم الموهوب، وهو على قسمين: قسم يكشف عن سر الوجود ومعرفة الملك المعبود، وقسم يكشف عن سر القدر وما يقع من الحوادث، والمعتبر عند المحققين هو القسم الأول.

وقد فسر النبي ﷺ مقام الإحسان بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»[1] ولا يمكن أن يعبد الله كأنه يراه، وهو محجوب بظلمة الآثار.

وقال أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كنت أدخل على النبي ﷺ وهو وأبو بكر يتكلمان في علم التوحيد، فأجلس بينهما كأني زنجي لا أعلم ما يقولان، فهذا التوحيد الذي يتكلم فيه النبي ﷺ مع الصديق هو التوحيد الخاص، وهو غوامضه وأسراره التي لا تفشىٰ إلا لأهله، وهو المسمى عندنا بعلم الباطن، ويسمى أيضاً بعلم الحقيقة، وسيأتي زيادة بيان لهذا الأمر عند قوله: «هل ظاهر الشرع مع الحقيقة: إلا كأصل الفرع في الحديقة».

قوله: «وأنكروه ملأ» هو على حد قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾

---

(1) أخرجه البخاري (إيمان 37) ومسلم (إيمان 1، 5، 7) وأبو داود (سنة 16) والترمذي (إيمان 4) والنسائي (إيمان 5، 6) وابن ماجة (مقدمة 9) وأحمد بن حنبل (2، 107، 132).

[الأنبياء: 3]، وقوله: فهاموا، أي تحيروا أو تلفوا وضلوا عن سلوك طريق التحقيق، وبالله التوفيق.

[منشأ الإنكار على التصوف]

ثم بين منشأ الإنكار وسببه فقال:

(وكل من أنكر منه شيئاً	**فإنما ذاك لسبع أشيا**
لجهله لنفسه الشريفه	**وكونها في أرضها خليفه**
وجهلها بالعلم المعقول	**وشغله بظاهر المنقول**
وسهوه عن عمل القلوب	**والخوض في المكروه والمندوب**
والجهل بالحلال والحرام	**والميل عن مواهب الإلهام)**

قلت: ذكر سبعة أشياء هي الموجبة لإنكار العوام على الخواص، وهم أهل الباطن:

الأول: جهلهم بحقيقة نفسهم وشرفها، وهو الروح في أصل نشأتها، فلما حجبت وتظلمت سميت نفساً، ولا شك أن الروح التي قامت بهذا البدن: أصلها لطيفة نورانية ملكوتية جبروتية، عالمة بما كان وما يكون وما حجبها عن هذا العلم إلا شغلها بتدبير البدن وتحصيل أغراضه وشهواته، فكلما جاهدها وخرق عوائدها رجعت إلى أصلها، فأدركت العلوم اللدنية والأسرار الربانية، وهو علم الباطن، فلو علم الإنسان أصل نفسه وشرفها، وعرف السبب الذي حجبها عن أصلها لاحتال عليها حتى يردها لأصلها، لكن جهله بأصله تركه محجوباً بها حتى أنكر خصوصيتها، ولذلك قال يحيى بن معاذ الرازي[1]: «**من عرف نفسه عرف ربه**» قيل من عرف نفسه كيف كانت فاحتال عليها حتى ردها لأصلها فقد عرف ربه، وقيل: معناه من عرف حقيقة نفسه، فقد عرف ربه، لأنه حصل مقام الجمع وحجب به عن الفرق، والله تعالى أعلم.

الأمر الثاني: جهل كون نفسه خليفة عن الله في أرضه، قال تعالى في شأن آدم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] ولا شك أن الحق سبحانه ركب هذا

---

(1) هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي أبو زكريا (000 ـ 258 هـ 000 ـ 872م) واعظ زاهد من أهل الري أقام ببلخ ومات في نيسابور له كلمات سائرة.
(الأعلام 8/ 172) و(طبقات الصوفية 107 ـ 114) (وصفة الصفوة 4/ 71، 80) وغيرها.

الروح اللطيف في هذا المظهر الإنساني الكثيف، وجعله يتصرف في الكون كيف شاء، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29] وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: 12] وقال في الحكم «جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته، وأنك جوهرة تنطوي عليك أصداف مكوناته، وسعك الكون من حيث جثمانيتك، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك، فالإنسان في أصل نشأته خليفة الله في وجوده من عرشه إلى فرشه، لكن الإنسان لما جهل نفسه أشغلها بخدمة الأكوان، فسقطت عن رتبة الخلافة حين صارت مملوكة في أيدي المماليك، ولا يصلح للخلافة إلا من كان حراً عن الملوك والمماليك.

قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: الأكوان كلها عبيد مسخرة، وأنت عبد الحضرة. وفي بعض الأخبار المروية عن الله عز وجل:

«يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك، وخلقتك من أجلي، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له».

فكل من تحرر من رق الأكوان ورفع همته عنها ملكها بأسرها واستولت روحه على الوجود بأسره، فصار خليفة الله في كونه، وأما من بقي مملوكاً في يدها فلا خلافة له.

الأمر الثالث: جهل النفس بالعالم المعقول، والمراد به العالم الروحاني، وهو عالم المعاني لأنه لا يدرك بالنقل وإنما يدرك بتصفية العقل وجوهريته، حتى يصير سراً من أسرار الله فحينئذٍ يدرك عالم المعاني، ويغيب عن عالم الأواني، وهو عالم الحس.

فتحصل أن من اشتغل بعالم الأشباح، وهو عالم الحس، وعالم الحكمة لا يدرك عالم الأرواح، وهو عالم المعاني، وعالم القدرة، وأنكر على من ادعى إدراك شيء من ذلك فهو معذور كمن أنكر طلوع الشمس وهو أرمد، كما قال البوصيري:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمدٍ   وينكر الفم طعم الماء من سقم

وسبب حجابهم عن عالم المعاني، وهو عالم القدرة: اشتغالهم بعلم عالم الحس، وهو عالم الحكمة، فاشتغلوا بعلم المنقول والاطلاع على الأقوال الغريبة وتحرير المسائل الفروعية والتغلغل فيها، وهو سبب حجاب علماء الظاهر:

تجمدوا على ظاهر الشريعة وادعوا الإحاطة بها، وأنكروا على أهل علم الحقيقة، فضلوا وأضلوا عن طريق الخصوص، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85] ولو تأملوا في سر الشريعة لوجدوها تدل على الطريقة والطريقة توصل إلى الحقيقة، ولكن سنة الله لا تنخرم، فلا بد من قوم يتجردون لعلم الشريعة ويحملون لواءه، وإلا ضاعت الطريقة والحقيقة، إذ لو ذاقوا هذا العلم لزهدوا في سائر العلوم، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

الأمر الرابع: الاشتغال بعمل الجوارح الظاهرة، والتعمق فيه، والغفلة عن عمل القلوب وتصفيتها، وهو سبب حجاب العباد والزهاد، وحبستهم حلاوة عبادتهم عن شهود معبودهم وحلاوة زهدهم عن معرفة خالقهم، فاستوحشوا من كل شيء لغيبتهم عن الله في كل شيء، فهم ينكرون الخصوصية لغيرهم، ويثبتونها لنفوسهم، وهو الجهل المركب، وهذا مع ما قبله أشد الحجاب عن الله، ولذلك قال بعضهم: أشد حجاباً عن الله العلماء ثم العباد ثم الزهاد.

الأمر الخامس: الخوض فيما يحسنه العقل ويقبحه، فما استحسنه العقل أحبوه واعتقدوه وما قبحه العقل كرهوه وأنكروه، فوقفوا مع عقولهم فانعقلوا عن مراتب الكمال، وحجبوا عن مدارك الرجال، فالعقل معقول، لا يدرك من أمر التوحيد إلا افتقار الصنعة إلى صانعها، وأما أسرار التوحيد وغوامضه، فهو خارج عن دائرته كما قال ابن الفارض رضي الله عنه:

فثم وراء النقل علم يدق عن ... مدارك غايات العقول السليمة

وهذا سبب حجاب أهل علم الكلام وقفوا مع الدليل، وحجبوا عن المدلول، ارتبطوا مع الدليل والبرهان، وأنكروا الشهود والعيان، هذا معنى قوله: «والخوض في المكروه والمحبوب» ويحتمل أن يريد الخوض في الدنيا بالاشتغال في تحصيل محبوبها، كالعز والجاه والمال، والبعد عن مكروهها كالذل والفقر وغير ذلك مما تكره النفوس، فإن الاشتغال بذلك حجاب عظيم عن سر التوحيد، والله تعالى أعلم.

الأمر السادس: جهل الإنسان بما يحل له الخوض فيه وما يحرم عليه، إذ لو تحقق ذلك وعلم ما فيه من العقوبة لانزجر وانكف عن الخوض فيما لا علم له به، وأشغله عيبه عن عيوب غيره، لكن لما جهل ما يضره وما ينفعه أطلق لسانه في الإنكار على أولياء الله من غير احترام ولا احتشام، فلا جرم أنه إن لم يتداركه

اللطف يخاف عليه سوء الخاتمة.

وفي الحديث القدسي: «**من عادى لي ولياً فقد آذنني بالحرب**»[1] أو كما قال.

وفي حديث آخر: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[2] ولا تغتر بمن يدعي مرتبة العلم ثم يطلق لسانه في أولياء الله فإنه جاهل على الحقيقة لأن ذلك سببه الرضى عن نفسه، وأي علم لعالم يرضى عن نفسه، وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه، عصمنا الله من ذلك بمنه وكرمه.

الأمر السابع: الميل عن المواهب الإلهامية والعلوم اللدنية، وعدم التعريج عليها والتصديق بها، ولا شك من لم يعرج عليها ولا يصدق بوجودها لا يتشوف إليها ولا يطلبها وعلم الباطن كله مواهب وكشوفات، فمن لم يصدق به لا يناله أبداً ما دام منكراً له، وقد قالوا: أول الطريق تصديق، ووسطه توفيق، وآخره تحقيق، فمن لا تصديق له لا توفيق له، ومن لا توفيق له لا وصول له لعين التحقيق، ولذلك قالوا: التصديق بطريقتنا ولاية أي لأنها سبب الولاية، والله تعالى أعلم.

هذا آخر الأسباب الموجبة للإنكار على طريق الخصوص، فمن سلم من هذه الأسباب فتح له الباب ورفع عنه الحجاب ومنح مشاهدة الأحباب بمنة الكريم الوهاب، وإلا بقي مع عصبة الجهال في الحيرة والضلال، **كما أبان ذلك بقوله:**

(واعلم بأن عصبة الجهال بهائم في صورة الرجال)

قلت: إنما كان الجهال بهائم في صورة الرجال، لأن الميزة التي شرف بها الإنسان على البهائم هو العقل، والعقل نور يميز به صاحبه ما يضره وما ينفعه، فإذا صار الإنسان يتعاطى أموراً تضره في دينه، وتحجبه عن ربه، ويترك أموراً تقربه إلى ربه، وتوصله إلى حضرة قدسه، فقد انطمس نور عقله وصار كالبهيمة أو أضل، قال تعالى في شأن الكفار: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 44].

وقال بعض الحكماء: من غلب عقله على شهوته كان كالملائكة أو أفضل،

---

(1) أخرجه البخاري (رقاق 38).

(2) أخرجه الترمذي (زهد 11) وابن ماجة (فتن 12) ومالك في الموطأ (حسن الخلق 3) وأحمد بن حنبل (1، 201).

ومن غلبت شهوته على عقله كان كالبهائم أو أضل، والمراد بالجهل في كلام الناظم الجهل بالنفس وشرفها ومن جهل نفسه جهل ربه، ومن جهل ربه كان كالبهيمة، فهو راجع إلى السبب الأول من الأسباب السبعة.

ثم أشار إلى تقرير السبب الثاني، وهو:

[(جهله بكونها خليفة)]

ولا تكون خليفة حتى تتحرر من رق الهوى فقال:

(ومن أباح النفس ما تهواه فإنما معبوده هواه)

قلت: أصل الروح في أول نشأتها الطهارة والنزاهة، لأنها من عالم القدس، فنعيمها إنما هو ذكر ربها وشهوده، والقرب من حضرة قدسه، فلما ركبت في هذا القالب إظهاراً لقدرته وحكمته مال بها إلى أصله الطيني، فانقلب نعيمها إلى النعيم الجسماني وهو الشهوات الجسمانية الحسية، فانحجبت بذلك عن أصلها، فمن أراد الله سعادته وفقه لمخالفتها ومجاهدتها في قطع مألوفاتها وهواها، حتى ترجع إلى أصلها فيصير نعيمها في ذكر مولاها وشهوده، فيعظم قدرها ويشرف محلها، فحينئذٍ تستحق الخلافة وتتحقق بالنيابة، فتحكم بهمتها على الكون، وتتصرف في الوجود بأسره: أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوِّن، فإذا شهدت الكون كانت الأكوان معك.

ومن أراد الله خذلانه وهوانه بعدله، أشغله بشهواته الفانية ومألوفاته الجسمانية، فاتخذ إلهه هواه، وحجب بذلك عن مشاهدة مولاه، فسقط في أسفل سافلين، وطرد عن ساحة رب العالمين، فمن أباح نفسه وأعطاها كل ما تهواه فإنما محبوبه ومعبوده هواه، وضل بذلك عن طريق الوصول إلى مولاه، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: 23]، فاتباع الهوى يصد عن سبيل الهدى قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: 26]، ويخمد نور السريرة، ويطمس شعاع البصيرة.

قال الشاعر:

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى وعقل عاصي الهوى يزداد تنويراً

وهو أيضاً سبب الذل والهوان والالتحاق بحزب الشيطان.

قال الشاعر:

لا تتبع النفس في هواها   إن اتباع الهوى هوان

وقال بعضهم: «الهوى شرك الردىٰ» أي شبكته ومصيدته، وبالله التوفيق.

ثم أشار إلى تقرير السبب الثالث، وهو:

[(الجهل بالعالم المعقول)]

فقال:

(تالله ما يجمل باللبيب   جهل البعيد منه والقريب)

قلت: اللبيب هو الكامل العقل، والبعيد منه ظلمة الحس؛ والقريب منه هو نور المعاني، الذي هو أصله وفصله.

أو تقول: البعيد من الإنسان هو ظلمة الأواني، والقريب منه هو نور المعاني المفنية للأواني.

أو تقول: البعيد منه التجليات المنفصلة عنه في الحس، كالسموات والأرضين، وما بينهما، والقريب منه جسمه المتصل به، والكل متصل في المعنى، كما قال الششتري فيه:

متحد المعنى في كل حي

فينبغي أن يعرف في الجميع فلا يحمل.

أي يحسن باللبيب أن يجهل ما هو بعيد منه من ظلمة الحس؛ وما هو قريب منه من نور المعاني، فنور روحك أقرب إليك من ظلمة حسك، لكن لما انطمست البصيرة اشتغلت الروح بتدبير هذا الجسم وتحصيل شهواته وأغراضه، فسقطت في أسفل سافلين، وبعدت من حضرة رب العالمين، فتركت ما هو قريب من نور حضرة الحبيب، واشتغلت بما هو بعيد من ظلمة الجسم: في تحصيل أغراضه وتوفير شهواته، فارتبطت في عالم الأشباح ولم ترجع إلى عالم الأرواح، وهو عالم المعاني، بل أنكرته بالكلية؛ ولو انفتحت البصيرة لشاهدت الأنوار الحاجبة الماحية للأغيار أقرب إليها من كل قريب، قال في الحكم:

«شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده» وحق البصيرة يشهدك وجوده: لا عدمك ولا وجودك. «**كان الله ولا شيء**

معه، وهو الآن على ما عليه كان»[1]

وراجع الشرح ففيه تفسير هذه المعاني، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر تقرير السبب الرابع، وهو:

[(الغفلة عن عمل القلوب)]

فقال:

(كيف يرى في جملة السباق   من حظه مع الحظوظ باق)

قلت: السباق جمع سابق، والحظوظ هي الشؤون والشواغل: جمع حظ.

اعلم أن الناس على قسمين: أهل اليمين، والسابقون، فأهل اليمين هم المشتغلون بإصلاح الظواهر وتدبير شؤونها، وما يصلح بها جلباً ودفعاً عاجلاً وآجلاً، والسابقون هم المشتغلون بإصلاح القلوب والسرائر، وهم المقربون والغائبون عن رؤية أنفسهم، الباقون بشهود ربهم، فكل من اعتنى بإصلاح ظاهره فاته إصلاح باطنه، وكان من أهل اليمين، وكل من اعتنى بإصلاح باطنه كان من السباق، وحشر في زمرة المقربين.

قال الشيخ أبو الحسن: «غب عن إصلاح ظاهرك إن أردت فتح باطنك» فكيف يرى الإنسان ويظهر في جملة السباق، ويلتحق بأهل الجد والاستباق، وحظه منصرف لتحصيل حظوظه وشؤون ظاهره الحسية، وهمته واقفة مع عوائده وشهواته الوهمية، «كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد».

ولا بد من صحبة شيخ عارف، ينقلك من العمل الظاهر إلى عمل الباطن، وإلا بقيت مع عوام المسلمين من أصحاب اليمين تنكر مقامات المقربين.

وبين عمل القلوب وعمل الجوارح ما بين عمل السر والعلانية.

وقال بعضهم: الذرة من أعمال القلوب، أفضل من أمثال الجبال من عمل الجوارح، والله تعالى أعلم.

ثم قرر السبب الخامس، وهو:

---

(1) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 2/ 105) وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة 263) والعجلوني في (كشف الخفاء 2/ 189).

[(الخوض في المكروه والمحبوب)]

فقال:

(متى يجد جواهر المعاني ... مَنْ قلبُهُ على الدوام عاني)

قلت العاني هو: الأسير، وفي الحديث: «**فكوا العاني وأطعموا الجائع**»[1] وجواهر المعاني هي أسرار الذات في أنوار الصفات.

أو تقول: هي أسرار الجبروت وأنوار الملكوت.

أو تقول: هي: المعاني اللطيفة القائمة بالأواني الكثيفة، فإذا ظهرت المعاني تلطفت الأواني، وفي ذلك يقول ابن الفارض رضي الله عنه:

ولطف الأواني في الحقيقة تابع ... للطف المعاني والمعاني بها تسموا

وقال في الحكم: لولا ظهوره في المكوَّنات ما وقع عليها وجود أبصار، لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته.

فالصفات معاني والأكوان أواني: لا تنظر إلى الأواني. وخض بحر المعاني لعلك تراني.

وقال أيضاً: أباح لك أن تنظر في المكونات، وما أذن لك أن تقف مع ذات المكونات ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [يونس: 101]، فتح لك باب الأفهام ولم يقل انظروا السموات، لئلا يدلك على وجود الأجرام، فالأجرام كالصدف ليواقيت المعاني، فمن وقف مع الصدف الظاهر حجب عن جمال اليواقيت الباطنة، فمن كان قلبه مصروفاً إلى ظواهر الأجرام مشغوفاً بحبها أسيراً في يدها معموراً بصور خيالها، لا يطمع أن يذوق حلاوة المعاني، ولا تشرق عليه أنوارها:

كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته.

أم كيف يدخل إلى الله وهو مكبل بشهواته.

أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته.

أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته.

فمتى يجد في قلبه بهجة جواهر المعاني من قلبه على الدوام عاني (أي أسير)

---

(1) أخرجه أبو داود في (سننه الجهاد ب 11) وأحمد بن حنبل في (المسند 4/ 406).

في قيد هواه الجسماني، متعوب في خدمة الأواني، يقرب هذا، يحب هذا ويبغض هذا، يقبح هذا ويحسن هذا، يصغر هذا ويكبر هذا، فما دام هذا شأنه لا يطمع أن يطلع على بهجة المعاني، ولا يترقى إلى العالم الروحاني، وإنما وطنه العالم الجسماني منكراً على أهل المعاني إلا أن يتداركه الله بلطف رباني، فينهض بخوف مزعج أو شوق مقلق، وما ذلك على الله بعزيز.

[تضييع العمر والاشتغال بالفضول]

ثم قرر السبب السادس من أسباب الإنكار:

وعنه ينشأ تضييع العمر والاشتغال بالفضول، فقال:

(لم يتصل بالعالم الروحاني   من عمره على الفضول حاني)

قلت: الحاني على الشيء هو المنكب عليه والمنهمك في محبته بكليته، والعالم الروحاني هو ضد العالم الجسماني، فالعالم الروحاني هو عالم الملكوت، والعالم الجسماني هو عالم الملك أو تقول العالم الروحاني هو عالم التلطيف، والعالم الجسماني هو عالم التكثيف، فالتلطيف محل التعريف، والتكثيف محل التكليف، أو تقول العالم الروحاني هو عالم الأرواح، والعالم الجسماني هو عالم الأشباح، أو تقول: العالم الروحاني هو عالم القدرة، والعالم الجسماني هو عالم الحكمة، أو تقول: العالم الروحاني هو عالم الجمع، والعالم الجسماني هو عالم الفرق، أو تقول: العالم الروحاني هو عالم شهود الربوبية، والعالم الجسماني هو محل ظهور العبودية، وهذه التفاسير معناها واحد، وإنما ذكرتها للإيضاح، واعلم أن محل عالم الأرواح وعالم الأشباح واحد عند أهل التحقيق إذ الأرواح لا تظهر بغير أشباح، والأشباح لا تقوم بغير أرواح لكن قوم غلبت بشريتهم على روحانيتهم، وظلمتهم على نورهم، وملكهم على ملكوتهم، فلم يروا إلا الأشباح تظهر وتعدم، وهم أهل الحجاب من أهل السلوك.

وقوم غلبت روحانيتهم على بشريتهم، ونورهم على ظلمتهم، وملكوتهم على ملكهم، فلم يروا إلا الأرواح تظهر وتبطن.

وإن شئت **قلت**: لم يروا إلا الأنوار تكثفت وتدفقت من بحار الجبروت إلى رياض الملكوت، وهم أهل العرفان من أهل الشهود والعيان.

أو تقول: هم أهل الجذب والفناء، فهم غرقىٰ في بحار الأنوار، مطموس

عليهم الآثار، فإن فاقوا من سكرتهم وصحوا ميزوا بين الأشباح والأرواح، وبين القدرة والحكمة، فأعطوا كل ذي حق حقه، ووفوا كل ذي قسط قسطه، ولم يحجبوا بجمعهم عن فرقهم، ولا بفرقهم عن جمعهم، وهم الكمل رضي الله عنهم، وإنما سمي عالم المعاني بالعالم الروحاني لأن من عرفه وكوشف به لا يرى إلا الأرواح تكثفت بالقدرة وانحجبت بالحكمة كما قال ابن الفارض:

وقامت بها الأشياء ثم لحكمة   بها احتجبت عن كل من لا له فهم

والضيمر على الخمرة الأزلية، ثم قال:

وهامت بها روحي بحيث تمازجا اتحـ   ـاداً ولا جرم تخلَّله جرم

فأهل عالم الأرواح لا يرون الأجرام ولا الأشباح، وإنما يرون الأرواح تكثفت في تماثيل الأشباح، وإذا ردوا إلى رؤيتها قائمة بالله، ومن الله، وإلى الله، ولا شيء سواه، رأوها أواني حاملة للمعاني.

أو تقول: رأوها مغارف يسقىٰ منها شارب المعارف، ولا يسقىٰ من هذه الأواني خمرة المعاني إلا من هو عن حظوظه فاني، لا يتصل بالعالم الروحاني: من هو مع العالم الجسماني، لا يترقى إلى العالم الروحاني، من كان في أيام عمره على الفضول حاني، وأنشدوا:

بقدر الكد تكتسب المعالي   ينال العز من سهر الليالي
تريد العز ثم تنام ليلاً   يغوص البحر من طلب اللآلي

وكل ما يشغل العبد عن الترقي إلى الحضرة فهو فضول، سواء كان عملاً حسياً أو عملاً رسمياً أو غير ذلك مما لا يحصى، والله تعالى أعلم.

ثم قرر: السبب السابع، وهو:

[(الميل عن مواهب الإلهام)]

فقال:

(ليس يرى مع المعاني دان   من قلبه في عالم الأبدان)

قلت: الداني هو القريب، والمراد بالمعاني أسرار عظمة الربوبية وأنوار الألوهية، وهي لطيفة شريفة رفيعة منيفة، رفيعة المدارك دقيقة المسالك، لا ينالها إلا قلب سماوي، أو روح عرشي، أو سر جبروتي، قد ارتفعت همته عن سائر الأكوان ورحلت روحه من عالم الأبدان، إلى طلب الشهود والعيان، فني عن وجوده في شهود

معبوده، فرغ قلبك من الأغيار يملأه بالمعارف والأسرار، فليس يقرب من ساحة المعاني من كان قلبه في العالم الجسماني، من اشتغل بخدمة الأشباح لا يترقى أبداً إلى عالم الأرواح، من اعتنى بخدمة جسمه مات في سجن غمه وهمه.

سأل سهل رضي الله عنه عن القوت، فقال: هو الحي الذي لا يموت، فقال: إنما سألتك عن القوام، فقال: القوام هو العلم، قيل: سألناك عن الغذاء، فقال: الغذاء هو الذكر، قيل: إنما سألناك عن طعم الجسد، فقال: ما لك وللجسد، دع من تولاه أولاً يتولاه آخراً، إذا دخلت عليه علة رده إلى صانعه، أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانعها حتى يصلحها، وأنشدوا:

كمل حقيقتك التي لم تكمل ... والجسم دعه في الحضيض الأسفل
أتكمل الفاني وتترك باقياً ... هملاً وأنت بأمره لم تحفل
فالجسم للنفس النفيسة آلة ... ما لم تحصله به لم يحصل
يفنىٰ وتبقى دائماً في غبطة ... أو شقوة وندامة لا تنجل
أعطيت جسمك خادماً فخدمته ... أتملك المفضول رق الأفضل
شرك كثيف أنت في حبلاته ... ما دام يمكنك الخلاص فعجل
من يستطع بلوغ أعلى منزل ... ما باله يرضى بأدنى منزل

وقال آخر:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران؟
عليك بالنفس فاستكمل فضيلتها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

قلت: وتكميل فضيلة النفس هو تطهيرها وتهذيبها وتقريبها من حضرة ربها، فمن يطهرها ولم يهذبها فقد بخسها ونقصها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: 9 ـ 10].

وفي الحكم «اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون لنداء الحق مجيباً ومن حضرته قريباً».

فإذا خرج العبد من أوصاف بشريته ترقى إلى مقام الروحانيين، فيشاهد حينئذٍ أنوار ربه، ويحظى بمؤانسته وقربه، ولذلك زاد في الحكم بعد هذه الحكمة متصلاً به «الحق ليس بمحجوب عنك، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه» إلخ.

كأنه يقول: ما حجبك عنه إلا أوصاف البشرية التي أنت محجوب بها، فإذا زالت عنك زال حجابك واتصلت بمرتبة الشهود وعرفت الملك المعبود، وبالله

التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق.

وإلى هذا في الجملة أشار بقوله:

(مهما ترقى مادة الموضوع   يأخذ نجم الدرك في الطلوع)

قلت: الموضوع هنا هو الجسم الموضوع لظهور الروح وقيامها به، فهو كالقالب لها أو كالصدف، ومادته ما يقوم به في العادة كالأكل والشرب واللباس، ويدخل فيه ما يقوم به معناه كالعز والجاه والمال وغير ذلك من مكملاته، فما دامت النفس مشتغلة بتحصيل هذه المادة جلباً ودفعاً، تحصيلاً وتكميلاً، فهي مرتهنة به، محبوسة معه، كيف يرحل القلب إلى الله وهو مكبل بشهواته.

وللششتري رضي الله عنه:

فارفض الخلق وارقا   ترتق عن ظلالك
واسبق الخلق سبقاً   ثم غب عن فعالك
وافن في الحب عشقاً   فالمراد في زوالك

فما دام العبد مقبلاً على دنياه، مشتغلاً بتحصيل حظوظه وهواه، لا يطمع في الرحيل إلى حضرة مولاه، فإذا غاب عن مادة حسه، وزهد في نفسه وفلسه وجنسه، يأخذ نجم إدراكه في الترقي إلى حضرة قدسه، فلا يزال يمشي في نور نجم توحيد الأفعال، إلى أن يطلع عليه قمر توحيد الصفات، ثم تشرق عليه شمس توحيد الذات، فيقول بلسان حاله:

طلعت شمس من أحب بليل   فاستضاءت، فما تلاها غروب
إن شمس النهار تغرب بليل   وشمس القلوب ليست تغيب

وقال آخر:

ليلي بوجهك مشرق   وظلامه في الناس ساري
الناس في سدف الظلا   م ونحن في ضوء النهار

وقال سيدي عبد الرحمٰن المجذوب:

طلع النهار على الأقمار   ولا أبقى إلا ربي
الناس زارت محمد   وأنا أسكن لي في قلبي

وقلت في عينيتي:

تبدت لنا شمس النهار وأشرقت   فلم يبق ضوء النجم والشمس طالع

تنحى رداء الصون عن كون ربنا فسرنا إلى نور الحبيب نسارع

ثم تأسف الناظم على:

[(قلة من يساعده في وقته على حاله)]

فقال:

(يا حسرتي إذ لا مجد راكب يصحبنا في هذه المواكب)

قلت: الموكب هو: الجماعة ركباناً ومشاة والجمع مواكب، وكأنه رضي الله عنه لم يجد في زمانه من يساعده على هذا العلم لأنه عزيز وأهله أعز من كل عزيز، وغالب الناس إما مشغول بدنيا، أو مفتون بدعوى، أو مبتلىً بهوى، وإن كان الزمان لا يخلو منهم فهم أقل من القليل، وأعز من العزيز، وأغرب من عنقاء مغرب، لكن لا ينسحب ذلك على كل زمان فإن النور النبوي تارة ينبع ويظهر فيظهر أهله لصلاح ذلك الزمان، وتارة يخفى مع وجوده، فيخفى أهله لفساد ذلك الزمان، فالعدد لا ينقطع، لكن تارة يريد الله تعالى إظهار أوليائه كزماننا هذا، والحمد لله، وتارة يريد الحق تعالى إخفاءهم لحكمة أرادها الله تعالى، والله يحكم لا معقب لحكمه، والله تعالى أعلم.

ثم تأسف ثانياً على:

[(قلة من يبحث معه في هذا العلم)]

فقال:

(يا معشر الإخوان هل من سائلٍ أخبره عن هذه المسائل)

قلت: المذاكرة في هذا الفن من الأمور المؤكدة، فلا بد من صحبة إخوان يخوض معهم في هذا الفن، وقد قالوا: فهم سطرين أفضل من حفظ سفرين، ومذاكرة اثنين أفضل من هاتين، وكما أن الذكر اللساني الجماعة فيه أفضل، كذلك الذكر القلبي، وهي الفكرة، الجماعة فيه أفضل من الانفراد، والجماعة في الفكرة هي المذاكرة مع أرباب الفن، فإن إدراك فكرات متعددة أحسن من إدراك فكرة واحدة، وهذا كله مع من دخل بلاد المعاني، وإلا فاستعمال فكرة واحدة أفضل من الاجتماع مع غيره، وقال سيدي علي العمراني: «الجلوس مع العارف أفضل من العزلة والعزلة أفضل من الجلوس مع العامة» وفضل الصحبة أمر شهير لما فيه من التعاون، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 2].

وأوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود كن يقظاناً وارتد لنفسك إخواناً، وكل أخ أو صاحب لا يوافق على مسرتي فارفضه، فإنه لك عدو، أو كما قال.

وقال ابن عباد رضي الله عنه في نظم الحكم:

إن التواخي فضله لا ينكر وإن خلا شرطه لا يشكر
والشرط فيه أن تؤاخي العارفا عن الحظوظ واللحوظ صارفا
مقاله وحاله سيان ما دعوا إلا إلى الرحمٰن
أنواره دائمة السراية فيك وقد حفت بك الرعاية
وقاصد لفاقد هذا الشرطا بصحبة يعقدها قد أخطا
لأنه يرى بها محاسنه فنفسه ذات اغترار آمنه

وهو نظم لقوله: «لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله» ربما كنت مسيئاً فأراك الإحسان منك صحبتك إلى من هو أسوأ حالاً منك، وهذه النصيحة تصدق بصحبة الشيخ والإخوان، وإن كان ابن عطاء الله إنما قصد بها الشيخ، والله تعالى أعلم.

[التأسف على فقدان العارفين بالله]

ثم تأسف على ذهابهم وانقراضهم في زمانه.

فقال:

(وا أسفا يا فتية الوصول على انصرام حبلها الموصول)

قلت: التأسف هو التحسر، والفتية جمع فتى، والفتى هو من كسر صنم نفسه، قال تعالى في شأن الخليل: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾ [الأنبياء: 60].

وفتية الوصول: هم العارفون بالله، لأنهم أهل الوصول والتمكين، والانصرام هو الانقطاع. وكأن طريق العارفين كانت فيما سلف موصولة بحياة أربابها، مرتبطة بتحصين، ثم انصرمت وانقطعت بموت أربابها وانقطاع موادها وأسبابها، وهذا كما قال القائل:

أهل التصوف قد مضوا صار التصوف مخرقة
صار التصوف ركوة وسجادة مزوقة
صار التصوف سبحة وتواجداً ومنطقة

كذبتك نفسك ليس ذي   سنن الطريق الملحقة

فتأسف الشيخ وتحسر على انقطاع هذا الطريق بانقطاع أهلها وناداهم وإن كانوا غائبين زيادة في التحسر، فكأنه يقول يا أسفي يا أولياء الله على انقطاع طريقكم بعد وصلها، واندراسها بعد ظهورها، وقد تقدم له هذا المعنى في أول الكتاب.

[التشويق إلى اللحوق بالعارفين بالله تعالى]

ثم شوق إلى اللحوق بهم ومشاركتهم في مقاماتهم فقال:

(لو أبصر الشخص اللبيب العاقل   لم يعتقل عن هذه المعاقل)

قلت: الاعتقال هو: الربط والحبس، ومنه عقال البعير، والمعاقل هي المراتع التي يعقل فيها الخيل لترتع، ولا يكون إلا خصباً، كالروض ونحوه.

يقول رضي الله عنه: لو أبصر العاقل بنور بصيرته ونظر ما خص الله أولياءه من كرامته، وما متعهم به من النزهة في معرفته، لم يغفل ويجلس عن هذه الرياضات، والمراتع التي رتع فيها الذاكرون وتنزه في رياضها العارفون، ولم يقنع بخيالات الدنيا التي لا حقيقة لها، وشهواتها الفانية التي لا بقاء لها، قال تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: 205 ـ 207].

قال في التنبيه: وحاصل الدنيا أمور وهمية انقادت طباع الناس إليها، وهي لا تفي بجميع مطالبهم لضيقها وقلتها وسرعة تقضيها، فتجاذبوها بينهم، فتكدر عيشهم، ولم يحصلوا على كلية أغراضهم، كما قيل:

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها   على أنهم فيها عراة وجوّع

أراها وإن كانت قليلاً كأنها   سحابة صيف عن قريب تقشع

وقال سهل رضي الله عنه: للعقل ألف اسم، ولكل اسم منه ألف اسم، وأول اسم منه ترك الدنيا.

قال الحسن رضي الله عنه: كيف يسمى عاقلاً وهو يصبح ويمسي في الدنيا ومباهاة أهلها في المطاعم والمشارب والملابس والمراكب، أولئك هم الخاسرون، أولئك هم الغافلون، أولئك هم الجاهلون.

قلت: ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام في بعض مواعظه «**إن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور**»[1]

وقال أبو علي الثقفي رضي الله عنه: أفٍ من أشغال الدنيا إذا أقبلت وأفٍ من حسراتها إذا أدبرت، والعاقل من لا يركن إلى شيء إذا أقبل كان شغلاً وإذا أدبر كان حسرة، وقد قيل في معناه:

ومن يحمد الدنيا لشيء يسره فسوف لعمري عن قريب يلومها

إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

وقيل لأبي القاسم الجنيد رضي الله عنه: متى يكون الرجل موصوفاً بالعقل؟ فقال: «إذا كان للأمور مميزاً ولها متصفحاً، وعما يوجبه عليه العقل باحثاً» يلتمس بذلك طلب الذي هو أولى ليعمل به، ويؤثره على سواه، فإذا كان كذلك فمن صفة العقلاء ركوب الفضل في كل أحواله بعد إحكام العلم بما فرض عليه، وليس من صفة العقلاء إغفال النظر لما هو أحق وأولى، ولا من صفتهم الرضى بالنقص والتقصير، فمن كانت هذه صفته بعد إحكامه لما يجب عليه من عمله ترك التشاغل بما يزول، وترك العمل بما يفنى وينقضي، وذلك وظيفة كل ما سورت عليه الدنيا، وكذلك لا يرضى أن يشغل نفسه بقليل زائل وبيسير حائل، يصده التشاغل به والعمل به عن أمور الآخرة التي يدوم نعيمها ونفعها ويتأبد سرورها، ويتصل بقاؤها، وذلك أن الدين يدوم نفعه، ويبقى على العامل حظه، وما سوى ذلك زائل مردود، مفارق موروث، يخاف مع تركه سوء العاقبة فيه، ومحاسبة الله عليه، وكذلك من صفة العاقل تصفحه للأمور بعقله، والأخذ منها بأوفره، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿18﴾﴾ [الزمر: 18].

بذلك وصفهم الله تعالى، وذوو الألباب هم ذوو العقول، وإنما وقع الثناء عليهم بما وصفهم الله به للأخذ بأحسن الأمور عند استماعها، وأحسن الأمور هو أفضلها وأبقاها على أهلها نفعاً في العاجل والآجل، وإلى ذلك ندب الله من عقل في كتابه.

---

(1) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 9/ 327، 328، 10/ 255) والسيوطي في (الدر المنثور 3/ 44، 5/ 325) وابن كثير في (التفسير 3/ 328) والقرطبي في (التفسير 2/ 104، 7/ 81).

انتهى كلام الجنيد رضي الله عنه، وهو في غاية الحسن لتفسير العاقل، من الله علينا باستعماله آمين:

[العاقل لا يرضى بالغفلة]

وإلى هذا العاقل وجه الناظم الخطاب بقوله:

(يا صاحب العقل الحصيف الوافر إيـاك أن تـصـدمـك الـحـوافـر)

قلت: الحصيف بالمهملة والفاء المروسة هو: المحكم المتقن، وثوب حصيف أي محكم النسج، وهو ضد الخفيف، والصدم هو الزطم بلغتنا.

يقول رضي الله عنه: يا صاحب العقل الكامل لا ترض لنفسك بالغفلة والتواني والتقاعد عن مراتب الرجال أهل المعاني، فتقعد في طريق السير حتى ت«طم فيك الرجال، ويسبقوك إلى رتبة الكمال ونيل كرامة الوصال ودخول جنة الكمال، فتندم حيث لا ينفع الندم، وقد زلت بك القدم، وأنشدوا:

الـسـبـاق الـسـبـاق قـولاً وفـعـلاً حـذر الـنـفـس حـسـرة الـمـسـبـوق

وقال ابن الفارض رضي الله عنه:

وجُدَّ بسيف العزم سوفَ فإن تـجُد تَجُدْ نفساً فالنفسُ إن جُدْتَ جَدّتِ

والتنافس في الطاعات ونيل المراتب محمود قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: 1]، إلا أنه لا ينبغي أن يجعل الإنسان مجاهدته في مقابلة هذا الحرف، بل يجاهد نفسه في تحقيق العبودية والقيام بوظائف الربوبية، ولا يلتمس بذلك حظاً ولا حرفاً، فبذلك يتحقق الإخلاص ويلحق بدرجة الخواص، والله تعالى أعلم.

[ارتحال الدنيا]

(ثم) نبهك على ارتحال الدنيا عنك إن لم ترحل عنها بقلبك فقال:

(لـقـد غـدا الـكـون لـديـك سـافـر إن لـم تـكـن فـيـه كـمـا الـمـسـافـر)

قلت: غدا بمعنى: صار، والسافر الخالي من الشيء، وقد يراد به المسافر، يقال سفر فلان فهو سافر، ويجمع على سفر كراكب وركب.

يقول رضي الله عنه: لقد صار الكون مسافراً عنك بموتك إن لم تسافر عنه بهمتك.

قال ﷺ لعبد الله بن عمر: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»[1] وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه يقول: «**إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح**»[2]

يقول لقد صار الكون خالياً عندك من الخير إن لم تزهد فيه وتسافر عنه بهمتك وتشتغل فيه بطاعة ربك.

والحاصل أن الإنسان والكون يتسابقان ويتصارعان، فمن سبق الكون وغلبه برفع همته عنه والغيبة عما فيه، والزهد فيما اشتمل عليه خدمة الكون بأسره، وصار عوناً له على السير إلى ربه، بل يصير عبداً له، يتصرف فيه بهمته كيف شاء، قال الشاعر:

لك الدهر طوع والأنام عبيد   فعش كل يوم من أيامك عيد

وقال ابن الفارض رضي الله عنه:

وفي سكرة منها ولو عمر ساعة   ترى الدهر عبداً طائعاً ولك الحكم

وقال في الحكم (أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك).

وفي الحديث عنه ﷺ يقول الله تعالى: «**يا دنيا اخدمي من خدمني واتعبي من خدمك**»[3]

وقال أيضاً ﷺ: «**الدنيا طالبة ومطلوبة، فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستكمل رزقه، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة حتى يأخذ الموت بعنقه**»[4]

ومن سبقه الكون وغلبه بالرغبة فيه والحرص على ما اشتمل عليه، بقي في يده أسيراً، وفي سجنه رهيناً، وعن ربه بعيداً، فإذا مات صار في قبره فريداً، وبسبب ذلك عدم العلم والفهم وانقياده للحدس والوهم، كما قال الششتري رضي الله عنه:

تقيدت بالأوهام لما تداخلت   عليك ونور العقل أورثك السجنا

ولا يتخلص الإنسان من سجن الأكوان حتى يخلع نعله عن الكونين،

(1) أخرجه التبريزي في (مشكاة المصابيح 1604).

(2) أخرجه العراقي في (المغني عن حمل الأسفار 4/ 437).

(3) أخرجه الفتني في (تذكرة الموضوعات 175).

(4) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير 10/ 201) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 8/ 82، 83، 9/ 332).

ويتخطى بهمته حظوظ الدارين، كما قال القائل:

وعن الكونين كن منخلعاً وأزل ما بيننا من بيننا

وقال بعضهم: طالب الدنيا أسير، وطالب الآخرة أجير، وطالب الحق أمير، فإذا تحرر العبد من رق الحظوظ، فقد تحقق سفره إلى ربه وظفر بوصله وقربه حققنا الله بذلك بمنه وكرمه وإلا بقي موثقاً بحبل هواه، مكبلاً في قيد حظوظه ومناه، **كما أشار إلى ذلك بقوله:**

[(الانحباس في وثاق الشهوات)]

(يا موثقاً في موثق المماليك تزهو أراك اليوم زهو المالك)

قلت الموثق: المحبوس، والوثاق ما يحبس به، والزهو الترفع والتكبر.

يقول رضي الله عنه: يا محبوساً في وثاق شهواته وحظوظ نفسه، لقد كنت حراً وهي مملوكة لك، لو غبت عنها في محبة خالقها لخدمتك، فلما شغفت بحبها وخدمة نفسك في طلبها صرت مملوكاً لها أسيراً في يدها، فابك على نفسك بكاء الثكلىٰ، واضرع في فكاك نفسك إلى المولى، فعسى أن يفك أسرك ويصلح أمرك ويردك إلى أصلك، فتصير مالكاً والهوى مملوكاً، وتصير مخدوماً والهوى خادمك، كما قال الشاعر:

كنت عبداً والهوى مالكي فصرت حراً والهوى خادمي

وقال آخر:

العبد حر ما عصى طمعاً والحر مهما طاعه عبد

وفي الحكم:

أنت حر مما أنت عنه آيس وعبد لما أنت له طامع.

وقال أيضاً: ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبداً، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبداً.

وقال بعض الملوك لبعض الأولياء: اطلب مني شيئاً نعطك؟ فقال له وكيف أطلب منك وأنت عبد لعبدي، فقال له: وكيف ذلك؟ فقال له: أنا زهدت في الأشياء فخدمتني وأنت أحببت الأشياء فملكتك، أو كلاماً هذا معناه لطول العهد به.

وإذا كنت أيها الراغب في الدنيا أسيراً في يدها، كيف يمكنك أن تزهو وتترفع على غيرك زهو المالك، وإنما أنت مملوك، فتنبه لمصيبتك واعرف قدرك، ولا تتعد طورك، واسأل الله تعالى أن يفك أسرك، وبالله التوفيق.

[توبيخ من لا يستمع إلى النصح]

ثم وبخ المخاطب على قلة الاستماع، فقال:

(يا من أعاتبه على الدوام حتى مَ أجفان الدوا دوام)

قلت: المعاتبة: اللوم والتقريع و«حتى» بمعنى «إلى» الغائية «وما» نافية حذف ألفها للوزن، وأجفان الدوا مبتدأ، ودوام: خبره منقوص مقدر رفعه، ودوام جمع دامية: أي سائلة بالدم، والمجرور بحتى محذوف، والتقدير إلى أي زمان تستمر مريضاً، وليس أجفان عينك التي في بكائها شفاؤك سائلة بالدم.

يقول رضي الله عنه: يا من نعاتبه على الدوام، وهو يسمع عتابي ويفهم خطابي، ومع ذلك لم ينكف عن العناد ولم يرجع عن الانتقاد، إلى متى يبقى عليلاً، وقد أمكنك الدواء، فكيف لا تبكي على نفسك وقد تنشب في باطنك داء الهوى، فإذا كان الدواء في سكب دمعك، فكيف لا تبكي الدم في طلب شفاء نفسك، وفي الحكم (تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال، لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق) ا هـ.

فلا يخرج الداء من القلب إلا وارد قوي يأتي من حضرة قهار لا يصادم شيئاً إلا دمغه إما بنفحة إلهية أو بسبب واسطة شيخ كامل عارف محقق.

والغالب أن من صدق في الطلب يبلغه الله ما طلب، كن طالباً تجد مرشداً، فمن طلب الله وجده وأنجز بالوفاء وعده، فإذا تضرع وبكى على نفسه كما قال الناظم، أخذ الله بيده وأطلعه على ولي من أوليائه حتى يوصله إلى ربه، والله أكرم من أن يلتجيء العبد إليه ولا يضمه إليه، وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي بعض النسخ:

يا من أعاتبه على الدوام حتى متى جفنك في منام

وهو يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «**الناس نيام فإذا ماتوا استيقظوا**»[1]

وقال بعض الشعراء:

إلى كم تمادي في غرور وغفلة وكم هكذا نوم إلى غير يقظة

(1) أخرجه العراقي في (المغني عن حمل الأسفار 4/ 23) والعجلوني في (كشف الخفاء 2/ 432) وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة 368).

لقد ضاع عمر ساعة منه تشتري بملء السما والأرض أية ضيعة
أتنفق هذا في هوى هذه التي أبى الله تسوي جناح بعوضة؟
وترضى من العيش السعيد بعيشة مع الملأ الأعلى بعيش البهيمة

ثم ذكر:

[(سبب إعراض المعاتب وعدم انزجاره)]

وهو البلادة والجهل، فقال:

(كم أنت ذو وسائد عراض لاه عن الجوهر بالأعراض؟)

قلت: «كم» اسم استفهام، يستفهم بها عن العدد، وهي هنا الأزمنة والأوقات، ووسائد جمع وسادة، وصرفاً للوزن، والمراد به هنا: الكناية عن عدم الفهم، يقال: فلان عريض الوسادة، وعريض القفا، إذا لم يفهم ولم يفطن، وقد قال عليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم[1] حيث لم يفهم قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: 187]، فحمله على ظاهره فجعل خيطين تحت وسادته وجعل ينظر إليهما ويأكل حتى تبين أحدهما من الآخر، فلما قال ذلك للنبي ﷺ قال: «**إنك لعريض القفا**»[2] وفي رواية «**إن وسادك إذن لعريض**»[3] على بعض التأويلات، والجوهر هنا كناية عما يبقى، والأعراض كناية عما يفنى، لأن العرض لا يبقى زمانين، يقول رضي الله عنه: كم تمكث أيها المعاند من السنين والأوقات، وأنت في سكرة الغفلات غبي جاهل، لا تسمع الخطاب ولا ينفع فيك العتاب، مشتغل بالعرض الفاني عن النعيم المقيم أما تسمع قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: 88 ـ 89]، إلى كم تبقى غليظ

---

(1) هو عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، أبو وهب وأبو طريف (000 ـ 68 هـ = 000 ـ 687م) أمير، صحابي أسلم سنة 9 هـ وشهد فتح العراق وسكن الكوفة وشهد الجمل وصفين والنهروان مع علي ومات بالكوفة وروىٰ عنه المحدثون 66 حديثاً عاش أكثر من مائة سنة.
(الأعلام 4/ 220، و(سير النبلاء، والإصابة ت 5477).

(2) أخرجه البخاري في (صحيحه 6/ 31) والطبراني في (المعجم الكبير 17/ 79) وابن كثير في (التفسير 1/ 319) والطبري في (التفسير 2/ 100) وابن حجر في (فتح الباري 4/ 133، 8/ 182) والخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه 2/ 136) والسيوطي في (الدر المنثور 1/ 199).

(3) أخرجه ابن حجر في (فتح الباري 4/ 133).

الطبع عريض القفا معتنياً بإصلاح جسمك الذي هو معرض للفناء، لاهياً عن إصلاح جوهر روحك وقلبك الذي هو سبب النعيم على الدوام والبقاء، فبادر أيها الجاهل إلى دواء قلبك قبل أن يهجم عليك الحمام، وأنت على حالك من الأمراض والسقام، فانهض أيها الغافل إلى خلاص نفسك بالتوبة والندم قبل أن تندم ولا ينفعك الندم، وقد زلت بك القدم، وأنشدوا:

أما آن للنفس أن تخشعا ... أما آن للقلب أن يقلعا
تقضي الزمان ولا مطمع ... لما قد مضى منه أن يرجعا
تقضي الزمان فيا حسرتا ... لما فات منه وما ضيعا

وقال آخر:

وما هي إلا ليلة ثم يومها ... يوم إلى يوم وشهر إلى شهر
مطايا يقربن الجديد إلى البلا ... ويدنين أشلاء الصحيح إلى القبر
ويتركن أزواج الغيور لغيره ... ويقسمن ما يحوي الشحيح من الوفر

وقال في الحكم (العجب كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه، ويطلب ما لا بقاء له معه، فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور).

والذي لا بقاء له معه هو شهواته وحظوظه الفانية، والذي لا انفكاك له عنه هو قدر الله وقضاؤه، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر:

[(سبب حجاب الناس عن الله)]

فقال:

(مهما تعديت عن الأجسام ... أبصرت نور الحق ذا ابتسام)

قلت: قد تقدم قريباً عند قوله: «لم يتصل بالعالم الروحاني» إلخ.

الفرق بين العالم الروحاني والعالم الجسماني، فالعالم الجسماني هو محل ظهور حكمته تعالى، لأن من أسمائه تعالى الحكيم، وهو أيضاً محل لظهور آثار تصرفات الأسماء والصفات، من إعزاز وإذلال، وقبض وبسط، وإحياء وإماتة، وغير ذلك من اختلاف الآثار، وهو أيضاً محل لظهور العبودية التي بها كمال سر الربوبية، ومن مقتضى العبودية: الفقر والذل، والعجز، والضعف، والجهل، وهو أيضاً محل ارتباط الأسباب بمسبباتها واقتران العلل بمعلولاتها، وبهذا وقع الحجاب عن شهود

مسبب الأسباب، فوقف الناس مع الأسباب والعوائد ومنعوا عن تحصيل المواهب والفوائد، وانهمكوا في طلب تحصيل هذه الأسباب لتحصيل مسبباتها، وارتبطوا معها حتى ظن أهل الجهل أنه لا بد منها، فداخلهم بذلك هم الرزق وخوف الخلق لضعف إيمانهم وحجابهم عن ربهم فمن أراد الله عنايته رفع الحجاب عن قلبه، فأعرض عن هذا العالم بأسره، ورفع همته إلى ربه، فلاحت له الأسرار، وضحكت في وجهه الأنوار، فمهما تعديت أيها الإنسان بهمتك عن عالم الأجسام، وحصلت لك الغيبة عنه على التمام، أبصرت نور الحق في وجه سرك ذا ابتسام، وهي أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، وما حجبك عنها إلا شغل قلبك بأمر نفسك، فلو بعتها لربك يعوضك منها شهود أنوار قدسه، وما حجبك أيضاً عن شهود تلك الأنوار إلا وقوفك مع خيال الحس ورؤية الأغيار.

[وجوب الارتقاء عن الحس لإدراك معنى النفس]

كما أشار إلى ذلك بقوله:

(مهما ارتقيت عن قبيل الحس أدركت في نفسك معنى النفس)

قلت: من اصطلاحات الصوفية أنهم يعبرون بالحس عما يدركه البصر من الأجسام الكثيفة، وبالمعنى عما يدرك بالبصيرة من المعاني اللطيفة القائمة: بالأجسام، وهي أسرار الذات ومعاني الصفات، فالوجود كله دائر بين حس ومعنى: الحس ظاهر، والمعنى باطن، فالحس كأنه ظرف والمعنى مظروف، والحس لا ينفك عن المعنى، ومثال ذلك الثلجة: ظاهرها ثلجة وباطنها ماء، فالظاهر الجامد حس، والباطن المائي معنىً فالكون كله كالثلجة ظاهره كثيف ويسمى حساً، وباطنه لطيف ويسمى معنىً، وفيه قال الجيلي رضي الله عنه:

وما الكون في التمثال إلا كثلجة وأنت لها الماء الذي هو نابع
فما الثلج في تحقيقنا غير مائه وغيران في حكم دهنه الشرائع

ثم إن الحق سبحانه جعل أحكام الحس مضادة لأحكام المعنى مع تلازمهما، فأحكام الحس أحكام العبودية، وهي النقائص، وأحكام المعنى أحكام الربوبية وهي الكمالات، فمن أراد أن يظفر بالمعنى بتمامها فليغب عن الحس وأحكامه، وهذا معنى قوله: «مهما ارتقيت عن قبيل الحس أدركت في نفسك معنى النفس» أي أدركت في ذاتك معنى الروح، والروح لطيفة نورانية قائمة بالبدن، وهي من قبيل المعاني «فمن عرف نفسه عرف ربه» ولا يفرق بين روحانيته وبشريته إلا من ترقىٰ من عالم الحس إلى عالم المعاني.

والحاصل: أن الحس ما أظهره الله تعالى إلا لتقبض منه المعنى، وهي معرفة الحق سبحانه وتعالى، فلولا ظهور الحس ما قبضت المعنى، ولولا وجود المعنى ما قام الحس، وهو معنى قول الشيخ أبي مدين رضي الله عنه: «الحق مستبد، والوجود مستمد، والمادة من عين الجود، فإذا انقطعت المادة انهد الوجود».

فالحق تعالى مستبد، أي قائم بنفسه، والوجود، وهو الحس الظاهر «مستمد» من المعنى الباطنية، فلو انقطعت مادة المعاني التي تمد الحس «انهد» الوجود أي اضمحل وتلاشى، لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: 41]، وهنا معاني تضيق عنها العبارة، وعلمنا كله إشارة، وفيما ذكرته كفاية، والله تعالى أعلم.

[عتاب من وقف مع الحس ولم ينفذ إلى المعنى]

ثم عاتب من وقف مع الحس ولم ينفذ إلى المعنى، فقال:

(يا من على القشر غدا يحوم   حتى عن اللب متى تصوم)

قلت: القشر هو ظاهر الشيء، ويسمى الصوان بكسر الصاد، لأنه يصون ما في داخله، واللب هو باطن الشيء وقلبه، فالحس قشر والمعنى لب.

يقول رضي الله عنه: يا من وقف مع قشره الظاهر فاعتنى بإصلاح ظاهره وتدبير أمر بدنه أكلاً وشرباً وملبساً ومنكحاً ومسكناً أو اعتنى برفعته وعزه وطلب رياسته وجاهه، أو اعتنى بإصلاح جوارحه الظاهرة ولم ينفذ إلى إصلاح باطنه، و«غدا» أي صار يحوم ويدور حول القشر الظاهر «متى» تستمر صائماً عن حلاوة المعاني الباطنية، وهي حلاوة الشهود ولذة معرفة الملك المعبود، ولم تذق منها ما ذاقت الرجال، ولم تزاحمهم على مراتب الكمال.

قال إبراهيم بن أدهم أو مالك بن دينار(1): خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا شيئاً، قالوا: وما فاتهم؟ قال: حلاوة المعرفة، فكل من وقف مع الرسوم الظاهرة لا يطمع أن يذوق حلاوة المعاني الباطنية، وكل من اشتغل بحلاوة الرسوم لا يذوق حلاوة شهود الحي القيوم، وكل من اشتغل بحلاوة العبادة الحسية لا يذوق حلاوة المعاني القدسية، ولله در الششتري حيث يقول:

جميع العوالم رفعت عني   وضوء قلبي قد استفاق

(1) هو مالك بن دينار البصري أبو يحيى (000 ـ 131 هـ = 000 ـ 748م) من رواة الحديث كان =

تـرانـي غـائـبـاً عـن كـل أيـن كـاس الـمـعـانـي حـلـو الـمـذاق

وقال ابن الفارض رضي الله عنه:

ولو خطرت يوماً على خاطر امرىء أقامت به الأفراح وارتحل الهم

والحاصل أن كل من اشتغل بالحس علماً أو عملاً لا يذوق حلاوة شهود المعنى أبداً، ولا يطمع أن ينتقل من شغل الحس إلى شهود المعنى إلا بصحبة أهل المعنى، وإلا بقي متعوباً في عبادة الحس على الدوام، منكراً على أهل المعاني على الدوام، إلا من عصم الله، والله تعالى أعلم.

وإلى هذا المعنى (أي دوام الإنكار ممن لم يصحب أهل المعاني) أشار بقوله:

(يـا مـن إذا قـيـل لـه تـعـال لـمـنـهـج الـتـحـقـيـق قـال: لا لا)

قلت: تعال فعل أمر بمعنى أقبل، ومنهاج التحقيق هو طريق الوصول إلى معرفة الحق معرفة حقيقية عيانية لا برهانية.

يقول: رضي الله عنه لهذا المنكر لطريق الخصوص: هلم إلى طريق التحقيق: طريق أهل العناية والتوفيق، طريق أهل الجمع بين التشريع والتحقيق.

قال بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: 6]، «هو الجمع بين الشريعة والحقيقة المفهومة» من قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة: 5]، فلما دعا هذا المنكر إلى منهاج التحقيق أجاب بأنه ليس من أهل هذه الطريق، لأنها طريق الأبطال، لا يسلكها إلا فحول الرجال، فقال مستمراً على إنكاره لا، لا أجيبك إلى ما دعوتني، إذ لا طريق أفضل مما أنا عليه، قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 53].

وسبب إنكار هذه الطريق مع أنها مؤسسة على التحقيق، أمران: **أحدهما** أنها مبنية على قتل النفوس وخرق العوائد، وهذا الأمر ثقيل على النفوس، لا يقبله إلا من أراد الله وصوله إليه، وأهلها ثقيلون على النفوس الحية، لأن الميت لا يأوي إليه إلا مثله.

الثاني: أن عمل أهلها خفي، جله باطني، بين فكرة ونظرة، فكل من ينظر إلى أعمالهم الظاهرة استحقرها في عينه، فلا يقنع بطريقتهم.

= ورعاً وكان يكتب المصاحف بالأجرة توفي بالبصرة.

(الأعلام 5/ 261، وفيات الأعيان 1/ 440) و(حلية الأولياء 2/ 357).

قال ابن ليون التجيبي رضي الله عنه: المنكرون على الفقراء ثلاثة أصناف: أرباب الدنيا وأتباعهم، والجامدون من الفروعية وأتباعهم، والمتعمقون في الأعمال المتنمسون[1] وأتباعهم.

فأما أرباب الدنيا فلأن الفقراء أضداد لهم، لرثة ثيابهم وقلة جاههم، والضد يبغض ضده، والدنيا تورث القساوة وطول الأمل، وأتباعهم يمشون في مرضاتهم.

وأما الجامدون من الفروعية (وهم علماء الظاهر) فإنهم يعتقدون الإحاطة بالشريعة، وينكرون على من ترك طريقهم، وتتبعهم العوام على ذلك، والإحاطة بالشريعة متعذر، **ثم قال:** وحقيقة الفقه ما أدى إلى ترك الدنيا وطلب الآخرة.

وأما المتعمقون في الأعمال المتنمسون ففتنهم الشيطان برؤية الأعمال، وجعلهم يزيدون أعمالاً قد نهوا عنها، فعظمهم الناس، فهم ينقصون الفقراء، لأن الفقراء لا يتصنعون، والفقير إذا رأى أعماله أشرك، وإذا رأى أنه قد أخلص احتاج إلى إخلاص يخلصه من شرك نفسه، **ثم قال:** وقد ذهب الفقراء والصوفية مذهب أهل القرآن والحديث، وعلومهم مكارم الأخلاق التي بعث بها النبي ﷺ ليكملها ويتممها، وعامة الخلق مطلوبون بها انتهى المراد منه.

ثم ضرب مثلاً لمن جهل قدر نفسه وهي بين جنبيه، فقال:

(يا جاهلاً من داره سكناها وهو يؤدي أبداً كراها)

قلت: قد تقدم قوله:

(ولم تزل كل نفوس الأحياء علامة دراكة للأشياء)

فأصل الروح قطعة نور جبروتي، انظر قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: 72]، فلما ركبت في هذا الهيكل نسيت أصلها وجهلت أمرها بحكمة الحكيم العليم، فجعلت التعشق إلى أصلها وتجتهد في معرفة خالقها ومظهرها، وتتعب نفسها في الخدمة الحسية طلباً للوصول، فيقال لها إلى كم تتعبين نفسك والشيء أقرب إليك منك، اعرفي أصلك تعرفي ربك.

قال يحيى بن معاذ الرازي: «من عرف نفسه عرف ربه» فلما انكشف عنها حجاب الوهم وجدت نفسها في الحضرة، وهي الدار التي جهلت سكناها،

(1) المتنمس: الصياد الجالس في الناموس. (الأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطي).

فاستراحت من تعبها، ووجدت الدار التي كانت تسكن فيها، كانت لها وهي لا تشعر، فهي كانت مولاة الدار، ولكن لم تشعر، فهي بمثابة من كان يسكن داراً يظنها لغيره وهو يؤدي كراها، فلما علم بحقيقة الأمر ترك الكراء، كذلك الإنسان كان قبل الوصول: يظن أن المطلوب بعيد عنه، فلما زال حجاب الوهم وجد نفسه في الحضرة وهو لا يشعر.

وفي ذلك يقول بعض المشارقة:

قبل اليوم كنت مقيداً بقيود البين

محجوباً بالوهم نحسب مفردي اثنين

لما تبدى جمالك زال عني الغين

شاهدت عيني بعيني وصرت عين العين

وقال: بعض التلامذة لشيخه: أين الله؟ فقال له: أسحقك الله وأبعدك، هل تطلب مع العين أين؟ اهـ.

وقال الششتري: في هذا المعنى.

أنا شيء عجيب ... لمن رآني

أنا المحب والحبيب ... ليس ثم ثاني

وقال أيضاً:

يا قاصداً عين الخبر ... غطاه غينك

فالخير منك والخبر ... والسر عندك

ارجع لذاك واعتبر ... ما ثم غيرك

وقال غيره:

كم ذا تموه بالشعبين والعلم ... والأمر أوضح من نار على علم

أراك تسأل عن نجد وأنت بها ... وعن تهامة هذا فعل متهم

وقال في الحكم (وصولك إلى الله، وصولك إلى العلم به، وإلا فجل ربنا أن يتصل به شيء، أو يتصل به شيء).

وقال أيضاً (لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك).

فمن من قوله: «من داره» ابتدائية، وسكناها مفعول بجاهل، والمراد بالدار

ذاته الحسية، والسكنى الخمرة الأزلية التي قامت بها، فهو ساكن في الحضرة وهو لا يشعر، أي يا جاهلاً بسكنى الحضرة من ذاتها وهو يطلبها ويؤدي كراءها، والله تعالى أعلم.

[الجهل بالنفس سبب الجهل بالرب]

ثم وبخه على جهله بنفسه الذي كان سبباً في جهله بربه، فقال:

(أتدري من أنت؟ وكيف تدري وأنت قد عزلت والي الفكر)

قلت: «والي الفكر» هو العقل، لأنه هو الذي يلي الفكر ويستعمله، عزله عن ذلك، هو اشتغاله بحظوظه وهواه، حتى بعد عن حضرة مولاه، وهذا منه رحمه الله تنبيه وإيقاظ للغافل وتقريع وتوبيخ للجاهل، يقول له: أتدري من أنت أيها الإنسان؟ ولماذا خلقت؟ وما المراد منك؟ أنت نخبة الأكوان، وأنت في الأصل قطب الزمان، أنت المقصود الأعظم من هذا الكون، فلو تفكرت في أمر نفسك لعلمت عظمة ربك فسارعت إليه بجسمك وقلبك، لكن عزلت عقلك عن الفكر والاعتبار، وشغلت نفسك بالفضول والاغترار، فلا جرم أنك هوت نفسك في دار البوار، فلو تفكرت في عجائب نفسك لتحققت بمعرفة ربك، قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: 21]، فتأمل في أول نشأتك، وفي تركيب صورتك، فانظر رحمك الله إلى أصلك حين كنت نطفة مهينة فقلب الحق تعالى عرق دم الحيض مدداً لك في رحم أمك، ثم صرت علقة، ثم مضغة، ثم فصل سبحانه تلك المضغة إلى العظم واللحم والعصب والعروق والدم والجسد والظفر والشعر، ووضع كل واحد منها لحكمة لولاها لاختل الجسد، بحسب العادة، فالعظام منها هي عمود الجسد، فضم بعضها إلى بعض بمفاصل وأقفال من العضلات والعصب، ربطت بها، ولم تكن عظماً واحداً لأنه إذ ذاك يكون مثل الحجر أو الخشبة، لا يتحرك ولا يقوم ولا يجلس ولا يركع ولا يسجد لخالقه الحي القيوم، وجعل سبحانه العصب على مقدار مخصوص، ولو كان أقوى مما هو، لم تصح في العادة حركة الجسم ولا تصرفه في منافعه، ثم خلق تعالى إلخ.

في العظام لين في غاية الرطوبة ليرطب يبس العظام وشدتها، وتتقوى العظام برطوبته، ولولا ذلك لضعفت قوتها وانخرم نظام الجسد بحسب جري العادة، ثم خلق سبحانه اللحم وأعفاه وعلاه على العظام، وسد به خلل الجسد كله، فصار مستوياً لحمة واحدة. واعتدلت هيئة الجسد واستوت، ثم خلق سبحانه العروق في

جميع الجسد جداول لجريان الغذاء فيها إلى أركان الجسد، لكل موضع من الجسد عدد معلوم من العروق صغاراً وكباراً، ليأخذ الصغير من الغذاء حاجته، والكبير حاجته، ولو كانت أكثر مما هي عليه أو أنقص أو على غير ما هي عليه من الترتيب ما صح شيء من الجسد عادة، ثم أجرى الدم في العروق سيالاً خائراً ولو كان يابساً أو أكثف مما هو عليه لم يجر في العروق، ولو كان ألطف مما هو عليه لم تتغذ به الأعضاء، ثم كسى سبحانه اللحم بالجلد: ستره كله كالوعاء، ولولا ذلك لكان قشراً أحمر، وفي ذلك هلاكه عادة، ثم كساه الشعر وقاية للجلد، وزينة في بعض المواضع وما لم يكن فيه شعر جعل له اللباس عوضاً منه، وجعل أصوله مغروزة في اللحم ليتم الانتفاع به، ولين أصوله ولم يجعلها يابسة مثل رؤوس الإبر، إذ لو كانت كذلك لم يهنأ عيش، وجعل الحواجب والأشفار وقاية للعينين ولولا ذلك لأهلكهما الغبار والسقيط، وجعلها سبحانه على وجه ليتمكن بسهولة من رفعها على الناظر عند قصد النظر، ومن إرخائها على جميع العين عند إرادة إمساك النظر إلى ما تؤذي رؤيته ديناً أو دنيا، وجعل شعرها صفاً واحداً لينظر من خلالها، ثم خلق سبحانه شفتين ينطبقان على الفم يصونان الحلق والفم من الرياح والغبار، وينفتحان بسهولة عند الحاجة إلى الانفتاح، ولما فتهما أيضاً من كمال الزينة وغيرها، ثم خلق سبحانه بعدهما الأسنان ليتمكن بها من قطع مأكوله وطحنه، ولم يخلق له الأسنان من أول الخلقة لئلا يضر بأمه في حال رضاعه، ولأنه لا يحتاج لها حينئذٍ لضعفه عما كثف من الأغذية، فعوضه الله منها برأفته لبن أمه دافئاً في الشتاء بارداً في الصيف، فلما قوي وصلح للغذاء الخشن خلق له الأسنان، لأن الطعام لو جعل في الفم وهو قطعة واحدة لم يتيسر ابتلاعه، فيحتاج إلى طاحونة يطحن بها الطعام، فخلق اللحيين من عظمين وركب منهما الأسنان وطبق الأضراس من العليا على السفلى، لتطحن بهما الطعام طحناً، ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر، وتارة يحتاج إلى القطع، ثم يحتاج إلى الطحن بعد ذلك، فجعل سبحانه الأسنان على ثلاثة أصناف: بعضها عريضة طواحن كالأضراس، وبعضها حادة قواطع تصلح للقطع كالرباعية، وبعضها صلبة تصلح للكسر كالأنياب.

ثم جعل سبحانه مفصل اللحيين متخللاً بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر، حتى يكون على الفك الأعلى دوران الرحا، ولولاهما لم يتم إضراب أحدهما على الآخر، مثل تصفيق اليدين، ثم جعل الفك الأسفل يتحرك حركة دورية، «واللحي

الأعلى ثابت لا يتحرك» فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى، فإن رحى الخلق الأعلى يدور، والأسفل ثابت، ورحى الله تعالى معكوسة الأسفل يتحرك والأعلى ثابت، ثم هب أنك وضعت الطعام في الفم فكيف يتحرك الطعام إلى ما تحت الأسنان؟ وكيف تستجره الأسنان إلى نفسها؟ وكيف يتصرف باليد في داخل الفم؟ فانظر كيف أنعم الله عليك فخلق اللسان يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة؟ كالمجرفة ترد الطعام إلى الرحا، هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وعجائب قوة النطق، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر على ابتلاعه، إلا بأن يزلق إلى الحلق بنوع رطوبة أنبع الله تعالى في الفم عيناً نباعة على الدوام، أحلى من كل حلو، وأعذب من كل عذب، فيحرك اللسان الغذاء ويمزجه بذلك الماء فيعود زلقاً فينحدر في الحلق بلا مؤنة، ولهذا إذا أعدم الله تلك العين من حلق المريض لم يمض على الحلق شيء، وإن مضى فبمشقة عظيمة.

ومن عجب هذه العين أنها مع عدم انقطاعها لم يكن ماؤها يملأ الفم في كل وقت، حتى يتكلف الإنسان طرحها، بل جرت على وجه ألجمت فيه أن تتعدى وجه منفعتها، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ثم لما كنت تحتاج إلى مناولة الطعام، وجعله في الفم خلق الله لك اليدين، ولم يجعلك كالبهيمة تأكل على فمك، فأنعم عليك باليدين، وهما طويلتان فتمتدان إلى الأشياء مشتملتين على مفاصل كثيرة، لتتحرك في الجهات فتمتد وتنثني إليك، فلم تكن كالخشبة المنصوبة، ثم جعل رأس اليدين عريضاً فخلق الكف، ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام، هي: الأصابع، وجعلها في صفين بحيث يكون الإبهام في جانب يدور على الأربعة الباقية، ولو كانت مجتمعة لم يحصل بها تمام غرضك، ووضعها وضعاً إن بسطتها كانت مجرفة، وإن ضممتها وثنيتها كانت لك مغرفة، وإن جمعتها كانت آلة للضرب، وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة للقبض، ثم خلق الله سبحانه أظفاراً وأسند إليها رؤوس الأصابع لتشتد بها أطرافها لكثرة حركتها والتصرف بها في الأمور حتى لا تتفتت، وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تأخذها الأصابع، ولتحك بها جسدك، ولما كان الشعر والظفر مما يطول، لما في طولهما من المصلحة لبعض الناس، وفي بعض الأوقات، وكان جزهما مما يحتاج إليه في بعض الأوقات، لم يجعلا كسائر الأعضاء في تألم الإنسان بقطعهما، فانظر إلى دقائق هذه النعم، هل تقوم بشكرها؟!.

ثم إذا نظرت إلى الطعام كيف تجذبه الحنجرة وتبلعه؟ ثم إلى المعدة كيف تطبخه بالحرارة التي فيها؟ ثم إذا طبخ كيف يأخذ القلب اللباب الذي صعد على وجه المعدة؟ ثم كيف يجري في العروق المتصلة به من قرنك إلى قدمك، ثم إلى نعمة الرجلين، كيف تمشي بهما إلى حاجتك؟ وجدت نفسك مغموراً بالنعم، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: 34]، هذه كلها نعم حسية، فكيف بالنعم الباطنية، كنعمة الإسلام والإيمان والمعرفة، والعلم، وغير ذلك مما لا يحصره العقل ولا يعده النقل ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 69]، ولذلك كانت عبادة التفكر قدرها عند الله عظيماً، إذ لا يتوصل إلى هذه العجائب إلا بالتفكر.

ففي الحديث: «**تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة**»[1]

وقال كعب: «من أراد شرف الدنيا والآخرة فليكثر من التفكر».

وقال الجنيد: أفضل المجالس مجلس الفكرة في ميدان التوحيد.

وقال في الحكم «الفكرة سراج القلب، فإذا ذهبت فلا إضاءة له».

وفضائل التفكر كثيرة وقد شفى الغزالي في «الإحياء» فيها الغليل، والله تعالى أعلم.

[شرف الإنسان وعظيم قدره]

ثم بين شرف الإنسان وعظيم قدره إن استقام مع ربه، فقال:

(يا سابقاً في موكب الإبداع ولاحقاً في جيش الاختراع)

قلت: «الموكب» هو الجمع العظيم، «والاختراع» هو الإيجاد، أشار رحمه الله إلى أن الإنسان له وجودان: أحدهما سابق في الأزل، والآخر لاحق فيما لا يزال، فيحتمل أن يشير بالسابق إلى الوجود الأصلي، وباللاحق إلى التجلي الفرعي، أو إلى أصل ظهور القبضة أولاً، ثم ظهور الفروقات ثانياً، وهذا يناسب

(1) أخرجه القرطبي في (التفسير 4/ 314) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 1/ 161) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 3/ 409) والقرطبي في (التفسير 4/ 314) وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة 162) والعجلوني في (كشف الخفاء 1/ 370) والشوكاني في (الفوائد المجموعة 251) والفتني في (تذكرة الموضوعات 188).

قوله: «موكب الإبداع»، وحديث القبضة مروي عن جابر رضي الله عنه قال: **«وسألت رسول الله ﷺ عن أول شيء خلقه الله؟ فقال: نور نبيك يا جابر، خلقه ثم خلق منه كل خير، وخلق بعده كل شيء، وحين خلقه أقامه قدامه في مقام القرب اثنتي عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام فخلق العرش من قسم، والكرسي من قسم، وحملة العرش وخزنة الكرسي من قسم»**.

وأقام القسم الرابع في مقام الحب اثنتي عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء، فخلق القلم من قسم، واللوح من قسم، والجنة من قسم.

وأقام القسم الرابع في مقام الخوف اثنتي عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء فخلق الملائكة من جزء، والشمس من جزء، والقمر والكواكب من جزء.

وأقام القسم الرابع في مقام الرجاء اثنتي عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء، فخلق العقل من جزء، والعلم من جزء، والحلم والعصمة والتوبة من جزء.

وأقام الجزء الرابع في مقام الحياء اثنتي عشر ألف سنة، ثم نظر الله تعالى إليه فرشح النور عرقاً فقطر منه مائة ألف وأربع وعشرون ألف قطرة، فخلق الله من كل قطرة روح نبي أو رسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء، فخلق الله من أنفاسهم نور الأولياء، والسعداء والشهداء والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة» في حديث طويل[1]

وهذا الحديث وإن كان ضعيفاً، فله شواهده تعضده.

منها: حديث عمر رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«يا عمر أتدري من أنا؟ أنا الذي خلق الله تعالى أول كل شيء نوري فسجد له، فبقي في سجوده سبع مائة عام، فأول شيء سجد له نوري، ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا؟ أنا الذي خلق الله العرش من نوري، والكرسي من نوري، واللوح والقلم من نوري، والشمس والقمر من نوري، ونور الأبصار من نوري، ونور العقل الذي في رؤوس الخلق من نوري، ونور المعرفة في قلوب المؤمنين من نوري ولا فخر»**[2]

وذكر الورتجيبي في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: 81]، عن جعفر الصادق: قال: أول ما خلق الله نور

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (827) [1/ 311].

(2) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

محمد ﷺ قبل كل شيء، وأول من وحد الله في خلقه عز وجل ذرة محمد ﷺ، وأول ما جرى به القلم (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ﷺ.

وقال في تفسير الآية: فيها إشارة إلى أوليته عليه الصلاة والسلام في عبودية الله، وإشارة إلى بدء وجوده في إتيانه من العدم بنور القدم، وانقياده في أول تجلي جلاله.

قلت: وعلى هذا المحققون من الصوفية وانظر قول العارف القطب الكبير الشيخ ابن مشيش رضي الله عنه في تصليته المشهورة «اللهم صل على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار».

ثم قال: «ولا شيء إلا وهو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط».

وقال في بردة المديح:

وكيفَ تدعُو إلى الدُّنيَا ضَرورةُ مَنْ   لولاهُ لَمْ تُخْرَجِ الدنيَا مِنَ العَدَمِ

وقال أيضاً:

فإنَّ مِنْ جُودِكَ الدنيَا وضَرّتها   ومِنْ عُلومكَ علمُ اللوحِ والقلم

ولا يعترض مثل هذا إلا جاحد محجوب، نعوذ بالله من غم الحجاب وسوء الحساب وشدة العذاب، وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

[الحض على التفكّر والاعتبار]

ثم حض على التفكر والاعتبار ليعرف ما عليه من النعم الغزار، فقال:

(اعقل فأنت نسخة الوجود   لله ما أعلاك من موجود)

قلت: ذكر أهل التأريخ أن الوجود كله خلقه الله على صورة الآدمي، من عرشه إلى فرشه، ولعل تلك القبضة النورانية النبوية كانت على صورة الإنسان، ثم تفرعت منها الأكوان كلها، فاختصر الله الوجود بأسره من هذا الآدمي، فهذا دليل على شرفه على الكون، هذا معنى قوله: «فأنت نسخة الوجود» أي مختصر منه، ويقال: الولد نسخة أبيه.

وقال الجيلي رحمه الله:

ونفسك تحوي بالحقيقة كلها   أشرت بجد القول ما أنا خادع

وقال الششتري رضي الله عنه:

«وأنت مرآة للنظر قطب الزمان وفيك يطوىٰ ما انتشر»
من الأواني

وقوله: «لله ما أعلاك من موجود» تعجب من شرفه، كقولك: لله دره، أي أمرك لله لا يفهمه غيره، ما أعلا قدرك عند الله، إن عرفت أصلك وفصلك، وقمت بواجب ذلك، وإلا فأنت في أسفل سافلين.

قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: قرأت مرة ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾، إلى أن انتهيت إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين: 4ـ 5]، ففكرت في معنى الآية فكشف عن اللوح المحفوظ، فإذا فيه مكتوب ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝4﴾ [التين: 4]، روحاً وعقلاً، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝5﴾ [التين: 5]، نفساً وهوى انتهى.

[الإنسان نسخة الوجود]

ثم بين وجه كونه نسخة الوجود، فقال:

(أليس فيك العرش والكرسي والعالم العلوي والسفلي)

قلت: اشتمال الإنسان على العالم العلوي والسفلي، يحتمل أن يكون ذلك من جهة معناه، أو من جهة حسه، أما من جهة المعنى فلا شك أن الروح أصلها ملكوتية، لا يحصرها كون، كما قال في الحكم:

(وسعك الكون من حيث جثمانيتك، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك).

لكن الإنسان لما جهل نفسه وتركها محجوبة بهواها، انحجبت روحه، وانحصرت في هذا الكون، فإذا عرفها وخرق عوائدها انخرقت له العوائد وخرجت روحه عن الكون بأسره، فلم يحجبها عن الله أرض ولا سماء، ولا عرش ولا كرسي، فحينئذٍ تستوي روحه على الوجود بأسره من عرشه إلى فرشه، فينطوي في جوفه العرش والكرسي والأفلاك وغير ذلك، وهو الذي قصد الششتري رضي الله عنه بقوله:

أغمض طرفك ترى وتلوح أسرارك
وافن عن الورى تبدو لك أخبارك
وبصقل المرا ية يزول أغبارك

قال:

الـفـلـك فـيـك يـدور ويـضـيء ويـلـمـع
والـشـمـوس والـبـدور فـيـك تـغـيـب وتـطـلـع
فاقرأ معنى السطور التي فيك أجمع
لا تغادر سطراً واحداً من سطورك وادر
آش هو القمر الذي فيك يسري

وقوله: «فاقرأ معنى السطور» إلخ اعلم أن الصوفية رضي الله عنهم يطلقون على هذه الأجرام الحسية رسوماً وأشكالاً وسطوراً، ووجه الإطلاق الدلالة على المعاني، فكما أن الحروف تدل على المعاني، كذلك هذه الأجرام الحسية، المقصود منها هو قبض المعاني اللطيفة، وكما أن القارىء إذا حفظ المعنى محى الرسوم، كذلك العارف إذا قبض المعنى غاب عن الرسوم، ولا يحتاج إليها. بل تمتحي من نظره، قال ابن العريف رضي الله عنه في بعض كلامه: «وإنما يتبين الحق عند اضمحلال الرسم واندراس الوسم، والإنسان لوح، وتفتيق صورته وتشكيلها وتسويتها وتحسينها سطور، مكتوب فيها بقلم القدرة. سبحان البديع الصانع، سبحاني ما أعظم شأني، أنا وحدي لمن عرفني».

فهذا معنى السطور التي في الإنسان، فإذا حفظ هذا المعنى محي رسمه واسمه، وبقي معناه، والله تعالى أعلم.

وأما من جهة حسه فقد قال بعضهم: إن جسد بني آدم مشتمل على ما اشتمل عليه العالم بأسره، جعله الحق تعالى نسخة الوجود، يحاكي بصورته كل موجود، ففيه جسم كثيف ونور لطيف، نصفه ساكن، ونصفه متحرك، نصفه نور ونصفه ظلمة، وجعل فيه العناصر الأربعة، واستودع فيه قوة الجلب والدفع، والضرر والنفع، وجعل قلبه خزانة لسره، ولسانه ترجمان ذلك، وعيناه حارستان وأذناه مخبرتان، ورجلاه مطيتان، ويداه خادمتان، وجعل رأسه عرشه، وصدره كرسيه، وجانباه شرقه وغربه، وجعل حركته كحركة الشمس والقمر والنجوم، وتركيبه على تركيب العالم العلوي، فجعل في ظهره أربعة وعشرين فقرة، على عدد الساعات، وفي جسده ثمانية وعشرين مفصلاً، على عدد المنازل، وفي جوفه اثني عشر معنىً، على عدد البروج والشهور، وفيه ثلاثمائة وستة وستون عرقاً نابضة، ومثلها ساكنة على عدد أيام العام، وجعل معدته بيت ماله، وكبده قسامه، وجعل لحمه كالتراب،

وعظامه كالجبال، وشعره كالنبات، وعروقه كالأنهار، وجواهره معادن، وهي تسعة: لحم، ودم. وعظم. وعصب. ومخ. وشحم. فهذه ستة خفية. وثلاثة ظاهرة، وهي: الجلد، والشعر، والظفر، وفيه اثنا عشر عنصراً، سبعة في الرأس: العينان، والأذنان، والمنخران والفم، والباقي في الجسد: الثديان والمخرجان والسرة، إلى غير ذلك مما لا يدرك، كما ذكره الشطيبي. في الفصل الأول، فانظره.

قال الشيخ عبد الوارث[1]: فأنت لباب هذه العوالم كلها فإذا أطعت الله أطعته بها كلها، وإذا عصيته فكذلك، فلأجل ذلك عظمت المعاصي منا، فتواعدنا عليها بالعذاب الأليم، وعظمت الطاعة فوعدنا الله عليها بالثواب الجسيم.

قلت: وفي هذا المعنى أنشدوا:

إذا كنت كرسياً وعرشاً وجنة ... وناراً وأفلاكاً تدور وأملاكا

وكنت من السر المصون حقيقة ... وأدركت هذا بالحقيقة إدراكا

ففيم التأني في الحضيض تثبطاً ... مقيماً مع الأسرى أما آن إسراكا؟!

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: الخلق كلهم عبيد مسخرة، وأنت عبد الحضرة، **ثم جمع ما تقدم، فقال**:

(ما الكون إلا رجل كبير ... وأنت كون مثله صغير)

قلت قد تقدم أن الإنسان نسخة من العالم حساً ومعنىً، ولا يستغرب هذا، فقد قالوا: إن الناموسة فيها ما في الفيل، وزادت عليه بالجناح، فانظر كيف اجتمع في البعوضة ما افترق في الفيل، مع صغر جرمها، فكذلك الإنسان: اجتمع فيه ما افترق في الكون، وزاد عليه بسر الروح، وهو العقل الأكبر، وكون الإنسان رجلاً صغيراً هو في حق من غلبت عليه البشرية، وأما من غلبت روحانيته فقد صار هو العالم الأكبر، والكون العالم الأصغر، لأن الروح تستولي عليه، ويصير في جوفها كشيء تافه، بل ينمحي بالكلية، وإلى هذا أشار ابن الفارض بقوله:

وإني وإن كنت ابن آدم صورة ... فلي فيه معنى شاهد بأبوتي

---

(1) هو عبد الوارث بن سعيد بن ذكوان أبو عبيدة، العنبري بالولاء، التنوري البصري: (102 ـ 180 هـ = 720 ـ 796م) كان فصيحاً من أئمة الحديث.
(الأعلام 4/ 178)، (تذكرة الحفاظ 1/ 237) و(شذرات الذهب 1/ 293).

والمعنى الذي فيه هو اللطيفة الروحانية السابقة في موكب الإبداع على جيش الاختراع، والله تعالى أعلم.

ومما عظم به أمر الإنسان: جمعه بين الضدين، وإلى ذلك أشار بقوله:

(فأنت لست من قبيل الأرض حتى إذا رميت فيها تمضي)

قلت: قد خص هذا الإنسان بعجائب لم توجد في غيره، فهو سماوي أرضي، روحاني جسماني، نوراني ظلماني، لطيف كثيف.

واعلم أن الله سبحانه لما أراد أن يتعرف إلى هذا الإنسان، وضع هذا الروح في هذه الجثة الجثمانية: لطيفة لاهوتية مودعة في كثيفة ناسوتية، فمن غلبت لطافته على كثافته كان روحانياً والتحق بالروحانيين، ومن غلبت كثافته على لطافته كان جسمانياً والتحق بالبهائم، ومن توسط نال شيئاً من طبع البهائم وشيئاً من طبع الروحانيين، وكان من أهل اليمين، فأنت أيها الإنسان لست من قبيل الأرض كالبهائم، حتى إنك إذا مت صرت تراباً وتمضي هباءً، لكنك مركب من روح وشبح، فإذا مات الشبح بقيت الروح، إما في غبطة أو حسرة، فالموت ليس عدماً محضاً، وإنما هو انتقال من دار إلى دار، ومن حال إلى حال. قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة: 88 ـ 89] الآية.

ومما ينسب للغزالي رضي الله عنه بعد موته وجدت عند رأسه، وقيل لغيره:

قل لإخوان رأوني ميتاً ... فبكوني ورثوني حزنا
أتظنون بأني ميتكم ... ليس ذاك الميت والله أنا
أنا في الصور وهذا جسدي ... كان لباسي وقميصي زمنا
أنا كنز وحجاب طلسم ... من تراب قد تهيا للفنا
أنا در قد حواني صدف ... حرت عنه فتخلى وهنا
أنا عصفور وهذا قفصي ... كان سجني فألفت السجنا
أشكر الله الذي خلصني ... وبنا لي في المعالي وطنا
كنت قبل اليوم ميتاً بينكم ... فحييت وخلعت الكفنا
فأنا اليوم أناجي ملكاً ... وأرى الحق جهاراً علنا
عاكفاً في اللوح أقرأ وأرى ... كل ما كان ويأتي أو دنا
وطعامي وشرابي واحد ... وهو رمز فافهموه حسنا
ليس خمراً سائغاً أو عسلاً ... لا ولا ماء ولكن: لبنا

هو مشروب رسول الله إذ كان لسر من فطره فطرتنا
فحي ذي الدار نوم مغرق فإذا ما مات طار الوسنا
لا تظنوا الموت موتاً إنه لحياة وهو غاية لمنا
لا ترعكم هجمة الموت فما هو إلا انتقال من هنا
فاخلعوا الأجساد من أنفسكم تبصروا الحق عياناً بينا
وخذوا في الزاد جهداً لا تنوا ليس بالعقل هنا من ونا
أحسنوا الظن برب راحم تشكروا السعي وتأتوا أمنا
ما أرى نفسي إلا أنتم واعتقادي أنكم أنتم أنا
عنصر الأنفاس منا واحد وكذا الأجسام جسم عمنا
فمتى ما كان خير فلنا ومتى ما كان شر فمنا
فارحموني ترحموا أنفسكم واعلموا أنكم في إثرنا
أسأل الله لنفسي رحمة رحم الله صديقاً أمنا
وعليكم مني سلام طيب وسلام الله بر وثنا

[مسايسة النفس حتى ترد إلى الله تعالى]

ثم قال:

(فاحتل على النفس فرب حيلة أنفع في النصرة من قبيلة)

قلت: يقول رضي الله عنه: احتل أيها الإنسان على نفسك وسايسها جهدك، حتى تردها إلى مولاها، فإذا رجعت إلى مولاها أتتك بطرائف العلوم، وفتحت لك مخازن الفهوم، ولا حيلة أنفع فيها من أن تأخذ بزمامها وتدفعها إلى شيخ التربية يفعل بها ما يشاء، وتمتثل ما يأمرك به، وأما غير هذا فتعب وعنت لا يجدي ولا يفيد، وجرب ففي التجريب علم الحقائق، والتوفيق بيد الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فائدة: قال شيخ شيوخنا سيدي علي رضي الله عنه: اعلم أن البيان، أي الأبواب كلها مغلوقة بين الله وعبده إلا باب نفسه، من لم يدخل على الله من باب نفسه لا يدخل أبداً، من عادى نفسه فاز بإقبال الخلق عليه، ومن صادق نفسه فاز بإقبال مولاه عليه، لكن مصادقة النفس هذه التي ذكرنا لا تكون إلا بصحبة عارف بالله إن وجده، وأما قبل وجوده فلا، فإذا عادى الإنسان نفسه فلا بأس به، لأن هذه النفس

خيرها ما له حصر، لا يعلم قدره إلا الله، وشرها ما له حصر، لا يعلم قدره إلا الله، ومن استشرف على خيرها هام فيه وفاته شرها، ومن استشرف على شرها هام فيه وفاته خيرها، ويرحم الله القائل:

وسمعت الخطاب من ذاتي   من مكان قريب
يا حياتي وأنت في ذاتي   حاضر لا تغيب

هذا والله ممن دخل على مولاه من باب نفسه، ويكفيك في النفس شرفاً قوله ﷺ: «من عرف نفسه عرف ربه».

ومن كلام شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمٰن المجذوب نفعنا الله بالجميع.

من أين جيتي يا ذي الروح الهايما روحانيا
الساكنا في إبساط أحوالها ربانيا

وقال أيضاً:

راعي من النفس جهدك   ومسي وصبح عليها
لعلها تدخل بيدك   تعود تصاد بيها

صار الأمر كما قلنا: عداوة النفس تمكنك من نواصي الخلق، أنت تزيد عداوة لنفسك والخلق يزيد إقبالاً عليك، وأنت تزيد بعداً من مولاك ومصاحبة لنفسك تجمع بينك وبين هواك، أنت تزيد عداوة من نفسك وأنت تزيد قرباً من ربك وإقبالاً منه عليك، وأنت تزيد قرباً من مولاك، وأنت تزيد بعداً من الخلق، وذلك لأنك إذا قربت من مولاك يشم الخلق فيك رائحة لا يعرفونها، فيحصل الإنكار منهم عليك، لأن «من جهل شيئاً عاداه».

جرت عادة الله تعالى أن الداخل إلى الله منكور، والخارج إلى الخلق مبرور.

قال الشاعر:

من يخطب الحسناء   يصبر على البذل

ثم رجع إلى:

[(توبيخ من ينكر عالم المعاني)]

وهو العالم الروحاني، فقال:

(يا منكر المعقول والمعاني   ما الصنع في أمثلة القرآن)

قلت: مضمن كلامه في الرد على من ينكر المعاني ويقر المحسوسات أن يقال له: لو كان الأمر محصوراً في المحسوسات ما احتاج الله تعالى أن يضرب لنا الأمثال للأمور المعنوية بالأمور الحسية، لنفهم بسرعة، كضربه مثلاً للعلم النافع بالماء النازل من السماء الذي يطهر الأرض وتمتلىء منه الأودية في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: 17] الآية، فإن العلم يطهر النفوس من ظلمات الجهل والشك والشرك، ويطهر القلوب من كدر الأغيار، والأرواح من لوث الأنوار، وتمتلىء منه القلوب: كل على قدر وسعه، كما أن الماء يطهر الأرض من الأدناس والأنجاس، وتمتلىء منه الأودية، كل على قدر وسعه، وكقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ [النور: 35] الآية، وكقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ [الزمر: 29] الآية، إلى غير ذلك، فدل ذلك على أن الأمر على قسمين، منه ما هو حسي يدرك بالحس، ومنه ما هو معنوي يدرك بالعقل والروح، أو السر، ولما كان قد يخفى على بعض الناس ضرب الله له الأمثال بالأمور المحسوسة، تقريباً للفهم، والله تعالى أعلم.

فما تقول أيها المنكر لعالم المعاني في هذه الأمثلة التي ضربها الله في كتابه تقريباً لفهم المعاني.

قلت: وهذا الذي قاله الناظم لا ينهض في الرد على المنكر، لأن المعاني التي يثبتها الصوفية إنما هي معاني الصفات وأسرار الذات التي قامت بها الأشياء، لا هذه المعاني التي ضرب الله لها الأمثال، فإنما هي أمور عقلية يدركها العقل ويقرها أهل الظاهر، ولا ينكرها أحد.

نعم عندنا آيات تشهد بظاهرها لعالم المعاني، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: 35]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ [الفتح: 10] الآية، ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [يونس: 101] الآية، ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ [الحديد: 3]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على غوامض التوحيد وأسرار التفريد، ومن لم يبلغ فهمه هذا فشأنه التسليم، وإلا وقع في الإنكار على أولياء الله، فيصبح من الصم البكم الذين لا يعقلون.

والحاصل: أن عالم المعاني لا يدرك إلا بصحبة أهل المعاني، ولا يؤدى بالعبارة، وإنما يرمز إليه بالإشارة، فمن لم يفهم الإشارة فلا سهم له فيه، **كما أشار**

إلى ذلك بقوله:

(بعداً أرى فيك عن الإشارة هل تنكرن رواية العبارة)

قلت: يقول رضي الله عنه لهذا المنتقد: أرى فيك بعداً عن فهم الإشارة، فكيف تفهم المعاني وهي لا تؤدى إلا بالإشارة؟ وإذا بعدت عن فهم الإشارة فقد وردت رواية العبارة بإثبات ما تنكر من المعاني، هل تنكر رواية العبارة بعد أن بعدت عن فهم الإشارة، فما تقول في آيات وأحاديث تدل على ثبوت المعاني والعالم الروحاني، وكأنه يشير إلى الآيات التي قدمنا آنفاً من قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلخ.

والحديث القدسي: «يقول الله تعالى: **عبدي مرضت فلم تعدني**»[(1)] الحديث، ففيه ثبوت عالم المعاني، والله تعالى أعلم.

[توبيخ من يقف مع عقله]

ثم وبخه على وقوفه مع عقله فقال:

(يا جاهلاً أقصى الكمال وقفا على عقول وهمها لا يخفى)

قلت: عقول بني آدم ضعيفة محصورة، لا تدرك من التوحيد والمعرفة إلا افتقار الصنعة إلى صانعها، ثم تستدل على صفات هذا الصانع بما تدرك من المصنوعات، كوحدانيته وقدمه وبقائه وقدرته وحياته، إلى سائر صفاته المعلومة، وهي لا تأمن الخطأ ولا تسلم من الوهم والخواطر، لأنها في محل البعد، وما لها إلا الإيمان بالغيب، فمن وقف مع عقله وجعل ما أدركه به هو أقصى غاية الكمال، فهو مغبون، وبالجهل المركب مفتون، قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28]، وهو عام يصدق بضعف العقل وغيره، أي ضعيفاً من كل شيء، وقال ابن الفارض:

فثم وراء النقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة

بخلاف ما أدركته الروح أو السر من المعاني اللطيفة والأسرار القديمة، فإن

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب فضل عيادة المريض، حديث رقم (2569) [4/ 1990] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الخبر الدال على أن هذه الألفاظ. . ، حديث رقم (269) [1/ 503] ورواه غيرهما.

ذلك أذواق وكشوفات ومشاهدات، لا يبقى معها وهم ولا ظن ولا خاطر، وقال المجذوب:

طلع النهار على قلبي حتى نظرت بعينيّا
أنت دليلي يا ربي أنت أولى مني بيّا

واعلم أن النفس والعقل والقلب والروح والسر: تطورات للروح اللطيفة النورانية كما تقدم، وكل واحد من هذه التطورات له حد من العلم والإدراك لا يتجاوزه.

أما النفس فحد إدراكها: زينة ظاهر الكون اغتراراً بمتعة ظاهره، وغفلة عن عبرة باطنه، لاشتغالها بحظوظها وهواها، فهي لا تلتفت إلى خالقها ومولاها، فإذا نُبهت أقرت حينئذٍ، ثم رجعت إلى نومها، كمن طرش قائماً فأفاق، ثم رجع إلى نومه.

وأما العقل فحد إدراكه وعلمه: افتقار الصنعة إلى صانعها على ما تقدم: معقول عن غير ذلك.

وأما القلب فحد إدراكه: تعشقه وتوجهه إلى خالقه بترك الأغيار وطلب الأنوار، انطلق من العقال في طلب الكمال، ولكنه من وراء الحجاب، لم يفتح له الباب.

وأما الروح فحد علمها وإدراكها: مواجهة أنوار الملكوت، طالبة أسرار الجبروت، قد استراحت من تعب السير، لكنها لم تتمكن من السر.

وأما السر فمنتهى إدراكه: شهود أسرار الجبروت، قد نفذت البصيرة من الوقوف مع أنوار الملكوت، وهذا منتهى السير، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النجم: 42].

ثم يبقى الترقي في المكاشفات والمشاهدات والعلوم والأسرار، إذ لا نهاية لها ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].

قال في العوارف: واعلم أن الاتصال والمواصلة أشار إليه الشيوخ، وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو في رتبة من الوصول، ثم يتفاوتون:

فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال، فيغني عن فعله وفعل غيره، لوقوفه مع فعل الله ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار، وهذه رتبة في الوصول.

ومنهم من يترقى إلى مقام الفناء، مشتملاً على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة، مغيباً في شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين، وهذه رتبة في الوصول وفوق هذا مقام حق اليقين، ويكون من ذلك في الدنيا للخواص لمح وهو: سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه، حتى قالبه، وهذا من أعلى رتب الوصول، وإذا تحققت الحقائق يعلم العبد من هذه الأحوال الشريفة أنه بعد في أول المنزل فأين الوصول، هيهات، منازل طريق الوصول لا تنقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدي فكيف في العمر القصير الدنيوي؟ انتهى.

[أطوار الإنسان]

وذكر الناظم للإنسان تطوراً آخر، فقال:

(أول أطــــوارك مــــــنـــــذ أول الـحـس والـتـمـيـيـز والـتـخـيـل
والـعـقـل والـذكـر مـعـاً والـفـكـر هــيــهــات بـل وراء ذلـك طــور)

قلت: الأطوار هي الأحوال التي ينتقل إليها الإنسان من أول نشأته، كطور اجتنانه وطور طفوليته، ثم شبوبيته، ثم كهولته ثم شيخوخته، قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿14﴾﴾ [نوح: 14]، هذا باعتبار الذات الحسية، وأما باعتبار المعاني الباطنية فأول ما يدرك الإنسان الحس، فيحس بألم الجوع وأضراره والبرودة وغير ذلك من الأمور الضرورية، ثم التمييز بين أمه وغيرها، وبين القريب والبعيد، ثم الخيال، وهو أول منشأ الخوف والوهم، فيخاف من أمور يعتقد أنها تضر، ويحب أموراً يعتقد أنها تنفع.

ثم عقل التمييز بين الضار والنافع الحقيقي، والمراد بالعقل: نهايته، لأن هذه الأمور كلها أطوار للعقل، لكن لما كان ضعيفاً جعل يتطور هكذا، وأول خلق العقل عند اجتنان الولد في بطن أمه، ثم لا يزال ينمو حتى يكمل، وهو نور خص به هذا الآدمي من دون الحيوانات شرفاً له، وهو يتفاوت في النور بحسب القسمة الأزلية.

ثم بعد العقل: القلب، وهو محل الذكر.

ثم بعد القلب: الروح، وهي محل الفكر، وهو التفكر في عجائب المصنوعات.

هذا غاية ما أدركه العامة، وبقي مرتبة السر، وهي محل الشهود، والنظرة، وهو الذي حجب عن العوام، وهو الذي أشار إليه بقوله: «هيهات» بل وراء ذلك طور وهو مقام السر، وهو خارج عن مدارك العقول، لا يناله إلا أفراد الفحول، وإلى ذلك أشار بقوله:

(ما ناله الجمهور والورّاد وإنما يناله الأفراد)

قلت: الوراد: جمع وارد، وهو الذي يقصد الماء للشرب، يعني أن هذا السر الذي هو وراء العقول والأفكار القصيرة ما ناله جمهور الناس، ولا كل من قصده وأراده، وإنما ناله الأفراد من الرجال، دلهم الحق تعالى أولاً على أوليائه من أهل هذا السر، وأطلعهم على ما أودعهم من خصوصية اصطفائه، فأسلموا إليهم أنفسهم، وانقادوا إليهم بكليتهم، حتى قالوا لهم: ها أنتم وربكم، فهؤلاء هم الذين أطلعهم على مكنون سره، وأسرار غيبه، فإن باحوا بها أبيحت دماؤهم غيرة عليه من مولاهم، كما تقدم، وهو الذي أشار إليه الشيخ أبو مدين بقوله:

وفي السر أسرار دقاق لطيفة تراق دمانا جهرة لو بها بحنا

[مراتب العقل]

ثم قسم العقل على ثلاث مراتب على اصطلاح القدماء، فقال:

(منفعلاً يدعى ومستفاد وعقل تخصيص لمن أراد)

قلت: هذا اصطلاح القدماء، جعلوا العقول ثلاثة: عقلاً يسمى منفعلاً، هو العقل الغريزي المجعول فيه من غير اكتساب، وعقلاً يسمى مستفاداً، وهو المكتسب بالمجاهدات والرياضات والتجريبات، ولذلك يقول العامة: كل محنة تزيد عقلاً، وعقلاً يسمى عقل التخصيص، وهو: الذي خص الله به أنبياءه ورسله، وقد ينتهي إلى بدايته العقل المستفاد بالرياضة، وهو عقل أكابر الأولياء، فنهاية كمال عقل الأولياء بداية عقل الأنبياء، **ولذلك كانت نهاية الولي بداية النبي، كما أشار إلى ذلك بقوله:**

(وحيث فيه ينتهي الولي فمن هناك يبتدي النبي)

قلت: فنهاية الولي بداية النبي، ونهاية النبي بداية الرسول، ونهاية الرسول بداية نبينا (محمد) ﷺ:

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم
وواقفون لديه عند حدهم من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

فأول قدم النبي: الجمع بين الحقيقة والشريعة، لأنه لا سير له، لأن السير في ميادين النفوس، وهم مطهرون منها، فقد خاضوا بحر التحقيق، ثم رجعوا إلى التشريع، وأما قول أبي يزيد: خضنا بحراً وقفت الأنبياء بساحله فمراده أنه دخل البحر ولم يخرج إلى ساحل بر الشريعة، فهو إقرار منه بالتقصير، لأنه قال هذا في حال الجذب، والمجذوب ناقص حتى يصحو من سكره ويرجع إلى البقاء، بخلاف الأنبياء عليهم السلام، فقد عرفوا البحر وخاضوه، وخرجوا إلى البر ليسلّكوا الناس.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه في تأويله: فمعنى وقف الأنبياء بساحله من الجانب الآخر، على ساحل الفرق، يدعون الخلق إلى الخوض فيه، أي فلو كنت كاملاً لوقفت حيث وقفوا.

قال في «لطائف المنن»: وهذا الذي فسر به الشيخ هو اللائق بمقام أبي يزيد، وقد قدمنا عنه أنه قال: جميع ما أخذ الأولياء كزق مملوء عسلاً، ثم رشحت منه رشاحة، فما في باطن الزق للأنبياء، وتلك الرشاحة هي للأولياء، والمشهور عن أبي يزيد هو التعظيم لمراسم الشريعة والقيام بكمال الأدب. انتهى.

وأما قول من قال: إن دائرة الولي أوسع من دائرة النبي، فمراده بذلك أن الأنبياء عليهم السلام لشدة قربهم من الحضرة مشدد عليهم في الأدب والحضور والهيبة والتعظيم والإجلال، فأقل شيء يصدر منهم يعاتبون عليه، بخلاف الأولياء فدائرتهم أوسع من جهة طلب الأدب والحضور، فهم موسع عليهم من جهة الأدب، **وكذلك دائرة الشهداء**، وهم المجاهدون نفوسهم في طلب الحق، دائرتهم أوسع، وبعدهم دائرة الصالحين، وبَعدهم العوام.

وهذه صورة الدوائر في الحس، فالنقطة هي الحضرة مثلاً، والدائرة الأولى للنبيين، والثانية للصديقين، وهم الأولياء، والثالثة للشهداء، وهم السائرون، والرابعة للصالحين، ومن ورائهم عموم المسلمين:

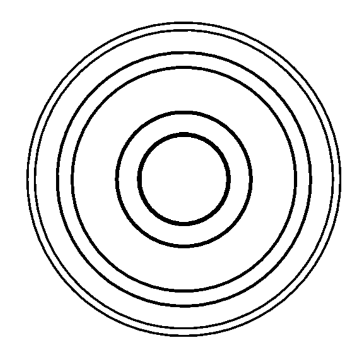
وكلما كثر القرب وقع التضييق في الطلب للقيام بحسن الأدب، وبقدر التضييق في الطلب يقع التوسع في العلوم، لأن المدد على قدر القرب، واعلم أن ترقي الأنبياء محجوب عن الأولياء، كما أن ترقي الأولياء محجوب عن العوام.

قال الغزالي رضي الله عنه: اعلم أن منازل السلوك لا غاية لها، ولا يعرف السالك منها إلا ما رقي عنه، ولا يعرف ما بين يديه إلا بطريق الإيمان بالغيب، كما

أخبر الله به، فكما أن الأجنة لا تعرف أحوال الطفولية، والطفولية لا تعرف أحوال العقلاء، والعقلاء لا يعرفون أحوال القضايا الربانية ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: 2]، والله تعالى أعلم.

[عقل التخصيص]

ثم كمل الكلام على عقل التخصيص الذي اختص به الخواص، فقال:



(وفيه تجلي جمل المعارف فمن رآها قيل له عارف)

قلت: الضمير لعقل التخصيص، أي وفي عقل التخصيص تظهر تجلي جمل المعارف الربانية والعلوم اللدنية، لأنه ما سمي عقل التخصيص حتى تطهر من الأغيار وتهذب من الرعونات والأكدار، إما بالأصالة أو بالمجاهدة، فإذا تطهر من الأغيار مليء بالمعارف والأسرار، فالمعارف هي العلوم، والأسرار هي الأذواق، فمن رآها وذاقها يقال له: عارف، ومن لم يصل لهذا المقام وكان من أهل الدليل يقال له: عالم.

[الفرق بين العالم والعارف]

والفرق بين **العالم والعارف**: أن العالم دون ما يقول، والعارف فوق ما يقول.

العالم يصف الطريق بالنعت، **والعارف** يصفها بالعين، لأنه سار معها وعرفها، والعالم إنما نعتت له فقط.

العالم محجوب، **والعارف** محبوب.

العالم من أهل اليمين، **والعارف** من المقربين.

العالم من أهل البرهان، **والعارف** من أهل العيان.

العالم من أهل الفرق، **والعارف** من أهل الجمع.

العالم من أهل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5]، **والعارف** من أهل قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5].

العالم يدلك على العمل، **والعارف** يخرجك عن شهود العمل.

العالم يحملك حمل التكليف، **والعارف** يروحك بشهود التعريف.

العالم يدلك على محافظة الصلوات، **والعارف** يدلك على ذكر الله مع الأنفاس واللحظات.

العالم يدلك على الأسباب، **والعارف** يدلك على مسبب الأسباب.

العالم يدلك على شهود الوسائط، **والعارف** يدلك على محرك الوسائط.

العالم يحذرك من الوقوف مع الأغيار، **والعارف** يحذرك من الوقوف مع الأنوار فيزج بك في حضرة الجبار.

العالم يحذرك من الشرك الجلي، **والعارف** يخلصك من الشرك الخفي.

العالم يعرفك بأحكام الله، **والعارف** يعرفك بذات الله.

العالم يدلك على العمل لله، **والعارف** يدلك على العمل بالله.

العالم يدلك على العمل خوفاً وطمعاً، **والعارف** يدلك على العمل محبة وشكراً.

والحاصل: أن من لم يسعده الله بملاقاة العارف، فلا شك أنه هو في نفسه تالف، ولله در صاحب بداية السلوك، حيث يقول:

(إن لم تلاق عارفاً في مدتك لا عاش عمر عيشه كعيشتك

وحقيقة العارف هو: الذي فني عن نفسه وبقي بربه وكمل غناه في قلبه، لا يحجبه جمعه عن فرقه، ولا فرقه عن جمعه، يعطي كل ذي حق حقه، ويوفي كل ذي قسط قسطه، والله تعالى أعلم بغيبه.

[ميادين الأبطال]

وهذا المقام الكريم لا يناله إلا من له حظ عظيم، كما أبان ذلك بقوله:

(فهذه ميادين الأبطال ليست لكل جبان بطال)

قلت: الميادين جمع ميدان بالفتح والكسر، وهو مجال الخيل، استعير هنا

للخروج من ضيق الأشباح. إلى عالم الأرواح، وهو فضاء الشهود والتنزه في حضرة الملك المعبود، لأن فيه تتسع دائرة العلوم، وتجري نتائج الفهوم، فيه تجول الأفكار في عظمة الواحد القهار.

والأبطال: جمع بطل، وهو الشجاع، والجبان، هو: الخواف.

يقول رضي الله عنه: هذه العلوم والمعارف التي تتجلى في قلوب العارفين، وتجول في سعة رياضها أفكار المقربين، هي ميادين الأبطال، ومجاري أسرار الرجال، لا ينالها البطالون ولا يدخل في هيجائها الخوافون، بل ما نالها إلا أهل الحزم، وما طلب جهادها إلا أولو العزم. وفي ذلك يقول الجيلي رضي الله عنه:

وإياك جزعاً لا يهولك أمرها   فما نالها إلا الشجاع المقارع

وقال آخر:

أيها العاشق معنى حسننا   مهرنا غالٍ لمن يخطبنا
جسد مضنى وروح في العنا   وجفون لا تذوق الوسنا
وفؤاد ليس فيه غيرنا   فإذا ما شئت أد الثمنا

وفي التحقيق: ما ثم إلا سابقة التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم قرر ما تقدم، وهو أن دخول الميدان لا يصلح للجبان، فقال:

(هل يصلح الميدان للجبان   أو يكمل الزرع بلا إبان)

قلت: الإبان هو: الوقت، يعني أن ميادين القتال لا يدخلها إلا أبطال الرجال، فالجبان لا يتركه الفزع أن يدخل الميدان.

قال شيخ شيخنا رضي الله عنه: ثلاثة أصناف من الناس لا ينالون من هذا الطريق شيئاً: الخواف، والمستحي، والمتكبر، وإذا شجع نفسه ودخل في طريق الخصوص فلا يستعجل الفتح قبل إبانه، لئلا يعاقب بحرمانه، فمن غرس شجراً أو زرع زرعاً فلا يطمع أن يثمر قبل وقته، كذلك شجرة المعرفة تنبت في قلب المريد حين ملاقاته بالشيخ، فلا تزال تنمو شيئاً فشيئاً حتى تثمر في وقتها المعلوم، لكن إن كان يحرسها ويخدم عليها ويسقيها، طلعت متناهية في الخضورة والبهجة، وأطعمت سريعاً، وإن فرط فيها أبطأت، وربما ماتت، وحرسها هو: العزلة وعدم خلطة العوام، وخدمتها هو: الذكر والفكر، وسقيها هو الجلوس بين يدي الأشياخ

واستعمال الأحوال والواردات، ونهاية إطعامها هو الطمأنينة بالله والتمكين في المعرفة بالله، والغنى بالله عن كل شيء، فحينئذٍ يكون من الأبطال، ويصلح لدخول الميدان، فتربية الشيوخ إنما هي لهذه الشجرة التي هي شجرة المعرفة، فما دام صاحبها يفتقر إلى من يسقيها له، فلا بد من مدد الشيخ، فإذا أثمرت واشتدت عروقها استغنت عن ماء غيرها، وبالله التوفيق.

[العجب من إنكار ما لم يحط به علماً]

ثم تعجب من إنكار الناس ما لم يحيطوا به علماً، فقال:

(ما أنكر الناس لما لم يعرفوا ما أهجر الولاف لما لم يألفوا)

قلت: ما تعجبية مبتدأ بمعنى شيء، والجملة بعدها خبر، والولاف جمع والف، من ألف الشيء إذا أولع به، أي شيء عظيم صير الناس منكرين ما لم يعرفوا، وهاجرين ما لم يألفوا، تعجب رضي الله عنه من إسراع إنكار الناس على أهل هذه الطريق، مع أنهم لا معرفة لهم بها، ومن إسراعهم في هجران أهلها لتعاطيهم أموراً لم يألفوها، ولا غرابة في ذلك، إذ الإنكار على الخصوص سنة ماضية، فإن ثلث القرآن كله في الإخبار عن تكذيب الصادقين، وكذلك إنكار ما لم يؤلف فإنه هو السبب في تكذيب الرسل، قالوا: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 24] [القصص: 36]، ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: 23]، ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [لقمان: 21]، فكل من أتى بخرق العوائد التي اعتادها أهل زمانه فلا بد من الإنكار عليه: سنة ماضية، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

قال في «لطائف المنن»: واعلم أن الله تعالى ابتلى هذه الطائفة بالخلق، ليرفع بالصبر على من آذاهم مقدارهم، وليكمل بذلك أنوارهم، ولتحقيق الميراث فيهم ليؤذوا كما أوذي من قبلهم فيصبروا كما صبر من قبلهم، ولو كان من أتى بهدى أطبق الخلق على تصديقهم هو الكمال في حقهم، لكان الأولى بذلك رسول الله ﷺ، وقد صدقه قوم هداهم الله بفضله، وحرم من ذلك آخرون حجبهم الحق عن ذلك بعدله، فانقسم العباد في هذه الطائفة إلى معتقد ومنتقد، ومصدق ومكذب، وإنما يصدق بعلومهم وأسرارهم من أراد الحق سبحانه أن يلحقه بهم، والمعترف بتخصيص الله وعنايته فيهم قليل، لغلبة الجهل واستيلاء الغفلة على العباد، وكراهة الخلق أن يكون لأحد منهم شفوف في منزلة واختصاص بمنة، ألم تسمع قوله

تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 187]، ومن أين لعموم العباد أن يعلموا أسرار الحق في أوليائه، وشروق نوره في قلوب أصفيائه، انتهى المراد منه.

قلت: واحتجاب الأولياء عن العامة لطف كبير من الله بأوليائه، واعتناء عظيم منه بأسرار أحبائه، فإن إقبال الناس على الولي قبل التمكين فتنة كبيرة، وانظر ما قال الشيخ ابن مشيش: أسألك اعوجاج الخلق عليّ حتى لا يكون لي ملجأ إلا إليك، ولله در القائل:

استتار الرجال في كل أرض ... تحت سوء الظنون قدر جليل
ما يضر الهلال في حندس الليـ ... ـل سواد السحاب وهو جميل

وفيه أيضاً لطف كبير بعامة عباده، إذ لو أظهر سرهم لعامة الناس لكان كل من آذاهم حارب الله ورسوله، لقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي: يقول الله عز وجل: «**من آذى لي ولياً فقد آذنني بالحرب**»[1] فقد قيد الحديث بعد معرفتهم، فأخفاهم الله لطفاً بخلقه.

وقد ضرب بعضهم مثلاً لهذا، فقال: مثل إذاية العامة لأخفياء أولياء الله كمثل الأعمى إذا رمى بعكازته على رجل صاحب بصر فأوجعه، فإنه يقوم إليه حتى إذا وجده أعمى كف عنه وعذره، ولم يبق في قلبه حرج عليه، وربما أخذ بيده ودله على الطريق.

وقد سأل رجل إبراهيم بن أدهم[2] على العمران، فدله على المقبرة، فضربه حتى شجه، فلما قيل له هذا إبراهيم بن أدهم، فجعل الرجل يقبل يده ورجله، ويقول له: اعذرني فإني لا أعرفك، فقال له إبراهيم: والله ما رفعت يديك من ضربي إلا وأنا أسأل لك المغفرة.

[القرآن جاء بالحقيقة والشريعة]

ثم دعاهم إلى كتاب الله ليحكم بينهم، فقال:

(أليس قد جبلت العقول ... على الذي جاء به التنزيل)

قلت: جبل على الشيء: طبع عليه وألفه، ولا شك أن العقول مجبولة على

(1) أخرجه أحمد بن حنبل (6، 256).
(2) (انظر ترجمته في الأعلام 1/ 31).

تصديق ما جاء به القرآن، وهو قد جاء بالحقيقة والشريعة، إلا أن التشريع فيه كثير، وذكر الحقيقة قليل، لأن أهلها قليلون، وإذا تأملت في القرآن وجدته يشرع، ثم يحقق، يقول سبحانه افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا، حتى يظن الجاهل أن الأمر بيد الخلق، ثم يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: 112]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: 253]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿118﴾﴾ [هود: 118]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الدهر: 30].

فقوم وقفوا مع ظاهر الشريعة، فحجبوا عن الحقيقة، وهم أهل الحجاب، وقوم نفذوا إلى شهود الحقيقة وأنكروا الحكمة، وهم أهل الجذب، وقوم جمعوا بينهما، وهم أهل الكمال.

فعلم الحقيقة هو علم الباطن، وهو علم العالم الروحاني، وعلم عالم المعاني الذي ينكره المنكر، وليس ثم شيء غير هذا.

فثبت أن القرآن ورد بما أنكروا، فقامت الحجة، وتبينت المحجة، وبالله التوفيق.

[أمثلة على الشريعة والحقيقة]

ثم ضرب مثلاً للحقيقة والشريعة في الحس فقال:

(هل ظاهر الشرع مع الحقيقة   إلا كأصل الفرع في الحديقة)

قلت: «الشريعة عمل الجوارح، والحقيقة معرفة البواطن، فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، فالشريعة من وظائف البشرية، والحقيقة من وظائف الروحانية، الشريعة قوت البشرية، والحقيقة قوت الروحانية، وما نقص من أحدهما يزاد في الآخر» فافهم، وما مثل الشريعة الظاهرة مع الحقيقة الباطنية، إلا كأصل شجرة في بستان، وهو الحديقة، فأصل الشجرة المغروز في الأرض مثل الحقيقة، والفرع الظاهر على وجه الأرض، مثل الشريعة، فلا قيام للشريعة إلا بالحقيقة الباطنة، ولا ظهور للحقيقة إلا بالشريعة، فمن نظر إلى الباطن ووجد الله وجد كل شيء قائماً بالله، ولا فاعل سواه، ومن نظر إلى ظاهر العبد وجد له اختياراً في الجملة، يقوم إذا شاء ويجلس إذا شاء، ويفعل ويترك باختياره في الظاهر، وعلى هذا وقع التكليف، وهو الشريعة، ويسمى الكسب عند المتكلمين.

فالتحقيق أن العبد مجبور، لكن في قالب الاختيار، فمن نظر للجبر الباطني

سماه حقيقة، ومن نظر لقالب الاختيار سماه شريعة.

أو تقول: من نظر لعالم القدرة وجد الحقيقة محضة، ومن نظر لعالم الحكمة وجد الشريعة محضة، فالواجب على الإنسان أن تكون له عينان: إحداهما تنظر لعالم القدرة فيوحد الله، والأخرى تنظر لعالم الحكمة فيتأدب مع الله، وليس اسمه القادر بأولى من اسمه الحكيم، فمن أهمل إحداهما سقط من عين الله، فمن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق لإبطاله الحكمة، ومن تشرع ولم يتحقق فقد تفسق لقصور نظره عن شهود القدرة، فلا يخلو من شرك خفي، وإنما لم يكفر، لأنه يقر بوجود القدرة، لكنه لم يعمل بما علم، فهو كعالم غير عامل، والله تعالى أعلم.

تنبيه: قد يبلغ الولي إلى مقام في الوصول يقال له: «**افعل ما شئت فقد غفرت لك**»(1)

ومعنى ذلك: أن الله تعالى يتولاه ويأخذ عن نفسه، ويغطي وصفه بوصفه، ونعته بنعته، فيكون محفوظاً من شهود نفسه، فيكون فعله كله بالله.

وفي القوت في «كتاب المحبة» «**إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب**»(2)

وفي البخاري: «**وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»(3)

وفي كتاب «القصد» للشاذلي: يبلغ الولي مبلغاً يقال له أصحبناك السلامة، وأسقطنا عنك الملامة، افعل ما شئت اهـ.

وليس هذا قولاً بإسقاط التكليف، فما دامت البشرية موجودة فلا بد من التكليف، فإذا انهدمت البشرية، وتخلصت الروحانية إلى مولاها، سقط حينئذٍ التكليف، فافهم.

قال في نوادر الأصول «من حظه من أهل التقريب الجلال والجمال، وقد أقيم في الهيبة والأنس، قد غاب عن العقوبة، ولكنه يخاف التحويل والهويّ والسقوط لما ركب في نفوس بني آدم من الشهوات فهي أبداً تهوي بصاحبها إلى الإخلاد والبطء،

---

(1) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 5/ 59).

(2) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 2/ 284، 8/ 506، 9/ 609) والسيوطي في (الدر المنثور 1/ 261).

(3) أخرجه البخاري في (صحيحه 8/ 32) وأحمد بن حنبل في (المسند 1/ 79، 80) وابن أبي شيبة في (المصنف 14/ 384).

وإنما يسكن خوف التحويل إذا خلص إلى الفردانية، وتحقق بالوحدانية، لتلاشي الهوى منه والشهوة بكشف الغطاء ولا يذهب خوف ذلك وإن سكن، لبقاء خيال ذلك في حق غير الأنبياء، أما الأنبياء فلم يبق لهم ظل الهوى فبشروا بالنجاة، فلم تضرّ بهم البشرية لأنهم لم يبق لهم نفوس فتستد وتحرر إذ أمنت السقوط، ومن بعدهم بقي لهم في نفوسهم شيء، فمنعوا البشرى وأبهم عليهم الأمر صنعاً لهم، لتكون نفوسهم منقمعة بخوف الزوال، هذا هو الأصل فافهمه، هذا بعد أن قرر أن الشوق وخوف القلق من حبه لا يذهب على المجذوب المحدث، وإن كان بينه وبين مولاه من الأسرار ما يسكن عنه خوف التحويل، وإنما يتوهم ذلك من وقف في الجلال والجمال، فسكن شوقه بلذة ما نال من القربة، فانظره انتهى.

[مثل آخر للشريعة مع الحقيقة]

ثم ضرب مثلاً آخر، فقال:

(والشرع جار وصحيح العقل كحذوك النعل معاً بالنعل)

قلت: حاصل كلامه أن ظاهر الشريعة وباطن الحقيقة كتطبيق النعل على النعل، بحيث لا يفوت أحدهما على الآخر، كذلك الحقيقة الباطنية مع الشريعة الظاهرة، متلازمتان، لا تفوت إحداهما الأخرى، فما ظهر على العبد من عمل الشريعة، فإنما هو من مدد الحقيقة قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: 68]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: 29].

أو تقول: ما ظهر على العبد من عمل الحكمة، فإنما هو من فعل القدرة، فالقدرة باطنة والحكمة ظاهرة.

وسأذكر لك شيئاً من بحر القدرة وشيئاً من بحر الحكمة، ليظهر لك الفرق بينهما مع اتحادهما محلاً، فنقول وبالله التوفيق:

بحر القدرة بحر زاخر وأمره قاهر، ليس له أول ولا آخر، يظهر ويبطن، ويحرك ويسكن، ويقبض ويدفع، ويعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، بيده مقادير الأمور، وعلى قطب دائرة الأفلاك تدور، وتطير إليه قلوب المشتاقين، وتعوم في طرف لجته أرواح السائرين، وتخوض في وسط لجحه أسرار الواصلين، ولا تعرف كنه عظمته قلوب العارفين، غاية منتهاها الدهش والحيرة، ثم العكوف في الحضرة.

وأما بحر الحكمة فهو أيضاً بحر زاخر، وأمره ظاهر، يظهر الأسباب، ويسدل

الحجاب، يربط الأحكام بالعلل، ويقرر الشرائع والملل، يغطي ما يبرز من عنصر القدرة بردائه، ويستر ما يبدو من أسرار الربوبية بعز كبريائه، ينور الطريقة، ويصون الحقيقة، يظهر العبودية، ويبطن الحرية، من وقف معه كان محجوباً، ومن نفذ منه إلى بحر القدرة كان واصلاً مجذوباً. ومن نظر إليهما معاً كان كاملاً محبوباً، وبالعناية مصحوباً.

واعلم أن القدرة والحكمة: كل واحدة تنادي على صاحبتها بلسان حالها، أما القدرة فتقول للحكمة: أنت تحت قهري ومشيئتي، لا تفعلي إلا ما نشاء، ولا يصدر منك إلا ما أريد، فإن أردت خلافي رددتك، وإن سبقتني أدركتك.

وتقول الحكمة للقدرة: أنت تحت حكمتي وعند أمري ونهيي، فإن عصيتني أدبتك، وربما قتلتك، ثم إن اتفق فعلهما كان ذلك الفعل طاعة وحقيقة نورانية، وإن اختلف فعلهما، بأن أظهرت القدرة خلاف ما تريد الحكمة، كان معصية، وهي حقيقة ظلمانية، فتبين أن الحقيقة لا تفارق الشريعة، إذ لا قيام لها إلا بها، والشريعة لا تخرج عن الحقيقة، لأنها ستر لها ورداء يصونها.

فإن **قلت**: ظهور المعاصي والذنوب حقيقة بلا شريعة، فأين التلازم الذي ذكرت؟

قلت: النهي عن فعلها وتسميتها معاصي هو من جهة الشريعة، فلولا الشريعة، ما سميت معاصي، وانظر ما قاله صاحب العينية [الشيخ عبد الكريم الجيلي]:

فإن كنت في حكم الشريعة عاصياً فإني في حكم الحقيقة طائع

فلولا الشريعة لم تتميز الطاعة من المعصية، فالشريعة صادقة بالواجبات والمباحات والمحرمات، فمهما صدر شيء من هذه الثلاثة فهو شريعة، فثبت التلازم، وهو معنى قول الناظم «والشرع جار» و«صحيح العقل» إلخ وهو على حذف مضاف، أي: ومدرك صحيح العقل، والمراد بالعقل: عقل التخصيص المتقدم، الذي اختص به الأنبياء، وينتهي إليه عقل الأولياء، لأنه هو الذي يدرك علم التحقيق، لا مطلق العقل كما تقدم، ويحتمل أن يريد الناظم: أن ما أتى به الشرع كله موافق لإدراك العقول، كما قال البوصيري رضي الله عنه:

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

فمسائل الشريعة كلها موافقة لما يقتضيه العقل، فما حرم الله تعالى شيئاً إلا لحكمة، وهي ما فيها من البعد عن الله، وما أوجب شيئاً إلا لحكمة، وهي كونه

يقرب إلى الله، ومسائل الفقه كلها لحكمة، فمنها ما أدركه الناس، ومنها ما لم يدركوه، ويقولون فيه: إنه تعبدي، لكن هذا الاحتمال وإن كان ظاهر الناظم ليس فيه رد على المنكر لإثبات علم الحقيقة، لأن هذا الأمر يثبته أهل الظاهر ويقررونه، وسياق الكلام إنما هو في الرد على أهل الحقائق فتأمله، والله أعلم.

[مثل آخر للشريعة مع الحقيقة]

ثم ضرب أيضاً مثلاً للشريعة الظاهرة مع الحقيقة الباطنة باليواقيت التي تكون في البحر، فقال:

(ما مثل المعقول والمنقول ... إلا كدر زاخر مجهول
حتى إذا أخرجه الغواص ... لم يكن للدر إذن خلاص
وإنما خلاصه في الكشف ... عن الغطاء حيث لا يستخف
فالصدف الظاهر ثم الدر ... معقولة والجهل ذاك البحر)

قلت: المراد بالمعقول هنا هو علوم الحقائق العرفانية والأسرار الربانية، وتسميتها معقولاً مجاز، لكنه قد قدم أن عقل التخصيص الذي هو للخواص يدرك علم الحقيقة، فيسمى حينئذٍ ما أدركه معقولاً بهذه النسبة.

وحاصل هذا المثال أن الروحانية التي هي محل علوم الحقائق مثلها كالدرة، وهي الياقوتة الكبيرة، والبشرية التي هي محل العلوم النقلية كالصدف لتلك الياقوتة، والجهل الذي عم الناس وأحاط بهم كالبحر، فمن دَوَّخَه بحر الجهالة لم يلتفت إلى در ولا صدف، بل غرق في بحر الجهالة وأتلف، ومن أيقظه الله من دوخته، ونبهه من غفلته، غاص بفكره يميناً وشمالاً فاستخرج ياقوتة سوداء مستورة في صدفها، لا يظهر منها إلا الصدف وهي نفسه، فإذا قنع بالاغتناء بظاهرها ولم يذهب إلى من يخلصها ويكشف له عن باطنها، بقي فقيراً على الدوام، وإن أراد أن يخلصها بنفسه بقي متعوباً معها على الدوام، وربما أفسدها، وكذلك إن ذهب بها إلى غير عارف ماهر بتصقيل اليواقيت أفسدها له أيضاً، وإن ذهب بها إلى عارف ماهر غواص في البحر عارف بتصقيل اليواقيت كشف له عنها في أقرب ساعة، فصار غنياً موسعاً عليه ينفق منها كيف يشاء، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق: 7].

قال في الحكم في تفسيرها «لينفق ذو سعة من سعته» الواصلون إليه «ومن قدر عليه رزقه» السائرون.

هذا حاصل كلام الناظم مع ما في حمله عليه من التعسف، لكن بهذا الحمل

يجري على نسق ما قبله، ويمكن حمله على ظاهره، فتكون الألفاظ كالصدف، والمعاني كالدر، والجهل بذلك كالبحر، لكن هذا الأمر لا نزاع فيه بين أهل الظاهر وأهل الباطن، والكلام إنما هو في المعاني التي هي ضد المحسوسات، وهو الذي شرحنا به.

فقوله: «ما مثل المعقول والمنقول»، هو على حذف مضاف: أي محل المعقول ومحل المنقول.

وقوله: «إلا كدر زاخر» يقرأ بالإضافة لزاخر على حذف مضاف، أي كدر بحر زاخر وقوله: «مجهول»: نعت لدر، لا لزاخر، وقوله: لم يكن للدر إلخ، معناه أن الدر حين يخرجه الغواص لم يكن مستخلصاً من صدفه، وإنما خلاصه بالكشف عنه من عارف به كما تقدم، بحيث يصير ظاهراً لا يستخفي، وباقي الكلام ظاهر.

[المعاني في الحروف كالدر في الصدف]

ثم قال رحمه الله:

(وإنما المعقول في شكل الحروف كما يكون الدر في جوف الصدوف)

قلت: هذا البيت من تتمة ما قبله، والمراد بالحروف رسوم البشرية الظاهرة، وقد تقدم أن اصطلاح الصوفية يطلقون الحروف والرسوم والأشكال على صور الأكوان الحسية، والمعنى: وإنما المعقول الذي هو المعاني اللطيفة في شكل الرسوم الحسية كالدر في الصدف.

أو تقول: وإنما المعاني في رسوم الأواني كاليواقيت في أصدافها، فالأواني أصداف، والمعاني يواقيت، فمن وقف مع الحروف والأشكال، وقنع بتحسين خطوطها وتزيين أشكالها، فاته الاطلاع على جواهر العلوم ويواقيت الفهوم، وبقي جاهلاً مضيقاً عليه في أرزاق العلوم، ومقتراً عليه في نتائج الفهوم، ومن نفذ إلى ما في باطنها من الدرر والجواهر الحسان كان من الأغنياء: أهل الشكر والإحسان.

ويحتمل أن يريد بالحروف معناها الأصلي، وهي الألفاظ الدالة على المعاني، والمراد بالمعقول علم الباطن، فإنه موجود في القرآن، لكنه باطني خارج عن ظاهر ما تؤديه الحروف.

قال سيدنا علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه: «إن للقرآن ظاهراً وباطناً، وحداً ومطلعاً» قالوا: «فالظاهر للنحاة والقراء، والباطن للمفسرين وأصحاب المعاني، والحد للفقهاء والعلماء، والمطلع لأرباب الكشف والتحقق» انتهى.

والمطلع بفتح اللام هو محل الاطلاع، كأن القرآن مشكاة يطلع منها على أسرار غيبه تعالى، وبالله التوفيق.

[مثل آخر للعلم الظاهر والباطن]

ثم ضرب مثلاً آخر للعلم الظاهر والباطن، فقال:

(هل ظاهر الشرع وعلم الباطن إلا كجسم فيه روح ساكن)

قلت: ظاهر الشرع هو العلم الظاهر، وهو العلم المنقول، والعلم الباطن هو العلم الموهوب.

أو تقول: العلم الظاهر هو علم الحكمة، والعلم الباطن هو علم القدرة.

أو تقول: العلم الظاهر هو علم البشرية، والعلم الباطن هو علم الروحانية.

أو تقول: العلم الظاهر هو علم العبودية، والعلم الباطن هو علم الربوبية، فالأول: علم الأوراق، والثاني: علم الأذواق، وعلم الربوبية هو: علم الفناء والبقاء والسكر والصحو والجمع وجمع الجمع، وغير ذلك، وهذا العلم لا يؤدى بالعبارة، وإنما يرمز إليه بالإشارة، لأنه ذوقي لا علمي.

فإن **قلت**: علم الطريقة متعلق بالقلوب، وهي باطنية، فكيف لا يكون من علم الباطن؟

قلنا: لما كان يؤدى بالعبارة، والعبارة تظهره وتوضحه، صار من قبيل علم الظاهر، وهو تصوف أهل الظاهر، وأما تصوف أهل الباطن فلا يدرك بالعبارة، وقد تقدم قول الشيخ:

(إياك أن تطمع أن تحوزه من دفتر أو شعر أو أرجوزة)

وهذا هو علم الباطن عند المحققين.

وقال الشيخ عبد الوارث[1]: العلوم ثلاثة: ظاهر، وباطن، وباطن الباطن، كما أن الإنسان له ظاهر، وباطن، وباطن الباطن. انتهى.

فجعل علم الشريعة ظاهراً، وعلم الطريقة باطناً، وعلم الحقيقة باطن الباطن، وهو حسن، إلا أن الجمهور حصروا العلم في القسمين، والأمر قريب.

---

(1) هو عبد الوارث بن سعيد بن ذكوان أبو عبيدة العنبري بالولاء، التنوري البصري (102 ـ 180 هـ = 720 ـ 796م) حافظ ثبت كان فصيحاً من أئمة الحديث.
(الأعلام 4/ 178)، و(تذكرة الحفاظ 1/ 237).

فمثال: العلم الظاهر مع العلم الباطن، كجسم فيه روح كامن، فالجسد لا يقوم بغير روح، والروح لا تظهر من غير جسد، وإذا خلى الجسد من الروح كان ميتاً، ولا عبرة به، ولذلك كان من تشرع ولم يتصوف فقد تفسق، لأن أعماله أشباح بلا أرواح، وإذا خلت الروح من الجسد بطنت ولم يظهر لها وجود، ولذلك كان من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق لأنه تصير حقيقته عريانة بلا كسوة، فيقتل عليها، فإن كان محقاً وغلبه السكر كان شهيداً وإن كان مدعياً كان بعيداً، ومن الحضرة طريداً، والله يعصمنا من الزلل ويوفقنا لصالح القول والعمل، بجاه الحبيب مولانا محمد ﷺ وعظم وبجل.

ثم ذكر:

[أصل النزاع الذي بين أهل الظاهر والباطن]

فقال:

(لو عمل الناس على الإنصاف ... لم تر بين الناس من خلاف)

قلت: الإنصاف هو: الرجوع لقول الغير بعد وضوح دليله، أو الإقرار بالحق بلا مكابرة، فلو اتفق الناس على الإنصاف، وأقروا بالحق أينما ظهر من غير مراء ولا جدال، لم يبق خلاف بين الناس، إذ الطريق واضح، والحق لائح، والداعي قد أسمع، ما التحير بعد هذا إلا من العمى كما قال البلخي، لكن طباع النفوس لا ترضى بحط الرؤوس، ومن كان رئيساً لا يرضى أن يصير مرؤوساً، وهذا سبب الخلاف والاختلاف بين الأمم: فريق في الجنة وفريق في السعير، واتفاق الناس كلهم على الحق خلاف الحكمة قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: 118 ـ 119]، قيل: للاختلاف وقيل: للرحمة، فالله يرحمنا وأحباءنا برحمته الخاصة والعامة آمين.

[غربة الحق في كل زمان]

ثم إن الحق غريب وأهله غرباء في كل زمان، قال عليه الصلاة والسلام: «**طوبى للغرباء**»[1] وإلى هذا أشار بقوله:

(واعلم رعاك الله من صديق ... أن الورىٰ حادوا عن التحقيق

إذ جهلوا النفس والقلوبا ... وطلبوا ما لم يكن مطلوبا

(1) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد 7/ 278).

واشتغلوا بعالم الأبدان فالكل ناءٍ منهم ودان
وأنكروا ما جهلوا وزعموا أن ليس بعد الجسم شيء يفهم)

قلت: ذكر رحمه الله أن الخلق حادوا، أي أعرضوا عن طريق التحقيق التي هي علم الحقيقة في عين الشريعة، أو علم الربوبية في عين العبودية، وذكر أن سبب إعراضهم عن ذلك أربعة أمور:

الأول: جهلهم بحال نفوسهم وقلوبهم، فلم يدروا هل هي مريضة أو صحيحة، وهل هي باقية على أصلها أو تغيرت، ومن شعر بشيء أنكر وجود الطبيب، ومن يردها إلى أصلها يبقى مريضاً على الدوام والتحق بمرتبة العوام.

الثاني: انطماس بصيرتهم حتى اشتغلوا بطلب ما لم يطلب منهم، وفرطوا فيما طلب منهم فاشتغلوا بطلب الرزق المقسوم والحرص على الدنيا وجمعها واحتكارها، وتركوا ما طلب منهم من حقوق مولاهم والتفكر فيما أولاهم، فحادوا عن الطريق، وأنكروا معالم التحقيق.

وفي الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما بال أقوام يشرّفون المترفين ويستخفون بالعابدين، ويعملون بالقرآن ما وافق أهواءهم، وما خالف أهواءهم تركوه، فعند ذلك يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، يسعون فيما يدرك بغير سعي من القدر المقدور والأجل المكتوب والرزق المقسوم، ولا يسعون فيما لا يدرك إلا بالسعي من الجزاء الموفور والسعي المشكور، والتجارة التي لا تبور**»[1]

قال إبراهيم الخواص[2]: العلم كله في كلمتين «لا تتكلف ما كفيت، ولا تضيع ما استكفيت».

---

(1) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير 10/ 238) والهيثمي في (مجمع الزوائد 10/ 229، 234) والمتقي الهندي في (كنز العمال 999) والشجري في (أمالي 2/ 206) والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد 6/ 313) والسيوطي في (اللآلىء المصنوعة 2/ 173) والعجلوني في (كشف الخفاء 1/ 266) وابن عراق في (تنزيه الشريعة 2/ 304) والشوكاني في (الفوائد المجموعة 420) وابن الجوزي في (الموضوعات 3/ 140) وصاحب (ميزان الإعتدال 6248) وابن حجر في (لسان الميزان 4/ 967) وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث 1856) وابن عدي في (الكامل في الضعفاء 5/ 1711).

(2) هو أبو إسحاق ـ إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص (توفي 291 هـ/ 904م) بالري من أقران الجنيد والنوري وكان مبطوناً. (الرسالة القشيرية 411).

الثالث: اشتغالهم بعالم الأشباح دون التعريج إلى عالم الأرواح، فاشتغلوا بخدمة الحس وعلم الحس وعمل الحس، وغفلوا عن علم القلوب وعمله، وأنكروا ما يدل عليه، فصارت خدمتهم حسية وعلومهم حسية رسمية، وأعمالهم بدنية حرفية، والحق من وراء ذلك كله، وهذا كله بعد عن الوصول إلى التحقيق إلا بسابقة التوفيق، فكل من اشتغل بخدمة الحس فهو بعيد في حال قربه، منقطع في حال وصوله، وهذا معنى قوله: «فالكل ناءٍ منهم ودانٍ» أي فالكل منهم ناءٍ أي بعيد، وهو دانٍ أي قريب.

وفي مناجاة الحكم: «إلهي ما أقربك مني، وما أبعدني عنك» إلخ.

الرابع: إنكارهم لهذا المقام الذي جهلوا، وهو علم التحقيق، الذي هو الزوال، ويسمى العالم الروحاني، وزعموا أنه ليس شيء زائد على الأجسام الحسية، وهم معذورون في الإنكار، إذ لا يعرف البلد إلا من وصلها:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها

وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم هؤلاء الجهال لم يقنعوا بالإنكار حتى كفروا من قال بشيء من ذلك، كما قال:

(وكفّروا وزندقوا وبدّعوا ... إذا دعاهم اللبيب الأورع)

قلت: هذا من الحرمان، وعلامة الخذلان، إذا دعاهم أحد إلى التحقيق قالوا: إنه زنديق، وإذا خرق عوائد نفسه في دواء قلبه قالوا: إنه صاحب بدعة، وهذا كله حجاب وستر لأوليائه، فإذا سمع المريد شيئاً من ذلك فليطلب نفساً، فتلك عناية به، نعم ينبغي أن يجزم نفسه في ستر السر الذي عنده، فإن أفشى شيئاً من ذلك فسيف الحلاج فوق رأسه، ثم المنكر على الصوفية في أقوالهم وأحوالهم إن كان ذلك من عدم فهمه فقد يعذر بجهله، لضعف مدركه وضيق عطنه كما قال الحضرمي رضي الله عنه في كتابه «صدور المراتب ونيل المراغب» ونصه بعد كلام: والجاحد لمن يوحى إليه شيء من هذا الكلام وما يفهمه فهو معذور مسلم له حاله من باب الضعف والتقصير، وهو مؤمن إيمان الخائفين، ومن يفهم شيئاً من ذلك فهو لقوة إيمان واتساع دائرة، ومشهده مشهد واسع، سواءً كان مورد نور أو ظلمة بحسب ما في القوابل من الودائع الموضوعة على أي صفة كانت. انتهى.

وإن كان تعصباً وتزكية لنفسه، وإرادة الترفع على غيره فهو هالك مثبور، وعلامة الأول الوقوف على حد ما يقع به التعبير من غير زيادة ولا تشنيع، وعلامة الثاني التشنيع واتساع الدعوى والهروب من مواطن التحقيق، ومن رزقه الله التسليم فهو أولى.

وقد سئل النووي رحمه الله عن ابن العربي الحاتمي[1] فقال: الكلام كلام صوفي، و﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: 141]، الآية، وكذلك قال ابن أبي زرعة في شأنه أيضاً، وفي ابن الفارض[2]، وذكر فيه كلام الناس من المنكرين وغيرهم، وقال: إن يعترض على الكلام ويتركه القائل لاحتمال توبته انتهى.

قلت: وإنكار أهل الظاهر على أهل الباطن لعدم فهم مقصودهم، ولعدم الوصول إلى مقامهم، ولذلك كان التسليم أولى، بل هو نصف الولاية، والله أعلم.

[سبب إعراض الخلق عمن يدعوهم إلى الله]

ثم ذكر سبب إعراضهم عمن دعاهم إلى الله فقال:

(كل يرى أن ليس فوق فهمه … فهم ولا علم وراء علمه
محتجباً عن رؤية المراتب … عل يسمى عالماً وطالب)

قلت: هذه سنة الله في خلقه، قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 53، الروم: 32]، كل من كان في مقام يرى أنه لا مقام فوق مقامه، فإن

---

(1) هو محمد بن علي بن محمد بن عربي أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي المعروف بمحيي الدين بن عربي (560 ـ 638 هـ = 1165 ـ 1240م) فيلسوف من أئمة الصوفية الكبار في كل عام. ولد في مرسية وانتقل إلى إشبيلية وقام برحلة فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز. له نحو أربعمائة كتاب ورسالة منها «الفتوحات المكية» و«ديوان شعر» و«فصوص الحكم» و«الحق» وغير ذلك. استقر في دمشق فتوفي بها.
(الأعلام 6/ 281)، و(ميزان الاعتدال 3/ 108)، و(شذرات الذهب 5/ 190)، و(نفح الطيب 1/ 404).

(2) هو عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل، المصري الأصل والدار والوفاة أبو حفص وأبو القاسم، شرف الدين ابن الفارض (576 ـ 632 هـ = 1181 ـ 1235م) أشعر المتصوفين. يلقب بسلطان العاشقين في شعره فلسفة تتصل بما يسمى «وحدة الوجود» له «ديوان شعر».
(الأعلام 5/ 56) و(وفيات الأعيان 1/ 383) (وميزان الاعتدال 2/ 266) (وشذرات الذهب 5/ 149 ـ 153).

شوّق إلى ما وراء ذلك أنكره، وحكمة ذلك تمام الحكمة الكلمة التي سبقت له في الأزل، فإن كان ممن سبق له شيء من هذه الخصوصية إذا شوقته تشوق وطلب، فيوصله الله إلىٰ ما سبق له، بخلاف ما إذا لم يسبق له شيء من ذلك، إذا ذكرت له مراتب الرجال أنف وقال: «كان ذلك فيما مضى» خوفاً أن يسقط له جاهه ومرتبته من عين الناس، فباء بالخيبة والإفلاس، واحتجب عن مراتب الكمال، وتخلف عن مقامات الرجال، والعياذ بالله من مثل ذلك، ودعواه أن لا فهم فوق فهمه، ولا علم فوق علمه، جهل عظيم، فإن فوق كل ذي علم عليم، ومنتهى العلم إلى الله العظيم، كما أخبر تعالى في كتابه الحكيم وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]، واتساع دائرة العلوم، وفتح مخازن الفهوم إنما هي منح إلهية، ومواهب اختصاصية، لا تنال بكسب ولا احتيال، وإنما تنال بفضل الكبير المتعال مع حكمة صحبة الرجال، والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وقوله: «عل» إلخ لغة في «لعل» أي إنما أنكر لعله يسمى عالماً وطالباً للعلم، وهذه علامة الرياء أعاذنا الله منها بمنه وكرمه.

ثم استبعد الناظم أن يصدر مثل هذا ممن له عقل كامل، فقال:

(هيهات هذا كله تقصير ... يأنفه الحاذق والنحرير)

قلت: النحرير، هو: الذي يحقق الأمور ويحررها، يعني أن القناعة بعز الناس ومدحهم مع فوات الحظ من الله بمعرفته الحقيقية لا يرضاها من كان صادقاً نحريراً، بل لا يرضاها الجاهل فضلاً عن العالم.

قال في الحكم «استشرافك أن يعلم الناس بخصوصيتك، دليل على عدم صدقك في عبوديتك» انتهى.

[التحريض على النهوض إلى الله تعالى]

ثم حرض على النهوض إلى الله تعالى، فقال:

(فمن يرد موارد المواهب ... فكيف يرضى هذه الغياهب

فالعلم ما يلفي إليه حد ... بل ظاهر يخفي وخاف يبدو

والعلم لو كانت له نهاية ... يوقف عند حدها أو غاية

ما كان أذكى مرسل وأسمى ... قيل له قل رب زدني علما

فعش بما لديك ما حييت   وجنب التعنيف والتعنيت
والكل قد يعجبه الكلام   فالزم هدى نفسك والسلام)

قلت: حاصل كلامه أن من أراد أن ينهل من موارد المواهب والأسرار، وتشرق عليه شموس الأنوار، فلا يرضى لنفسه الإنكار على أولياء الله، فيحارب بذلك مولاه، ولا يحصر العلم فيما عنده، وينكر أن يكون فوق علمه علم، أو فوق حاله حال، أو فوق مقامه مقام، فلا يرضى بهذه المذاهب السخيفة إلا ذوو الهمم الضعيفة، فالعلم لا يوجد إليه حد ينتهى إليه، بل هو كالشموس والأقمار والنجوم، لا يزال غارباً وطالعاً ومتوسطاً ما دام الدهر، فعلوم العارفين كالشموس، وعلوم السائرين كالأقمار، وعلوم عامة أهل اليمين كالنجوم، وهي في الجميع، تارة تظهر وتشرق بقوة الواردات، وتارة تخفىٰ بضعف الواردات، ولا حد للعلوم والمعارف والأسرار، فلو كان لها حد تنتهي إليه ما كان رسول الله ﷺ يقول الله تبارك وتعالى له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]، وهو سيد العارفين، فدل على أن العلم لا نهاية له، قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]، واعلم أن جميع العلوم الرسمية كلها يبقى معها الافتقار إلى غيرها، أو إلى الزيادة منها، إلا علم الشهود إذا تحقق واطمأن العبد بالله، فإنه يحصل له الغنى الأكبر، ولا يلتفت إلى علم آخر أبداً، كمن عنده الفلوس أو الدراهم أو الذهب، ثم وجد الإكسير، فلا شك أنه يزهد فيما كان عنده، ولا يلتفت إليه، كذلك العارف لم تبق له حاجة إلى شيء إلا إلى مولاه.

قال سيدي عبد الرحمٰن الفاسي[1] رضي الله عنه: كنت أعرف أربعة عشر علماً، فلما أدركت الحقيقة سرطت ذلك كله، ولم يبق لي إلا التفسير والحديث والمنطق ا هـ. فإذا حصل لك أيها المريد علم المعرفة، فعش بما لديك منها ما

(1) هو عبد الرحمٰن بن عبد القادر بن علي أبو زيد الفاسي (1040 ـ 1096 هـ = 1631 ـ 1685م) فقيه باحث متفنن من أهل فاس (بالمغرب الأقصى) نُعت بسيوطي زمانه وله شعر كثير وصنف نيفاً وسبعين كتاباً منها «مفتاح الشفاء» و«أزهار البساتين» و«الأقنوم في مبادىء العلوم» ومنظومات في «الطب» و«الإسطرلاب» و«التوقيت» و«زهر الشماريخ في علم التاريخ» وغير ذلك.
(الأعلام 3/ 310)، و(اليواقيت الثمينة 195)، و(الدرر الفاخرة 13)، و(الإستقصا 4/ 51).

حييت، فهذه هي الحياة الطيبة التي لا يعقبها موت أبداً، وجنب التعنيف والتعنيت، فالتعنيف التغليظ في الكلام، والتعنيت المنازعة والمغالبة، لأن هذه الحالة من شأن الجهال، فلا تبدي ما يفتح به عليك، ولا تنكر ما لا ينتهي إليه علمك، ولا تنازع من نازعك، فللحقيقة رب يحميها، وللطريقة نفس تصطفيها والنزاع لا يجلب إلا الشر في الدنيا والنقص في الدين، وكلام القوم يعجب كل سامع إليه، فلا يغرنك من الناس استحسانهم له، حتى تطالبهم بحقائقه وتطمع في سلوكهم عليه، فإن ذلك يتعبك ويفتح لك باب الدعوى والرعونة والشهوة، فالزم إصلاح نفسك وهداها، ولا تلتفت إلى ما سواها، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [المائدة: 105]، الآية.

وقال الفضيل[1] رضي الله عنه: هذا زمان احفظ فيه لسانك، واخف مكانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وقال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخويصة نفسك**»[2] انتهى.

رزقنا الله العمل به إلى الممات في عافية دائمة وستر جميل، آمين.

هذا آخر الفصل الرابع بحول الله وقوته.

يتلوه الفصل الخامس، وبه الختام، ختم الله لنا بالحسنى والمعرفة على التمام.

وحاصل هذا الفصل الإنكار على بعض الفقراء، تشبهوا بالفقر ولبسوا على الناس، فأشار إلى الرد عليهم في هذا الفصل، فقال.

---

(1) انظر ترجمته في (الرسالة القشيرية 424).

(2) أخرجه الطبري في (التفسير 7/ 63) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 8/ 407) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 2/ 304، 359).

الفصل الخامس في فقراء العصر، ومتشبهي الوقت

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: هذا الفصل في مقابلة الذي قبله إذ ذاك في الرد على أهل النقص من المتفقهة، وهذا في ذم المخلطين من المتفقرة، وهو من أهم ما يعرفه الصادق في هذا الزمان ليحكم به على نفسه لا غير ذلك، وذلك لما في الوقت من الفساد والتخليط، لاسيما وقد ورد أن في صحف إبراهيم عليه السلام: «وعلى العاقل أن يكون عارفاً بزمانه» ومعرفة الزمان وأهله أمر مهم، فلا بد من العلم به جملة وتفصيلاً، لأن من تعلم العلم لنفسه تنور، ومن تعلم العلم للناس تحير، ومن لاقى الناس بالنية أفلح، ومن لاقاهم بالاعتراض خسر، ولكل قوم حثالة، وهؤلاء الذين يذكر أوصافهم بعدهم: حثالة المتشبهين فارحمهم وعظهم، ونبههم وذكرهم، وحذر الصادقين من فعلهم، ثم إن تمادوا فلا تشغل بهم ولا تغير إلا حيث يجب عليك التغيير، بحكم الشرع، فهو في كل أمر بين متفق عليه تقدر على تغييره من غير أن يؤدي لمنكر آخر أعظم منه، أو مثله وبالله التوفيق. انتهى.

[تغيير طريق التصوف الذي كان عليها السلف]

ثم افتتح بتغيير الطريق الذي كان عليها السلف الصالح، فقال:

(إذا علمت كيف كان الحال ... في الشيخ والتلميذ ثم حالوا
فاعلم بأن أهل هذا العصر ... قد شغلوا بمحدثات الأمر
إذ أحدثوا بينهم اصطلاحاً ... لم أر للدين به صلاحاً
وصنفوا بينهم أحكاماً ... أكثرها كانت لهم حراماً
وانتهجوا مناهج منكوسة ... وارتكبوا طريقة معكوسة)

قلت: لما أخبر في كتابه ما كان حال الصوفية المحققين، وما كان حال شيوخ التربية، أخبرك هنا أن ذلك قد حال، أي تغير، ولم يبق على حاله، فلا تغتر بمن يدعي حالة مع الله حتى تختبره في حب الدنيا والميل إليها إن أردت أن تصحبه، وإلا فلا عليك فيه، فحسن الظن بعباد الله ليس فوقه شيء من الخير، وسوء الظن بعباد الله ليس فوقه شيء من الشر، وماذا علينا إذا اعتقدنا أن الناس

كلهم صالحين وأولياء، لا والله لا يزيدنا ذلك إلا قرباً من الحق، مع المحافظة على رسوم الشريعة.

وقد قال الصحابي الجليل سيدي عبد الله بن عمر بن الخطاب[1] رضي الله عنهما: «من خادعنا في الله انخدعنا له» انتهى (وفي) الحديث: «**المؤمن غر كريم، والمنافق خب لئيم**»[2]

والغر بكسر الغين هو الذي يغتر لحسن ظنه ونيته، والخب بفتح الخاء وكسرها هو: الخداع قاله المنذري، والمؤمن يلتمس المعاذير: يلتمس سبعين عذراً لأخيه المؤمن، سيما أهل النسبة، فالواجب تعظيم الجانب حرمة لمن انتسب إليه، فإن كان كاذباً فعليه كذبه، وإدخال ألف رجل في الولاية أفضل عند الله من إخراج ولي واحد منها، والخلق عيال الله فمن مدح عياله أحبه ومن تنقص عياله أبغضه.

قال في «النصيحة الكافية»: وأما الفقراء فيسلم لهم في كل شيء لا يقتضي العلم إنكاره، قال الشارح: ما لا يقتضي العلم إنكاره على ضربين.

أحدهما: ما يعرفه الناس ويعتقدونه كذلك، فهذا لا ينكره أحد على أحد.

الثاني: ما يعتقدون قبحه ونقص المتصف به لعارض غلب عليه، وهو الذي يحتاج إلى التنبه به والتوصية بترك إنكاره، كترك الخوف ومجانبة الأسباب، فإن الناس ينقصون صاحب ذلك ويحملونه على العجز والكسل ويتهمونه بالطمع والتشوف إلى ما في أيدي الناس، وكلبس المرقعات، فإنهم يرون أن صاحبه اتخذه شبكة يصطاد به، وجعله باباً للسؤال ومسلكاً للاغترار، مع أنه قد يكون كذلك وقد لا، فالسلامة في التسليم، فمن انتمى لطريق القوم وانتسب إليهم يسلم له حاله في مثل ذلك.

ثم قال في «النصيحة» وما وجب إنكاره أنكر عليهم مع اعتقاد كمالهم.

---

(1) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمٰن (10 ق هـ ـ 73 هـ = 613، 692م) صحابي من أعز بيوتات قريش في الجاهلية كان جريئاً جهيراً. هاجر إلى المدينة مع أبيه وشهد فتح مكة ومولده ووفاته بها. وغزا إفريقية مرتين وهو آخر من توفي من الصحابة بمكة له في كتب الحديث 2630 حديثاً.
(الأعلام 4/ 108) و(معالم الإيمان 1/ 70)، و(الإصابة ت 4825).

(2) أخرجه أبو داود (أدب 5) والترمذي (بر 41) وأحمد بن حنبل (2، 394).

قال الشارح: لأن انتسابهم لجناب الحق مقتضٍ لذلك، يعظم المنتسب له، ولو كان في نفس الأمر كاذباً، قال في «العدة» لأن وجود انتسابه شاهد بتعظيمه للجناب الذي انتسب إليه في نظره، ولذلك ما تعرض أحد قط لمنتسب بأذىً إلا أصابه منه ضرر، لأن الحق سبحانه يغار لهتك جنابه إلا بأمر منه، فإذا وقع المنتسب في أمر فيه حق من حقوق الله: أقيم عليه الحق، وحفظت حرمته في نسبته، لحديث: «**لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله**»[1] الحديث انتهى.

[حق النسبة لأهل الله تعالى]

قال: وبالجملة فالنسبة لها حق عظيم:

(رأى المجنون في البيداء كلباً ... فجر له من الإحسان ذيلا
فلاموه على ما كان منه ... وقالوا لم أنلت الكلب نيلا
فقال دعوا الملامة إن عيني ... رأته مرة في حي ليلى)

ثم قال في «النصيحة»: إذ لا يبعد أن تكون للولي الهفوة والهفوات، والزلة والزلات، قال الشارح: ويفهم من تعبيره بالمفرد المختوم بتاء الوحدة وبجمع القلة: أن وقوع ذلك منهم نادر، وذلك لأن الشيطان لا تسليط له على قلوبهم، وإنما يطوف بها كالسارق.

وقال في كتاب «الانتباه» لا سبيل للشيطان إلى دخول قلوب الأولياء التي هي معدن الأسرار ومظهر الأنوار، فلا يحوم حولها إلا سارقاً، والسارق إنما يقضي غرضه من الغافل والنائم، وهم في مقام الانتباه واليقظة، فإذا استشعروا شيئاً من همزاته رموه بشهب أدلة التوحيد، فانقلب خائباً لمانع حماية الرحمٰن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: 42]، والتعبير بالسلطان يدل على الغلبة. والله أعلم، أي لا غلبة لك عليهم، فبان بهذا أنه وإن رام القرب منهم فلا ينال غرضه، وإن توصل إلى بعض الوسوسة، فمحلها ظاهر القلب لا باطنه الذي هو محل المعرفة بالله، ولا يستقر لها أي للوسوسة قرار، لثبوت يقظتهم وقوة

---

(1) أخرجه ابن سعد في (الطبقات الكبرى 3/ 2/ 56) وعبد الرزاق في (المصنف 13552، 17082) والمتقي الهندي في (كنز العمال 13749) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 4/ 322) وابن كثير في (البداية والنهاية 8/ 70) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 9/ 620).

نور بصائرهم، فإذا استشعرها القلب كان كما أخبر الله عنهم، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿201﴾﴾ [الأحزاب: 38]، فانظر لم ينف عنهم حكم الوسوسة، ولكن أثبت لهم اليقظة المتضمنة نفي الإغواء الذي هو الإصرار، كما وصف من ذكر أهل الغفلة في الآية الثالثة اهـ.

ثم قال في «النصيحة»: «الأولياء محفوظون، والحفظ يجوز معه الوقوع في المعصية، أي بخلاف العصمة، إلا أنه لا يجوز معه الإصرار ولا يقتدى به في مثلها، وقد سئل الجنيد[1] رضي الله عنه: أيزني العارف؟ فقال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وقال ابن عطاء الله رحمه الله: ليت شعري، لو قيل له: أتتعلق همة العارف بغير الله؟ لقال: لا

ولا ينكر على الفقراء إلا محرم مجمع على تحريمه، ولا يسلم لهم إلا فيما له صورة، ليباح لها من الأفعال» انتهى كلام النصيحة.

وإنما نقلته مع غيره لينزل عليه ما يذكره الناظم من التشنيع على متفقرة وقته، فقوله: إذا علمت أحوال الصوفية والشيوخ والتلامذة كيف كانت أحوالهم على ما وصفت لك في كتابي، علمت أن أهل العصر خرجوا عن طريقهم، واشتغلوا ببدع محدثات في أمور الدين، فلا تقتد بهم، ونبههم بالتي هي أحسن ـ إن قدرت ـ وإلا فشأنك بنفسك ولا تنتقده، فإن البواطن لا يعلم ما فيها إلا الله، وليست كل بدعة محرمة، فإن فيها ما هو واجب، وما هو مكروه، وما هو مباح، فالبدعة المحرمة هي التي تنقض قاعدة من قواعد الشرع، كتحليل حرام، أو تحريم حلال، وجل أحوال الصوفية إنما هي بدع مستحسنة، أو مباحة، كتعليق السبحة والقيام للذكر جماعة، وغير ذلك.

وقوله: «إذا أحدثوا بينهم اصطلاحاً» إلخ ينظر في هذه الاصطلاحات، فإن كانت لا تغير شيئاً من قواعد الدين فلا اعتراض، وإلا فليرشدهم برفق، وقوله: «وصنفوا» إلخ أي صنفوا تصانيف فيما أحدثوا من البدع، وأكثرها كانت حراماً عند الصوفية، وينظر فيها اليوم بميزان الشريعة كما تقدم.

---

(1) هو أبو القاسم: الجنيد بن محمد (توفي 297 هـ/ 910م) أصله من نهاوند ولد ونشأ في العراق وكان أبوه يبيع الزجاج ولذلك يقال له القواريري وكان فقيهاً. (الرسالة القشيرية 430).

وقوله: «وانتهجوا» أي سلكوا مناهج وطرقاً «منكوسة» أي غير مستقيمة، وارتكبوا طريقة معكوسة مع طرق الصوفية، فطريق الصوفية ترك الدنيا وأهلها، وإيثار الزهد والخمول، فكل من مال للدنيا وأهلها، أو مال لحب الشهوة، فقد عكس طريقهم وسلك طريقة منكوسة.

وفي بعض الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ليجاء يوم القيامة بأقوام معهم من الحسنات أمثال جبال تهامة، حتى إذا جيء بهم جعل الله أعمالهم هباءً ثم قذفهم في النار، قيل: يا رسول الله بين لنا هؤلاء حتى نعرفهم، قال: إنهم كانوا يصومون ويصلون ويأخذون وهناً من الليل، ولكنهم كانوا إذا عرض لهم شيء من الحرام وفي رواية «من الدنيا» وثبوا عليه وثبة الأسد على فريسته**»[1] انتهى أعاذنا الله من النفاق، **ثم قال**:

(تالله قد كان طريقاً قاصداً والآن ما نلقي إليه وارداً)

قلت: يريد أن طريق التصوف «كان طريقاً قاصداً» أي مقصوداً مسلوكاً، والآن لا تجد عليه «وارداً» أي سالكاً، أو كان قاصداً أي متوسطاً معتدلاً ليس فيه إفراط ولا تفريط ثم جاء قوم أفرطوا، وقوم فرطوا، وخير الأمور أوسطها، **ثم قال**:

(فهذه طريقة قد درست وشجر أغصانها قد يبست)

قلت: معنى درست: ذهبت واضمحلت، ودروسها باندراس أهلها، وشبهها بالشجر لأنها أصل وفروع ومادة، ويبس أغصانها يؤدي إلى عدم ثمرتها، ولا يكون إلا لما دخل على أصلها من الاختلال، إما من جهة المريد، لعدم صدقه، أو من جهة الشيخ لعدم كماله.

ثم قال:

(كانت إذن موارداً شريفة فاستبدلت مذاهباً سخيفة)

قلت: كانت طريق التصوف مشارب ومناهل شريفة، من شرب منها شربة المحبة لا يظمأ بعدها أبداً، كانت إذا شرب المريد من خمرة شيخه سكر، وصحا، وفني عن أوصافه المذمومة، وبقي بأوصاف محمودة، فاستبدلت تلك الطريقة بمذاهب سخيفة، أي قبيحة خسيسة، يسلكها كل سخيف خسيس، والخير لا ينقطع إلى أن يأتي أمر الله، وقال الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ

---

(1) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور 5/ 67).

مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: 106]، **فقال:**

(قد أسست على صحيح العقل وأسها الآن بمحض الجهل)

قلت: كانت طريق التصوف مؤسسة على الكتاب والسنة وإلهامات العارفين الذين تنورت عقولهم، وانصقلت مرآة قلوبهم، فتجلى فيها ما كان حقاً، وزهق منها ما كان باطلاً، فكانت طريقهم مبنية على التحقيق، ثم صارت مؤسسة على التحديس والتخمين ومجرد التقليد، بلا ذوق ولا وجدان، فادعاها كل جاهل ولهان بحب الدنيا سكران، نسأل الله العصمة من مواطن الخذلان، فقال:

(يدعي الذي يمشي عليها سالك وسالكوها اليوم حزب هالك)

قلت: السالك هو الذي يرى الخلق ويستدل بهم على الحق، والمجذوب هو الذي يرى الحق ويستدل به على الخلق، والسالك المجذوب هو الذي يرى الخلق بعين الجمع، لا يحجبه خلق عن حق، ولا حق عن خلق، وقد تقدم في محله، فكانت طريق القوم يسمى الذي دخل فيها سالكاً، أي سائراً إلى الله، قال الناظم في زمانه:

(... وسالكوها اليوم حزب هالك)

لما رأى فيهم من الخلل، **ثم قال:**

(بها عاش القوم بخير عيشه فصيرت بعدهم معيشه)

قلت: كانت طريق التصوف من دخل فيها حييت روحه بمعرفة الله، وطابت حياته بذكر الله، فعاش عيشة طيبة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97]، فالحياة الطيبة هي الغنى بالله.

وقال السري السقطي[1]: من عرف الله عاش، ومن مال إلى الدنيا طاش، والأحمق يغدو ويروح بلاش انتهى.

ثم صارت عند قوم حرفة ومعيشة، يتمعشون بها، ويتخذونها شبكة يصطادون بها الدنيا والجاه، والعياذ بالله، **ثم قال:**

(وكانت تضاهي الكوكب المنيرا والآن أضحت حائطاً قصيراً)

---

(1) هو أبو الحسن ـ سري بن المفلس السقطي (توفي 253 هـ/ 867م) خال الجنيد وأستاذه، وتلميذ معروف الكرخي. وكان وحيد زمانه في الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد وكان يتجر في السوق. (الرسالة القشيرية 417).

قلت: كانت طريق القوم رفيعة القدر، عالية الشأن، «تضاهي» أي تشابه وتحاكي الكوكب المضيء في الرفعة والإشراق، لما يظهر على أهلها من شروق الأنوار، وابتهاج الأسرار، فكان لا يدخلها ولا ينتسب إليها إلا الأخيار من الزهاد والعباد، الذين علت همتهم، وصلح قصدهم ونيتهم، والآن صار ينتسب إليها الأشرار والفجار، فتجد فيها هذا قائداً وهذا باشا، وهذا حرصي، وغير ذلك، **فمنهم** من يتخذها حصناً يتحصن بها من عواقب ظلمه، يظن ذلك ينفعه بزعمه، **ومنهم** من يتخذها حرفة، فصارت كالحائط القصير يتخطاه القوي والضعيف، وسبب ذلك عدم سقوطهم على شيخ التربية، إذ لو وجدوه لأمرهم بخرق عوائد أنفسهم، فيفرون منه، لكنهم انتسبوا للأموات، ووجدوا راحة نفوسهم، فبقوا مع عوائدهم، فازداد حجابهم والعياذ بالله، **ثم قال**:

(إذ صار لا يعلم منها إلا أكلاً ورقصاً وغنىً وسؤالا)

قلت: الحصر في قوله: «لا يعلم منها» إلخ يقتضي أن الطريق الموجودة في زمانه، ليس فيها علم ولا حال، ولا ذوق، ولا معرفة، ولا شهود، وإنما يعرف منها الأكل والرقص والغناء والسؤال.

وقال الشيخ عبد الوارث: لم يبق منها إلا الأكل بلا صيام، والرقص دون أحوال، والتواجد بلا وجد، والتملق لأنفسهم وهواهم وسلاطينهم ا هـ.

وإنما كانت طريق القوم مقصودة لتهذيب القلوب ورياضة النفوس، والتخلص من أوصاف البشرية، والتخلق بأخلاق الروحانية، ومعرفة الشهود والأدب مع الملك المعبود، وقد يوجد فيها ما ذكره الناظم، لكنه لم يكن مقصوداً، وإنما كان دواءً ولعل الناظم تحقق ذلك من فقراء زمانه بأمارة، وإلا فالتسليم لأهل النسبة أولى كما تقدم، **ثم قال**:

(وكانت على الإنصاف والنصيحة فهي على الإسراف والفضيحة)

قلت: كانت طريق القوم مبنية على الإنصاف، فكان أربابها ينصفون من أنفسهم، ويرجعون إلى الحق، ويقبلونه من قائله كائناً من كان، وكانوا يتناصحون: ينصح بعضهم بعضاً، وينصح جميع المسلمين، كل من يلقاهم أرشدوه، وعلى الله دلوه، ثم صارت مبنية على الإسراف في الكلام، وفي كل شيء، ترى أحدهم يتكلم ألف كلمة يقضي فائدة واحدة، وصارت فضيحة، إذا نصح أحدهم عنف وغضب وجهه، وأغلظ في القول، حتى يفضح من ينصحه، وقد قالوا: «من نصحك

وحدك فقد نصحك، ومن نصحك مع الناس فقد فضحك» والله تعالى أعلم، **ثم قال:**

(تعرف بالخلق والإيثار والآن بالحقد وبالإقتار)

قلت: كانت طريق القوم يعرف أهلها بالأخلاق الحسنة، كالحلم والسخاء والإيثار، وهو الإعطاء من الإقتار كما قال الشاعر:

ليس العطاء من الفضول سماحة حتى تجود وما لديك قليل

وكان من أخلاقهم أيضاً التواضع، وسلامة الصدور، وحسن الخلق مع كل مخلوق، ثم تبدلت هذه الأخلاق بالحقد، والحسد، والكبر، والبغض، والغضب، والقلق، والشح، والبخل، والترفع، وهو الأشر، فصار المنتسبون يبغض بعضهم بعضاً، ويحسد بعضهم بعضاً لتمكن حب الجاه والدنيا من قلوبهم، نسأل الله السلامة من الجميع، **ثم قال:**

(وكانت أجل غبطة وخطة والآن فهي بدعة وخلطة)

قلت: كانت طريق القوم أجل ما يغتبط، أي يفرح بها وينافس فيها، لأنها كانت طريق الوصول إلى الفناء الأكبر، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: 26]، وكانت أجل خطة، أي حرفة وأرفع رتبة، إذ لا طريق أرفع منها، فصارت بعد ذلك بدعة وتخليطاً لقلة أهل الصفا، وبالله التوفيق، **ثم قال:**

(كانت على مجرد الصيام والآن في مجرد الطعام)

قلت: كانت طريق التصوف مبنية على تصفية القلوب ورياضة النفوس بخرق عوائدها وتعكيس مألوفاتها، فمن كان طبعه نهمة الطعام أمروه بالصيام، ومن كان مولعاً بالكلام أمروه بالصمت، ومن كان مولعاً بجمع الدنيا أمروه بالزهد، ومن كان مبتلى بالجاه أمروه بالخمول، وهكذا، وليست طريقهم محصورة في الصيام ولا في غيره، بل الشيخ كالطبيب يعامل كل واحد بما فيه دواء نفسه والسلام، **ثم قال:**

(في السماع كان غلق الباب والآن عند جفن جواب)

الجفنة هي: القصعة الكبيرة، والجوابي جمع جوبة، وهي حفرة كالصهريج، شبهت بها القصعة الكبيرة.

قلت: قد تقدم أن السماع إنما هو رخصة، ويشترط فيه الإخوان والزمان والمكان، فإذا كان وقت السماع أغلقوا الباب لئلا يدخل معهم من ليس بأهله،

وتقدم أيضاً أن الأكل، ينبغي فيه فتح الباب ليدخل من يحتاج إلى الأكل، وفي ذلك الدلالة على الكرم وسماحة النفس وغنى القلب وعدم الشح والحرص.

وقال الناظم في فقراء وقته: إنهم عكسوا الأمر، ففتحوا الباب عند السماع ليجمعوا عليهم الناس، وأغلقوها عند الطعام حرصاً وشحاً، نعوذ بالله من ذلك، **ثم قال:**

(وقولنا الشيوخ والإخوان   هم الذين سلفوا وبانوا
ماتوا ولما يتركوا من وارث   إذ هؤلاء القوم كالبواعث)

قلت: قد تقدم أن الأرض لا تخلو ممن يقوم الله بحجته، وراجع ما تقدم لنا عند قوله:

(إن الذي سألت عنه مات   ...)

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: وشبه هؤلاء بالبراغيث من وجوه.

أحدها: ما هم عليه من الرقص والتطاير كالبراغيث.

الثاني: ما هم فيه من الإذاية والتنغيص لمن جاوروه، تارة بالغيبة وتارة بغيرها.

الثالث: خساسة همتهم باعتبار سكنى المواضع المزيلة والاشتغال بالأكل دون غيره مع ظهورهم بالضعف والمسكنة. انتهى.

قلت: وقد تقدم ما في الرقص في باب السماع محرراً وتعظيم أهل النسبة مطلوب، وحسن الظن واجب أو مندوب، والتسليم وقاية، والانتقاد جناية، وتأمل ما وقع لابن هارون من القراد حيث نقصه في باطنه، فسلبه من ساعته، وفقد ما كان عنده من العلوم والأنوار حتى تاب إلى الله وذهب إليه وتحلل منه، والقصة مذكورة في طبقات الشعراني، وكذلك قصة الفقيه البلقيني مع بائع الحشيش، حيث اعترض عليه بقلبه: ففقد علمه وحاله حتى تاب وأمره أن يجلس معه ويأتي بخبز ولحم، حتى كل من اشترى الحشيش أطعمه الفقيه اللحم والخبز، وهذا كله وبال الإنكار على أهل النسبة، والله تعالى أعلم، **ثم قال:**

(فكل ما اليوم عليه الناس   من مدعين الفقر فيه باس)

قلت: هذه الكليّة لا تسلم له، لصحة نقيضها، وهي الجزئية السالبة، وهو بعض ما عليه الناس من الفقر لا بأس به، قال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين**

على الحق حتى يأتي أمر الله»[1]

قال المحققون من العلماء: إن هذه الطائفة مؤلفة من ثلاث فرق: أولياء، وعلماء، ومجاهدين، فهؤلاء الفرق لا تنقطع حتى يأتي أمر الله، وكأن الناظم لما رأى كثرة التخليط عمم الأمر.

وقال الشيخ عبد الوارث: كل ما هم عليه من محدثات الأمور ففيه بأس «أي عيب» فالباس من غير همز، هو: العيب، وبالهمز هو الحديد انتهى.

لكن: ما قاله في تفسير الباس غير صحيح، إذ الباس هو الحزم والشدة، بهمز وبغير همز، ثم ذكر العلة، **فقال:**

(إذ نقضوا الأصول والأركانا وصيروه في الورى مهانا
وهدموا بنيانه المشيدا وصيروه مخملاً ومخمداً)

قلت: نقض الأصول والأركان هو: إهمالها والعمل بأضدادها.

وأصول التصوف خمسة:

تقوى الله في السر والعلانية.

واتباع السنة في الأقوال والأفعال.

والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.

والرضى من الله في القليل والكثير.

والرجوع إلى الله في السراء والضراء.

هكذا قال الشيخ زروق في بعض تآليفه، وقال في شرحه لهذا المحل: «وأما نقضهم الأصول فإثبات ما ليس منها في محلها، كاستبدالهم الزهد بالحرص، والورع بالطمع، والتقوى بوقعة الربائية، (أي ما فيه رباً)، والأركان كالأصول، مثل الجوع، والسهر، والصمت، وكثرة الأعمال فنقضوا ذلك بوجود: البطالة، والكسل، وجعلهم لكل ما أثبتوه تأويلاً ووجهاً، يرونه عين الهدى والصراط المستقيم، نسأل الله العافية، وإنما «صيروه مهاناً» أي الطريق، بما أظهروا فيه من

---

(1) أخرجه الحاكم في (المستدرك 4/ 449، 550) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق 1/ 65) والخطيب البغدادي في (شرف أصحاب الحديث 48) وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة 195).

خلاف الحق الذي لا يعرف به أحد إلا استخف بطريقه، وهذا أمر واضح من هذه الأزمنة، حتى لا يكاد أحد من المعترضين في هذه الأزمنة يعتقد أحداً، بل ولا طريقة صحيحة، ويحتج لذلك بأن فلاناً المستظهر بكذا ظهر منه كذا، وفلاناً وقع منه كذا، وهذا من أولئك، فالله حسيب المغيرين والفاتحين الباب بأعمالهم، وإلا فالمنكر يستحق الإنكار معذور، بل مأجور، فاعرف ذلك. انتهى كلامه.

وقوله: «وصيروه مخملاً ومخمداً» أي لما هدموا أصوله وضيعوا حقوقه، صار عند الناس مخمولاً لا يعرف، ومخموداً لا يظهر لما أدخلوه فيه من التخليط، والله تعالى أعلم.

ثم تمم أوصافه، فقال:

(ونشروا الفروع والأصولا وجعلوا معلومها مجهولا)

قلت: النشر هو الطرح، يعني أنهم لم يأخذوا بأصل ولا فرع، لم يتمسكوا من الطريقة بشيء إلا مجرد النسبة، فصيروا ما كان معلوماً منها عند أهلها مجهولاً عندهم، حيث لم يعرفوه.

وقال الشيخ زروق: معناه أنهم لم يأتوا بالطريقة بأصل ولا فرع، بل عملوا منها ببعض وتركوا بعضاً، فاشتبهت أمورهم على من ينظر إليهم، لأنه يجد من الطريقة شيئاً يدعوه للاعتقاد، ويجد من مخالفتها أشياء يدعوه للانتقاد، وهو من أعظم المصائب، **ثم قال**:

(واحتسبوا فيها بغير حسبة صيروها ضحكة ولعبة)

قلت: الاحتساب الأول من الحساب، يعني أنهم حسبوا من الصوفية من غير حسبة، أي نية صادقة.

وقال الشيخ زروق: معناه أنهم عدوا منها ما ليس بقربة، واعتقدوا أنه قربة، كالرقص ونحوه من توابع السماع والاجتماع، وهو عين الضلال. انتهى.

وفيه مقال عند أهل الذوق.

وقال الشيخ عبد الوارث: أي نسبوا إليها من غير أن يظهر عليهم شيء من آثارها الدالة على صدق نسبتهم، فصيروها بذلك ضحكة ولعبة، وأما الطريقة فعلو شرفها وعلو مرتبتها باقية، **ثم قال**:

(وجعلوها للغني مغرماً والفقير نهبة ومغنماً)

قلت: لما لم تكن لهم نية صادقة في طلب مولاهم، صيروا طريقهم مغرماً للغني منهم، يغرمونه وينصفونه أحب أم كره يتسببون له بأدنى شيء ويأخذون منه كرهاً وحياءً ما لا يعطيه طوعاً وسخاءً، وصيروها للفقير منهم نهبة ومغنماً، أي ينتهب الفقير من الغني، ويغتنم ما يأخذ منه وليس قصده شيئاً آخر، وهذه في غاية خسة الهمة، **ثم قال**:

(وافتضحوا واصطلحوا لديها فصار ما كان لها عليها)

قلت: لما لم يتحقق لهم من الطريقة إلا مجرد النسبة من غير عمل ولا صحبة، لم تظهر عليهم نتيجة الطريقة، فافتضحوا.

(من ادعى بما ليس فيه فضحته شواهد الإمتحان)

وقوله: «وافتضحوا واصطلحوا» أي على سكوت بعضهم عن بعض، فلا يغير أحد على أحد، وهذا سبب الهلاك، قال تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: 79]، وقال بعضهم: ما زالت الصوفية بخير ما اختلفوا، فإذا اتفقوا فلا خير فيهم، وقد تقدم تأويله والكلام عليه عند قوله:

(مذاهب الناس على اختلاف... ومذهب القوم على ائتلاف)

وقال الشيخ عبد الوارث في تفسيره: قوله اصطلحوا أي: اسكت عني أسكت عنك، لما روي عن بعض أمثالهم أنه أتى إلى قوم جاهلين، فقال لهم: أنا جبريل، فأتاه ذوو العاهات والمرضى فمسح عليهم، ويجدون لذلك راحة، فأقبلوا عليه بأنفسهم وأموالهم، فسمع به بعض أهل العقول، فأتى إليه، فقال: إني أريد أن أخلو بك، فخلا به، فقال له: يا هذا ما وجدت على من تكذب إلا على جبريل، فقال: ما ضرك بكذبي، اذهب أنت إلى قوم آخرين، وقل: أنا ميكائيل، واتركني والقوم الجاهلين.

هذا جزاء الجهلة، ولو أنكر بعضهم على بعض لفر الناس عنهم، وتنغصت عليهم دنياهم، انتهى.

ثم قال: الولائم:

وكان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه إذا عرض أحد على أصحابه في حضور وليمة يشبعهم هو من طعامه قبل أن يحضروا الوليمة، لئلا يظهر عليهم الشره والحرص، فتنتقض النسبة فهذا منه غيرة على النسبة أن تمتهن، جزاه الله عن طريق

القوم خيراً، إلا إذا كانت حال غالبة، فلا كلام على صاحبها، والله تعالى أعلم، **ثم قال:**

(حق لمن كان عليهم منكراً إذ كل ما يبصر منهم منكراً)

قوله: «حق» يحتمل أن يكون خبراً عن مبتدأ مضمر، أي الإنكار حق، وأن يكون مبتدأ حذف خبره، أي حق لمن أنكر على الفقراء ثابت، والأحسن أنه خبر عن مصدر من أن فالفعل، أي حق لمن كان منكراً على الفقراء أن يفعل ذلك كقولك: حق لك أن تفعل كذا وكذا، أي فعلك كذا وكذا حق.

قلت: قد تقدم أنه لا ينكر على الفقير إلا ما كان محرماً مجمعاً على تحريمه، ولا تأويل فيه وعلى تقدير التغيير يكون برفق ولين، وإذا كان فيه حد أو أدب يكون المؤدب له كالعبد يؤدب ابن سيده، ولا تسقط حرمة النسبة عنه بسبب ما صدر منه، وهذا التغيير إنما هو لمن هو مكلف به كقضاة العدل وأهل الحسبة الذين يتقون الله، وإلا فالسلامة في التسليم.

وقد قال شيخ شيوخنا سيدي علي رضي الله عنه: «المعترض على الفقراء كمن يدخل يده في الغيران: الغار الأول لا يجد فيه شيئاً، والثاني كذلك، وقد يصادف لفعة[1] تلدغه فيهلك من ساعته» ا هـ. بالمعنى.

وهذا من الناظم تحامل، وفيه تسليط على الجانب، فالصواب حذفه، ولاسيما العارف لا يرى إلا الكمال، وللعارف وجوه من التأويلات والمحامل، بل لا يقع بصره إلا على الكمال.

يكمل نقصان القبيح كماله فما ثم نقصان وما ثم باشع
وكل قبيح إن نسبت لحسنه أتتك معاني الحسن فيه تسارع
لو علموا ما جهلوا ما صاروا حيث انتهوا ترمقهم أبصار

يعني أنهم لو علموا من طريق الصوفية ما جهلوا منها ما رمقتهم الأبصار، حيث ما انتهوا وأينما ظهروا.

قلت: وفيما قاله نظر، لأن من خرق عوائد نفسه وخرج عن أبناء جنسه قطعاً

(1) قال صلاح الدين الصفدي في تصحيح التصحيف وتحرير التحريف، حرف اللام: «ويقولون لجنس من الحيات لَفْعَة والصواب أفعى وهي الأنثى، والذكر أفعوان».

ترشقه الأبصار، ويكثر عليه الصياح والإضرار، سنة ماضية في حق الصادقين، نعم من بقي من الفقراء أو المنتسبين منهم في زيهم لم ينظر إليه أحد، وهو دليل برودته.

فقد قالوا: الداخل على الله منكور، والخارج إلى الناس مبرور، وقالوا أيضاً: مدح العوام للخواص هجنة: أي نقص فيهم، وتسليط الناس على الأولياء في بدايتهم سنة جارية وما ذلك إلا لخروجهم عن عوائدهم وارتحالهم عن عالم حسهم، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(لو لم يكن بعض لبعض عاكس ... ما لقبوا بعصبة الكساكس)

قلت: مذهب الصوفية الألفة والموافقة قلباً وقالباً، فقلوبهم قلب واحد، يحب بعضهم بعضاً، ويخدم بعضهم بعضاً، وقد تقدم شروط عقد الأخوة عن الغزالي فيما تقدم، فالصوفية على قدم الصحابة، قال تعالى في حقهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 54]، أي متعاطفين أذلاء على المؤمنين ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 54]، أي غالبين عليهم شدة وغلظة، وقال في الآية الأخرى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29]، فكل من لم يكن على هذا المذهب فلا نصيب له في طريق القوم، وقال الناظم في فقراء عصره: إنهم متعاكسون بعضهم لبعض، أي متنافرون، كل واحد بعكس رأي صاحبه، لشدة نفرة قلوبهم، وذلك لبقاء حب الدنيا في القلوب، فلو خرج منها حب الدنيا لتطهرت وصفت وتعاطف بعضها على بعض، فلو لم يكونوا متعاكسين لا يجتمعون إلا على حظ بطونهم، ما سماهم الناس بعصبة الكساكس، وصاروا يقال لهم «الكساكسية».

قلت: ولأجل هذه العلة كان بعض الشيوخ يمنع أصحابه من حضور هؤلاء.

رزقنا الله من حسن الظن به وبأوليائه وبسائر عباده الحظ الأوفر، بمنه وكرمه آمين، ثم هذه الكلية التي ذكرها لا تسلم له، والله تعالى أعلم.

ثم قال رحمه الله:

(عار لمن لم يرض العلوما ... ويعلم الموجود والمعدوما
ولم يكن في بدئه فقيهاً ... وسائر الأحكام ما يدريها
والحد والأصول واللسانا ... والذكر والحديث والبرهانا
ولم يكن أحكم علم الحال ... ولا دري مقاصد الرجال
ولم ينزه صفة المعبود ... ولا دري مراتب الوجود

والنفس والعقل معاً والروحا ويدري منه صدره المشروحا
وعلم سر النسخ والمنسوخ أن يتعاطى رتبة الشيوخ)

قلت: قوله: «عار» خبر مقدم «وأن يتعاطى» مبتدأ مؤخر، أي تعاطي رتبة الشيوخ والتقدم للشيخوخة «عار» أي عيب على من «لم يرض العلوم» بضم الراء، أي يتمهر فيها حتى تصير طوع يده ليكون في أموره على بينة من ربه، ويعلم الموجود الحقيقي، وهو الحق الواجب الوجود. والمعدوم حقيقة، وهو ما سوى الله. ولم يكن في ابتداء أمره فقيهاً، إذ لا يحل لامرىء أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه، وهو أيضاً لا يدري سائر الأحكام، فلا يفرق بين ما يحل له ويحرم عليه، فقد يأمر بالمنكر وينهي عن المعروف، وهو أيضاً لم يدر حدود الأشياء ورسومها، وكأنه يشير إلى فن المنطق، ولم يدر أيضاً في الأصول، والمراد أصول الفقه، كمعرفة الواجب والمندوب والمكروه والحرام، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، والقياس والإجماع، وغير ذلك مما هو مقرر في فن علم الأصول، ولم يدر أيضاً علم اللسان، وهو العربية والتصريف واللغة، وفن البيان، ولم يدر أيضاً معاني الذكر أي القرآن العظيم ليتمكن من التدبير فيه، ولم يدر أيضاً حديث النبي ﷺ، إذ التصوف مبني على الكتاب والسنة وإلهامات العارفين.

وقال الجنيد رضي الله عنه: «علمنا هذا مؤيد بالكتاب والسنة، فمن لم يكتب الحديث ويجالس العلماء لا يقتدى به في هذا الشأن ا هـ».

ولم يعرف أيضاً البرهان، أي علم البرهان، وهو علم العقائد التوحيدية، وهو علم الكلام، فتكون عنده العقائد برهانية، ثم تصير بعد ذلك عيانية، ولم يكن أيضاً أحكم، أي أتقن علم الحال والمقام، بحيث يكون سلك طريق الأحوال، ثم سكن في المقامات، وهذا هو المسمى بالسير. فمقامات اليقين ينزل فيها الفقير أولاً بالحال، ثم تصير مقاماً.

قال في الحكم: «حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال، وحسن الأحوال من التحقق في مقامات الإنزال» فلا بد أن يكون سلك مقام الزهد حالاً، ثم مقاماً، وكذلك: الورع والرضى، والتسليم، والمراقبة، والمشاهدة، وغير ذلك، وهذا هو الذوق الصريح، وأما من كان يأخذها من الكتب ويقلد فيها فلا تصح مشيخته، وضرره أكثر من نفعه، ولم يكن أيضاً درى مقاصد الرجال في عبارتها وإشارتها ورموزها وألغازها ومقاصدهم، هل إصلاح الظواهر أو البواطن، أو هما معاً، ولم

ينزه أيضاً صفة المعبود عن الحدوث أو الحلول أو الاتحاد أو غير ذلك من النقائص، ولا درى أيضاً مراتب الوجود من: الملك، والملكوت، والجبروت، إذ الترقي إنما يكون في هذه العوالم، فيترقى من شهود الملك إلى الملكوت، إلى الجبروت، وقد تقدم تفسير هذه العوالم عند قوله:

(وعلموا مراتب الوجود)

انتهى.

ولم يدر أيضاً معنى: النفس، والعقل، والقلب، والروح، والسر، وقد تقدم لنا أن المحل واحد، وهو الروح، وهي التي تتطور إلى العقل وما بعده باعتبار المجاهدة والرياضة، وقد تقدم بيان ذلك مراراً.

ولم يدر أيضاً معنى الصدر المشروح، وما علامة شرحه، وعلامة شرحه ما قاله عليه الصلاة والسلام: . . . «**التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور**»[1] انتهى.

ويرجع إلى اليقظة من الغفلة ورفع الهمة عن الدنيا وما فيها، وإنما اشترطت معرفة الصدر المشروح، لأن الشيخ يشترط فيه أن تكون له فراسة يطلع بها على أحوال البواطن فيعرف المشروح من المقبوض، وفي بعض النسخ ولم «يدر منه» أي من نفسه، وفي بعضها «معنى» وهي أحسن، ولم يدر أيضاً سر الناسخ من المنسوخ في الكتاب والسنة، وهذا من شأن أهل التفسير، وهو مقرر في محله.

ثم هذا الذي ذكره الناظم لا يشترط منه شيء إلا علم الأحوال أو ما يلزمه في نفسه من العلم الضروري، وقد تقدم هذا المعنى مستوفياً عند قوله:

(وعندما قال بهذا الخطب قالوا جميعاً أنت شيخ الركب)

فراجعه ثم إن شئت، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم قال:

(يا عجباً من جاهل مبداه في رتبة الكون ومنتهاه)

---

(1) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين 9/ 327، 328، 10/ 255) والسيوطي في (الدر المنثور 3/ 44، 5/ 325) وابن كثير في (التفسير 3/ 328) والقرطبي في (التفسير 2/ 104، 7/ 81).

قلت: مبدأ الإنسان في رتبة الكون ومنتهاه التقدم له والتأخر عنه، فجيش الأرواح سابق على الكون، وباقٍ بعد طيه فهو أول الكون ومنتهاه، فللإنسان شبه بالصمدانية الأزلية، لأن فيه الأولية والآخرية، والظاهرية، والباطنية، فروحه أول الكون وتبقى بعد فنائه، وهي ظاهرة بالإنسان إذ لا ظهور لها إلا به، باطنة فيه، وفيه سبع من صفات المعاني: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام كما في البخاري: «**إن الله خلق آدم على صورته**»(1) وفي رواية غيره «**إن الله خلق آدم على صورة الرحمٰن**»(2) أي على صفته في الجملة، وإن كانت أوصاف الباري عظيمة لا تشبه أوصاف العبد، لكن لها شبه ونموذج في الجملة.

[وجوه الاستدلال على اللطيفة اللاهوتية المودعة في الكثيفة الناسوتية]

وقال صاحب «الرموز في فتح الكنوز» على قوله ﷺ: «**من عرف نفسه عرف ربه**» قد ظهر لي من سر هذا الحديث ما يجب كشفه ويستحسن وصفه، وهو: أن الله سبحانه وضع هذه الروح في هذه الجثة الجثمانية لطيفة لاهوتية مودعة في كثيفة ناسوتية دالة على وحدانيته تعالى وربوبيته، ووجه الاستدلال من عشرة أوجه:

الأول: أن هذا الهيكل الإنساني لما كان مفتقراً إلى محرك ومدبر، وهذا الروح يدبره ويحركه، علمنا أن هذا العالم لا بد له من محرك ومدبر.

الثاني: لما كان مدبر الجسد واحداً، علمنا أن مدبر هذا العالم واحد، لا شريك له، في تدبيره وتقديره، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: 22].

الثالث: لما كان لا يتحرك هذا الجسد إلا بتحرك الروح وإرادته، علمنا أنه لا

---

(1) أخرجه مسلم في (صحيحه البر والصلة 115) (الجنة 28) وأحمد بن حنبل في (المسند 2/ 244، 251، 323، 434، 439، 519) والحميدي في (المسند 1120، 1121) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق 1/ 395) وابن حجر في (فتح الباري 11/ 3) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار 2/ 166) وابن أبي عاصم في (السنة 1/ 228، 229، 230) والبيهقي في (الأسماء والصفات 290، 291).

(2) رواه الطبراني في الكبير برقم (13579) [12/ 430] ورواه الحارث في المسند، حديث رقم (872) [2/ 831].

يتحرك كائن بخير أو شر إلا بتحريك الله وقدرته وإرادته.

الرابع: لما كان لا يتحرك في الجسد شيء إلا بعلم الروح وشعورها، لا يخفىٰ على الروح من حركات الجسد شيء، علمنا أنه تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

الخامس: لما كان هذا الجسد لم يكن فيه شيء أقرب إلى الروح من شيء، علمنا أنه تعالى قريب إلى كل شيء، ليس شيء أقرب إليه من شيء، ولا شيء أبعد إليه من شيء، لا بمعنى قرب المسافة، لأنه منزه عن ذلك.

السادس: أنه لما كان الروح موجوداً قبل الجسد، ويكون موجوداً بعد عدمه، علمنا أنه تعالى موجود قبل خلقه، ويكون موجوداً بعد عدمهم، ما زال ولا يزال، وتقدس عن الزوال.

السابع: لما كان الروح في الجسد لا تعرف له كيفية، علمنا أنه تعالى مقدس عن الكيفية.

الثامن: لما كان الروح في الجسد لا تعرف له كيفية، ولا أينية، بل الروح موجود في سائر الجسد ما خلا منه شيء في الجسد، كذلك الحق سبحانه موجود في كل مكان وتنزه عن المكان والزمان.

التاسع: لما كان الروح في الجسد لا يحس ولا يجس ولا يمس، علمنا أنه تعالى منزه عن الحس والجس والمس.

العاشر: لما كان الروح في الجسد لا يدرك بالبصر، ولا يمثل بالصور، علمنا أنه لا تدركه الأبصار، ولا يمثل بالصور والآثار، ولا يشبه بالشموس والأقمار، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

تنبيه: قد اشتهر على ألسنة كثير من الصوفية أن «من عرف نفسه عرف ربه» حديث، وليس كذلك، وإنما هو من كلام يحيى بن معاذ الرازي[1]، حسبما نص

---

(1) هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي أبو زكريا (000 ـ 258 هـ = 000 ـ 872م) واعظ زاهد لم يكن له نظير في وقته من أهل الري أقام ببلخ ومات في نيسابور له كلمات سائرة.
(الأعلام 8/ 172)، (العروسي على شرح الرسالة القشيرية 1/ 119) و(طبقات الصوفية 107 ـ 114).

عليه الحافظ البدر الزركشي[1]، والحافظ السيوطي في «الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة» ونصه: حديث: **«من عرف نفسه عرف ربه»** قال النووي[2] غير ثابت، وقال السمعاني: هو من كلام يحيى بن معاذ الرازي انتهى.

وكل فن يرجع فيه لأربابه، والصوفية رضي الله عنهم لحسن ظنهم: كثيراً ما يتساهلون في الأحاديث، هكذا كما قال الشيخ سيدي مسلم في كتابه.

وإنما تعجب الشيخ من الجهل بهذين الأمرين، لأن هذين الموقفين هما أصل التوجه والمعاملة، ومظهر التحقيق والمواصلة، وبالله التوفيق.

ثم قال متمماً لما تعجب منه:

(وكيف يهدي وهو لم يهدى لقد عدى ظلماً وقد تعدى)

قلت: من لم يأخذ أدبه من المتأدبين أفسد من اتبعه، من لم يرب لا يربى، من لم يهد بغيره لا يهدي غيره، من لم يسلك الطريق لا يسلكها لغيره، بل يتلف نفسه ومن تبعه، «لقد عدى» أي جاوز الحد ظلماً. أي من جهة الظلم لقد تعدى طوره، ولم يعرف قدره.

ثم قال:

(من لم ينل مراتب الإرادة كيف يوطي للهدى سجاده)

قلت: من لم يحصل مراتب الإرادة ويسلكها جذباً وسلوكاً «كيف يوطي» أي يبسط سجادة ويقعد عليها لهداية الناس، فمن فعل ذلك فقد غر الناس، من لم

---

(1) هو محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله بدر الدين (745 ـ 794 هـ = 1344 ـ 1392م) عالم بفقه الشافعية والأصول تركي الأصل مصري المولد والوفاة له تصانيف كثيرة في عدة فنون منها «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة» و«القطة العجلان» في أصول الفقه و«البحر المحيط» وغير ذلك.
(الأعلام 6/ 60)، (الدرر الكامنة 3/ 397)، و(شذرات الذهب 6/ 335)، و(ابن الفرات 9/ 326).

(2) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني النووي الشافعي أبو زكريا محيي الدين (631 ـ 676 هـ = 1233 ـ 1277م) علامة بالفقه والحديث ولد وتوفي في نوا (من قرى حوران، بسورية) تعلم بدمشق وأقام بها زمناً طويلاً من كتبه «تهذيب الأسماء واللغات» و«منهاج الطالبين» و«الدقائق» و«تصحيح التنبيه» وغير ذلك.
الأعلام (8/ 149) (طبقات الشافعية للسبكي 5/ 165)، و(النعيمي 1/ 24)، و(مفتاح السعادة 1/ 398)، و(التيمورية 3/ 307).

يصحب العارفين من أهل الكمال لا يغر بأولاد الرجال.

ثم قال:

(كيف يدل طرق الأسفار من لم يزل في جحره كالفار)

قلت: الجحر بتقديم الجيم هو الغار، وقد تقدم أن الشيخ بمنزلة شيخ الركب، فلا بد أن يكون عارفاً بالمنازل والمناهل، قد سلك الطريق وعرفها، وعلم وعرها وسهلها، وأما من كان لازماً بيته قاعداً في جحره كالفار، فلا يمكن أن يدل على الطريق، لأنه يتلف من تبعه قطعاً.

قال في بداية السلوك:

أتكتفي بالوصف في المسير فالوصف لا يغني عن الخبير

قال الشارح بعد كلام العلماء: إنما نبهت على ما تصح به الوجهة إلى الله، لا عن السر الذي تمتد منه الوجهة، الذي لا يتصور الكشف عنه إلا لمن انفقأ الحجاب عن عين قلبه، وكان له نصيب ميراث من فراسة نبيه ﷺ في أحوال صحابته، فهذا العلم هو الذي لا يمكن التعبير عنه بالمقال، ولا يصح الأمر حتى يؤمر وينهى، ويعطى ويمنع، **ثم قال**: أرأيت لو أن رجلاً أو رجال وصفوا لك الطريق من دارك إلى مكة، وكتبوا لك كتاباً فيه جميع المنازل والمناهل، والمواضع المخوفة والمأمونة، ثم تهت، أينفعك ذلك الكتاب، وقد أحاط بك بحر السراب، وانقطعت عن حي الأعراب؟ بل تتيقن بالهلاك وكتابك في يدك، هذا في الطريق الحسي، فما بالك في الطريق الباطني المعنوي التي هي قليل خطارها، كثير قطاعها، ا هـ. بالمعنى.

ومن هذا المعنى قالوا: «إن الميت لا يربى» لأن من مات لا يدل على الطريق بالفعل، وقالوا: أيضاً الثدي الميت لا يرضع الولد، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(أليس هذا كله محال لم يستقم لشخص منه حال)

قلت: الإشارة تعود إلى التقدم إلى الشيخوخة من غير استحقاق، وذلك عند أهل الحق محال، لم يستقم لمن تبعه حال، بل ضرره أقرب من نفعه، لبئس المولى ولبئس العشير.

ثم قال:

(يا قاصداً علم طريق السالف لا تقتدي بهذه الطوائف

ما منهم من علم المقصود — منه ولا الوارد والمورود
لم يعرفوا حقيقة الطريقة — فالقوم جهال على الحقيقة
فاحذرهم خشية يفتنوكا — واترك سبيلاً لم يزل متروكا)

قلت: هذا تحذير من متفقرة وقته، يقول: يا قاصداً علم طريق الصوفية المتقدمين المحققين لا تقتدي بهذه الطوائف: الجهلة المبتدعين، فليس منهم من علم المقصود من الدخول في طريق القوم، ولا كيفية الورود، أي المرور عليها، ولا موردها أي مشروبها ما هو، إذ لا ذوق عندهم، ولا حال، وإنما الناس من عوام الجهال، لم يعرفوا طريقة ولا حقيقة والجاهل لا يتقدى به، ولا يكون إماماً أبداً، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: 108]، والجاهل لا بصيرة له.

فإن **قلت**: قد وجد كثير من الأولياء أميين، وكانوا أئمة يقتدىٰ بهم في الباطن.

قلت: مثل هؤلاء كانوا متعطشين إلى الله، جادين في طلب الحق، فلما علم الله صدقهم دلهم على ولي من أوليائه، فلما كشف الحجاب عنهم، علمهم الله ما جهلوا، فكانوا أعلم الناس بالله، وقد قال بعضهم: ما اتخذ الله ولياً جاهلاً إلا علمه، وغيرهم من فقراء الوقت لم يكن لهم ذلك فبقوا جاهلين، ثم هذا الذي قاله الناظم ليس على التعميم، إذ لا تخلو الأرض من قائم لله بحجته، وشيخ التربية لا يخلو الزمان منه أبداً، إذ لا يمكن أن يكون القطب إلا بعد التربية، وهو لا تخلو الأرض منه، كما هو مقرر عند أهل الفن، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(فإن غدا الأمر عليك مشكلاً — وشئت أن تعلمه مفصلاً
فسوف ألقي لك قول الحاذق — يفصل بين المدعي والصادق)

يعني إذا صار الأمر مشكلاً عندك، ولم تعلم الصادق من الكاذب، والجاهل من العالم والمحق من المدعي، والسني من المبتدع، واغتررت بظهور الكرامات، وكثرة الاتباع، وكثرة الطعام، ولم تدر بمن تقتدي، فها أنا أخبرك وألقي إليك قول اللبيب الحاذق يحكم بين المدعي والصادق.

ثم ذكر ذلك القول الفاصل، فقال:

(قول الفقير: إنني فقير — فللظهور أبداً يشير)

قلت: كون قول الفقير: «أنا فقير يشير للظهور» ليس على إطلاقه، بل فيه تفصيل.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: أما قول الفقير: أنا فقير فهو إشارة للظهور كما قال، وذلك محمود ومذموم بحسب قصده، وهو على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يقصد به التبري مما كان عليه من الجهالة والغنى، ليكون له عوناً على عدم العود لما كان عليه، وهذا أمر لابأس به إن وقف على حده.

الثاني: أن يقوله يستنجد به من عسى أن يرجو فيه خيراً أو عاصياً متمرداً، أو متذكراً يقظان، أو مريداً متوجهاً ليكون له عوناً على البر والتقوى، فهذا أيضاً لابأس به إن لم يتعد به محله، وعلامة صاحب هذين الوجهين: أن يقول ذلك مع انكسار وتبرٍ واستغفارٍ وحمدٍ واستبشار.

الثالث: أن يقول ذلك بقصد التبجح والاستتباع، وإظهار المزيد، والتعزز بالنسبة والانتساب، وطلب الرياسة وإشاعة الأمر في العموم، والتعرض لكل أحد، والتعريض به، وشاهد الحال لا يخفى إلخ.

قلت: وذم من هذا وصفه لا يخفى، وهو الذي يفسر به الناظم، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(وبسطه وليس غير عارف سخافة ليست من المعارف
وقبضه وليس ذا إرادة فهو على غير طريق السادة)

قلت: الغالب على العارفين البسط فرحاً بالله وبالوصول إليه، والغالب على المريدين القبض، لأنهم في محل المجاهدة والمكابدة، فإذا رأيت الفقير انبسط وانشرح من غير وارد قبل تحصيل المعرفة بالله فبسطه وانشراحه سخافة وحمق، ليست من المعارف، إذ لا يليق بحاله إلا القبض، إذ لاحظ للنفس فيه، وإذا رأيته مقبوضاً ولم تظهر عليه أحوال الإرادة فاحذره، فهو على غير طريق السادة المتقدمين، ولا يلزم من الحذر الاستحقار، فتعظيم النسبة مطلوب.

ثم قال:

(وأخذه مما بأيدي الناس دون اضطرار فهو ذو إفلاس)

قلت: أخذ المريد من أيدي الناس، وسؤاله لهم من غير ضرورة، تدل على

إفلاسه. وأنه فقير بطنه، يريد جمع الدنيا، اللهم إن كان قصده إعانة شيخه أو فقير مثله، فلا بأس به، والحاصل أن الفقير لا يقبض لنفسه إلا ما كان مضطراً إليه وإن قبض شيئاً بلا ضرورة أخرجه عنه سريعاً، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(ولبسه ما كان ذا اشتهار فسره عار عن الأسرار)

قلت: لبس الفقير ما فيه الشهرة عند الناس، إن كان بإذن من شيخه فلا عليه، فإن الشيخ طبيب، وإن كان بغير إذن فلا يخلو من حظ، فإن النفس تحب أن تعرف، وقد قالوا: خالفوا تعرفوا، فلعلها تريد ميل القلوب، فمن فعل ذلك فاحذره، فإن سره خال من الأسرار والعياذ بالله، لأن الصادق لا يحب أن يذكر ولا يظهر، والسر لا يكون إلا مدفوناً، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(وأكله من سائر المآكل دون انتهاءٍ فهو غير واصل)

قلت: الناس على ثلاثة أقسام:

قسم عوام، لا توجه لهم، فهم يأكلون كل ما تبيحه الشريعة.

وقسم عارفون واصلون، تحقق فناؤهم وبقاؤهم، فهم يأخذون من يد القدرة، فهؤلاء أيضاً لا كلام عليهم.

وقسم مريدون متوجهون، فهؤلاء ينبغي لهم ألا يتعاطوا كل ما تشتهي نفوسهم، بل ينبغي لهم مخالفتها في ذلك، إذ لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين، فإذا رأيت الفقير يأكل من سائر المآكل، شهوات وشبهات، ولا يتحاشى من شيء، وهو دون انتهاءٍ في المعرفة، فهو غير واصل، لا يأتي منه شيء، ولا يحصل على طائل، إلا أن يتوب، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(وسمعه مواقع الألحان بغير موت النفس فهو عان)

قلت: قد تقدم الكلام على السماع، **وحاصله:** أن الفقير إذا حصل له الفناء في الذات، وعرف كيف يسمع، فالسماع في حقه مطلوب، لما فيه من زيادة الخمرة، فإن النفس لما ماتت لا تميل إلا إلى الحضرة، ولا تسمع إلا منها.

قال بعض من صح سماعه: أنا لا أسمع من النغم إلا أنا أنا، أو أنت أنت.

وقال الششتري: «أنا بالله أنطق، ومن الله أسمع، فمثل هذا يزيد بالسماع ما لا يزيد بغيره، ومن لم يبلغ هذا المقام فالسماع عليه مكروه أو حرام، فمن رأيته يسمع الألحان ولم تمت نفسه فهو عان أي في عناء وتعب، لا يزيده ذلك إلا بعداً» والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(وحبه السماع لا محالة بقية فيه من البطالة)

قلت: السماع إنما هو دواء ورخصة للضعفاء تقوية لحالهم، فإذا حصل الشفاء استغنى عن الدواء، فإذا رأيت الفقير يحب السماع، ويميل إليه على الدوام، فاعلم أن فيه بقية من البطالة، والبطالة ضد المجاهدة، ومن لا مجاهدة له لا مشاهدة له، ومن لا سير له لا وصول له، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(ورقصه فيه بغير وارد يسلبه عنه فقير وارد)

قلت: قد تقدم الكلام على الرقص والتحرير فيه عند قوله في السماع «والرقص فيه دون هجم الحال» إلخ ما يغني عن إعادته.

فرقص الفقير بغير وارد يسلبه عن الشعور بنفسه، فهو غير وارد، أي غير شارب من شراب القوم، إلا أن يكون تواجداً أو مساعفة لمتواجد، فلا بأس به، ولا يعترض على صاحبه.

أو تقول: رقص الفقير أو زعقه أو صراخه من غير وارد، فهو بدعة غير وارد في الشرع، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(وأخذه الخلع بغير الخلع بعد عن الحق بعين الجمع)

قلت: قد تقدم الكلام على الخَلْع، فإذا رأيت الفقير يأخذ ما خلع عنه من الثياب عند ورود الأحوال بعد أن طرحها عنه، فهو عائد إلى صدقته، كالكلب يعود في قيئه، فهو بعيد عن الحق بعين الجمع، أي حيث يظن الجمع، يعني أنه بعيد من حيث يظن القرب، ففيه جهل مركب، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(وحطه الراس بغير جرم على أخيه غير فعل القوم)

قلت: قد تقدم أن حط الرأس عند فعل ما لا ينبغي: ليس من شأن الصوفية، ولا عمل عليه، فإذا فعله الفقير فقد أخطأ، إذ ليس نص من الشارع، فهو قريب من البدعة.

ثم قال:

(وقد ذكرنا حكم الاستغفار   أعني القيام ليس عرفاً جاري)

قلت: قد تقدم أيضاً حكم الاستغفار، وأنه لم يجر به عرف.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: هذه الثلاثة، يعني أخذ الخلع، وحط الرأس، والقيام للاستغفار، ليس من مطلب الطريقة، ولا من موجبات الحقيقة، ولا من أحكام الشريعة، وإن كان لها وجه من التأويل، فتركها أولى، والتسليم للعامل بها لازم لمحل الاشتباه، والله تعالى أعلم، اهـ.

ثم قال:

(وميله للعرب والأعاجم   علة نفس وهو فيه آثم)

قلت: من شأن الفقير في بدايته الفرار من الناس والاستيحاش منهم، حتى يتمكن الحضور فيه على التمام، وحينئذٍ لا بأس أن يخالطهم بجسمه، ويفارقهم بقلبه، وأما ميله للناس وحب مخالطتهم فهو دليل على إفلاسه، إذ الاستئناس بالناس من علامة الإفلاس.

وقال بعضهم: من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا، فهلك كما هلكوا، ولله در الشيخ الحضرمي حيث قال:

عش خامل الذكر بين الناس وارض به   فهو أسلم للدنيا وللدين
من عاشر الناس لم تسلم ديانته   ولم يزل بين تحريك وتسكين

وقال بعضهم: من خالط الناس وظن السلامة من الإثم، فقد رام المحال، كمن خالط النار بالحطب وظن سلامته من الاحتراق.

ثم قال:

(سفره إن لم يكن إليه   منه فلا حقيقة لديه)

قلت: سفر المريد إن كان بالله لله، فانياً عن نفسه، خالياً من حظوظه، فهو في غاية الكمال، وإن كان بالنفس للنفس، فهو في غاية النقصان، وجلوس هذا أفضل من سفره، وإن كان بنفسه لله، فهو متوسط، وسفره أفضل من جلوسه،

ليتحقق كماله، فتحصل أن السفر على ثلاثة أقسام: **سفر بالله إلى الله**، و**سفر بالنفس للنفس**، و**سفر بالنفس لله**.

فالأول محمود قطعاً، و**الثالث ملحق به**، و**الثاني مذموم قطعاً**.

ومنطوق الناظم هو: الثاني والثالث، ومفهومه هو: القسم الأول، لكن الثالث ملحق بالأول، كما تقدم، خلافاً لظاهر كلام الناظم، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(وإن أشار للمرام الأول وجهل العقل فعنه فاعدل)

قلت: لعله أراد بالمرام الأول: عالم القدرة، وأراد بالعقل: عالم الحكمة، فإنها من مدركات العقل، فإذا أشار المريد إلى الحقيقة الأولية، وجهل ما أدركه العقل من الأكوان التي وقع بها التجلي فاعدل عنه، لأنه إن كان مجذوباً فهو ناقص، وإن كان مدعياً فهو ساقط فالأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته، فلا بد من إثبات الواسطة والموسوط، ونفي عالم الحكمة يؤدي للزندقة، لإبطال الأحكام، والله تعالى أعلم.

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: إشارته للمرام الأول تنبيه على من قال بقول الفلاسفة من اعتبار العقل الأول ويسمونه: الفعال، وهو مذهب فاسد خارج عن حدود المعقولات، لما تضمنه من قدم العالم، والقول بحوادث لا أول لها، وإليه أشار بقوله: «جهل للعقل» أعني جهل حقيقته، حتى سماه بغير اسمه، وحكم له حكمه انتهى.

ثم قال:

(أو قال بالظهور والحلول فبدعة تقدح في الأصول)

قلت: مراده بالظهور: ظهور الذات العالية لبصر الحس، حتى تدرك بالبصر الحسي، وقد قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: 103]، وإنما تدركه البصيرة، فإذا انفتحت وقوي نورها استولت على البصر، فصار الحكم لها، فالبصر لا يرى إلا الحس، والبصيرة لا ترى إلا المعنى، وقد يتلطف الحس فيصير كأنه معنى، فيكون ما تراه البصيرة في معد العيان، وهو محل الشهود، إذ الحس لا يفارق المعنى، وأما الحلول فمعناه إثبات السوى، وحلول الألوهية فيه، وهو كفر صراح، فمن ادعى شيئاً من الظهور أو الحلول فارفضه، فقد أتى ببدعة تقدح في أصول إيمانه، والعياذ بالله من الزلل.

ثم قال:

(وقوله أنا الذي أهواه قبل الفنا عنه فما أقصاه)

قلت: إذا قال الفقير: «أنا من أهوى ومن أهوى أنا» قبل تحقق فنائه، فما أبعده عن الصواب، وإذا تحقق فناؤه فلا يقول ذلك إلا مع من يصدقه في حاله، وإلا تعرض لقتله.

ثم قال:

(أو يدعي في علمه اللدني بلا تقى فذاك غير سني)

قلت: متى ادعى الفقير أن له علماً لدنياً، ولم تظهر عليه تقوى ولا مجاهدة ولا رياضة، وإنما ذاك خرافات لا طائل تحتها، ومن ادعى ذلك فهو غير سني قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 282]، فمن لا تقوى له لا يعلمه الله شيئاً، ولله در القائل:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأومأ لي إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم فضل وفضل الله لا يؤتاه عاصي

والمراد بوكيع الفقيه المحدث الضابط من أشياخ الإمام الشافعي[1]

وفي الحكم «أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته» اهـ.

ثم قال:

(وحكمه إن كان فوق الحال فذاك مقطوع عن الرجال)

قلت: ينبغي للفقيه أن يكون حاله فوق مقاله، وقدمه أكبر من صيته، فإذا كان يدعي مراتب الرجال ويحكم على نفسه بها قبل وصوله إليها بشهادة أهل الفن، فهو مقطوع عنهم والعياذ بالله من الدعوى.

---

(1) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي أبو عبد الله (150 ـ 204 هـ = 767 ـ 820م) أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه نسبة الشافعية كافة ولد في (غزة بفلسطين) وحمل منها إلى مكة وزار بغداد مرتين وقصد مصر سنة 199 فتوفي بها له تصانيف كثيرة أشهرها كتاب «الأم» «المسند» «أحكام القرآن» و«السنن» و«الرسالة» وغير ذلك. (الأعلام 6/ 27)، و(تذكرة الحفاظ 1/ 329)، و(تهذيب التهذيب 9/ 25)، و(الوفيات 1/ 447).

ثم قال:

(أو قال أنا الشيخ فاتبعوني بغير علمٍ فهو ذو جنون)

قلت: الفقير لا يدعي الشيخوخة حتى يأذن له شيخه، فإذا أذن له فلا بأس أن يعرف بنفسه لقصد الاتباع به، وأما إذا لم يؤذن له، أو لم يكن له شيخ، وقال أنا الشيخ فاتبعوني فهو أحمق مجنون، سواءً كان له علم أم لا، إذ من لا شيخ له: لا علم له بطريق السير أصلاً، ومن لا علم له فهو جاهل، والجاهل يقود الجاهل، كالأعمى يقود الأعمى: إلى أين المصير، وإن لم يأذن له شيخه فهو ذو دعوى، ومبتلىٰ يهوى، والهوى شعبة من الجنون، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(أو قال صوفي أنا ولما يدر حدود النفس فهو أعمى)

قلت: إذا قال الفقير: أنا صوفي، ولم يفرق بين حدود النفس وحدود: العقل، والقلب والروح، والسر، فهو أعمى.

أو تقول: لم يفرق بين الروحانية والبشرية، فهو أعمى عن طريق الخصوصية.

أو تقول: لم يعرف ما فيه ضرر نفسه فينكف عنه، وما فيه نفعها فيبادر إليه، ولا شك أن من كان هكذا فهو أعمى عن طريق السير، إذ السير إنما هو في فعل ما يقتل النفوس، وترك ما تجيء به، ومن لم يعرف ما ينفعه وما يضره فلا بصيرة له. فهو أعمى، وهذا أقرب لشرح النظم، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(وحبه القوم بلا اتباع ليس له فيه من انتفاع)

قلت: محبة القوم فيها خير كثير «من أحب قوماً حشر معهم» لكن لا ينتفع بها في طريق التصفية والتهذيب إلا باتباع ما أشاروا إليه به، وأما الحرمة والبركة فتحصل بحول الله: عمل بعملهم أو لم يعمل للحديث، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(وفعله ما في عموم الشرع يمنعه النص ففعل بدع)

قلت: فعل ما يمنعه النص في عموم الشريعة حرام، إلا لضرورة، فإن الضرورات تبيح المحظورات، فإن فعل الفقير شيئاً من ذلك فهو بدعي، وأما ما لم يرد نص في تحريمه ولا تحليله، فإن فعله بنية القربة فهو بدعة أيضاً لتغييره أحكام

الشريعة، وإن فعله استراحة للنفس، أو جلباً لحال، أو لدواء مرض أصابه فهو مطلوب، فقد سئل الجنيد[1] عن السماع، فقال: كل ما يجمع العبد بالله فهو مباح اهـ.

وبيت الناظم فيه تقديم وتأخير، أي وفعل الفقير ما يمنعه النص في عموم الشرع، ففعل بدعىٰ، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(وإن تشيخ بغير إذن   من شيخه باء بكل غبن)

قلت: الفقير إذا تشيخ، أي صير نفسه شيخاً، وتقدم لمرتبة الشيخوخة من غير إذن من شيخه فقد باء، أي رجع بكل غبن وخسارة، إذ لو رآه شيخه أهلاً لها لقدمه لها، وأما انتقاله عنه إلى غيره فهو أقبح وهو إفساد لبذرة الإرادة، وهذا في حق شيخ التربية، وأما غيره فلا يضره الانتقال عنه، إذ المريض إذا لم يشف على يد طبيب انتقل إلى غيره وهذا، أي انتقال المريد لم يذكره الناظم، وتقدم في محله، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(فهذه وشبهها موانع   وهي على الطريق كالقواطع
هل هي إلا علل في الفقر   جالدها كل جليد صقر)

قلت: الإشارة تعود إلى كل ما قدمه من الفصل إلى هنا من مساوىء متفقرة الوقت: يعني أن هذه الأمور التي قدمنا وشبهها هي في طريق القوم: موانع تمنع المريد من الوصول إلى مقصوده، وهي على طريق التصوف، كاللصوص والقطاع، وما هي أيضاً إلا علل في طريق الفقر، فمن جاهدها وجالدها فهو كالصقر، أي البازي في الشجاعة والزعامة، والمجالدة: هي المضاربة بالسيوف، والرجل الجليد هو الصبار، أي جالد هذه العلل وصرفها عن نفسه، صبار شجاع زعيم، يفوز بالخير الجسيم، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(حتى إذا جدلها صريعة   لم يتوقع بعدها وقيعة)

---

(1) انظر ترجمته في (الرسالة القشيرية ص 430).

قلت: التجديل هو الصرع والإسقاط، يعني أن الفقير إذا غلب نفسه وجاهدها حتى غلبها وصرعها وقتلها، أمن حينئذٍ من غوائلها، ولم يتوقع منها بعد ذلك وقيعة، ولا فتنة البتة، وبالله التوفيق.

ثم قال:

(يا صاح لا يفتنك الزمان فها لديك الشرح والبيان)

قلت: لما نصحك وحذرك قال لك: يا صاحبي لا يفتنك الزمان وأهله، فقد شرحت لك أحوال الناس وبينتها حتى تركتك على بينة تعرف منها الصادق والكاذب، فلا تغتر حتى يأكلك من والاك، ولا تسيء الظن حتى تسد باب رحمة مولاك، وابتغ بين ذلك سبيلاً، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(فالحق لا يعرف بالرجال والعين لا تصلح بالمحال)

قلت: هذا مثل مشهور، وهو أن «الحق لا يعرف بالرجال، بل الرجال يعرفون بالحق» أي باتباعه، فمن عرف الحق بالرجال أصبح في غاية الضلال، اعرف الحق تعرف أهله.

وقد قال علي كرم الله وجهه: «لو عرفت الله بمحمد ﷺ لما عبدته، ولكن الله عرفني بنفسه فعرفته. ثم عرفت محمداً بالله».

فانظر هذا المقام الذي لم يحجبه عن الله ولا عن رسوله ﷺ.

وقوله: «والعين لا تصلح بالمحال» أي ما شاهدته العين وتحققته لم يتطرق إليه محال ولا ريب، فليس الخبر كالعيان، فلا تغتر بالسماع حتى ترى بعينك وتتحقق، وحينئذٍ تقدم أو تأخر، وفي بعض النسخ: «والعين لا تصلح بالكحال» بالكاف، ولعل معناه أن العين الكحلاء غنية عن الكحل، فهي جميلة لا تحتاج إلى أن يصلحها الكحل، فكذلك الحق معروف لا يتوقف على معرفة الرجال، بل معرفة الرجال متوقفة على معرفة الحق، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(والحق في كل الأمور أولى لو رآه الباطل لاضمحلا)

قلت: لا شك أن متابعة الحق والأخذ به في كل الأمور أولى، ومتى جاء الحق زهق الباطل واضمحل، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ

زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: 18]، إذ الباطل لا يقوم للحق أصلاً.

قيل لسهل[1] رضي الله عنه: من أين تأكل؟ قال: من عند الله؟ قال: أينزل عليك من السماء؟ قال: لو لم تكن الأرض له لأنزله من السماء.

قال: أنتم لا يقوم أحد لكم بحجة، فقال: الحق لا يقوم له شيء انتهى.

وقيل المسؤول حاتم[2]، والله تعالى أعلم.

ثم قال:

(وإذا علمت سنن الأقوام إذن فهاك القوس والمرامي)

قلت: السنن بالفتح الطريق، وبالضم جمع سنة، يقول لما أخبرتك بسنن الصوفية فقد أعطيتك أقواسهم، وكشفت لك عن مبلغ مرامهم، وحيث تنتهي سهامهم فلا تغتر بحبال سحرة فرعون وأعصيتهم الباطلة، وتدع الميل إلى عصى موسى التي هي ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: 117-119] [الأعراف: 117 ـ 119]، وكذلك المتشبهة مع سادات الصوفية، قاله الشيخ عبد الوارث.

ثم قال:

(هذا هو الطريق فاقصد جله فقد جمعنا لك منه جمله)

يعني أن ما ذكرته في كتابي هذا هو أساس الطريقة، فابن عليه يستقم بنيانك، وارفض ما سواه تفلح، فاقصد العمل بما فيه أو جله، فقد جمعت لك من سنن القوم جملة صالحة، وبالله التوفيق.

ثم قال:

(وقد ذكرنا كل ما اشترطنا وها على آخره أتينا)

قلت: أخبر رحمه الله أنه أتى على ما شرطه في أول كتابه من بيان سنن الفقير، وقد أتى على آخره، وذكر جميع فصوله الخمسة، فجزاه الله عن المسلمين خيراً.

وفي أمثاله قال القائل:

جزى الله الرجال جزاء خير في كل ما أظهروا لنا وأبدوا

---

(1) هو أبو محمد: سهل بن عبد الله التستري (200 ـ 283 هـ/ 815 ـ 896م) أحد أئمة القوم كان ورعاً صاحب كرامات. (الرسالة القشيرية 400).

(2) الحاتم: القاضي. وحتم الله الأمر قضاه (لسان العرب).

لقد عظمت فضائلهم علينا لما للمؤمنين هدوا وأهدوا

ثم ختم كتابه بالدعاء، فقال:

(وفقنا الله إلى التوفيق وقادنا لقادة التحقيق)

قلت: التوفيق هو خلق القوة على الطاعة، وقادة التحقيق هم العارفون بالله، سأل من الله التوفيق، وأن يسوقه إلى شيوخ التحقيق، إذ بذلك يكمل التوفيق، وبالله التوفيق.

ثم ختم بالصلاة على رسول الله ﷺ ليقبل دعاؤه، ويقبل على كتابه، فقال:

(وبعد هذا فصلاة الله تترى على الهادي العظيم الجاه
ما غردت ورقاء في الأغصان وحن مشتاق إلى الأوطان)

قلت: تترى أي يتبع بعضها بعضاً، والتغريد الصياح بصوت حنين، والورقاء بالمد الحمامة ذات النقط في ريشها.

وقوله: العظيم الجاه، أشار به إلى حديث عنه ﷺ: «**توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم**»(1)

وفي حديث آخر: «مكتوب تحت ساق العرش: من اشتاق إلى رحمتي رحمته، ومن سألني أعطيته، ومن توسل إلي بمحمد ﷺ لم أخيبه».

اللهم إنا توسلنا إليك بجاه حبيبك مولانا محمد ﷺ أن تمتع أسرارنا بمعرفتك، وتنزه أفكارنا في رياض قدسك، وأن تحفظ قلوبنا من الميل إلى غيرك، نحن وأحباؤك ومن تعلق بنا آمين.

ثم أيد هذه الصلاة بشيئين أحدهما فانٍ، والآخر باقٍ.

فالأول: تغريد الحمام في الأغصان، **والثاني**: حنين المشتاق إلى الأوطان، فإن الأرواح تحن إلى أوطانها على الدوام، ولو بعد الحمام، ولو اتصلت بالنعيم الروحاني المقيم، فلا بد أن يبقى معها الاشتياق إلى الترقي، والنظر أبداً، والفرق بين الشوق والاشتياق، أن الشوق يزول بالملاقاة، بخلاف الاشتياق، فلا يزول بالوصول، وإلى ذلك أشار ابن الفارض بقوله:

(وما بين شوق واشتياق فنيت في تولٍ بخطوة أو تجلٍ بحضرة)

---

(1) أورده الطحطاوي في حاشيته على مراقي الفلاح، في المقدمة [1/ 265].

ثم ختم بالحمد كما بدأ، ليكون الكتاب مكتنفاً بالحمد، فيعظم خطره، ويرفع قدره، **فقال**:

(والحمد لله الذي ختمنا بحمده كما به بدأنا)

قلت: حمداً لله على توفيقه الحمد لله في البداية والنهاية، وذلك من علامة بلوغ الأمل والمرام، وقد تقدم الكلام عليه في أول الكتاب فلا نعيده.

والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

هذا آخر التعليق المبارك، نسأل الله سبحانه أن يتقبله بأحسن قبول، وأن يبلغ به من طالعه أو سمعه كل مقصد ومأمول، بجاه الحبيب الأعظم والرسول الأفخم سيدنا ومولانا محمد سيد العرب والعجم ﷺ وعلى آله وأصحابه أولي النزاهة والفضل والكرم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

[كثيراً بقدر عظمة ذاته في كل وقت وحين]

فهرس المحتويات